سلسلة شرح المتون والرسائل

أصول الإيمان مجموعة رسائل

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

شرح معالي الشيخ

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

المجلد الثاني

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

اسم الكتاب :	سلسلة شرح المتون والرسائل ج٢
تأليف :	صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
القطع :	١٧ X ٢٤
عدد الصفحات :	٦١٦ صفحة
سنة الطبع :	١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م (طبعة جديدة)
الناشر :	دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع
طباعة :	دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٦/٣٥٧٧
الترقيم الدولي: 978-977-429-338-9

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢/ ٢٥١٤١٧٠٤ ٤٤٧١٥٥٠٦ ٠١٠٠١٥٩٢٢٧١

E-mail: dar_altakoa@hotmail.com
dar_altakoa@yahoo.com

شرح

أصول الإيمان

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

ت ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

في موكب الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكمان علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين.

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحيَّاكم الله مع هذا اللقاء الجديد في برنامجكم: (في موكب الدعوة).

ضيفنا في هذا اليوم هو صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء.

في مطلع هذا اللقاء لا أملِك إلا أن أرحب -باسمكم جميعًا- بصاحب الفضيلة الشيخ صالح، شاكرًا له تكرمه وتفضله بإجابة دعوة البرنامج، فحيَّاكم الله يا شيخ صالح.

شيخ صالح -حفظكم الله-، مما اعتدنا عليه في هذا البرنامج أن نستمع في بداية كل لقاء من ضيفنا الكريم، بودِّنا أن نستمع منكم إذا تفضلتم لبيان موجز مقتضب عن مولدكم ونشأتكم أين كانت؟

-بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فالمولد هو في عام (١٣٥٤) للهجرة، في بلدتنا المسماة بالشماسية شرقي القصيم، والنشأة بين الأهل، ومزاولة مهنة الزراعة، التي كانت هي عمل أهل البلد الغالبة للبلد في ذلك الوقت.

وأما النشأة التعليمية فقد تعلَّمت القراءة والكتابة علىٰ أئمة المساجد في بلدتنا كما هي العادة المتبعة قبل إيجاد التعليم النظامي، ثم سنة (١٣٦٨) للهجرة فُتحت المدرسة الابتدائية في بلدتنا الشماسية فالتحقت بها، ثم أكملت الدراسة الابتدائية في عام (١٣٧١) للهجرة؛ حيث نِلْتُ الشهادة الابتدائية، ثم تعينت مدرسًا في الابتدائي لمدة سنة، ثم فُتح المعهد العلمي في مدينة (بريدة)، فكنت من أول الملتحقين به في عام (١٣٧٣)، وأكملت الدراسة المتوسطة والثانوية، ثم التحقت بكلية الشريعة في (الرياض) وأكملت الدراسة العالية فيها.

وبعد تخرجي من الكلية تعينت مدرسًا في المعهد العلمي بالرياض لمدة سنتين، ثم نُقلت للتدريس في كلية الشريعة، ثم بعدها بفترة -وأنا في التدريس في هذه الكلية- نُقلت للتدريس بكلية أصول الدين لما فُتحت الجامعة وتعددت فيها الكليات، نُقلت للتدريس في كلية أصول الدين، وبالدراسات العليا فيها بالذات، ثم نُقلت مديرًا للمعهد العالي في القضاء لمدة ست سنوات، ثم لما تمَّت المدة النظامية للإدارة بقيت فيه مدرسًا للفِقْه، ثم نُقلت إلىٰ عضوية اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ولا أزال والحمد لله.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، في الحقيقة خلال هذا المشوار المبارك من البدايات في التعليم، والتحاقكم بالكلية، وتعليمكم فيها يا شيخ صالح، لا بُدَّ أن هناك العديد من الشخصيات التي تأثرتم بها والتي كانت لها أثر على حياتكم، وعلى توجهكم نحو طلب العلم الشرعي، أو على الأصح أن نقول: هناك العديد من المشايخ الذين أخذتم عنهم وتلقيتم عنهم، هل ممكن أن نستمع من فضيلتكم إلى بعض أو أبرز هذه الأسماء؟

- الحمد لله، أنا تعلمت علىٰ مدرسين كثيرين في مراحل التعليم، وانتفعت بهم -والحمد لله، وجزاهم الله عني وعن زملائي خير الجزاء-؛ ولكن من أبرز من استفدت منهم من أهل العلم في المرحلة الابتدائية، أثنان، هما: شيخ الشيخ إبراهيم بن ضيف

الله اليوسف في مدرسة الشماسية، ثم فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبد المحسن بن عبيد في (بريدة) عندما كنت في السنة السادسة الابتدائية؛ لأني أكملت الابتدائية في المدرسة الفيصلية في مدينة (بريدة)، وكان مدرسًا فيها، استفدت منه في علم الفقه والتوحيد، وقرأت عليه بعض القراءة في المسجد.

وأما في المرحلة المتوسطة والثانوية فاستفدت من مشايخ كثيرين، من السعوديين ومن غيرهم من المنتدبين للتدريس هنا، من أبرزهم: الشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، استفدت منه في علم الفِقْه والتوحيد، والشيخ محمد بن عبد الله السُّبَيِّل -حفظه الله-، استفدت منه في عِلْم الفرائض، والشيخ صالح بن إبراهيم البليهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، استفدت منه في علم الفقه، هؤلاء من أبرز من انتفعت بهم في الفقه والتوحيد.

وأما المرحلة العالية في كلية الشريعة، فقد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد درَّسني في الكلية علم الفرائض والمواريث، ومن مشايخي في الكلية: العلَّامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مادة الأصول، وكذلك استفدت من فضيلة شيخنا العلَّامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مادة الأصول وعلم العقيدة، وكذلك استفدت في الفقه -وإن كانت المدة معه قصيرة- من فضيلة العلَّامة الفقيه الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هؤلاء من أبرز من انتفعت بعلومهم.

واستفدت من مشايخنا المصريين في علم اللغة العربية، وعلم الصرف وعلم البلاغة والبيان، استفدت من شخصيات علمية فذَّة منهم -غفر الله لأمواتهم وحفظ أحياءهم- هؤلاء من أبرز مَنْ تأثرت بهم، وكنت أحضر في مدة دراستي في (بريدة) دروس العلَّامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت دروسه في الفقه والتوحيد والنحو والفرائض تواكب دروسي في المعهد، ولذلك كنت أحضر دروسه وألازمها؛ لأنها شرح لدروسي التي أتلقَّاها في المعهد العلمي.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، الشيخ صالح -حفظكم الله- هذه الأسماء المباركة والعطرة التي تفضلتم بذِكْرها وسردها، والتي كانت لها تأثير في حياتكم العلمية، لا شك أن من هذه الأسماء أحسب أن لكم علاقةً كانت خاصة مع سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ وكانت بينكم علاقة أحسب أنها علاقة التلميذ مع شيخه. شيخ صالح، أجد أنه فرصة لأستمع من فضيلتكم ومع مَنْ يستمع إلى هذا البرنامج من الإخوة المستمعين إلى شيء من حياة ذلك العَلَم رَحِمَهُ اللَّهُ خصوصًا وأنتم كنتم من القريبين منه، سواءً كان في العلم، أو قبل ذلك في تلقيكم عنه في كلية الشريعة وغيرها؟

- الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَم من أعلام العلم والعمل والتوجيه في عصرنا الحاضر، لا يخفىٰ ذلك علىٰ أحد، وكنت ممن انتفع بعِلْمه وتوجيهه، وهو أبرز مَنْ تأثرت بهم، وتلقيت العلم علىٰ أيديهم، فمن ذلك أنني تلقيت عنه علم الفرائض والمواريث في كلية الشريعة، وكنت أحضر دروسه ومحاضراته ومجالسه، وأستمع إلىٰ برامجه في الإذاعة، وأحرص علىٰ ذلك، استفدت منه العلم الغزير -والحمد لله-، يعني: سمعت منها العلم الغزير.

وأما أنني حفظت منها شيئًا فحِفْظي قليل وذاكرتي ضعيفة، ولكن كنت أحرص علىٰ سماعها وحضورها والاستفادة منها، وأما مجال العمل فمنذ انتقالي إلىٰ دار الإفتاء والعمل تحت رياسته رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد استفدت منه الفوائد العظيمة في مجال العلم والإجابة عن الأسئلة، والتثبُّت في الإجابة وتحري الصواب والدقة، كذلك استفدت منه الصبر والتحمل علىٰ مشاقِّ العمل، واستفدت منه فوائد عظيمة في هذا المجال.

استفدت منه أيضًا الحرص علىٰ بناء الفتوىٰ، أو الجواب علىٰ الدليل من الكتاب والسنة وتحري الصواب، وأن المفتَي حينما يُفتي في مسألة فإنما يضع في ذمته حملًا ثقيلًا؛ لأن هذا الجواب سيُنسب إليه، وسيُسأل عنه أمام الله ﷻ، فكنت أستفيد منه التحري والدقة ومراعاة المسئولية، والخوف من الله ﷻ عند اختيار الجواب، بألَّا

يكون فيه تساهل أو إخلال أو تفريط في ربطه بالدليل.

سؤال: **أثابكم الله يا شيخ صالح، في الحقيقة بودِّنا أن ننتقل إلى الجانب الآخر، وهو أنكم -ولله الحمد- لكم نشاط مبارك ومشهود في العديد من المؤلَّفات والكتب والرسائل التي دوَّنتموها وكتبتموها، وهي كثيرة منها منشور ومبثوث -ولله الحمد-... أجد أنها فرصة يا شيخ صالح لنستمع منكم إلى أبرز هذه المؤلَّفات التي كتبتموها ابتداءً بأولها تأليفًا؟**

- أنا ليس لي مؤلَّفات في الحقيقة، وإنما لي بعض الكتابات التي كتبتها لا بنية التأليف؛ ولكن كتبتها لمناسبة حصلت، أو مشاركة في مؤتمر أو ندوة، أو مشاركة في مجلة أو مشاركة في برامج إذاعية، كتبت هذه الأشياء، ثم رأيت أنه من المفيد الاحتفاظ بها، وإخراجها في صورة كتاب لا في صورة مؤلَّف، وإنما في صورة كتاب جمعت فيه ما صدر مني، أو كتبته في هذه المناسبات.

ومن ذلك: ما كتبته لنيل درجة علمية، ابتداءً من درجة الماجستير، فقد كتبت في درجة الماجستير في موضوع الفرائض والمواريث رسالة اسمها: «التحقيقات المَرْضية في المباحث الفرضية» وهي مطبوعة ولله الحمد.

ومن ذلك: ما كتبته في رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه وهي رسالة: «الأطعمة ما يحل منها، وما يَحْرُم بالأدلة»، وهي أيضًا مطبوعة ومتداولة.

ومن أقدم ما كتبت: رسالة في الرد علىٰ الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه: «الحلال والحرام في الإسلام»، فقد كتبت كتابةً سمَّيتها: «الإعلام لنقد كتاب الحلال والحرام» وعرضتها -من أولها إلىٰ آخرها- علىٰ سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قرأتها عليه من أولها إلىٰ آخرها، فأشار عليّ بإخراجها وطباعتها، وهي مطبوعة ومتداولة، والحمد لله.

ومن ذلك أيضًا: كتاب «الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد»، وهو عبارة عن حلقات في العقيدة، كنت أُلقيها في الإذاعة، فجمعتها في صورة كتاب، وأسميته بهذا الاسم، وهو مطبوع ومتداول.

ومن ذلك: «كتاب التوحيد» وهو عبارة عن كتابة كُلفت بها من قِبَل وزارة المعارف لإعداد كتاب للثانوي في عقيدة التوحيد، فكتبته بموجب هذا التكليف وصار يتداول ويُطبع الآن والحمد لله.

ومن ذلك: حلقات كنت أُلقيها في إذاعة الرياض بعنوان: «من الفقه الإسلامي»، وهي حلقات امتدت من أول كتاب الطهارة إلىٰ آخر كتاب الإقرار، علىٰ ترتيب المتأخرين من فُقَهاء الحنابلة، فجُمعت هذه الحلقات تحت مسمًّىٰ: «الملخص الفقهي»، وهو مطبوع الآن في مجلدين والحمد لله.

ومن ذلك: أنّي لما تولَّيت الخَطابة بجامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود - حفظه الله- في (الملز)، كنت أُلقي الخُطب وأدوّنها قبل إلقائها في مسودات، فلما تجمع لدي عدد كثير من هذه المسودات، رأيت بعدما أشار عليَّ بعض الإخوة، تمحيصها، وإخراجها في كتاب مطبوع ليمتد النفع به، ولأساعد إخواني الخُطَباء، فقمت بإخراج هذه الخطب، وسمَّيتها: «الخطبَ المِنبرية في المناسبات العصرية»، وهذا المجموع يتكون من خمسة مجلدات، وهي مطبوعة ومتداولة والحمد لله، هذه هي أبرز ما يُنسب إليَّ من كتابات، وهناك كتابات متفرقة ومتنوعة تحت مسميات كثيرة، لا داعي لذِكْرها الآن.

سؤال: **أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، بودِّي الحقيقة أيضًا أن نتناول جانبًا قريبًا من هذا، وهو النشاط العلمي الذي تقدمونه في الدروس في المسجد، هل من الممكن أن نستمع إلى أبرز هذه الدروس التي تلقونها في المساجد يا شيخ صالح؟**

- مسألة الدروس التي في المساجد إنما اتجهت إليها أخيرًا لما كَثُرَ الإلحاح من الشباب ومن طُلَّاب العلم، فرأيت أنه لا يسعني أن أعتذر عن طلبهم وإلحاحهم، ففتحت لهم المجال في إلقاء ما أستطيعه من الدروس والتوجيه، وذلك في المسجد الذي أتولَّىٰ الإمامة والخطابة فيه، والذي سبق ذِكْره آنفًا، وفي (الطائف) في الصيفية أيضًا تنتقل دروسي التي أُلقيها بالرياض إلىٰ (الطائف) هناك، وفي الأخير رُتِّب لي

درس في المسجد الحرام في الأسبوع مرة تحت مسمَّىٰ: «دروس من القرآن الكريم»، وسنواصل فيه -إن شاء الله- في المستقبل.

سؤال: العلوم والدروس التي تدرسونها يا شيخ صالح؟

- أنا أحرص علىٰ دروس العقيدة؛ لأن المسلمين بحاجة إلىٰ معرفة العقيدة وتأصيلها؛ لأنها هي الأساس الذي يُبنىٰ عليه جميع أمور الدين، ثم أيضًا دروس الفقه؛ لأن الفقه في الدين من أهمِّ المهمَّات، وكذلك درس في الحديث: «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» مازلت أواصل التدريس فيه، ونيتي إكماله -إن شاء الله- في (الرياض) وفي (الطائف) أيضًا.

سؤال: الشيخ صالح -رعاكم الله-، يلحظ اهتمام من فضيلتكم بمؤلَّفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن لكم برنامج متميز في إذاعة القرآن الكريم، وهو: «قراءة في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، بودِّي أن تُبدي لنا أهمية هذه الفتاوى التي كان لكم رحلة طويلة معها، وهل من الممكن إيجاد تعليقات مفيدة على بعض ما يوجد في هذه الفتاوى من المسائل المهمة التي ترون الحاجة إلى نَشْرها مع التعليق عليها؟

- لا يخفىٰ ما لمؤلَّفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذه ابن القيِّم، من أهمية عظيمة في تجديد هذا الدِّين وإحيائه، وإحياء السنة المحمدية، بعدما حصل علىٰ المجتمع الإسلامي من دخول أشياء أثَّرت علىٰ العقيدة وعلىٰ سلوك المسلمين، فجاء الله بهذا الإمام المجدِّد، فقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتنبيه الأمة ودعوتها إلىٰ الرجوع إلىٰ الأصل الذي جاء به رسول الله ﷺ ونَبْذ البدع والخرافات والمحدَثات التي تجمعت في أفكار كثير من المسلمين، فأثَّرت عليهم حُقْبة من الزمن، فكان لدعوته ولمؤلَّفاته ولتلاميذه في إيقاظ المسلمين ما لا يجحده إلا مكابرٌ أو ضالّ.

ومن ذلك فتاواه، الفتاوىٰ العظيمة المنبثقة عن كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، ومنهج السلف الصالح في الاعتقاد، وفي العمل وفي التعامل وفي الأخلاق، فهي فتاوىٰ

حافلة وسِجل عظيم من سجلات هذا الدين الإسلامي العظيم.

وفتاواه كثيرة؛ لكن الذي جُمع منها الآن هو هذا الكمُّ الهائل الذي يبلغ خمسة وثلاثين مجلدًا ضخمًا، وهناك مؤلَّفات مستقلة مثل: «منهاج السُّنة النبوية»، ومثل: «اقتضاء الصراط المستقيم»، ومثل كتابه: «نقض التأسيس في الردِّ علىٰ الرازي»، ومثل كتابه: «الجواب الصحيح فيمَنْ بدَّل دين المسيح»، وهي كتب عظيمة.

وكذلك رسالته العظيمة، مثل: رسالة «الحموية» ورسالة «الواسطية» ورسالة «التدمرية»، وفي ردوده علىٰ القبوريين والخُرَافيين: كالردِّ علىٰ الأخنائي، والرد علىٰ البكري، والرد علىٰ ابن سبعين، والرد علىٰ أهل وحدة الوجود، وعلىٰ المتصوفة شيء كثير، لا يمكن حصره، فنفع الله -جل وعلا- بهذا الجُهْد العظيم نفع به المسلمين في مختلف العصور، ويكفي من فضائل هذا المنهج العظيم هذه الدعوة المباركة التي قام بها شيخ الإسلام، المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنها قامت علىٰ هذا التراث العظيم والمجد الأَثِيل الذي أصَّله شيخ الإسلام ابن تيمية، فالشيخ محمد بن عبد الوهاب قرأ هذه الكتب وهذه الفتاوىٰ، فانتفع بها وتأثر بها، وقام بالدعوة علىٰ ضوئها، وكان لها الثمرات العظيمة التي لا تخفىٰ علىٰ كلِّ ذي بصيرة.

وقد طُلب مني من قِبَل الإذاعة -إذاعة القرآن الكريم- أن أُلقي الضوء علىٰ شيء من هذه الفتاوىٰ وإعطاء المستمعين فكرة ولو مختصرة عن هذه الفتاوىٰ بالذات، وهذه الفتاوىٰ إنما تمثل قسطًا يسيرًا من جُهود هذا العالِم وهذا الإمام. ففرحت بهذا الطلب وقمت بقراءة هذه الفتاوىٰ وكتابة ما تيسر من أجل تقريب ما فيها من عِلْم وفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ ابتداءً من الجزء الأول، واستمر هذا البرنامج عدة سنوات، فكان برنامجًا أسبوعيًّا، فوصلت فيه إلىٰ الجزء العاشر من مجموع الفتاوىٰ، قدَّمت فيه حلقات خلال هذه السنوات، ثم إنه توقف هذا البرنامج لفترة، ولعله يعود النشاط فيه إن شاء الله.

وأما مسألة التعليق فإنني إذا سنحت فرصة، ورأيت المناسبة وربط الواقع

بالماضي، فإنني أُعلِّق بعض التعليق لربط واقع الناس اليوم بما جاء في هذه الفتاوىٰ؛ لأجل أن ينتفع بذلك مَنْ أراد الله ﷻ من المستمعين.

سؤال: أثابكم الله، الحقيقة يا شيخ صالح إن من الملاحظ جدًّا لمن ينظر إلى واقع المسلمين، الجهل الذي يغشى مجتمعات المسلمين، خصوصًا فيما يتعلق بأمور عباداتهم ومعاملاتهم، ويظهر هناك حاجة ماسة نحو تعلم الفقه الإسلامي، خصوصًا بعد العلم بتوحيد الله ﷻ، وتحقيقه، وهناك محاولات من العديد من العلماء نحو إيجاد ما يسمى صياغةً فقهية معاصرة تتناول النوازل والحوادث المستجدة، إلا أنها قد تكون في بداياتها.

يا شيخ صالح، وأنتم قد كتبتم في العديد من المجالات الفقهية، وكان لكم إسهام مشكور ومذكور في ذلك؛ بل إنكم الآن تقررون وتدرِّسون في دروسكم العديد من الكتب الفقهية، ولكم برنامج في إذاعة القرآن الكريم يشرح كتاب «زاد المستقنع» يا شيخ صالح، ألا ترون أن هناك حاجة ماسَّة لإيجاد موسوعة فقهية معاصرة بلسان معاصر كما يقولون؟ مع الاستفادة من الكتب التي تركها علماؤنا وسَلفُنا الكرام.

- لا شك أن ربط الناس بالفقه أمر مهمٌّ؛ لأن الفقه في الدين هو أساس العمل، فلا يمكن لغير الفقيه أن يعمل عملًا صالحًا ومستقيمًا إلا إذا كان علىٰ فقه في دين الله ﷻ، ولذلك أمر الله بالتفقُّه في دينه وأثنىٰ علىٰ المتفقهين، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يعني: للجهاد أو طلب العلم؛ لأن ذلك يُعطِّل الأعمال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ليتفقهوا في الدين، يعني: ليتفهموا أمور دينهم.

فالفقه لغةً: هو الفهم، والفِقْه في الدِّين هو فَهْم أحكام الدين وشرائع الدين، وانظر كيف قدَّم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ علىٰ قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾؛ لأن الإنذار والدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون بعد الفِقْه والعلم، فلا يصلح الإنذار

والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ جهل؛ بل لابدَّ أن يكون ذلك عن فقه؛ ولذلك اتجهت همَّة السَّلف من لَدُن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إلىٰ وقت المسلمين الحاضر، اتجهت همَّتهم إلىٰ العناية بالفقه وتفقيه الناس وتعليمهم أمورَ دينهم، وكان من ذلك هذه الحصيلة والثروة الفِقْهية العظيمة التي خَلَّفها سلفنا الصالح، مقتبسة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فهذا الفِقْه الذي خلَّفه سلفنا الصالح إنما هو وسيلة تُعينُ علىٰ فهم الكتاب والسنة والعمل بهما، والفقه في نظري ليس بحاجة إلىٰ تجديد عبارة أو صياغة جديدة؛ لأنه مصوغ بعبارة عربية فصيحة، والقدامىٰ أفصح منا وأقدر منا علىٰ البيان، وأقدر منا علىٰ جَمْع المعلومات؛ لأن الله أعطاهم من المقدرة ما لم يكن لمَنْ جاء بعدهم إلا مَنْ شاء الله تَعَالَىٰ، ففي نظري أن الفقه ليس بحاجة إلىٰ تجديد عبارة أو صياغة؛ بل هو بحاجة إلىٰ تعلُّم وعناية وإقبال عليه، وتعليم الناس إياه وتنشئتهم علىٰ فقه السلف الصالح، هذا هو المهمُّ.

أما مسألة الصياغة والتعبير الجديد هذا لو حصل ما كفي؛ لأن الناس في إعراض عن الفقه، فالآفة لم تأتِ من الصياغة أو العبارة، وإنما جاءت من انصراف الناس وجهلهم لهذا الأمر، فإذا وُجِّهوا وعملوا حصل المقصود بدون أن نكلف أنفسنا وضع عبارة جديدة أو صياغة جديدة؛ لأننا لن نأتي بأفضلَ مما جاء به مَنْ سبقنا من أهل العلم والخبرة والمعرفة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، يا شيخ صالح -حفظكم الله- الفتوى في هذا العصر، بل في كل عصر، أحوج ما يكون الناس إليها، والوقت الحاضر شهد الكثير من الذين يتصدرون لمثل هذا الأمر وليسوا أهلًا لذلك، وأصبحت الفتوى في بحر يموج، كلٌّ يدلي بدلوه بعلم أو بغير علم، هل هناك ضوابط يجب أن تضبط بها الفتوى لكي يسير كل واحد من المسلمين على نهج صحيح؟ ثم هذا التعدد في الفتوى ألا يمكن أن يوجد بلبلة لدى كثير من عامة المسلمين؟

- لا شك أن أمر الفتوىٰ أمرٌ مهمٌّ، والحاجة إلىٰ الفتوىٰ حاجة ضرورية؛ لأن الناس بحاجة إلىٰ من يجيبهم عن تساؤلاتهم وبحاجة إلىٰ مَنْ يحل مشكلاتهم، وبحاجة إلىٰ من يتناول قضاياهم، هم بحاجة إلىٰ ذلك، ولكن لن يقوم بهذه المهمَّات إلا أهل العلم المختصون الفقهاءُ في دين الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قام بهذا الواجب وهذا العبء أهله من أهل العلم المختصين: حصل المقصود وحصل المطلوب وانحلت المشكلات، ورجع الناس إلىٰ أهل العلم وإلىٰ أهل البصيرة، وإذا قام أهل العلم وأهل البصيرة بالنظر في مشاكل الناس وتقديم الحلول لها، علىٰ ضوء كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ حصل المطلوب وانحلت المشاكل، كما كان ذلك في عصر سلف هذه الأُمة لما كان الناس يرجعون إلىٰ العلماء الراسخين كانت مشكلاتهم تنحل، وكانت قضاياهم تُحل ببساطة علىٰ ضوء من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

والله أمر بذلك، فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فأمر الجهال بسؤال أهل العلم؛ لأن أهل العلم هم الذين يقدرون علىٰ إجابة الأسئلة الفقهية، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. فأمر الناس عندما يحصل إشكال، أو يحصل أخذ وردّ في أمر من الأمور المهمة أن يرجعوا إلىٰ الرسول ﷺ، وأن يرجعوا إلىٰ أولي الأمر منهم أهلِ الشأن والمنزلة، وهم أهل الرأي وأهل الفِقْه، وأهل الخبرة والتجربة، فحينئذٍ يخرجون إلىٰ نتيجة مرضية: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ لكن حينما تكون الأمور فوضىٰ، ويتولىٰ الإجابة كل مَنْ هبَّ ودبَّ ممَّن ينتسب إلىٰ أهل العلم، وهو جاهل، أو مَنْ عنده عِلْم؛ ولكن ليس عنده عمل، وإنما يتبع هواه ورغبته ورغبة الآخرين وإرضاء الآخرين حينئذٍ يحصل الفساد، كما حصل لبني إسرائيل لما ضلَّ أحبارهم ورهبانهم، فحرَّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وأطاعهم عامة الناس، فهلك الجميع ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فإذا صارت الأمور في أمور الفتوىٰ، وأمور العلم فوضىٰ يُجيب عنها الجُهَّال الذين لا عِلْم عندهم، أو يجيب عنها فُسَّاق العلماء الذين لا يتبعون ما أنزل الله علىٰ رسوله، وإنما يتبعون رغباتهم أو رغبات غيرهم، ويلتمسون للناس ما يُرضيهم ولو بسخط الله عَزَّوَجَلَّ، فحينئذٍ يحصل الفساد في الأرض، وما هلكت بنو إسرائيل إلا بمثل هذا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فلا يجوز الرجوع إلىٰ أهل الأهواء وأهل البِدَع، ولا الرجوع إلىٰ الجُهَّال، وإنما يجب الرجوع إلىٰ أهل العلم والعمل، أهل العلم النافع والعمل الصالح، وهذا هو الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فإن الله ﷻ بعث رسوله بالهدىٰ ودين الحق، فالهدىٰ هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فلابد من اجتماع الأمرين: العلم النافع والعمل الصالح.

أما إذا انفرد أحدهما عن الآخر، فكان عمل بدون عِلْم فهذا طريق أهل الضلال، أو كان علم بدون عمل فهذا طريق المغضوب عليهم، والله أمرنا أن نستعيذ به من الطريقتين؛ طريق المغضوب عليهم، وهم الذين عندهم عِلْم، وليس عندهم عمل، وطريق الضالين، وهم الذين عندهم عمل، وليس عندهم علم.

وأمرنا باتباع طريق المنعم عليهم، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، فلا تنضبط الفتوىٰ إلا بهذا، يعني: بأن يتولَّاها أهل العلم الراسخ والعمل الصالح، فإذا اختلَّ شرط من هذين الشرطين حصل الفساد في الأرض، ولن يقتصر فساد هؤلاء علىٰ أنفسهم، وإنما يتناول هذا عامة الناس، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذا الأمر خطير والواجب التنبُّه له، والواجب علىٰ كل أحد حينما يُسأل أن يتقي الله ﷻ، فلا يتسرع إلىٰ الجواب، فإن كان هناك مَنْ هو أعلم منه فليُحلِ السؤال إليه.

ولقد كان السلف يتدافعون الفتوىٰ، وهم علىٰ عِلْم؛ لكن يريدون أن يتولَّاها مَنْ هو أكبر منهم وأوثق منهم، وهذا من ورعهم ومعرفتهم بصعوبة الموقف، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ويقول لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ

زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ [طه: ١١٤] وإن كان ليس هناك مَنْ يتولىٰ الفتوىٰ، فمَنْ هو أعلم منه عليه أن يتقي الله، وأن يتحرىٰ في إجابته ما ينجيه عند الله هو أولًا، ثم ينجي السائل أيضًا، فيعتبر نفسه أول مَنْ يتضرر بالفتوىٰ الخاطئة.

سؤال: يا شيخ صالح -حفظكم الله- ننتقل الآن إلى جانب مهمٍّ، أو سؤال آخر، أعتقد وأحسب أنه من المتعين أن نطرحه على فضيلتكم، يا شيخ صالح، لا شك أن للإعلام دورًا مهمًّا في توجيه الناس والتأثير عليهم سلبًا وإيجابًا، كيف ترون أهمية المشاركة من قِبَل طلبة العلم والعلماء في وسائل الإعلام، لاسيما في هذا الوقت الذي يُسمَّى عصر الإعلام فحسب؟

- لا شك أن توجيه الأُمة في العصر الحاضر أهم ما يتولَّاه هاتان الجهتان:

الجهة الأولى: جهة التعليم.

والجهة الثانية: جهة الإعلام، فالواجب علىٰ هاتين الجهتين أن تعرف كلٌّ منهما مسئوليتها وتأثيرها علىٰ مجتمع المسلمين، فعلىٰ جهة التعليم أن تتقي الله ﷻ، وأن تُوجِّه شباب المسلمين، وأبناء المسلمين إلىٰ ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم، وأن يعتنوا بتوجيههم الوجهة السليمة في عقيدتهم، وفي عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي أخلاقهم، وذلك بالمحافظة علىٰ المناهج المستقيمة التي وضعها أهل العلم واستمرت سنين طويلة، وهي يستفاد منها في مجال التعليم.

علىٰ المسئولين عن التعليم أن يحافظوا علىٰ هذه المناهج السليمة التي وضعها أهل العلم، وأهل الخبرة؛ ليستمر العطاء النافع والعطاء الخيِّر.

والناحية الثانية: جهة الإعلام، والإعلام أيضًا أهم، من ناحية أنه شامل للشباب وغيرهم، للحاضرة والبادية؛ ولأنه يدخل البيوت ويدخل في الدكاكين ويدخل في المراكب: البرية والبحرية والجوية، هو يصاحب الإنسان في كل حالاته، حتىٰ علىٰ فراشه، فالإعلام جهة مُهمَّة تنفذ إلىٰ البيوت وإلىٰ أيِّ مكان، وتصاحب الناس؛ الذكور والإناث، والكبار والصغار، والحاضرة والبادية.

فعلىٰ المتولِّين لناحية الإعلام أن يتقوا الله ﷻ، وأن يمحِّصوا برامج الإعلام ويوظِّفوها فيما هو نافع ومفيد للناس في دينهم ودنياهم، وأن يُجنِّبوا برامج الإعلام ما هو سيئٌ وما هو منحرف وما هو مضيعة للوقت، فإن الإعلام إذا صلَح وجَّه الأُمة خير وِجْهة، وإذا حصل فيه خلل حصل الخلل علىٰ جميع الناس، ويتولىٰ كبر الإثم في ذلك مَنْ يقومون علىٰ وسائل الإعلام، وإنهم هم مسئولون أمام الله ﷻ، والنبي ﷺ يقول: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته**».

فلا شك أن القائمين علىٰ الإسلام رُعَاة علىٰ ما استرعاهم الله عليه، وأنهم سيُسألون يوم القيامة، فالإعلام إذا وُجِّه وجهةً سليمة صار أداة نافعة ومفيدة، وإذا وُجِّه توجيهًا سيئًا امتد ضرره علىٰ جميع الناس.

وأما العلماء والدُّعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيجب عليهم الدخول في هذا المجال، يجب عليهم الدخول في البرامج الإعلامية، وأن يشاركوا فيها؛ لأنها وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلىٰ الله ﷻ، فعليهم أن ينتهزوا هذه الفرصة وألَّا يتركوها لغيرهم؛ بل ينتهزون الفرصة ويدخلون في هذا المجال ويشاركون فيه بأكبر إسهام ممكن؛ ليحصل بذلك النفع للمسلمين في تعليمهم والإجابة عن مشكلاتهم، وفي توجيههم لما فيه صلاحهم وصلاح دينهم، وفي تحذيرهم من الشرور ومن الفتن الزاحفة، والدعايات المضللة، فإن هذا مجال أهل العلم، ومجال أهل الدعوة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله يا شيخ صالح، يا شيخ صالح -حفظكم الله- الحقيقة يسود العالم الإسلامي في الوقت الحاضر العديد من مظاهر العودة والرجوع إلى الله ﷻ، وهي مظاهر مبشرة ولله الحمد.

البعض ينظر إلى هذه التوجهات بحذر، وأنها ليست مرتكزة على علم شرعي أصيل، ولذلك من الممكن أن تزول وتتلاشى بين وقت وآخر، والبعض ينظر إلى هذه الرجعة، أو ما يعرف في مصطلح البعض (بالصحوة الإسلامية) نظرة تفاؤل كبير، يا شيخ صالح، ما هو تعليقكم على مثل هذا الأمر؟

- لا شك أن هذا الدين سيظهر مهما تكالب الأعداء، ومهما وقف ضده أهل الشرِّ، فإنه سيظهر ويتغلب -بإذن الله-، قال الله -جل وعلا-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فلابد أن يظهر هذا الدِّين بسلطته ونفوذه، أو بسلطانه ودليله ووضوحه علىٰ ما خالفه من الأديان، وعلىٰ مَنْ عارضه من المعارضين، فلابد أن تتضح الحقيقة أمام العقلاء مهما زيف الأعداء، ومهما روَّجوا ضد هذا الدِّين، فإن شمس الحقيقة ستكشف هذا الضباب الذي روجه أعداء الدِّين حول هذا الإسلام، وحول هذا الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ، كما قال الله -جل وعلا-: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]. لابدّ من هذا.

وأما ما تفضَّلت به من صحوة الشباب، ورغبتهم في الخير، وكثرة التائبين والراجعين إلىٰ الله، فهذا من هذا الباب الذي ذكرنا، هذا من ظهور الدِّين وظهور الحقيقة، وأن الناس ملُّوا الآن من المناهج والمباهج الأخرىٰ والمغريات، وملُّوا من الكذب والدجل، اتجهوا إلىٰ الحقيقة، وليس أمامهم حقيقة إلا هذا الدِّين، وغيره كله زخرف وكله بهرج وكله كذب، فرجوع الناس إلىٰ هذا الدين أمر حتمي، وهذا شيء أخبر الله ﷻ عنه: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الصف: ٩]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

هذا حقيقةً شيء ثابت، وتوجه الشباب وتوجه الناس نحو الدِّين هذا مما أخبر الله ﷻ عنه، ولكن الشأن في استغلال هذا التوجُّه، فإن استُغِلَّ هذا التوجه في الشباب وغيرهم نحو الدين استغلالًا حسنًا، وفقِّهوا في دين الله عَزَّوَجَلَّ، ورجع هؤلاء الشباب وهؤلاء التائبون إلىٰ أهل العلم واسترشدوا بآرائهم، صار هذا الرجوع حقيقيًّا واستمر وأفاد، أما إذا استغلَّ هذا الرجوع أهل الشرِّ وأهل النِّفاق، فوجَّهوا هؤلاء الراجعين إلىٰ الدِّين توجيهًا سيئًا، وزيَّفوا عليهم الحقائق باسم الدِّين، فإن العاقبة ستكون سيئة.

فالخوارج من قبل كان عندهم دين وعندهم حماس وعندهم محبة للجهاد في سبيل الله وغِيرة علىٰ الدِّين، وعندهم عبادة عظيمة من صيام وصلاة وقراءة القرآن، ولما لم يكونوا علىٰ وجه صحيح، ولم يرتكز توجههم علىٰ دين صحيح وفقهٍ في دين الله، صار وبالًا عليهم، وحصل عليهم من النكبات ما حصل، كل هذا بسبب عدم التوجه الصحيح، وعدم الرجوع إلىٰ أهل العلم، وعدم الرجوع إلىٰ أهل الفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ لما استقلُّوا برأيهم واستثارهم الأشرار باسم الدِّين والغِيرة، فحصل عليهم وعلىٰ غيرهم من النكبة ما حصل.

فالواجب علىٰ أهل الصحوة، وعلىٰ الراغبين في دين الله عَزَّوَجَلَّ -نسأل الله أن يزيدهم من الخير وأن يزيدهم من الثبات-؛ لكن نريد منهم وننصحهم أن يتوجهوا إلىٰ العلم الصحيح، وإلىٰ أهل العلم وإلىٰ تلقِّي العلم عن أهله، وإلىٰ استغلال فرصة وجود العلماء لينهلوا من علمهم وتوجيههم، وأن يستشيروا أهل الرأي وأهل العقول السليمة من كبار السن ومن أهل الخبرة، وألَّا يستقلُّوا برأيهم، أو يستغلهم أعداؤهم من الأشرار باسم الدِّين، الذين يمكن أن يفسروا الدِّين بمحاربة الدين.

هذا شيء واقع يمكن أن يوظف اسم الدين لمحاربة الدِّين والقضاء عليه، كما فعل المنافقون من قبل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

المكر قديم، واستغلال هذا الدِّين باسم الدين قديم، فعلينا أن ننتبه لهذا الأمر، فهذا الرجوع وهذه الصحوة إن وُجِّهت توجيهًا صحيحًا أصبحت خيرًا علىٰ أهلها، وعلىٰ غيرهم، وإن استغلت استغلالًا سيئًا من قِبَل أهل الشر وأهل النِّفاق ودُعَاة الضلال، أو أن أهل الصحوة هؤلاء اعتمدوا علىٰ أنفسهم، وعلىٰ عِلْمهم وزهدوا بما عند غيرهم من علم، حصل الشرُّ وحصل الفساد باسم الدِّين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سؤال: أثابكم الله، أحسنتم يا شيخ صالح، يا شيخ صالح -حفظكم الله- المرأة المسلمة في هذا الوقت تواجه العديد من السهام المسمومة التي تحاول المساس بكرامتها وعفَّتها، وإبعادَها عن الطريق السوي والصحيح، المرأة المسلمة اعتقد نها من أحوج الناس إلى أن تستمع إلى كلمة من فضيلة الشيخ صالح الفوزان في هذه المناسبة.

- المرأة المسلمة لا شك أن لها مكانةً عظيمة في الإسلام، وفي التربية والتوجيه، وفي القيام بعبء من أعباء الحياة، فالمرأة عون للرجل، فالرجل لا يستطيع الاستقلال بنفسه وبمهمته إلا وبجانبه المرأة تقوم بدورها وبمهمتها، فمنذ أن خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق منه زوجه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. أي: يحصل بينهما السكن، قال -جل وعلا-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ومن أعظم فوائد المرأة بجانب الرجل: حصول السكن بين الزوجين، السكن يعني: السكينة والطمأنينة، وأن يطمئن كلٌّ منهما للآخر، فهما شريكان يؤسسان شركة عظيمة وهي البيت المسلم الذي ينشأ عنه الجيل والأجيال المسلمة، فالرجل يكتسب ويكدُّ ويكدح ويسافر ويتعرض للأخطار في طلب العيش، والمرأة في البيت تربي وتصلح أعمال البيت وتحفظ البيت حتىٰ يأتي صاحبه، تربي الأولاد وترعاهم، وإذا جاء الزوج متعبًا ومثقلًا بالأعمال وجد أمامه الزوجة التي يسكن إليها، والتي هيأت له الراحة وهيأت له ما يحتاج إليه، وبذا حصل التعاون بين الرجل والمرأة.

وأيضًا الأولاد الذين يحصلون بين الرجل والمرأة، مَنِ الذي يتولَّاهم؟ الرجل يسافر لطلب الرزق ويغيب المدة الطويلة، مَن الذي يتولَّىٰ هؤلاء الأطفال إلا المرأة، إلا أمهم التي تربيهم، وتقوم عليهم وتسد غَيْبة والدهم.

ولهذا قال ﷺ: «**والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها**»: مسئولة عن بيت الزوج، وما فيه ومَنْ فيه من الذرية، هي المسئولة عن ذلك، فهي مسئولية عظيمة،

ولها مكانة عظيمة، ولها أجر عظيم، إذا أطاعت زوجها وصلَّت فَرْضها، وأطاعت ربَّها دخلت جنة ربَّها، فهي عليها مسئولية عظيمة، وهي تؤدِّي دورًا مهمًّا في المجتمع، ولها أجر عظيم إذا قامت بوظيفتها في الحياة.

أما إذا ضيَّعت وظيفتها، ضيَّعت رعيتها التي هي راعية لها ومسئولة عنها، وخرجت إلىٰ عمل غير عملها؛ فإنها مسئولة أمام الله، فيسألها الله يوم القيامة عن هذه الرعية التي ضيعتها وخرجت لطلب الأعمال هنا وهناك، وَضيَّعت عمل البيت.

المرأة لا شك لها دور عظيم، فإنها هي الأم وهي الزوجة وهي القريبة، وهي محلُّ الأمانة ومحلُّ الذمة في غياب الزوج، وحتىٰ في حضرة الزوج هناك أعمال لا يقوم بها الزوج ولا يدري عنها؛ لأنها هي من عمل المرأة، فمهمتها عظيمة.

وأعداء الإسلام يحاولون أن يصرفوا المرأة عما هُيِّئت له، وأن يولوها مهمةً غير مهمتها، وبهذا يحصل الفساد في المجتمع والنكسة العظيمة، فالمرأة إذا خرجت عن طورها وتولت عملًا غير عملها، هي **أولًا**: لا تنتج في هذا العمل كما ينبغي.

وثانيًا: هي تضيع مسئوليتها ورعيتها المسترعاة عليها أمام الله ﷻ، بالتالي يضيع المجتمع بأَسْره، وبيوته، فإذا ضاعت البيوت والأسر ضاع المجتمع كله، وهذا ما يريده أعداء الإسلام، يريدون أن يتخذوا من المرأة سلاحًا يطعنون به المسلمين، وهم لا يشعرون بحُجَّة تثقيف المرأة وأنها قرينة الرجل، وأن...، وأن... إلىٰ آخره.

نعم، نحن نقول: المرأة قرينة الرجل، المرأة لا شك أنها إنسان وأن لها كرامتَها، وأن لها احترامها، وأن لها أعمالها الخاصة بها، وإذا ضيَّعت هذه المهمات خسرنا نصف المجتمع، كما يقولون.

أما إذا أخرجناها من بيتها ولَّيناها عملًا غير عملها، هنا ضاع المجتمع كله، فيجب التنبُّه من هذه الدعايات المغرضة، وهذه الأفكار الخبيثة التي تريد إفساد المسلمين بسلاح المرأة.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، يا شيخ صالح، لا شك أن هناك في الوقت الحاضر العديد من المفاهيم التي حاول البعض المساس بها أو تأكيدها، وهناك قضيةٌ أو ما يعرف بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والعلاقة بين وُلاة الأمر والرعية، حاول البعض إيجاد شيء من اللَّبس والتشكيك في هذه العلاقة، وظهر في الساحة العديد من المفاهيم والأغلاط في هذا الأمر، بودِّي من الشيخ صالح الفوزان أن يتفضل ويتكرم مشكورًا ببيان البيان الشرعي لهذه المسألة المهمة.

- لا شك أن هذا جزء من المكر الخبيث الذي يحوكه أعداء الإسلام، هم حاكوا قضية المرأة، وحاكوا أيضًا قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ لأنهم يعلمون أنه إذا حصل الوئام بين الحاكم المسلم والرعية المسلمة حصل الاجتماع، حصلت القوة، فحصلت المواجهة مع الأعداء، فهم يريدون أن يُقوِّضوا هذا البنيان، وأن يفصلوا بين الحاكم وبين المحكومين حتىٰ يتنافر المجتمع، وحتىٰ يسهل عليهم ابتلاع المسلمين والتدخل في شئونهم.

الله -جل وعلا- أولىٰ هذا الأمر عناية عظيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. عندنا آيتان كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية؛ آيتان: واحدة للراعي، وواحدة للرعية.

فالتي للراعي: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]. هذه توجيه للرُّعاة: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

والآية التي بعدها في الرعية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فلو أن الرُّعاة والرعايا عملوا بهاتين الآيتين لحصل الخير الكثير، لانسدَّ علىٰ دعاة الفتنة ودعاة الشرِّ كل طريق للإفساد.

ولذلك كتب شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ هاتين الآيتين كتابًا مستقلًّا أسماه: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وهو كتاب مطبوع ونافع ومتداول، يجب الرجوع إليه في هذا الأمر المهم.

فلا شك أن طاعة وُلاة أمور المسلمين هي أمر مهمٌّ، وهي طاعة لله وطاعة للرسول ﷺ.

قال ﷺ: «**مَنْ أطاع الأمير فقد أطاعني، ومَنْ عصىٰ الأمير فقد عصاني**». وأمر بطاعتهم، ولو جاروا ولو ظلموا ما لم يرتكبوا مكفرًا ناقضًا من نواقض الإسلام، لما في ذلك من المصلحة العامة، ولما في الخروج عليهم من المفاسد العظيمة، وإن كان بحُجَّة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلا أنّ ما يترتب علىٰ الخروج عليهم من سفك الدماء وتفريق الكلمة وتسلُّط الأعداء أعظم مما يحصل من إنكار المنكر الجزئي، وإنكار المنكر إذا ترتب عليه منكر أعظم فإنه لا يجوز؛ بل يجب ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما.

فالواجب طاعتهم إلا إذا أمروا بمعصية الله، فإنهم لا يطاعون في المعصية؛ لكن يطاعون في غيرها من الأوامر، قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الله**»، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إنما الطاعة في المعروف**» يعني: تجتنب المعصية؛ لكن يطاعون في غيرها مما ليس فيه معصية، لما في ذلك من جَمْع الكلمة وحزم الرعية.

ويقول شيخ الإسلام كلامًا معناه: ما خرجت أُمة علىٰ رعاتها إلا حصل من الفساد ما هو أعظم من مفسدة البقاء علىٰ طاعتهم مع ما فيه من المعصية. هذه قاعدة معروفة.

وإذا تتبعت واقع العالَم وجدت هذا صحيحًا حتىٰ عند الكفار، فالكفار إذا أطاعوا رؤساءهم وانقادوا لوُلاتهم حصل لهم الأمن، وإذا حصل منهم نزاع بينهم وبين رُعاتهم حصل الفساد، فكيف بالمسلمين؟!! وإذا استقرأت التاريخ وجدت ما يحصل من المفاسد في الخروج علىٰ الوُلاة أعظمَ من المفاسد في البقاء علىٰ طاعتهم مع معصية جزئية.

أما إذا وصل الأمر في الوُلاة إلىٰ الكُفْر، بالخروج عن الإسلام، فإنها لا تجوز طاعتهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. والنبي ﷺ يقول: «**اسمعوا وأطيعوا إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم عليه من الله فيه برهان**».

فإذا قرأت تاريخ المسلمين، وما حصل من الخوارج والمعتزلة في منازعتهم لوُلاة الأمور، وما حصل من الويلات والحروب، وما حصل من تسلُّط الأعداء وسفك للدماء، عرفت قيمة أوامر الله وأوامر الرسول ﷺ بالسمع والطاعة واجتماع الكلمة.

أسأل الله ﷻ أن يُوفِّقنا جميعًا، وأن يُوفِّق المسلمين لما فيه الخير والصلاح في دينهم ودنياهم، وعلىٰ المسلمين جميعًا أن يعرفوا وقتهم، وأن يعرفوا مكانتهم، ويعرفوا زمانهم، ويعرفوا العدوَّ من الصديق، عليهم أن يعرفوا العدوَّ من الصديق، وأن يقبلوا من الناصح، وأن يرفضوا العدوَّ ولو تظاهر لهم بمظهر الناصح ومظهر المشفق ومظهر الصديق، فإن العدوَّ لا يكون صديقًا أبدًا مهما تظاهر، ولكن الناصح هو الصديق في الحقيقة وإن رأيت منه ما لا تقبله في أول الأمر، يعني: لو واجهك بشيء تكرهه من أخطائك، فإنه خير لك ممن يمدحك ويُثني علىٰ جميع أعمالك، فالذي يذكر لك شيئًا من عيوبك هذا هو الناصح، وهذا خير لك.

فأنْ تكرَه بعض مصارحته لك خير لك من هذا الذي يتملَّق لك ويمدحك، ويُزكِّي جميع أعمالك، هذا هو الصديق في الحقيقة، والمنافق والغاشُّ هو عدوٌّ وإن تظاهر لك بمظهر الصديق والناصح، وعواقب الأمور تبين هذا.

فعلىٰ المسلمين أن يقبلوا من الناصحين، ولهذا لما حصل الهلاك علىٰ قوم صالح -عليه الصلاة والسلام-، وأخذتهم الصيحة ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. هكذا، فالواجب علىٰ المسلمين أن يعرفوا هذا.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضىٰ، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومَنْ والاه.

أما بعد:

فإنَّ الإيمان هو أحد مراتب الدِّين؛ لأن دين الإسلام على ثلاث مراتب، كما جاء ذلك في حديث سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي ﷺ؛ حيث سأله ﷺ عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ولما انتهى، وخرج قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**أتدرون مَنِ السائل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا جبريلُ أتاكم يُعلِّمكم دينكم**»[1]. وكان قد أتاهم في صورة رجل طالب للعلم، فدلَّ هذا الحديث على أن الدِّين يتكون من ثلاث مراتب:

الأولى: الإسلام.

الثانية: الإيمان.

الثالثة: الإحسان.

وكلُّ مرتبة أعلى من التي قبلها، والمقصود الآن هي المرتبة الثانية وهي الإيمان.

فقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ «أصول الإيمان»؛ أي: أدلَّته؛ لأن الأصل عند الأصوليين هو الدليل، ففي هذا الكتاب ذكر الشيخ فيه أدلة الإيمان من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ.

والإيمان في اللغة: التصديق، يُقال: آمَنْ له؛ أي: صدَّقه، وكذا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. أي: صدقه؛ حيث صدَّق لوطٌ إبراهيم -عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والسلام-، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]. أي: بمصدِّق لما قلناه لك. هذا مفهوم الإيمان لغةً.

وأمَّا الإيمان شرعًا فقد عرَّفه أهل السُّنة والجماعة، بأنه: «قولٌ باللسان، واعتقاد في القلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية».

وهذا التعريف مأخوذ من الكتاب والسُّنة، فتعريفه بهذا التعريف إنما هو من باب الحقيقة الشرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لُغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عُرفية.

والحقيقة الشرعية، هي: التي جاء بها الشرع، وقد جاء الشرع في أنَّ الإيمان يتكون من هذه الأشياء الثلاثة: نُطقٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، ولابدَّ من اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

فليس الإيمان هو نطقٌ باللسان فقط، كما تقول الكَرَّامية، وليس هو اعتقادًا بالقلب فقط، كما تقول الأشاعرة، وليس هو النّطق باللسان والاعتقاد بالقلب كما تقول الحنفية، وإنما هو بمجموع الثلاثة معًا؛ نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فإذا عمل الإنسان الطاعات زاد إيمانه، وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ وكلما عمل الإنسان طاعةً زاد إيمانه حتىٰ يعظُم هذا الإيمان، وكلَّما عمل معصية، فإنه يضعف إيمانه وينقص حتىٰ إنه ليصل إلىٰ مقدار حبَّة الخردل، أو أقلَّ كلما ازداد في عمل المعاصي، فالناس ليسوا في الإيمان سواء.

فمنهم مَنْ إيمانه عظيم، ومنهم مَن إيمانه قليل، وقد قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ رأىٰ منكم منكرًا فليغيِّرْهُ بِيَدِه، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»**[1]؛ فدلَّ هذا علىٰ أن الإيمان يكون ضعيفًا، ويكون أضعف.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وكذلك جاء في الحديث: أن الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: «**أخرجوا مِنَ النار مَن كان في قلبه مثقالَ حبة من خردل من إيمان**»[١].

يعني: أقلَّ الناس إيمانًا، فإنه يخرج من النار، ولا يبقىٰ في النار إلَّا مَنْ ليس في قلبه إيمانٌ أصلًا، من الكفَّار والمنافقين والملاحدة، وأما مَنْ كان في قلبه إيمان ولو عُذِّب في النار ومكث فيها مدَّة، فإن الله يخرجه منها بإيمانه ولو كان ضعيفًا.

والشاهد من كل هذا: بيان أن الإيمان قد يكون ضعيفًا؛ قال تعالىٰ: ﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فدلَّ هذا علىٰ أن هناك إيمانًا ضعيفًا يكون أقرب إلىٰ الكفر، هذا معنىٰ قولهم: «وينقص بالمعصية»، وهذا تعريف دقيق مأخوذٌ من النصوص.

والإيمان له أركان بيّنها النبيُّ ﷺ بقوله: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرِّه**»[٢].

والإيمان كذلك له شُعب تزيد علىٰ ستين أو سبعين شُعْبة، كما قال ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان**»[٣]؛ فشُعب الإيمان وخصاله كثيرة. وهذا الكتاب يُبيِّن فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ورد عن الرسول ﷺ من خصال الإيمان وشُعبه.

وأول هذه الشُّعب: معرفة الله ﷻ، وذلك بأن يعرف العبد ربَّه بأسمائه وصفاته الواردة بكتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأن الله تعرَّف إلىٰ عباده بأسمائه وصفاته، وهو أعلم بنفسه ﷻ، فما سمَّىٰ تعالىٰ به نفسه وجب الإيمان به، وبه يُعرف -جلَّ وعلا-، فمثلًا: يُعرف تعالىٰ بأنه الله الذي لا إله إلا هو الحيّ، القيوم، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم، فهذه كلها أسماء لله -جل وعلا-.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما صفاته فكلُّ اسم من أسمائه يتضمَّن صفة، فالعليم يتضمَّن العلم، والحكيم يتضمَّن الحِكْمة، والرحيم يتضمَّن الرَّحمة، والكريم يتضمَّن الكرم، والعظيم يتضمَّن العظمة، وهكذا، فأسماء الله تعالىٰ ليست أسماء مُجرَّدةً، وإنما هي أسماء حُسنىٰ وعظيمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فوصفها بأنها حُسنىٰ، فكلُّ اسم منها يتضمَّن صفةً من صفاته -جلَّ وعلا-؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فالإنسان يعرف الله -جل وعلا- ويدعوه بأسمائه وصفاته ﷻ.

وهذه الأسماء والصفات توقيفية، فلا أحد يسمّي الله إلّا بما سمىٰ به ﷻ نفسَه، أو سمَّاه به رسولُه، فلا أحد أعلم بالله من الله -جلَّ وعلا-، ولا أحد أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ؛ فلذلك لا يجوز وَصفُ الله تعالىٰ أو تسميته إلا بما ورد في كتاب الله -جل وعلا-، وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأن الله -جل وعلا- أعلمُ بنفسه وبغيره، وأحسنُ حديثًا من خَلْقه، فنحن نعرف الله بأسمائه وصفاته ﷻ.

❊❊❊

قال الشيخ الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهَّاب -رحمه الله تعالى-:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

باب: معرفة الله تعالى والإيمان به

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رواه مسلم[١].

الشَّرح

هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهو ما يرويه النبيُّ ﷺ عن ربِّه، فلفظه ومعناه من الله -جلَّ وعلا-، فتكلَّم الله به، ورواه رسوله ﷺ وبلَّغه لأُمَّته.

وقوله: «قال الله تعالىٰ»: فيه إثبات القول والكلام لله تعالىٰ، وهذه صفة من صفاته -جلَّ وعلا-.

وقوله: «أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشرك»: فيه إثبات الغِنىٰ لله عَزَّوَجَلَّ، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]. فالله تعالىٰ غنيٌّ عن خَلقه لا يحتاج إلىٰ مُعينٍ، ولا إلىٰ شريك، ولا إلىٰ ظهير، فهو غنيٌّ عن خَلقه، وخَلْقهُ محتاجون إليه؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. فهذا فيه وصف الله بالغنىٰ، وفيه نفيُ الشِّرك عنه -جل وعلا-؛ إذ ليس له شريك في المُلْك، وليس له شريك في العبادة، ولا في أسمائه وصفاته، فالله واحد أحد، فَرْد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

(١) برقم (٢٩٨٥).

[الإخلاص: ٣، ٤] هذه صفة الله -جل وعلا-، ولما قال المشركون للنبيِّ ﷺ: صِفْ لنا ربَّك، أنزل الله هذه السورة[(١)].

ففي هذا تنزيهُ الله تعالىٰ عن الشِّرك، وأن العمل الذي يقع فيه الشِّرك لا يتقبَّله الله؛ ولهذا قال كما في هذا الحديث القدسي: «تَركتُه وشِركَه»، فالعمل الذي فيه شِرْك لا يقبله الله تعالىٰ، وهو مردود علىٰ صاحبه وباطل، فهو سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وكان صوابًا علىٰ سُنَّة نبيِّه ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٤٠) عن أُبي بن كعب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ موقوفًا.

[نفيُ النوم عن الله تعالى]

٢- وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». رواه مسلم[1].

الشَّرْح

هذا حديث عظيمٌ، فيه تعريفٌ بالله -جلَّ وعلا-، فقوله ﷺ: «إن الله تعالىٰ لا ينامُ». فقد نفىٰ الله تعالىٰ عن نفسه النوم في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأن النوم موتة صغرىٰ؛ ولأن النوم ضعف في النائم، والله يُنزَّه عن ذلك، وذلك لكمال حياته ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فهو سبحانه لكمال حياته ولكمال قيُّوميَّته: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾: وهي النُّعاس الخفيف، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ مُستغرَق، فهو سبحانه منزَّه عن ذلك؛ لأن النوم من صفات البشر والمخلوقين، وهو صفةُ نقص.

وقوله ﷺ: «ولا ينبغي أن ينام»: يعني: لا يليق به ﷻ أن ينام؛ لأنه الكامل في حياته وقيُّوميَّته -جلَّ وعلا-، فهو منزَّه عن هذه الصفة، فلا ينبغي له أن ينام.

وقوله: «يَخفضُ القسطَ ويرفعُه»، قوله: «يخفض القسط» بمعنىٰ: أنه ينزِّل علىٰ عباده أرزاقهم وما كتبه سبحانه لهم، والقِسط: العدل والميزان، وقوله: «ويرفعه» بمعنىٰ: أنه يُرفع إليه العمل الذي اكتسبه بنو آدم، والله -جل وعلا- دائمًا هذه صفته، يُنزِّل الأرزاق والمقادير علىٰ عباده، وتُرفع إليه الأعمال، خيرُها وشرُّها، صالحها

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

وسيِّئها؛ فهذا فيه تنزيه الله سبحانه عن النَّوم، ووَصفُه بالحياة الكاملة، ووصفُه -جلَّ وعلا- بأنه يُدبِّر أمور الخَلق، ويُحصي أعمالهم؛ ليُجازيَهم بها يوم القيامة.

وقوله ﷺ: «**يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل اللَّيل**».

هذا من عمل الحَفَظَةَ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وفي الحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلون، وأتيناهم وهم يُصلون**»(١)، ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: محضورًا، تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، كما في الحديث، ولهذا كانت هاتان الصلاتان أفضل الصلوات الخمس، وقال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: الفجر، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. أي: العصر، ففيهما فضيلة علىٰ غيرهما لحضور الملائكة فيهما.

وقوله ﷺ: «**حِجابُه النُّور، لو كَشفه لأحرقت سُبحاتُ وَجْهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقه**». هذا فيه وصف الله -جلَّ وعلا- بالنُّور؛ والنُّور علىٰ قسمين:

١- نورٌ من صفات الله -جلَّ وعلا-؛ أي: نور الله تَعَالَىٰ.

٢- ونورٌ مخلوق، كنور الشمس ونور القمر.

وهناك نور آخر، وهو نور الوحي؛ فالله -جل وعلا- هو النور، ومنه النور، ونور الله -جل وعلا- قد حَجَبه عن رؤية عباده له؛ لأنهم لا يستطيعون رؤيته -جل وعلا- في الدنيا، ولو تجلَّىٰ لشيء من خَلْقه لاحترق، وفي قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاء لموعد الله له يتلقَّىٰ منه التوراة أوضحُ الدليل علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٩)، ومسلم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ فهذا الجبل الجماد الصُّلب لما تجلّىٰ الله له اندكّ وصار ترابًا وعندها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾؛ أي: مغشيًّا عليه، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يرىٰ الله ﷻ؛ لأن حجابه النور، وفي ليلة المعراج سئل النبيُّ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ قال: «**نورٌ أنَّىٰ أراه**»(١)، وذلك لأنه سبحانه حجابه النور، فلا يراه أحد في هذه الدُّنيا؛ لا النبي ﷺ ولا غيره؛ إذ الخَلْق لا يستطيعون رؤيته لعظمته ﷻ، ولهذا قال: «**ولو كشفه**». أي: لو كشف الحجاب «**لأحرقت سُبحاتُ وجهه**» أي: نور وجهه وجلاله «**ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلْقه**».

فهذا فيه وصف الله ﷻ بأنَّ له حجابًا يحتجب به عن المخلوقات؛ لأن المخلوقات لا تطيق رؤية الله ﷻ في هذه الدُّنيا.

وفي الحديث إثبات البَصَر لله ﷻ؛ لقوله ﷺ: «**ما انتهىٰ إليه بَصرُه**»، ولقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. فهو ﷻ يرىٰ ويُبصر عباده فلا يحجبه عنهم شيء، لا جدران ولا حصون، ولا ظُلمة ولا ستائر ولا أيُّ شيء، فيراهم أينما كانوا.

فهذا الحديث، حديث عظيم فيه -إضافةً إلىٰ ما سبق- وصفُ الله -جل وعلا- بالحجاب، وأنه نور، وأنه لو كشف هذا الحجاب لاحترق ما ينتهي إليه بصره من خَلْقه، وبصر الله -جل وعلا- لا يحجبه شيء، وفيه بيان الحِكْمة من الحجاب وهي كما جاء في هذا الحديث خشيةَ أن يحترق ما انتهىٰ إليه بصره سبحانه من خَلْقه، وأن المخلوقات لا تستطيع مقابلة جلال الله ﷻ لعظمته.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

وأمَّا في الآخرة، فإن الله -جل وعلا- يُعطي أهل الجنة قوة يستطيعون بها رؤيته سبحانه، وهذا من إكرامهم لما عبدوه في هذه الدنيا ولم يَرْوهُ؛ بل عبدوه إيمانًا به سبحانه، فأكرمهم الله بأن يتجلّىٰ لهم يوم القيامة في الجنة، ويرونه -جلَّ وعلا-، فيرونه في عَرَصات القيامة ويرونه في الجنّة[1]؛ لأنه سبحانه يُعطيهم قوة ليست لهم في هذه الدنيا، وإنما هي لهم في الآخرة، فيستطيعون بها رؤيته سبحانه ويتلذَّذون بها، وهذا من كرمه ﷻ لهم.

---

(١) انظر في ذلك، ما أخرجه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

[ما جاء في أن لله يمينًا]

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «يَمِينُ اللهِ مَلأَىٰ، لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». أخرجاه[1].

الشَّـرْح

هذا الحديث فيه وصفٌ لله -جل وعلا-، بأنَّ له يدين، وهو سبحانه أثبت هذا في القرآن الكريم، فقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. أي: لآدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، خلقه الله بيديه، ففيه إثبات اليدين لله، وأنَّ له يمينًا.

وفيه وصف الله تعالىٰ بالجود والكرم، وأنه هو الذي يُنفق علىٰ عباده، فيَدُه «سحّاءُ الليل والنهار»، والسَّح: الصَّبُّ الدائم؛ أي: دائمة بالعطاء والجود والكرم.

وقوله: «أرأيتم ما أنفق منذ خَلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه».

أي: لا تنقص خزائنه ﷻ بالإنفاق؛ لأنه الغنيُّ؛ قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. فجميع الأرزاق التي للآدميِّين وللبهائم وللحشرات وللطيور وللوحوش كلها من رزق الله وإنفاقه علىٰ مخلوقاته، وعلىٰ كثرة هذا الإنفاق لا ينقص ما عنده ﷻ، بخلاف المخلوق، فإنه وإن كانت عنده ثروة هائلة، فإنه إذا ما أنفق منها فإنها تنقص حتىٰ تنفد؛ قال تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي هذا الحديث إثبات اليد لله، ووصفها باليمين، وجاء أيضًا وصف الأخرىٰ بالشمال، وكلتا يديه تعالىٰ يمين، فهي شمال ليست كشمال المخلوقين؛ بل هي

---

(١) البخاري (٤٦٨٤، ٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣)، وفيه عندهما: «القبض» بدل: «القسط».

شمال وهي يمين أيضًا، واحدة من يديه سبحانه فيها الإنفاق علىٰ العباد، والأخرىٰ فيها القسط.

وقوله: «**يمينُه ملأىٰ**»: أي: يده سبحانه ملأىٰ بالرزق والخير، «**لا تغيضها نفقة**» أي: لا ينقص مما في يمينه ﷻ بما ينفق علىٰ عباده.

وقوله: «**سحَّاءُ الليلَ والنهارَ**»: سحاء؛ أي: كثيرة العطاء الذي لا حدَّ له، فعطاؤه مستمر ليلًا ونهارًا، فلا يُعطي في وقت ويمنع في وقت آخر كالمخلوقين، فعطاؤه دائم في جميع اللحظات والساعات.

وقوله: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه**»: هذا تقريب لبيان سعة الرزق، وكثرته من الله عَزَّوَجَلَّ وغناه، وأنه مع كثرة إنفاقه فإنه لا ينقص ما في يمينه ولا مما في خزائنه، بخلاف المخلوقين، فإنهم إذا أنفقوا فإنه ينقص مما عندهم فينفد، فإذا تأمَّلت هذه المخلوقات في البرِّ والبحر وجدتَ أنها كلها تعيش من رزق الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]. فهو سبحانه يُنفق علىٰ هذه المخلوقات منذ خلق السموات والأرض، فلم ينقص ذلك مما عنده شيئًا، ولم ينقطع رزقه ﷻ عن مخلوقاته، فهذا دليل علىٰ كمال غناه، وأن هذا الإنفاق في هذا الزمان الطويل لم يُنقص ما في يمينه -جل وعلا-.

قوله: «**والقسط بيده الأخرىٰ يرفع ويخفض**»: هذا فيه بيان أن لله ﷻ يَدَين؛ اليد اليمنىٰ فيها العطاء والكرم والجود، والإنفاق علىٰ عباده، والثانية فيها القسط والعدل، «**ويخفض**»: أي: يرفع، ويخفض المقادير ويُنزلها علىٰ عباده، ويرفع أعمالهم ويُحصيها.

[ما جاء في وصف الله تعالى بالعلم]

٤- وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ تنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَ تنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قُلْتُ: لا. قَالَ: لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا». رواه أحمد[(١)].

الشَّـرْح

هذا الحديث فيه وصفُ الله تعالىٰ بالعلم، وأنه تَعَالَىٰ يدري ما يدور بين مخلوقاته، حتىٰ الذي يكون بين البهائم.

فقوله: «شاتان ينتطحان. فقال: **أتدري فيمَ تنتطحانِ**»: أي: ما السبب الذي جعل بينهما هذا التضارب والتدافع؟ فقال أبو ذر: لا، فقال ﷺ: «**ولكن الله يدري**». أي: الله يعلم ما بين هاتين الشاتين، وإذا كان هذا في الشاتين ففي غيرهما من باب أولىٰ، فهو سبحانه يعلم ما يدور بين العباد من الاختلاف والنِّزاع والشِّقاق، لا يخفىٰ عليه شيء، وأنه تعالىٰ يحكم بينهم يوم القيامة، حتىٰ إنه -جلَّ وعلا- يحكم بين البهائم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. فالوحوش تُحشر وتُبعث يوم القيامة ويُقتصُّ من بعضها لبعض، كما قال ﷺ: «**لتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلىٰ أهلها يوم القيامة حتىٰ يُقادَ للشاة الجَلْحاءِ منَ الشاةِ القَرْناء**»[(٢)]. فإذا جرىٰ القصاص بين الحيوانات، قال الله -جل وعلا- لها: كوني ترابًا، فتكون ترابًا، فهي تُبعث من أجل القصاص فيما بينها، وإذا كان القصاص والحكم بالعدل يجري بين البهائم، فبين غيرها من باب أولىٰ، وهذا من عدله تَعَالَىٰ، والحديث فيه صفتان من صفات الله:

الأولى: علم الله -جل وعلا- بما يجري بين المخلوقات علىٰ اختلاف أصنافها.

والثانية: الحكم؛ حيث إنه -جل وعلا- يحكم يوم القيامة بين الناس وبين الحيوانات، فيقضي بينهم ويُنصف المظلوم من الظالم.

---

(١) في «المسند» برقم (٥/ ١٦٢)، بلفظ: «تنتطحان.. وسيقضي بينهما».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى]

٥- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ». رواه أبو داود، وابن حبان، وابن أبي حاتم(١).

الشَّرح

الأمانات: جمع أمانة، وهي: كل ما اؤتمن عليه من الأموال والأسرار والأعمال المسندة إلىٰ المؤتَمن، وكلُّ المسئوليات أمانة، فليست الأمانة خاصة بالوديعة، كما يفهم بعض العوام؛ بل الأمانة عامة في كل ما يؤتَمن عليه؛ فعلىٰ الإنسان أن يؤدِّي ما استُحفظ عليه إلىٰ مَن ائتمنه، وألَّا يخون الأمانة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]. فهي أمانة بين العبد وبين الله، وبين الفرد وولِيّ الأمر، وبين الفرد وبين الناس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

والآية عامّة في كلِّ ما يتعلق بموضوع الأمانات، وإن كانت نازلة في الوظائف، وبأنه يجب علىٰ وليّ الأمر أن يُسند الوظائف إلىٰ مَنْ يقوم بها من الناس، ولا يُحابي فيها؛ لأن الآية نزلت في ردِّ مفتاح الكعبة إلىٰ بني شيبة، فلما فتح النبيُّ ﷺ مكة، أخذ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المفتاح من بني شيبة؛ فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

فأخذ النبيُّ ﷺ المفتاح من عليّ ودفعه إلىٰ بني شيبة(٢)، ولا يزال في يدهم إلىٰ

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦).

(٢) انظر في ذلك، ما أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٤٧) عن ابن جريج والزهري.

يوم القيامة، كما أخبر النبيُّ ﷺ بذلك، فسببُ نزول الآية خاص، ولكن اللفظ عامٌّ، والعِبْرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما قرر ذلك علماء التفسير والأصول، فتشمل هذه الآية جميع الأمانات الحسِّية والمعنوية، فكلُّ ما كُلِّف به العبد من الأعمال فهو أمانة بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالوضوء أمانة، والاغتسال من الجنابة أمانة، فجميع الأعمال التي أوجبها الله تعالىٰ علىٰ عباده أمانة.

وجميع ما حرَّمه الله علىٰ عباده أمانة كذلك، وكذا جميع الأعمال والأموال والديون التي في ذمة الذين اؤتمنوا عليها إنما هي أمانة، فعلىٰ العبد أن يحفظ الأمانة، وأن يؤدِّيها في جميع أمورها، فلا أحد يَخْلُو من الأمانة، فالأولاد أمانة في ذمة وليّ أمرهم، وهو مسئول عنهم، فالأمانات كثيرة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ومحلُّ الشاهد في هذه الآية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، ففيها وَصفُ الله بالسَّمع والبَصَر، وبأنه سميع بصير، وهذان اسمان لله تَعَالَىٰ يتضمَّنان إثبات السمع والبصر له عَزَّوَجَلَّ بخلاف فِرَق الضلال الذين يؤوِّلون الصِّفات والأسماء الذين يزعمون أن هذا من باب المجاز، وعلىٰ قولهم فليس لله سمعٌ حقيقةً، وليس له سبحانه بصرٌ حقيقةً، وإنما هذا ونحوه من المجاز!

ويُجاب على هؤلاء: بأن الرسول ﷺ أبطل هذا، وبيَّن أنَّ السمع حقيقي، فوضع أصبعه علىٰ أُذنه ليبيِّن أن هذا حقيقي، ووضع الأصبع الأخرىٰ علىٰ عينه ليبيِّن أنه بصر حقيقي وليس مجازيًّا، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يئولون أسماء الله وصفاته، ويدل علىٰ أن الواجب إثباتها كما جاءت، وكما دلَّت عليه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٦- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-». رواه البخاري ومسلم[١].

الشَّرح

هذا الحديث فيه: إثبات العلم لله -جلَّ وعلا-، وأن الله عليم، وفيه: أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ولهذا قال -جلَّ شأنه-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. جاء تفسير هذه المفاتيح في آخر سورة (لقمان): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه المفاتيح الخمسة لا يعلمها إلا الله، فلا يعلمها مَلَك مقرَّب، ولا نبيّ مرسل، ولا أحد من خَلْقه -تبارك وتعالىٰ-، فهي من الأمور التي اختص الله بعِلْمها، ولهذا لمَّا سأل جبريلُ رسول الله ﷺ وقال له: «متىٰ الساعة؟ قال: «**ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل**». يعني: أنا وأنت سواء لا نعلم هذا الأمر؛ لأن هذا من اختصاص الله ﷻ؛ وقد ذكر هذا في القرآن الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فلا يعلم أحدٌ متىٰ قيام الساعة إلا الله، وأما هؤلاء الذين يَحسبون؛ ليقدِّروا عُمُرَ الحياة الدنيا إنما هم من الكَذَبة الذين يكذبون علىٰ الله -جل وعلا-، وينازعونه في عِلْمه.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، وقوله في آية أخرىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورىٰ: ٢٨]. فيه بيان أنه لا يستطيع أن ينزل الغيث من

---

(١) البخاري (٧٣٧٩)، وبنحوه مسلم (١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السماء إلا الله -جل وعلا-، ولا أحد يدري أيضًا متىٰ ينزل الله الغيثَ، فهو من اختصاص الخالق ﷻ.

وأمَّا ما يُذكر في وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفاز من توقُّعات حول هبوب الرِّياح، وما أشبه ذلك فهو ليس من باب الجزم، إنما هو من التوقُّعات المبنية علىٰ ظواهر جويَّة، والتي من الممكن أن تُصيب وأن تُخطئ؛ فلا يُقال: إن هؤلاء يعلمون مما استأثر الله بعلمه من نزول المطر.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]. أي: الأجنَّة التي في البطون، لا يعلمها إلّا الله ﷻ، سواء التي في بطون الآدميات، أو التي في بطون البهائم والحيوانات، فلا أحد يدري ما في بطونها من حيث كونه ذكرًا أو أنثىٰ، أو حيًّا أو ميتًا، أو كامل الخِلْقة، أو ناقص الخِلْقة، فلا يعلم كل هذا إلا الله -جل وعلا-، حتىٰ المَلَك الموكَّل بنفث الرُّوح إذا جاء لينفخ الروح، فإنه يسأل الله ﷯ عن أجله، وعمله، وهل هو شقيٌّ أو سعيد فيكتب ما أخبره الله -جل وعلا-.

أما بخصوص ما استُحدث الآن من صور الأشعة التي تُشخِّص الحمل علىٰ الأجهزة المصوَّرة، فيخبرون بكون ذكرًا أو أنثىٰ، فهذا ليس من الأمور الداخلة في علم الغَيْب، وإنما هو من عِلْم الشهادة التي تحصل بواسطة الأجهزة التي تصور ما في البطون فتظهره، فهو ليس من علم الغَيْب؛ لأنه لا أحد يعلم حقيقة ذلك قبل التصوير التي تتم بواسطة الأجهزة المذكورة، ثم لو قُدِّر أنهم علموا بكونه ذكرًا أو أنثىٰ أو حيًّا أو ميتًا، فهم لا يدرون شيئًا من أجله أو عن عمله، أو هل هو شقيٌّ أم سعيد، حتمًا هم لا يدرون شيئًا عن ذلك كما لا يدرون شيئًا عن رزقه، فكلُّ هذه الأمور من الأشياء التي استأثر بعلمها الله ﷻ.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. فهذا من المُسلَّمات التي أقرَّ بها الناسُ قبل نزول القرآن، ولهذا قال الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلْمَىٰ:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قَبلَه ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

هذا، وهو إنسان جاهلي، بأنه لا يدري ماذا يمكن أن يجري في الغد أو في المستقبل، كون هذا الأمر من عِلْم الله -جلَّ وعلا-، فمن باب أَولىٰ أن يُقرَّ بذلك مَن جاء بعده علىٰ مَرِّ العصور!

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ الموت لابدَّ منه، ولكن المجهول مكانه وزمانه، هل هو في البرِّ، أم في البحر، أم في الجو؟ فلا أحد يدري متىٰ وأين يكون ذلك؛ لكونه في عِلْم الله وحده -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ هذه مفاتح الغَيْب التي لا يعلمها إلَّا الله ﷻ.

ففي هذا الحديث: إثبات العِلْم لله -جل وعلا-، وفيه بيان مفاتح الغيب التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فهو تفسير للآية.

والغيبُ: ما غاب عن الناس.

والشهادة: ما شاهدوه، والله -جل وعلا- عالم الغيب والشهادة، أي: ما ظهر للناس وما خفي عليهم، فالله سبحانه عليم به.

[إثبات صفة الفرح لله تعالى]

٧- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» أخرجاه(١).

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: إثبات صفة الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يفرح بتوبة عبده، وفيه إثبات التوبة، وأنه عَزَّوَجَلَّ يتوب علىٰ عبده إذا ما أقبل إليه بإخلاص.

والتوبة معناها: الرُّجوع، فالله -جل وعلا- يعود علىٰ عبده بالرِّضا بدل الغضب، وبالمغفرة بدل العذاب، ومن أسمائه تَعَالَىٰ: التوَّاب، فقال: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]. أي: كثير التوبة علىٰ عباده، ففيه إثبات التوبة لله، وأنه يتوب علىٰ عباده، ويرجع عليهم بالخير.

وفي الحديث: إثبات الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الله يفرح بتوبة عبده، وفيه: حثُّ العباد علىٰ التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وأنه سبحانه يفرح بهذا، وهذا من كرمه سبحانه، وهو ليس محتاجًا إلينا، فإذا تُبْنا لم يَزِد في مُلْكه شيئًا، وإذا لم نَتُب لم نُنقِص من مُلْكه شيئًا، ولكن الله يفرح بذلك تكرُّمًا ولطفًا منه تَعَالَىٰ بعباده؛ لأنه يريد لهم الخير والنجاة والفوز، ولا يحبُّ لهم الكفر والعذاب، وإنما يحبُّ لهم التوبة والمغفرة والنعيم، وهذا كلُّه من فَضْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩) مختصرًا، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

فقوله ﷺ: «**للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده**» فيه: أنَّ الله يفرح فرحًا شديدًا أشد من فرح المخلوقين.

ثم ضرب ﷺ مثلًا في رجل فقد راحلته في أرض مهلكة ليس فيها ماءٌ ولا طعام، وقد استسلم للموت ونام تحت ظل الشجرة بانتظار هلاكه، وبينما هو كذلك فإذا براحلته فوق رأسه وعليها طعامه وشرابه.

فهذا فيه: أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله ﷻ مهما اشتدَّ الأمر والضِّيق بالعبد، بل عليه أن يعظِّم الرَّجاء بالله، فكلَّما اشتدَّ العسر كان اليسر قريبًا؛ لقوله ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرَجَ مع الكرب، وأنَّ مع العُسر يُسرًا**»(١). وكما في القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥،٦].

ففرح هذا الرجل فرحًا شديدًا حتىٰ إنه أخطأ في التعبير عن فرحه من شدَّته، فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك**». والله أشدُّ فرحًا من هذا الإنسان، ففي الحديث: إثبات صفة الفرح لله ﷻ مع الاعتقاد بأنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقين.

وفي الحديث: بيان أن المخطئ لا يُؤاخذ، فهذا الإنسان أخطأ في التعبير من شدة فرحه؛ لكن الله لم يؤاخذه مع كونه وَصف الله -جل وعلا- بأنه عبدٌ ووَصف نفسَه بأنه الربُّ، لكنه لم يتعمَّد هذا، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولما نزلت هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله -جل وعلا-: قد فعلت(٢).

فهذه الأحاديث فيها معرفة الله -جل وعلا-، وقد اختارها الشيخ عن فقهٍ وعن معرفةٍ تامَّةٍ؛ لكونها تُعرِّف بالله عَزَّوَجَلَّ، وتبيِّن أسماءه وصفاته المذكورة في ثنايا هذه الأحاديث الثابتة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٥٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[ما جاء في أن لله تعالى يدًا]

٨- وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». رواه مسلم (١).

الشَّرح

هذا الحديث: فيه إثبات صفة اليد لله تعالى، وهي يدٌ ليست كأيدي المخلوقين، إنما هي يد تليق بجلال الله تعالى دون تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، وأنَّه يبسُطها تكرُّمًا منه سبحانه وفضلًا.

قوله ﷺ: «**يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار**»: هذا فيه إثبات أن الله يتوب علىٰ عباده ليلًا ونهارًا متىٰ ما تابوا، وأن التوبة ليس لها وقت محدَّد، ففي أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، فإنه تعالى يقبل التوبة من عباده، فهو -جلَّ شأنه- ليس علىٰ أبوابه حُجَّاب، وليس لفضله حدّ، وليس للتوبة إليه وقت محدَّد؛ ولهذا قال ﷺ: «**ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**». فهذا شأنه تعالى.

وفي الحديث كذلك: الحثُّ علىٰ التوبة، والمبادرة إليها، وأنه علىٰ الإنسان ألَّا يؤخِّرها، وفيه وصف الله بأنَّ له يدًا، وأنها مبسوطة غير مقبوضة، وأنه يتوب علىٰ عباده تعالى دائمًا وأبدًا، في الليل والنهار، وأنَّ التوبة إليه تعالى لا تختص بوقت معين أو مكان معين، كما هو شأن بعض المِلَل الأخرىٰ.

ولهذا جاء في الحديث القدسي، قوله: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**» (٢).

---

(١) برقم (٢٧٥٩)

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[ما جاء في إثبات صفة الرَّحمة لله تعالى]

٩- ولهما(١)، عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيِ هَوازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَىٰ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لا، وَاللهِ! فَقَالَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: إثبات صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن رحمته أشدّ من رحمة الوالدة بولدها، إذْ ليس هناك من الخَلْق أرحم من الوالدة بولدها، والله -جل وعلا- أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فرحمته سبحانه عظيمة شديدة.

وقوله: «**بسَبْي هوازن**»: هوازن، هي: قبيلة معروفة، وتسمىٰ الآن: عتيبة، وقصتهم: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام ثمانٍ من الهجرة، ودخلت قريش في طاعته ﷺ كانت هوازن تُقيم قريبًا من مكة، فخشوا من رسول الله ﷺ أن يغزوهم، فاجتمعوا علىٰ غزو الرسول ﷺ قبل أن يغزوهم، فعلم ﷺ بذلك، فجهَّز الجيش من الذين جاءوا معه من المدينة، ومن أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح.

فخرج معه ﷺ جيش عظيم، والتقىٰ الفريقان في وادي حنين، وحصل علىٰ المسلمين في أول الأمر ضيقٌ شديد بعدما كانوا معجبين من كثرة عددهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]؛ لكن الرسول ﷺ ثبت ولم يتزحزح من مكانه.

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وجعل يُنادي المسلمين حين أمر عمَّه العباس أن ينادي بصوته الجَهورِي، فنادىٰ المسلمين بنداء رسول الله ﷺ، فعاد المسلمون والتفُّوا حول الرسول ﷺ، ثم دارت المعركة من جديد فنصر الله المسلمين، وغنموا أموال هوازن ونساءها وأطفالها؛ لأن هوازن جادت بأموالها ونسائها وأطفالها إلىٰ أرض المعركة، فصارت غَنيمةً للمسلمين.

فلما انتهت المعركة، وغَنم المسلمون مغانم هوازن، وجُمعت هذه الغنائم، رأىٰ الرسول ﷺ امرأة مسرعةً تجوب العسكر مشفقة تبحث عن ولدها، فلما رأته أخذته وألزقته ببطنها، وجعلت تُرضعه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟**» قالوا: لا، والله. فقال ﷺ: «**للهُ أرحم بعباده من هذه بوَلَدها**».

فهذا فيه إثبات صفة الرَّحمة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنها أرحم من رحمة الوالدة بولدها؛ لكن هذا لمَنْ تسبَّب في طلب الرَّحمة.

وأما مَنْ ضيَّع العمل الصالح، وعصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وكفر به، فقد فرَّط وضيَّع نفسَه، وأما مَنْ أطاع الله، وأطاع رسوله ﷺ، وعمل بأسباب الرحمة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أشدُّ رحمةً به من هذه المرأة بولدها.

[مدى سعة رحمة الله تعالى]

١٠- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي». رواه البخاري [(١)].

الشَّرح

قوله: «**لَمَّا خلق الله الخَلْق**»: يعني: فرغ من خَلْق الخَلْق، السموات والأرض والمخلوقات كلها، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وجاء تفصيل خَلقه في هذه الستة الأيام في سورة (فصلت): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. الآيات، فلما خلق الخَلْق ﷻ كتب كتابًا، فهو عنده فوق العرش، كما جاء في الحديث.

والمقصود بالكتاب: كتاب القضاء والقدر، وهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في غيره أيضًا مما شاء الله ﷻ، فما من شيء إلا وهو مكتوب، وهذه الكتابة بعد خَلْق السموات والأرض، وهذه الكتابة غير الكتابة العامة في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة العامة في اللوح المحفوظ كانت قبل أن يخلق الله ﷻ السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وإنما هذه الكتابة المذكورة في هذا الحديث كتابة خاصة.

فقوله ﷺ: «**كتب في كتابٍ**». هذا فيه إثبات الكتابة، وأنها من أفعال الله -جل وعلا-.

وقوله: «**عنده فوق العرش**»: العرش: هو عرش الرَّحمن ﷻ وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وأعظمها، فهو عرش عظيم، لا يعلم عِظَمَه إلا الله ﷻ، والعرش في الأصل:

---

(١) برقم (٣١٩٤)، وهو عند مسلم (٢٥٧١).

السرير الذي يجلس عليه المَلِك، والمراد به هنا: هذا المخلوق العظيم الذي استوىٰ الله -جل وعلا- عليه، وهذا فيه إثبات العُلوِّ لله واستوائه علىٰ العرش، والإيمان به؛ لأن الله اختصَّ هذا الكتاب عنده، وإذا كان عنده فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا الكتاب في مكان قريب من الله ﷻ.

وليس المراد بقوله: «**عنده**» أنه في مُلْكه؛ لأن كل المخلوقات في مُلْكه؛ ولكنه اختصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مثل بعض الملائكة المقرَّبين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]. فخصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مقرَّبة، وهذا يدلُّ علىٰ أهمية هذا الكتاب، ومكانته عند الله ﷻ.

ومضمون هذا الكتاب ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**». هذا فيه وصف الله -جل وعلا- بهاتين الصفتين: الرحمة والغضب، وهذا من صفات أفعاله -جل وعلا-، فهي صفات فعلية، يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء، فهما صفتان لله عزَّ وجلَّ تليقان بجلاله، ورحمته ليست كرحمة المخلوق، ولا غضبه كغضب المخلوق، وإنما هما صفتان تليقان بجلاله ﷻ.

وفي الحديث أنَّ الرَّحمة سبقت الغضب، فهو سبحانه يُحبُّ أن يرحم عباده إذا هم فعلوا الأسباب التي تُسبِّب الرحمة، وأما إذا فعلوا موجبات الغضب وأسبابه كالمعاصي والمخالفات، فإنه سبحانه يغضب عليهم، فالرحمة لها أسباب، والغضب كذلك، فالأعمال الصالحة سبب لرحمة الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وللغضب أسباب كالكُفر والشِّرك والمعاصي، فإن ذلك كله مما يُغضب الله -جل وعلا-.

وفي الحديث كذلك: بيان أن الله يُحبُّ أن يرحم عباده، ولا يُحبُّ أن يُعذِّبهم، وهذا من فَضْله وكرمه سبحانه علىٰ عباده، إلَّا إذا تركوا أسباب الرحمة وفعلوا أسباب الغضب، فهم الذين جَنَوا علىٰ أنفسهم، وهو سبحانه لا يُعذِّب أحدًا وهو ظالم له، أو بدون سبب، وإنما يعذِّب علىٰ أسباب تقتضي الغضب منه ﷻ، وهي: الكُفْر، والشرك، والنفاق، والمعاصي.

ولكن الله يُحبُّ أن يعفو، وأن يغفر إذا ما تاب العباد إليه وأنابوا واستغفروا، فالله ﷻ يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، وهذا أحبُّ إليه ﷻ؛ لأنه عفوٌّ يحبُّ العفوَ، كما جاء في دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ إنَّك عفوٌّ تُحبُّ العفوَ»**[1].

وهذا من كرمه وجوده -جل وعلا-، وإلَّا فهو ليس بحاجة إلىٰ عباده؛ بل هم المحتاجون إليه ﷻ، وهو يُحبُّ لهم ما يُصلحهم، ويُحبُّ أن يتوب عليهم ويغفر لهم ويُنعِّمهم بالجنة، إذا هم تقرَّبوا وتابوا إليه واستغفروه؛ ولذلك حثَّ عباده علىٰ التوبة والاستغفار، ونهاهم عن المعاصي، وأمرهم بالطاعات، وكل ذلك من لُطْفه ﷻ، ومن محبَّته للمغفرة، وللعفو، وهو من صفاته ﷻ العظيمة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١١- ولهما[١] عنه: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلائِقُ حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

الشرح

هذا حديث عظيمٌ فيه: بيان سعة رحمة الله ﷻ، كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فالرحمة لها أسباب، وهي رحمة واسعة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن هذه الرحمة المذكورة في هذا الحديث المتفق عليه، أنزل الله منها رحمة واحدة في الأرض، وعنده تسع وتسعون رحمة قد ادَّخرها سبحانه ليوم القيامة، وهذه الرحمة التي أنزلها في الأرض تتراحم المخلوقات من آثارها، حتىٰ إن «الدابة»، أي: البهيمة التي ليس عندها عقل «**ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»، فهي رحمة طبيعية، جعلها الله فيها، هي من آثار هذه الرحمة التي أنزلها الله سبحانه تتراحم بها الخلائق فيما بينهم؛ فإذا كانت هذه آثار رحمة واحدة، فكيف ببقية الرحمة التي عنده ﷻ؟! وفي يوم القيامة تنضم هذه الرحمة إلىٰ ما عنده من الرحمة التي ادَّخرها ﷻ؛ لتكون مائة رحمة يرحم بها مَن يستحق الرحمة من عباده الذين فعلوا الأسباب الموجبة لها في هذه الدُّنيا، فتابوا واستغفروا وأنابوا ورجعوا إلىٰ الله وأصلحوا أعمالهم.

فهذا الحديث فيه وصف الله -جل وعلا- بالرحمة، وأنها رحمة عظيمة، وأن الله تعالىٰ يرحم في الدُّنيا؛ ولكن رحمته في الآخرة أعظم، فمَنْ لم تَسَعه رحمة الله، فإن خاسر لا خير فيه، والله -جل وعلا- يرحم من عباده الرُّحماء، ولهذا قال ﷺ:

---
(١) البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

«ارحموا مَن في الأرض يرحمُكم مَنْ في السماء»[1]، وقال: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم، وتَعاطُفِهم مَثلُ الجسد إذا اشتكىٰ منه عُضُوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحمىٰ»[2]. فإذا تراحموا رحمهم الله، فإن مقتضىٰ هذا الحديث ذكر أن أسباب رحمة الله تعالىٰ إنما تنشأ من تراحمُ العباد فيما بينهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

١٢- ولمُسْلِم[١]، معناه مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ، وَفِيهِ: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». وَفِيهِ: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

الشرح

في الحديث: بيان مدىٰ سعة كلّ رحمة من المائة رحمة التي اتصف الله بها، فالرَّحمة الواحدةُ تَسعُ السموات والأرض، فإذا كان يوم القيامة تكاملت الرحمة مائة رحمة بانضمام الجزء الذي أنزله الله ﷻ إلىٰ الأرض إلىٰ ما ادَّخره في السماء، فصارت مائة رحمة في الآخرة؛ وهذا دليل علىٰ سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا أيضًا من شأنه أن يجعل الإنسان لا يقنط من رحمة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. وقال تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي هذا الحديث، وما جاء بمعناه من الأحاديث والآيات الكريمة، بيان أنه لا ينبغي للمسلم أن يقنط من رحمة الله، حتىٰ ولو تعاظمَ ذنبه، فإنه ينبغي ألَّا ييأس من العودة والرُّجوع إلىٰ الله، وألَّا يعتقد بأنه لن يغفر الله له، وألَّا يترك التوبة، وييأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، بل عليه أن يتوب ويرجو رحمة الله مهما كان ذنبه ومهما كانت معصيته، فإذا تاب منها تاب الله عليه، وكذا المشرك والكافر والمنافق والزاني والسارق وشارب الخمر، وآكل الربا، فهؤلاء جميعًا إذا ما تابوا تاب الله عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

ولكن ينبغي للإنسان ألَّا يتَّكِل علىٰ سعة رحمة الله، وبالتالي يتهاون بالمعاصي، فكما

---

(١) برقم (٢٧٥٣).

أن الله عَزَّوَجَلَّ واسع المغفرة فإنه شديد العقاب؛ قال تعالىٰ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

فعلىٰ الإنسان ألَّا يتساهل في عمل المعاصي؛ بل عليه أن يتَّقي الله ويخاف من العذاب كما يرجو الرحمة، فالجمع بين الأمرين هو المطلوب، بين الخوف والرَّجاء؛ الخوف من عذاب الله، فلا يخاف خوفًا يُقنِّطهُ من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمِّنُه من مكر الله؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وكما أن الله واسع الرحمة والمغفرة، فإنه كذلك شديد العقاب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وقد جمع سبحانه بينهما في آية واحدة بقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

فينبغي عدم الغفلة عن هذا الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يُغلِّب أحدهما علىٰ الآخر؛ ولكن قالوا: إلا في حالة واحدة وهي عند الموت، فإنه يُغلِّب جانب الرَّجاء، قال صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله** عَزَّوَجَلَّ»(١)؛ فإذا ما عَجَز المرء عن العمل وحَضره الموتُ فإنه يُغلِّب جانبَ الرَّجاء، ولا يُغلِّب جانبَ الخوف، أمَّا وإنه ما دام علىٰ قيد الحياة، وكان متمكّنًا من العمل الصالح والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فإنه ينبغي أن يكون بين الخوف والرَّجاء.

والرجاء المحمود هو الذي لا يأمن به صاحبُه من غضب الله عَزَّوَجَلَّ وعقوبته، والخوف المحمود: هو الذي لا يَقنط صاحبُه من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

١٣- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ». رواه مسلم [(١)].

الشرح

في هذا الحديث: بيان الفَرْق بين المسلم والكافر، من حيث إن الكافر إذا عمل حسنةً في الدُّنيا بأن أطعم جائعًا أو كسا عاريًا أو سقىٰ عطشان، ونحو ذلك من الأعمال الداخلة في باب الإحسان إلىٰ الناس، فإنه وإن كان هذا العمل من كافر، فإن الله -جلّ وعلا- لا يضيع عمل عامل؛ ولهذا فإنه سبحانه يُعجِّل له جزاءه، فيُعطىٰ بها طُعمة في هذه الدُّنيا؛ إما بأنْ يُطيل في عُمره، أو بأن يُوسِّع له في رزقه، أو غير ذلك من مصالح الحياة الدنيا؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا؛ فهذا المراد من قوله ﷺ: **«أُطعم بها طُعمة في الدنيا»**.

وأمَّا المؤمن، فإنه إذا عمل الحسنات، فإنَّ الله يَجمع له بين خَيرَي الدنيا والآخرة، فيدَّخر له حسناته في الآخرة؛ لأنَّ جزاء الآخرة خير وأحسن، ولا يحرمه أيضًا من الجزاء في الدُّنيا، بل يعجّل له شيئًا من الجزاء في هذه الحياة الدُّنيا من سَعة الرِّزق والصِّحة والعافية، فهو -سبحانه- يُعطي المؤمن علىٰ حسناته في الدُّنيا والآخرة، ولكنه سبحانه يعطيه في الآخرة أكثر ممَّا يُعطيه في الدُّنيا، وهذا بخلاف الكافر، فإن الله يُعطيه في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فإنه -سبحانه- يُحرمه من رحمته وجنَّته، هذا ما يدل عليه المفهوم من الحديث.

وفي الحديث كذلك: بيان سعة فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ، حتىٰ إنه يشمل أعداء الله والكفَّار، فهو سبحانه يرزقهم، ويُنعم عليهم في هذه الدُّنيا، ويُصحُّ أبدانَهم، وهذا كله من إحسانه وفضله ﷻ، فلا يُعاجلهم بالعقوبة؛ ولكنهم إذا ماتوا علىٰ كُفْرهم، فإنهم لا ثواب لهم في الآخرة.

---

(١) برقم (٢٨٠٨).

[ما جاء في إثبات صفة الرضا لله تعالى]

١٤- وَلَهُ[١]، عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا».

الشَّرْح

في الحديث وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ بالرِّضا، وهو صفة تليق بجلاله ﷻ، فقوله: «**ليرضىٰ عن العبد...**» إلخ. يعني: يرضي عن العبد الذي يشكر النِّعم.

وفي هذا مشروعية الشُّكر، والحمد لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أكل يقول: الحمد لله، وإذا شرب يقول ذلك، كما أنه عند البداية يقول: باسم الله، وهذا من آداب الإسلام؛ لأن هذا الأَكل وهذا الشُّرب، لم يصل إلىٰ الإنسان إلَّا بفضله ﷻ، فهو الذي خلقه ويسَّره، وهو الذي مكَّن العبد منه، وهو الذي يَنفع به إذا أُكل وشُرب، فيُغذِّي العبدَ به ويُخلِّصه من أذاه، فكلُّ هذا ونحوه من فَضْله وكرمه ﷻ، فإذا ما أكل وشرب العبد، وشكر الله علىٰ ذلك، فإنه سبحانه يرضىٰ عنه.

ففي هذا الحديث: إثبات صفة الرِّضا لله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل، وفيه بيان مشروعيَّة حَمْد الله علىٰ الأكل والشرب.

---

(١) مسلم برقم (٢٧٣٤).

[بيان مدى عظمة الله تعالى]

١٥- وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ للهِ تَعَالَىٰ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ». رواه التِّرمذي[١] وَقَالَ: حديثٌ حَسنٌ.

قوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». فِي الصَّحِيحَين مِنْ حَدِيثِ أَنَس[٢].

الشَّرح

هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه بيانُ عظمة الله ﷻ، وفيه وصفٌ لصوت السماء من ثِقَل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها.

وقوله ﷺ: «أطَّتِ السماء»: **الأَطيط**، هو: في الأصل صوت الرَّحْل من ثِقَل ما عليه، فإذا أثقل الراكبُ الرَّحل يصير له صوت يسمَّىٰ بالأطيط من شدَّة التحمُّل، والمراد هنا: أنه صار للسماء صوت من شدَّة التحمُّل علىٰ الرغم من قوَّتها، وسعتها من كثرة الملائكة الذين أثقلوها.

وقوله: «**إلَّا وفيه مَلَك** ساجد». الملائكة من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، فهم خَلْق وجُند من جند الله تعالىٰ، لا أحد يراهم، ولكننا نؤمن بهم، والإيمان بهم هو أحد أركان الإيمان الستة، كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»[٣].

---

(١) برقم (٢٣١٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٣).

(٢) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هذه أركان الإيمان، ومن بينها الإيمان بالملائكة، وهم خَلق من خَلْق الله ﷻ، خلقهم الله من نور، وخلق الجِنَّ من نار، وخلق بني آدم من تراب، فالجنُّ والشياطين من عالَم الغيب؛ ولكن الله خلقهم من مارج من نار، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]؛ أي: من لهب النار المرتفع، فهناك مخلوقات كثيرة خلقها الله، منها ما هو من عالَم الغيب، ومنها ما هو من عالم الشهادة، ومن عالم الغيب: الملائكة، فنؤمن بهم كما ذكرهم الله ﷻ، وكما ذكرهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، فالذي لا يؤمن بالملائكة كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ فالملائكة رسل خلقهم الله ﷻ لمُهمات، ومن مهمّاتهم أن الله يرسلهم بأوامره، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]. وهم رسل يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. هذه هي صفة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام.

ومن هؤلاء الملائكة مَن اقتصر عمله علىٰ عبادة الله تعالىٰ، ولهذا قال ﷺ: «**ما فيها** -أي: في السماء- **موضع أربع أصابع إلا وفيه ملَك ساجد لله تعالىٰ**». وهذا فيه دليل علىٰ كثرة الملائكة، وفيه دليل علىٰ فضلهم، وأنهم يعبدون الله ﷻ، فهم لا يَفتُرون عن عبادته، ويُنفِّذون أوامره سبحانه في الخَلْق والكون، وهم جند من جند الله عَزَّوَجَلَّ،

يجب الإيمان بهم كما جاء ذِكْرهم في القرآن الكريم، والإيمانُ بأعمالهم التي يقومون بها مما جاء تفصيله في القرآن الكريم، والسُّنة النبوية.

ثم إنَّ الذين لا يؤمنون بالملائكة، أو يئوِّلون حقيقتهم كما هو الحال عند بعض الفلاسفة الذين يئولون حقيقة وجود الملائكة بأنها قوىٰ الخير النفسانية التي لدىٰ الإنسان، كما يسمُّون القُوىٰ الشريرة التي في الإنسان الشياطين، ويقولون: ليس هناك شياطين لهم أجسام، وليس هناك ملائكة مخلوقون لهم أجسام حسِّية، وإنما هي مجرد هواجس الخير المتمثلة بالملائكة، وهواجس الشرِّ المتمثلة في الشياطين، وهذا ونحوه من التخرُّصات والأباطيل من تأويل القرامطة والفلاسفة الباطنية، ومع الأسف هذا موجود في «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا عند تعرُّضه لقصَّة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكره صاحب «المنار» عن شيخه محمد عبده، وشيخه محمد عبده نقله عن كتاب «الإحياء» للغزالي، الذي كانت عنده نزعة فلسفية أثَّرت عليه، وهذا التأويل منها.

والحاصل: أن الذي يفسِّر الملائكة علىٰ أنها القوىٰ النفسية إن كان متعمدًا لهذا فهو كافر، وإن كان مقلِّدًا فهو ضالٌّ ومخطئ، فعلينا أن نعرف أفكار الفلاسفة ونعرف الوحي المنزَّل من عند الله ونفرِّق بينهما.

ففي هذا الحديث: الحثُّ علىٰ وجوب الإيمان بالملائكة، وفيه بيان كثرتهم، وأنهم يملئون السموات علىٰ سعتها، وفيه دليل علىٰ فضلهم وعبادتهم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهم عالَم شريف جليل من عالمَ الغيب الذي خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعلمهم إلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأمَّا قوله في آخر الحديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»، في الصحيحين، أي: هو متفق عليه؛ رواه البخاري ومسلم، وأمَّا أوله فهو في السُّنن و«المسند» عند أحمد.

وقوله: «**وما تَلَذَّذُتم بالنساء علىٰ الفُرُش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**». هذا فيه ذِكْر شدَّة الخوف من أهوال يوم القيامة، وما فيها من أخطار عظيمة، والله -جلَّ وعلا- ذكر هذا في القرآن، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ

زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١،٢].

ونحن لا نعلم من أهوال يوم القيامة مثل الذي يعلمه النبيُّ ﷺ؛ لأن الله ﷻ أطلعه علىٰ أمور الآخرة ما لم نطَّلع عليه رحمةً بنا، ولأنه لو أطلعنا علىٰ هذه الأشياء لحدث بنا ما ذكره النبيُّ ﷺ بقوله: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش ولخرجتم إلىٰ الصُّعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**». وقوله: «**تجأرون**»: يعني: ترفعون أصواتكم بالبكاء والتضرُّع من شدة الخوف، فالأمر شديد، والخَطْب هائل، فيجب علىٰ المسلم أن يكون مستعدًّا لهذه المواقف والأخطار التي هو قادم عليها.

ومما أطلع الله -جل وعلا- نبيَّه ﷺ عليه عذاب القبر الذي لا يخلو من المواقف والعجائب التي لا يعلمها إلا الله من أحوال الموتىٰ الذين يعذَّبون أو يُنعَّمون، ونحن لا نُحِسُّ بهذا، ولكن الرسول ﷺ أطلعه الله علىٰ شيء من ذلك.

وحينما مرَّ علىٰ قبرين، فقال: «**إنهما ليُعذَّبان**»[١]. فنحن نمرُّ علىٰ القبور، ولا نشعر بشيء من ذلك مع أنَّ هذه القبور؛ إما روضة من رياض الجنة، أو حُفرة من حُفر النار»[٢]، فكلُّ هذا من أمور الآخرة التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومن الأمور التي حجبها الله عنا، وقد يحصل شيء من الاطلاع لبعض الناس علىٰ عذاب القبر من باب العِظَة، وهذا شيء معروف، ومَنْ أراد شيئًا من هذا فليراجع كتاب: «أهوال القبور» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره من الكتب المؤلَّفة في هذا الباب؛ ليعتبر ويتَّعظ، مع أنَّ الذي غُيِّب عنّا ولم نعلمه كثير، ولما مرّ الرسول ﷺ بقبرين، قال: «**إنهما ليُعذَّبان وما يعذَّبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»[٣].

---

(١) جزء من حديث: أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) جزء من حديث: أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فهذان سببان من أسباب عذاب القبر، فهذا مما أطلع الله نبيَّه ﷺ عليه، وقال: «**لولا ألَّا تَدافنوا لدَعوت الله أن يُسمعَكُم من عذاب القبر**»[1]، فهو ﷺ يطَّلع على أشياء قد أطلعه الله عَزَّوَجَلَّ عليها، وهذا معجزة له ﷺ، والبشر لا يطيقون سماع ومشاهدة ما أطلع الله سبحانه نبيَّه ﷺ عليه، وحجبها عنّا رحمة من الله بنا؛ ولكن هذه الأشياء تنكشف لنا عند الموت.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فالميت يُعاين عند الموت، ويُعاين الملائكة، ومنزلته عند الله إن كان من أهل الخير، وإن كان من أهل الشرِّ، فإنه يُعاين ما سيئول إليه مصيره من الشقاء والعذاب، وإذا وُضع في قبره فإنه يُعاين هذه الأمور، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، أما وإنه ما دام علىٰ قيد الحياة، فإن الله حجب هذه الأمور عنه رحمةً به، وإلَّا فلو دَرىٰ بها وعاينها لما عاش ولا تلذَّذ بأكلٍ ولا شُربٍ، ولا بأيِّ شيء من ملذّات الحياة الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[حُرمة التألِّي على الله تعالى]

١٦- وَلِمُسْلم[(١)] عَنْ جُنْدبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ».

الشَّرح

في هذا الحديث: بيان مدىٰ سعة مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ينبغي ألَّا يقنط أحد من رحمة الله، ولا أن يُقنِّط أحدٌ أحدًا من رحمة الله وعفوه، وإنما ينبغي الحَثُّ علىٰ التوبة والاستغفار، ويدخل في ذلك الكافر؛ حيث ينبغي حثُّه علىٰ التوبة، وعلىٰ الدخول في الإسلام وترغيبه في دخول الجنة والنجاة من النار، ومن باب أَولىٰ عدم تقنيط المؤمن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ إذا ما رُؤي علىٰ معصية، وإنما الواجب حثُّه علىٰ التوبة والاستغفار وتخويفه من العذاب، وأما الجزم بأنه لن يُغفر له والحَلِف علىٰ ذلك، فهذا من باب الإساءة في حقِّ الله تَعَالَىٰ، كما أن فيه تقنيطًا من رحمة الله -جل وعلا-، مع أن هذا القائل لهذه العبارة كما ورد في الحديث إنما قالها من باب الغَيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه رأىٰ أخاه علىٰ المعصية فنهاه؛ ولكنه أَبىٰ أن يترك المعصية، فعند ذلك غضب عليه، وقال: «**والله لا يغفر الله لفلان**». ولكن الله قال: «**مَنْ ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ**». وهذا استنكار منه -جلَّ وعلا- لما قاله.

وقوله: «**يتألّىٰ**» يعني: يحلف «**عليَّ ألَّا أغفر لفلان، إني قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك**». لما أساء الأدب مع الله وقنَّطَ من رحمته -جل وعلا-، وقد قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلما قنَّط من رحمة الله، فإنه سبحانه أحبط عمله.

---

(١) برقم (٢٦٢١).

فهذا الحديث فيه مسائل:

أولًا: بيان مدىٰ سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ينبغي للعاصي ألَّا يقنط منها؛ ولكن ليس معناه أن يُقيم علىٰ معصيته، فإذا كان يريد الرحمة، فإنه يتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينبغي له أن يرجو رحمة الله وهو مقيم علىٰ المعاصي، فهذا أمر لا يجوز، وهو في هذه الحالة قد أمِنَ من مكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثانيًا: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يُقنِّط الناسَ من رحمة الله مهما رأىٰ عليهم من المعاصي والمخالفات، ولكن يدعوهم إلىٰ الله ويأمرهم بالتوبة، ويُحبِّبهم بها ويُرغِّبهم في ثواب الله وفضله، وألَّا يحلف أنه لن يُغفر لهم.

ثالثًا: أنه لا يجوز الحَلِفُ علىٰ الله في منعه -جلَّ وعلا- من فِعْل المغفرة والإفضال علىٰ عباده، وأمَّا الحَلِف علىٰ الله علىٰ أن يفعل الخيرَ ويُنزله، فهذا لا بأس به، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسَمَ علىٰ الله لأبرَّه**»[(١)]. وهذا في الرّجاء، وحُسن الظنِّ بالله -جل وعلا-، فإذا حَلَفَ المسلم علىٰ الله بأن يفعل الخيرَ ويغفر لعباده ويرحمهم، اعتُبر هذا من باب حُسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وليس هو من سوء الظنِّ به عَزَّوَجَلَّ، هذا الفرق بين الحالتين، وهذا الجمع بين الحديثين؛ حديث: «**والله، لا يغفرُ الله لفلانٍ**»، وحديث: «**إنَّ مِنْ عباد الله مَنْ لو أقسم علىٰ الله لأبره**». فالأول أحبط الله عمله، والثاني في الرجاء وحُسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: وفي الحديث خطر الكلام السيِّئ، وأنه علىٰ المسلم أن يحفظ نفسَه من الانزلاق في الكلام السيئ في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو في حق العباد، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فعلىٰ المسلم أن يحفظ لسانه من أن يقول كلمة واحدة، فيكتب الله له بها غضبه إلىٰ يوم يلقاه، قال أبو هريرة عند هذا الحديث: والذي نفسي بيده لَتكلَّم بكلمة أوبَقتْ دُنياه وآخرتَهُ[(٢)]؛ ففيه خطر اللسان،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

فعلىٰ الإنسان أن يحفظ لسانه من الكلام السيئ؛ لأنه ربما يقول كلمةً تُحبط عمله، فلا يتساهل الإنسان بالكلام؛ وفي الحديث: «**وهل يُكبُّ الناسَ علىٰ وجوههم في النار -أو قال علىٰ مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**»(١).

والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت**»(٢).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[الترغيب في الجَمْع بين الخوف والرَّجاء]

١٧- وله(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ؛ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

الشَّرْح

إن الله -جل وعلا- واسع المغفرة، وهو شديد العقاب، فلو علم المؤمن ما عند الله من العذاب لما طمع في رحمة الله أحد، ولو علم الكافر ما عند الله من العفو والمغفرة لما قنط من رحمته أحد، فهذا فيه دليل علىٰ سعة رحمة الله -تبارك وتعالىٰ-، وعلىٰ شدَّة غضبه، وأن سعة الرحمة لا تحمل المؤمن علىٰ الأمن من مكر الله، والتساهل في عمل المعاصي والسيئات.

وأنَّ الخوف من عذاب الله لا يَحمل العبدَ علىٰ القنوط من رحمة الله، فيترك التوبة والاستغفار ظنًّا منه أنه لن يغفر له، أو أن يدفع هذا الأمر أحدًا لتقنيط الآخرين من رحمته تَعَالَى، فمثل هذا لا ينبغي لأحد؛ لأنه -جلَّ وعلا- فتح بابه للتائبين، وهو سبحانه بيَّن عذابه، وشدَّة غضبه، وهذا من حِكْمته تَعَالَى من أجل أن يُرغِّب العباد في الأعمال الصالحة ويُنفِّرهم من الأعمال السيِّئة.

ولهذا فإن القرآن الكريم مليء بآيات الوعد والوعيد، وغالبًا ما يأتي ذِكْر الجنَّةِ بعد ذِكْر النار، فيذكر سبحانه النار، وما اشتملت عليه من العذاب، ثم يذكر الجنة وما فيها من النعيم، فتجد هذا في الآيات المتجاورة، والحِكْمة في ذلك دَفْع العبد للخوف والرجاء، فإنه إذا قرأ عن النار وعرف ما فيها من العذاب لعلَّه يتوب إلىٰ الله ويستغفره ولا يقنط من رحمته، وإذا قرأ عن الجنة وما فيها من النعيم لعلَّه يطمع في رحمة الله فيعمل الأعمال الصالحة، فإذا ذُكرت النار تاب من الذنوب، وإذا ذُكرت الجنة أكثر من

(١) مسلم (٢٧٥٥).

عمل الحسنات، هذه هي حِكْمة الله ﷻ في كونه يجمع بين الأمرين.

وكذلك فإنه ينبغي علىٰ الدُّعاة والوعّاظ ألَّا يعتمدوا علىٰ آيات الوعيد فحسب، وألَّا يُبالغوا في تخويف الناس، وإنما عليهم أن يبادروا إلىٰ فتح باب الرَّجاء والطمع في رحمة الله.

وعليه فإن الأصل في ذلك ترغيبهم وترهيبهم، فيجمعون بين هذا وهذا، وعدم اقتصارهم علىٰ ذِكْر آيات العذاب والوعيد، أو الاقتصار علىٰ ذِكْر آيات الرحمة والثواب، هذا هو المطلوب من الدُّعاة والوعّاظ، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر.

[بيانُ مدى قرب الجنَّة والنار من العبد]

١٨- وللبخاريِّ(١)، عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

الشَّرح

هذا الحديث في بيانِ مدىٰ قُرب الجنَّة من الإنسان، وقُرب النار منه كذلك، وذلك أنه إذا مات الإنسان، وكان صالحًا دخل الجنة، وإن كان غير صالح دخل النار، والموت قريب من الإنسان، فربما يكون في لحظة، فيئول أمره؛ إمَّا إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار في لحظةٍ واحدة، فالجنةُ قريبة، والنار كذلك، فلا ينبغي للعبد أن يُوسِّع الأمل في هذه الدُّنيا، فيبسط النفس فيها، ويستبعد الموتَ، ومجيءَ يوم القيامة.

وفي قصة الرَّجلين اللذين مرّا علىٰ الصنم الذي لم يكن أحد يجوزه حتىٰ يقرّب له قربانًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب، فقال: لا أملك شيئًا أُقرِّبه، فقالوا: قرِّب ولو ذُبابًا؛ فقرَّب ذبابًا؛ فخلَّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر كذلك، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله؛ فقتلوه، فدخل الجنة(٢).

وقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **عند هذا الحديث:** «فيه: قُرب الجنة والنار من الإنسان». فأمر الجنة والنار قريب من الإنسان.

فينبغي عدم فتح باب طول الأمل من خلال استبعاد الموت ومجيء يوم القيامة، وبالتالي التمادي في الذنوب والغفلة عن الآخرة، وقدوم لحظة الموت، والأصل في ذلك هو الاستعداد دائمًا لذِكْر الجنة، واستحضار النار، وأنهما قريبتان من الإنسان، إذ

---

(١) برقم (٦٤٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠٣٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

ليس بينه وبينهما إلَّا قَبْض الروح، ثم المآل إلىٰ أحدهما، فتصوُّرُ الجنة يدخل بالعبد إلىٰ فِعْل الأعمال الصالحة، وتصوُّرُ النار يدفعه إلىٰ التوبة والاستغفار من الذنوب.

والحذر كل الحذر من أن يَفجأ العبدَ الموتُ، وهو علىٰ حالة غير مرضيَّة، فإذا وقع العبد في ذنب فلا ينبغي له الاغترار بصِغَر سنِّه وبطولِ الأمر زاعمًا أنه سيتوب إلىٰ الله إذا ما طال به العمر، وكأنه ضمِنَ أن ذلك سيكون وهو لا يدري أن هذا من تلاعُب الشيطان به، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. فهؤلاء سيتوب الله عليهم؛ ودلالة ذلك قوله -جلَّ وعلا-: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وأما الذي يفتح لنفسه باب الأمل، ويُسوِّف في التوبة بعدما غرَّر به الشيطان مزيِّنًا له أنه ما زال شابًّا في أول عمره، فيبدأ بتأجيل التوبة إلىٰ أن يصل إلىٰ آخر عمره فيحسن خاتمته بالتوبة المزعومة! فمَن الذي يضمن له أن عُمره سيمتد إلىٰ أن يَشيخ ويكبر؟ بل مَنِ الذي يضمن له أنَّه سيعيش بُرهةً من الزمن؟ فكم من إنسان فاجأه الموت، وهو جالس مع الآخرين في لحظة؟!! ولهذا نقول: إن الآجال بيد الله ﷻ، وقد أخفاها عنَّا، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ففي هذا الحديث: الحثُّ علىٰ تقوية اليقين؛ بقُرب الجنَّة والنار، وفيه: الحثُّ علىٰ المبادرة والإسراع بالأعمال الصالحة، والتوبة من الأعمال السيئة.

وفيه: أن النار والجنة يبدآن من حين موت الإنسان، ووضعه في القبر، فيأتيه نصيبه؛ إمَّا من الجنة، وإما من النار، ويصير قبره؛ إما روضةً من رياض الجنة، وإما حفرةً من حُفر النار.

والقبر هو أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد فما بعده أيسرُ منه.

[الحثُّ على الإحسان إلى المخلوقات]

١٩- وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا، رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ؛ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[١].

الشَّرْح

قوله: «أن امرأةً بغيًّا»: المرأة البغي: هي الزانية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور: ٣٣]. يعني: علىٰ الزنا، وهذه المرأة من بني إسرائيل ممن كان قبلنا، والنبيُّ ﷺ كان يحدِّث أحيانًا عن بني إسرائيل، بما فيه عِبْرة وعِظَة لنا، وهذه المرأة كان تمارس الزِّنا، وهو كبيرة من كبائر الذُّنوب وفاحشة، وقد كانت ذات يوم تسير في طريق فأدركها العطش، فنزلت في بئر لتشرب منه فشربت وصعدت من البئر، فلما خرجت منه رأت كلبًا يلهث من شدَّة العطش، وفي رواية: «يأكل الثَّرىٰ من العطش»[٢]. فرحمته، فنزلت في البئر مرة ثانية، «فنزعت مُوقَها».

والمُوق: وهو الخفّ الذي يُلبس علىٰ القدم، فنزعته، لعدم وجود الإناء الذي يُحمل فيه الماء، وملأته ماءً، وأمسكته في فمها، ثم صعدت من البئر فسَقت الكلب، فشكر الله لها هذا الإحسان إلىٰ هذه البهيمة فغفر لها هذه الخطيئة.

فهذا الحديث، فيه فوائد عظيمة:

منها: فَضْل الإحسان إلىٰ البهائم، وأنَّه يجب علىٰ الإنسان أن يُحسن إليها بإطعامها وسُقْيها وتقديم ما تحتاج إليه، وفيه: فَضْل سَقْي الماء للعطشان، والنبي ﷺ يقول: «**أيُّما مؤمنٍ سَقىٰ مؤمنًا شَربةً علىٰ ظمأٍ؛ سقاهُ الله يومَ القيامةِ من الرَّحيق المختوم**»[٣]. وكذلك البهائم.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (١٧٦١)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) هي عند البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) بذِكْر رجل من بني إسرائيل، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٠١)، والترمذي (٢٤٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وفي هذا الحديث؛ بيان سَعة رحمة الله تعالىٰ، وأنه يغفر الذنوب، ولو كانت كبائر دون الشِّرك؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما دون الشِّرك، فهذه امرأة تمارس كبيرةً قبيحة من كبائر الذنوب فغفر الله لها، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الخوارج الذين يَرَون أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام، فيكفر بذلك، وهذا مذهبهم.

والمعتزلة، يقولون: يخرج من الإسلام، ولا يدخل في الكفر؛ فيكون في منزلة بين المنزلتين، وهذا من أصول المعتزلة.

وأهل السُّنة والجماعة، يقولون: إن مرتكب الكبيرة التي دون الشرك لا يُكفَّر، ولكنه ينقص إيمانه بالذنوب، كما أنه يزيد إيمانه بالطاعات، فالإيمان يزيد وينقص، ولا يزول بالمعاصي التي دون الشرك وإن كانت كبائر؛ ولكنها تُنقص الإيمان، وهذا الحديث أصل من أصول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وبيان أن الله سبحانه يغفر له إذا شاء تعالىٰ.

وفيه: أن الحسنات يُذهبن السيئات، فهذه امرأة أحسنت إلىٰ هذه البهيمة، فسقتها علىٰ عطش، فأذهب الله عنها إثم هذه السيئة القبيحة بسبب الحسنة، والنبيُّ ﷺ يقول: «**وأَتبع السيئةَ الحسنةَ تَمحُها**»(١)، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ: وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «**في كل ذات كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ**»(٢)، يعني: سواء كانت الكبد الرطبة من الآدميِّين، أو من البهائم.

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- وَقَالَ: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا؛ لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ».

قَالَ الزُّهريُّ: لِئَلّا يَتَّكِلَ أحدٌ، ولا ييأسَ أَحَدٌ. أخرجاه[(١)].

الشَّرح

هذا الحديث علىٰ عكس الحديث الذي قبله، فهاهنا امرأة أساءت إلىٰ حيوان، فقد كان عندها هرَّة حبستها عن الخروج لطلب الرزق، ولم تؤمِّن لها ما يُبقي علىٰ حياتها حتىٰ هلكت هذه الهرَّة، وهذه جريمة، وإساءة إلىٰ هذا المخلوق، فدخلت النار بسبب هذه السيئة، وليس معنىٰ ذلك أنها كفرت، فقد يدخل النار مَنْ هو مؤمن، إذا كان عنده ذنوب؛ لكنه لا يخلّد فيها، فيعذَّب فيها إلىٰ ما شاء الله، ثم يخرج منها، فلا يُخلَّد في النار إلا الكفَّار.

قوله ﷺ : «**دخلت النار امرأة في هرَّة**»: هذا مثل ما سبق معنا في الحديث[(٢)]، أنه دخل رجل النار في ذباب، ودخل الجنة رجل في ذباب، وهنا ذكر أنه بسبب هرَّة دخلت المرأة النار «**حبستها**»؛ حيث لم تؤمِّن لها ما يكفيها من الطعام والشراب، فدلَّ هذا علىٰ أنَّ مَن أساء إلىٰ البهائم أنه يُؤاخذ، وأن عليه هذا الوعيد، فلا ينبغي أن يستخِفَّ الإنسان بهذه البهائم فيظلمها؛ لأن الظلم قبيح؛ سواء كان مع البهائم، أو مع غيرها.

وفي الحديث دليل علىٰ أنه يجوز حبس البهائم بشرط أن يؤمِّن لها ما يُبقيها علىٰ قيد الحياة من المأكل والمشرب، فهذه المرأة لو أمَّنت لها ما يكفيها لما دخلت النار، فدلَّ هذا علىٰ أنه يجوز للإنسان أن يحبس الطيور والبهائم؛ ولكن دون تعذيبها أو إهلاكها، أو تعريضها للخطر.

قوله: «**قال الزهري**»، هو: محمد بن شهاب الزهري، الإمام الجليل، وقوله: «لئلّا

---

(١) البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وقول الزهري عند مسلم ولم يذكره البخاري.

(٢) راجع (ص ٦٦) عند الحديث رقم (١٨).

يتّكِلَ أحد»: يعني: لئلا يتكلَ أحدٌ علىٰ عمله؛ بل ينبغي أن يخاف من الذنوب، وإن كان مؤمنًا، فهذه امرأة مؤمنة دخلت النار بسبب هرَّة، فلا ينبغي أن يأمَن المؤمن ويتّكل علىٰ عمله؛ بل يخاف أن يدخل النار.

وقوله: «**ولا ييأس أحد**»: لأجل أن هذه امرأة بغيٌّ، وكانت قد ارتكبت الكبائر من الذنوب، فلم تيأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وعليه فلا ينبغي للعبد أن ييأس من رحمته عَزَّوَجَلَّ بل عليه المبادرة إلىٰ التوبة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وحديث البغي يدلُّ علىٰ أن المسلم لا يقنط من رحمة الله، مهما بلغت ذنوبه، فإذا تاب إلىٰ الله تاب الله عليه، ومسألة الخوف والرَّجاء هي من أصول الإيمان، والخوف والرَّجَاء من أعظم أنواع العبادة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿رَغَبًا﴾ يعني: رجاء، ﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفًا، فيجمعون بين الخوف والرَّجاء، فلا يخافون فقط، ولا يرجون فقط، وإنما يجمعون بينهما، فمن خلال هذين الحديثين، يتبيَّن لنا هذا.

والشيخ لما ذكر الحديث الأول خاف علىٰ سامعه أن يتكل علىٰ ما فيه من سعة الرحمة، وعِظَم الرَّجاء فضَمَّ إليه حديث الهرَّة، الذي فيه التخويف ضدَّ ذلك؛ ليجتمع الخوف والرجاء.

[إثبات صفة العَجب لله تعالى]

٢١- وَعَنْهُ، مَرْفُوعًا: «عَجِبَ ربُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بالسَّلاسِلِ». رواه أحمد وَالبُخَاري [(١)].

الشَّرْح

قوله ﷺ: «**عَجِبَ ربُّنا**»: هذا فيه إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ، أي: أنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- يعجب، وهي صفة من صفاته تَعَالَىٰ، كما يليق بجلاله، وهذا العجب ليس كعجب المخلوق، وإنما هو عَجب خاصٌّ بالله تَعَالَىٰ كسائر صفاته.

وقوله: «**مِن قوم يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسلِ**»: أي: أنهم أُسروا وقُيِّدوا حال كونهم كفارًا في الجهاد في سبيل الله، ثم بعد ذلك أسلموا، فيكون هذا الأسر سببًا لإسلامهم، ومن ثَمَّ لدخولهم الجنَّة، فكان أسرُهم مصلحةً لهم، وهذا من العجائب؛ إذ لا أحد يرفض دخول الجنَّة، ولكن إذا كان الإنسان لم يعمل عملًا يؤهِّله لدخول الجنة فإنه لا يدخلها، فالكافر لا يدخل الجنة، ولكن إذا أراد الله له السعادة، فإنه قد يدخل الجنَّة بسبب يكرهه، فهو يكره الأَسر؛ ولكنه صار سببًا في سعادته، أسره المسلمون وقيَّدوه بالسَّلاسل، ثم إنه تاب وأسلم بسبب الأَسْر، فدخل الجنَّة، وهذا من العَجب!

فهذا الحديث فيه: إثبات صفة العجب لله تَعَالَىٰ، وهي صفة تليق بجلاله، وفيه: أن الإنسان قد يكره شيئًا، ويكون خيرًا له، وقد يُحبُّ شيئًا ويكون شرًّا له، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفيه: أن الجهاد في سبيل الله شُرع لغاية عظيمة، وهي إخراج الناس من الكُفْر إلىٰ

---

(١) أحمد في «المسند» (٨٠١٣)، والبخاري (٣٨٠)، وعنده: «يدخلون الجنة» بدل: «**يُقادون**».

الإيمان، وإنقاذهم من النار إلىٰ الجنة، فلم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل قَتْل الناس وسَفْك دمائهم، أو من أجل أَخْذ أموالهم، وسَبْي نسائهم، والاستيلاء علىٰ بلادهم، لم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل ذلك.

وإنما شُرع من أجل غاية عظيمة وهي: إخراج الناس من النار إلىٰ الجنَّة، ولو بالسلاسل، هذا هو غاية الجهاد في سبيل الله، وهو من مصلحة الناس؛ فالمؤمن ينال به الأجر والثواب والشهادة، وقد يكون الجهاد سببًا في دخول الكافر الإسلام، وإخراجه من الكُفْر إلىٰ الإيمان وبالتالي دخوله الجنة.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. أي: إذا دعاكم للجهاد، سمَّاه حياة.

[إثبات صفة الصَّبر لله تعالى]

٢٢- وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ». رواه البخاري[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: أنَّ الله تَعَالَىٰ يصبر علىٰ أذىٰ عباده.

والصبر معناه: الحبس، فالله -جلَّ وعلا- يصبر علىٰ أذىٰ عباده، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخِّرهم، فإن تابوا، تاب الله عليهم، وتأخيرهم إنما هو من باب الإحسان إليهم، وإعطائهم الفرصة والمراجعة، فلا يُعاجلهم بالعقوبة.

فهذا الحديث فيه: وصف الله بالصبر، وأنه تَعَالَىٰ يصبر، ومن أسمائه تَعَالَىٰ الصَّبور.

والصبور، معناه: شديد الصبر، الذي لا يُعاجل الناس بالعقوبة.

ومما يدلُّ علىٰ صبره سبحانه أن الناس يسبُّونه ويشركون به، ويعصونه، ومع ذلك يُغذِّيهم بالنعم، ويُعطيهم العافية، ويُحسن إليهم رحمةً بهم لعلهم يتوبون إليه تَعَالَىٰ.

وفي الحديث: أن الله يتأذَّىٰ بأفعال عباده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وفي الحديث الصحيح: «**يؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدهر، بيدي الأمرُ أقلِّبُ الليل والنهار**»[2]. والله يتأذَّىٰ بأفعال عباده؛ لكنه لا يتضرَّر، فلا تضرُّه المعاصي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [محمد: ٣٢].

---

(١) برقم (٦٠٩٩و٧٣٧٨)، وأخرجه مسلم (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالله لا يضرُّه أحد، ولا تضرُّه المعاصي، وإنما تضرُّ مَنْ فعلها، كما أن الطاعات لا تنفعه سبحانه، وإنما تنفع صاحبها، فالضرر بالمعاصي والنفع بالطاعات راجع إلىٰ العباد، أمَّا الله -جل وعلا- فلا تضرُّه معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن عباده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي، لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أفجَر قلب رجلٍ واحد ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا**»(١).

ففي هذا الحديث: أن الله يتأذىٰ بأفعال عباده من الكُفْر والمعاصي.

وفيه: أنه تَعَالَىٰ يصبر عليهم، ويُمهلهم، ويُعاملهم بالإحسان مع أنهم يُعاملونه بالإساءة.

وفي الحديث: «**يا بن آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعد إليَّ، وأتحبَّب إليك بالنِّعم، وتتبغَّض إليَّ بالمعاصي**»(٢).

وقوله ﷺ: «**يدعون له الولد**»: هذا من أشد الكفر، والله -جل وعلا-: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣،٤]. وهو سبحانه منزَّه عن الولد؛ لأن الولد جزءٌ من أبيه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]. يعني: نسبوا له الولد؛ والولدُ يُشبه أباه؛ لأنه جزء منه، والله -جلَّ وعلا- لا شبيه له، ولو كان له ولد لصار شريكًا له في المُلْك، وهو سبحانه منزَّه كذلك عن الشَّريك والشرك.

والوالد يحتاج إلىٰ الولد، وهو سبحانه ليس بحاجة إلىٰ شيء، فله سبحانه مُلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٧) عن مالك بن دينار أنه قرأه في بعض الكتب.

السموات والأرض، فليس بحاجة إلىٰ الولد من أجل أن يُعينه أو ينفعه -تعالىٰ الله عن ذلك-؛ لكن مع هذا ينسب المشركون له الولد، فيؤذونه سبحانه وتعالى بذلك، وفي هذا بيان فَضْله سبحانه بالإحسان إليهم مع إساءاتهم بخلاف طبائع البشر، فلا يُوصف بالإحسان إلىٰ المسيء مثله سبحانه وتعالى.

[إثبات صفة الحبِّ لله تعالى]

٢٣- وله[١]، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ».

الشَّـرح

هذا الحديث فيه وصف الله تعالىٰ بأنه يُحبُّ كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. والله -جلَّ وعلا- يُحبُّ من عباده أهل الطاعة، وأهل الإيمان، فالحبُّ صفة من صفاته -جلَّ وعلا-، وهي صفة تليق بجلاله، وليست محبَّته كمحبة المخلوقين، فهو سبحانه يحبُّ، والمخلوق يحبُّ ولا تشبه محبَّة الخالق محبَّة المخلوقين، وهذا أصل متقرِّر عند أهل السنة والجماعة.

والله -جلَّ وعلا- يُحبُّ بعض عباده من أهل الطاعات والتقوىٰ، فإذا أحبَّهم نادىٰ الله تعالىٰ جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**يا جبريلُ، إن الله يحبُّ فلانًا، فأحبَّه، فيُحبُّه جبريلُ، ثم ينادي جبريلُ في السماء: إن الله يُحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء**».

وهذا فيه دليل علىٰ أنه يجب أن نُحبَّ مَنْ يُحبُّه الله، والله يُحبُّ التوابين ويُحبُّ المتطهّرين، فنحن نحبُّهم بحبِّ الله -جلَّ وعلا- لهم، ونبغض أهل الكفر والمعاصي، وهذا من الولاء والبَرَاء، فالملائكة تُحبُّ ما يُحبُّه الله، ونحن كذلك نحبُّ ما يحبُّه الله من الأعمال، ومن الأشخاص.

---

(١) برقم (٦٠٤٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٧).

وقوله ﷺ: «**ثُمَّ يُوضع له القبول في الأرض**»: أي: تُوضع له المحبَّة في قلوب الناس، فإذا رأيت شخصًا يُحبُّه الناس من أهل الخير والإيمان، فهذا علامة علىٰ أن الله قد أحبَّه وأحبَّته الملائكة، وإذا رأيت شخصًا يكرهه أهل الدِّين وأهل الإيمان، فاعلم بأن هذه علامة علىٰ أن الله يكرهه ويكرهه كذلك أهل السماء؛ والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي: محبَّة.

فالطاعات سببٌ لنَيْل محبَّة الله -جلَّ وعلا-، ومحبَّة الملائكة وأهل الأرض، والمعاصي علىٰ العكس، فهي سبب لبُغْض الله -جلَّ وعلا- لها ولصاحبها، وبُغْض أهل السماء وأهل الأرض له؛ ولهذا يقول ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

[إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة]

٢٤- وعن جرير بن عبد الله البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]». رواه الجماعة(١).

الشَّرح

هذا الحديث فيه: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا جلوسًا عند النبي ﷺ «**إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر**». يعني: ليلة التمام؛ إما ليلة الرابع عشر، أو الخامس عشر التي فيها يتكاملُ القمرُ؛ لأنه يبدو في أول الأمر هلالًا، ثم يكبر، ولا يزال يكبر حتىٰ يتكامل فيصير بدرًا كاملًا، ثم يأخذ في النقص حتىٰ يعود هلالًا في آخر الشهر.

وهذا من عجائبَ خَلق الله تَعَالَىٰ والحِكْمة في تقدير منازل القمر، هي لأجل أن يعرف الناس الحساب. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]

فقوله: «**إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر**»: أي: في حال تكامُله وبهائه وحُسنه، فقال: «**إنكم سترون ربّكم، كما ترون هذا القمر**». والقمر في ليلة البدر يراه جميع الناس، كلٌّ في مكانه دون أن يتزاحموا، فيراه أهل البرِّ وأهل البحر من غيرِ مزاحمة، فالمؤمنون يرون الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، وهذا معنىٰ قوله: «**لا تضامون في رؤيته**». وفي رواية تقرأ: «**لا تضامُّون**»؛ إذ يجوز ضمُّ التاء وفتحها، وهو بتشديد الميم، من الضم؛ أي: لا ينضم بعضكم إلىٰ بعض، فلا تتزاحمون لرؤيته؛ بل تستوون كلُّكم في رؤيته تعالىٰ؛ إذ من عادة الناس أنه إذا كان المرئيُّ شيئًا واحدًا أنهم يتزاحمون علىٰ

(١) البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣)، وأبو داود (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، وابن ماجه (١٧٧).

رؤيته؛ لكن الله -جلَّ وعلا- يُرىٰ يوم القيامة دون مزاحمة، فكلٌّ يراه وهو في مكانه، وهذا في المخلوق كذلك، فالقمر مخلوق من مخلوقات الله ومع ذلك يراه الناس من غير مزاحمة، وهذا من باب ضرب المَثْل ليُقَرِّب للناس معرفة هذا الشيء، فإذا كان المخلوق يراه الناس دون مزاحمة رؤيةً واضحة، فإن الربَّ ﷻ يراه المؤمنون يوم القيامة دون مزاحمة، وليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هو من باب تشبيه الرؤية بالرؤية، فهو سبحانه لا يُشبهه شيء؛ ولكن هذا من باب ضرب المَثْل لتشبيه الرؤية بالرؤية، لا من باب تشبيه المرئي بالمرئي؛ إذ قد يُشكل هذا علىٰ بعض الناس.

وقوله ﷺ: «**فإن استطعتم ألَّا تُغلبوا**»: أي: لا يغلبكم الشيطان، ولا تغلبكم النفسُ والأشغال الدُّنيوية «**علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس**». وهي: صلاة الفجر، «**وصلاة قبل غروبها**»، وهي: صلاة العصر، «**فافعلوا**»: أي: اجتهدوا في المحافظة علىٰ هاتين الصلاتين في وقتهما؛ لتَحْظَوا يوم القيامة برؤية الله -جلَّ وعلا-، فهاتان الصلاتان لهما فضيلة علىٰ غيرهما من الصلوات الخمس؛ قال تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. والصلاة الوسطىٰ هي: صلاة العصر، عطفها الله علىٰ الصلوات من باب عطف الخاص علىٰ العام، اهتمامًا بها.

وقوله: «**ثم قرأ ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾**»: يعني: صلِّ، والصلاة تسمَّىٰ تسبيحًا ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: أي: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: أي: صلاة العصر؛ والمراد: صلاتا الفجر والعصر؛ وصلاة الفجر يتهاون بها كثير من الناس، فينامون عنها، ولا يهتمون بها، وبعضهم لا يصليها أبدًا، فيذهب إلىٰ عمله وقد أهملها، فمثل هذا كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعضهم يصلي متىٰ قام من نومه، فصلاة هذا غير صحيحة؛ لكونه لم يصلِّ الصلاة التي أمر الله بها، وإنما صلىٰ صلاةً علىٰ اختياره هو، لا علىٰ اختيار الله -جلَّ وعلا-؛ فهي لا تُقبل؛ لأنه تعمَّد إخراجها عن وقتها، وإذا تعمَّد إخراجها عن وقتها فهي غير مقبولة، ولا تصح، وبعضهم يخرج من العمل بعد الظهر فيتناول غداءه وينام ويُهمل صلاة العصر، وهذا مضيع للصلاة، وربما لا يصليها أبدًا،

فمثل هذا كافر، وربما صلَّاها إذا استيقظ بعد الغروب أو وسط الليل، فهذا أيضًا لا تُقبل منه صلاته، فمثل هذه الصلاة علىٰ هذا النحو لم يشرعها الله ﷻ فلا يجوز له التلاعب في العبادة، ومثل هؤلاء يُحرمون من رؤية الله -تبارك وتعالىٰ- يوم القيامة.

فهذا الحديثُ حديثٌ عظيمٌ، يتضمن إثباتُ رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، وهي من أعظم النِّعم التي تُعطىٰ يوم القيامة؛ إكرامًا لهم، ولا شيء ألذُّ عليهم من رؤية ربِّهم ﷻ فهي ألذُّ عندهم من جميع النعيم والملذات التي هم فيها، ولذلك يمنحهم الله هذه الكرامة، فيرونه عيانًا بأبصارهم.

وفيه ضَرْب الأمثلة للأمور الغائبة بأمور محسوسة ومشاهدة من أجل تقريب المعاني، فالنبيُّ ﷺ ضرب المثال علىٰ الشيء الغائب بشيء حاضر محسوس؛ لئلّا يُقال: كيف سيرىٰ أهلُ الجنة كلُّهم ربَّهم -تبارك وتعالىٰ- وهو واحد، فلا يمكن هذا؟! فبيَّن الرسول ﷺ أن هذا أمكَن في المخلوق وهو القمر، فهو ممكن في حقّ الله -جل وعلا- من باب أولىٰ، ففي هذا إزاحة للإشكال، وإيضاحٌ بالمثال.

وفي الحديث: الحثُّ علىٰ المحافظة علىٰ الصلوات الخمس لاسيَّما الفجر والعصر، وأن ذلك سبب لرؤية الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة.

وفيه: أن مَنْ لم يحافظ علىٰ الصلوات الخمس، فإنه يحرم من رؤية الله يوم القيامة؛ نسأل الله العفو والعافية.

[انتصار الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائهم]

٢٥- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: «إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي؛ لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ». رواه البخاري [(١)].

الشَّرْح

هذا حديث عظيم، فيه: أن الله -جلَّ وعلا- يقول في هذا الحديث القدسي: «**مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**».

الولي: العالِم بالله، المواظب علىٰ طاعته، المخلص في عبادته، وهو المحبوب. ووليُّ الله: عبده الذي يُحبه ﷻ، وقد تقدَّم لنا أن الله يُوصف بأنه يُحب أهلَ الإيمان، فمَنْ أحبَّه الله، فهو وليُّ الله.

والوَلاية -بفتح الواو-: الحُبّ. وأما الوِلاية -بكسر الواو-، فهي: الوظيفة والإمارة، وأما الوَلاية -بفتح الواو-، فهي: المحبة.

وقد بيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- مَن هو وليُّه في كتابه العزيز، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢،٦٣]. هؤلاء هم أولياء الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾: فمَنْ

---

(١) برقم (٦٥٠٢).

اتصَّف بالإيمان والتقوىٰ فهو وليٌّ لله ﷻ، ومَنْ ترك الإيمان والتقوىٰ، فهو عدوٌّ الله، فإذا أردت أن تكون وليًّا لله فكن من المؤمنين المتقين.

فليست الوَلاية مجرَّد دعوىٰ باللسان، كقول اليهود والنصارىٰ، كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. فلو كنتم أولياء الله لما عذَّبكم، فالله ردَّ عليهم بأنهم ليسوا بمؤمنين ولا متَّقين، ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]. فدعوىٰ الوَلاية لا يثبت إلا بدليل وبرهان، فمَنْ كان تقيًّا ومؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ فهو وليٌّ لله، وأمَّا مَنْ كان بخلاف ذلك، فإنه عدوٌّ لله ﷻ.

فقوله: «**مَن عادىٰ لي وليًّا**»: أي: عبدًا محبوبًا لي من المؤمنين المتقين، «**فقد آذنته بالحرب**»: أي: أعلمته بأنّي أحاربه علىٰ عداوته لوليِّي، وإعلان الحرب من الله ﷻ بما يشاء من جنوده، فقد يحاربه بالأمراض وبالفقر، أو بموت الأحباب والأقارب، ويحاربه بكل المصائب، أو بتسليط الظَّلمة عليه، فله سبحانه جنود السموات والأرض؛ فهو سبحانه يحارب أعداءَه بجنوده التي هي جنود السموات والأرض، فقد نراهم وقد لا نراهم، فالذي يُعادي أولياء الله فإنه سبحانه يحاربه.

فهذا الحديث فيه: أنه لا يجوز محاربة أولياء الله ومعاداتهم، وأنَّ مَنْ عاداهم وآذاهم فإن الله ينتقم منه، فهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين بالاستهزاء والسُّخرية والتنقُّص منهم من خلال كتاباتهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، فيسخرون من أهل الدِّين والإيمان وأهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هؤلاء يتناولهم هذا الحديث، والله ينتصر لأوليائه، فينبغي عدم إيذاء أولياء الله، وعدم التنقُّص لهم، أو التعرُّض لهم بأيِّ نوع من أنواع الأذىٰ.

وقوله: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه**»: هذا فيه -كما سبق- إثبات صفة الحبِّ لله -جلّ وعلا-، وأنه سبحانه يحب الأشخاص والأعمال الصالحة التي تُعمل من قِبَلهم، وفيه: أن الفرائض أحبُّ إلىٰ الله من النوافل؛

فينبغي علىٰ الإنسان أن يحافظ علىٰ الفرائض أولًا، ثم يأتي بالنوافل أمَّا أن يأتي بالنوافل ويترك الفرائض، فهذا علىٰ عكس ما يحبُّه الله تعالىٰ، وهذا لا ينفعه، إذن: لا تُقبل النوافل إلَّا بعد أداء الفرائض، فينبغي للمسلم الاهتمام بأداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، ودفع الزكاة، وأداء فريضة الحج، وكل ما افترضه الله عليه كالبرِّ بالوالدين، والإحسان إلىٰ الأقارب.

فالأصل في هذا هو أداء الفرائض أولًا، ثم بعد ذلك التزُّود بالنوافل، هذا هو الأساس للأعمال الصالحة.

وقوله: «**وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّىٰ أحبَّه**»، والنوافل: هي العبادات غير المفروضة؛ سواء في الصلاة، أو في الصدقات، أو في الصيام، أو في الحج والعمرة، فكل عمل صالح ينقسم إلىٰ قسمين: فرائض، ونوافل، فيُبدأ بالفرائض أولًا، ثم بعد ذلك يأتي بالنوافل، فينبغي التقرُّب إلىٰ الله بالوصول إليه من خلال هذه النوافل.

وأما عصيانه، فإنه يؤدي إلىٰ الابتعاد عنه -جلَّ وعلا-، فالتقربُّ إلىٰ الله إنما يكون بالطاعات، والابتعاد عنه -جلَّ وعلا- يكون بعمل المعاصي.

وقوله: «**حتىٰ أُحبَّه**»: فكما ذكرنا فيه إثبات صفة الحبِّ لله -جلَّ وعلا-، وأنه يُحب عبده الذي يتقرب إليه بالفرائض أولًا، ثم بالنوافل.

وقوله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به**»: ومعنىٰ ذلك كما فسَّره في آخر الحديث، بقوله: «**ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»: فآخر الحديث يفسِّر أوله، والمراد: أن الله -جل وعلا- يكون معه معيَّة خاصة فيُسدِّده في أقواله وفي أفعاله؛ هذا معنىٰ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به...**» إلخ. وليس معناه: أنه -جلّ وعلا- معه معيَّة حسيَّة تقتضي المخالطة؛ أو يختلط في جسمه كما تقوله الحلولية والبهائية مما يُعتبر من الكُفْر والإلحاد؛ ولكن معناه: أنه سبحانه يكون معه معيَّة خاصة تقتضي التوفيق والهداية والتسديد في جميع تصرُّفاته، وهذا نتيجة محبَّة الله له، وهذا كلُّه حاصل من التقرُّب إلىٰ الله -جلَّ وعلا- بالفرائض

والنوافل؛ ففيه فضل التقرُّب إلىٰ الله بالفرائض والنوافل.

وقوله: «**وما تردَّدت عن شيء أنا فاعلُه، تردُّدي عن قَبْض نفسي عبدي المؤمن**»: الله -جلَّ وعلا- يُحبُّ ما يحبه عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، فالمؤمن يكره الموت، والله -جلَّ وعلا- يكره له ذلك، ولكنه لابدَّ منه؛ ولهذا قال: «**ما تردَّدتُ**». والترددُ يكون بين شيئين؛ ولكن الله -جلَّ وعلا- لا يتردد، وإنما معناه كرهت.

وهو ما جاء في آخر الحديث، والمراد: ما كرهت شيئًا أشدَّ من قبض روح المؤمن؛ لأن الإنسان بطبيعته يكره الموت، وحتىٰ البهائم تكره الموت؛ ولكن لابدَّ له منه؛ وقوله: «**وأكره مساءَته**» يُفسِّر قوله: «**ما تردَّدت**»: فالحديث يفسِّر بعضه بعضًا، فإما أن يكون في حديث واحد، أو في حديث آخر، وكذا كلام الله يُفسِّر بعضه بعضًا، ومثل هذا يحتاج إلىٰ فِقْه وعدم استعجال في الفَهْم.

[إثبات نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا]

٢٦- وعنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي؛ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». مُتَفَقٌ عَلَيْهِ[١].

الشَّرح

الله -جَلَّ وعلا- موصوفٌ بالعُلوِّ فوق مخلوقاته، وموصوف بالاستواء علىٰ العرش، وموصوف بأنه ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا، وكلُّ هذا نُثبته لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه جاء بأدلة صحيحة، فنثبت لله العُلو، ونثبت له الاستواء علىٰ العرش، ونثبت له سبحانه النُّزول إلىٰ سماء الدُّنيا، كما جاء عن رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فنحن نثبت نزول الله تعالىٰ إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة، كما صحَّ في الحديث، ولا ندخل في تأويل ذلك أو في استنكاره؛ بل نثبت ما أثبته الله -جلَّ وعلا- لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، كما جاء دون الدُّخول في الكيفية، فلا نقول: كيف ينزل؟ وهل ينتقل من مكان إلىٰ مكان؟ ونحو هذه الأسئلة التي لم نكلَّف بها، ولا فائدة منها، ولكن نقول: ينزل كيف يشاء تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكيفية النزول لا يعلمها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك الاستواء، فلا نعلم كيفية استوائه -جلَّ وعلا-.

ولما سأل رجل الإمام مالك بن أنس، قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. كيف استوىٰ؟ قال الإمام مالك -بعدما أخذته الرُّحضاء- ثم أطرق رأسه حياءً من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثم رفع رأسه-: يا هذا! الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر به فأُخرج من المجلس.

---

(١) البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

هكذا كان السلف الصالح يثبتون ما أثبته الله لنفسه علىٰ معناه الصحيح الذي جاء به، ولا يتعرضون للكيفية، ونحن نثبت النزول كما نثبت الاستواء، والعلوَّ لله ﷻ، ونقول: الله أعلم بكيفية نزوله واستوائه.

فقوله: «**ينزل إلىٰ سماء الدنيا**»: فيه إثبات النزول لله -جلَّ وعلا-، وهو أمر متواتر عن الرسول ﷺ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلَّفًا مستقلًّا علىٰ هذا الحديث سماه: «شرح حديث النزول»، وهو مطبوع، ومنتشر -ولله الحمد- وهو من عقيدة أهل السنة والجماعة.

وقوله ﷺ عن ربِّه -أنه يقول-: «**مَن يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»: فيه فضل وقت آخر الليل، أي: الثلث الأخير منه، وفضل قيام العبد في هذه الفترة وصلاته ودعائه واستغفاره وتوبته وسؤاله لربِّه من أجل أن ينال هذه الكرامات من الله -جلَّ وعلا-، فلا تمرُّ عليه هذه الفترة، وهو نائم؛ بل يقوم في الثلث الأخير من الليل ويتعرض لنفحات الله، ويحظىٰ بهذه الإجابات منه ﷻ.

وأهل التأويل يئولون هذا الحديث، بقولهم: إنما ينزل أمرُه إلىٰ سماء الدُّنيا! ونحن نقول: هل الأمر الذي أوَّلوا به النزول يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ أو مَنْ يسألني فأعطيه؟ وهل الأمر يغفر؟ وهل الأمر يجيب الدعاء، ويتوب علىٰ التائب؟! ما أقبح هذا التأويل! فالحديث واضح في أنَّ الله ينزل بذاته نزولًا حقيقيًّا لا أمرُه، إذ إنَّ أمرَه ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا وإلىٰ الأرض كل وقت وليس في وقت مخصوص، والواجب علينا -والحالة هذه- الإيمان بما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وألَّا ندخل في الكيفية.

وبعضهم يُورد شُبهة أخرىٰ في هذا الحديث، ويقول: ثلث الليل الآخر، يختلف باختلاف الأقاليم! نقول: إن هؤلاء يبحثون في أمور لم يكلفهم الله بالبحث فيها، فالذي خلق الليل والنهار وخلق الأقاليم قادر علىٰ أن ينزل نزولًا يليق بجلاله، متىٰ شاء وكيف شاء ﷻ، فالله -جلَّ وعلا- قادر علىٰ كل شيء، فهو سبحانه أخبرنا أنه ينزل، فنقول: يَنزل؛ سواء اختلف الليل، أو اختلفت الأقاليم، والله تعالىٰ أعلم.

٢٧- وعن أبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». رواه البخاري[(١)].

الشَّرْح

الجنّات كثيرة، فهناك جنة عدن، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وهناك جِنان كثيرة، وأعلاها الفردوس، وفي الحديث: «إذا سألتم الله فسَلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ»[(٢)].

والجِنان مخلوقة، فمنها ما هو مخلوق من ذهب كله بآنيته وما فيه، ومنها ما هو مخلوق من فضة آنيته وما فيه، والمؤمنون ينزلون في الجنان بحسب أعمالهم.

ففي الحديث: إثبات الجنان، وهي من أمور الآخرة، ومن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تَعَالَىٰ، فنؤمن بوجود الجنَّة، وبوجود النار، ونؤمن بما يكون يوم القيامة بجميع ما أخبر الله -جلَّ وعلا-، وما أخبر عنه رسوله ﷺ، فما صحَّ في الخبر نؤمن به.

والشاهد في الحديث: بيان أنه ليس بين أهل الجنة، وبين أن يروا ربَّهم إلا أن ينزع سبحانه الحجاب، فهذا فيه إثبات الرؤية كما سبق، وأن المؤمنين يَرون ربَّهم.

وفيه إثبات الحجاب لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه اتخذ الحجاب، فإذا شاء سبحانه وأراد إكرام المؤمنين حفَّهم برأفته، وتفضَّل عليهم ونزعه فرآه المؤمنون.

---

(١) برقم (٤٨٧٨، و٤٨٨٠)، وأخرجه مسلم (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بـاب

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب: قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾»: أي: بيان تفسير هذه الآية، وما جاء بمعناها من الأحاديث الصحيحة؛ لأن القرآن العظيم يُفسَّر بالقرآن، فإذا لم يوجد في القرآن تفسير، فإنه يُفسَّر بالسُّنة الثابتة عن الرسول ﷺ، وهذه الآية جاء تفسيرها في السُّنة.

فقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: يعني: الملائكة إذا سمعت كلام الربِّ ﷻ، فإنه يُصيبهم فزع وخوف من الله -جلَّ وعلا-؛ لأن كلامه عظيم ترعد له السموات، ولو أنزل الله القرآن علىٰ جبل لأصبح خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، فكلامه سبحانه له هيبة وعظمة وجلال.

فإذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السموات منه رعدة شديدة وهي جماد، فإذا سمع ذلك الملائكة صُعِقوا وأصابهم غشيٌ وخرُّوا لله سجدًا؛ تعظيمًا له ﷻ، وهيبة من كلامه، وخوفًا من غضبه، هذا كلام الله الذي هو بين أيدينا الآن، ولا نحرِّك معه ساكنًا إذا سمعناه أو قرأناه وذلك لقسوة قلوبنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو كانت القلوب حيَّةً لأصابها الخوف والإجلال والتعظيم لكلام الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢١].

فالجبل أَلينُ من قلوب بني آدم، وهذا من العجائب؛ لكن ما السَّبب الذي جعل القلوب هكذا؟! إنها الذُّنوب والمعاصي والغفلة عن ذِكْر الله، وأكل الحرام والاشتغال بالقيل والقال والضحك والمُزَاح، كل هذه الأمور من شأنها أن تُقسِّي القلوب، فإذا

سَمعت هذه القلوب كلام الله، فإنها لا تتأثر ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ مع أن السموات علىٰ عظمها ترعُد من كلام الله، والملائكة تُصعق وتَخِرُّ ساجدة لله -جل شأنه- عند سماع كلامه.

ثم إن الملائكة يتساءلون إذا ذهب عنهم الفزع: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يسألون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمين الوحي، فيقول جبريل: قال الحق، فإذا سمعوا ذلك: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فهذا فيه بيان عظمة كلام الله -جلَّ وعلا-، ووَجَل الملائكة والسموات والمخلوقات العلوية منه.

[بيان افتراء الكهنة وكذبهم]

٢٨- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حدَّثني رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ -من الأنصار-: «أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟ قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ، أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ. فَقَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُرْمَ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ؛ وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّوَجَلَّ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، حَتَّىٰ يُسَبِّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ، الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، فَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيُلْقُونَهُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ الْحَقُّ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ، ويَزِيدُونَ». رواه مسلم، والترمذي، والنسائي [(١)].

الشرح

قوله: «حدثني رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ». كونه قال: «من أصحاب النبي ﷺ». فهذا لا يحتاج إلىٰ بحث؛ لأن الصحابة كلهم عدول، فالجهالة في اسم الراوي لا تضرُّ، إنما المجهول إذا كان من غير الصحابة فإنه يُبحث عنه، وأما المجهول من الصحابة فلا حاجة للبحث عنه؛ لأن الله سبحانه عدَّلهم ومَدَحهم وأثنىٰ عليهم، وكذا النبي ﷺ مدحهم، وأثنىٰ عليهم.

قوله: «رُميَ بنجم»: أي: بشهاب، والمراد: رجْم الشُّهب التي تُرمىٰ بها الشياطين التي تحاول استراق السمع، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا

(١) مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٠٨).

مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦-١٠]. ورميُ الشُّهب من السماء سببه أنه رجوم للشياطين.

قوله: «**فقال ﷺ : ما كنتم تقولون إذا رُميَ بمثل هذا؟**» يعني: في الجاهلية؛ لأن رمي الشُّهب متكرِّر، وهو في الجاهلية، وهو في الجاهلية أكثر، فكانوا في الجاهلية يعتقدون اعتقادًا سيئًا، فيقولون: إنه إذا رُمي بالشهاب فإنه سيموت عظيم، أو سيُولد عظيم، هذا ظنُّهم وتخرُّصهم، كما كانوا يعتقدون ذلك، إذا ما كُسفتِ الشمس أو خُسف القمر، فبيّن ﷺ كذب هذا الزعم وأنه غير صحيح، وأن هذه الشُّهب ليست لولادة أحد أو لموت أحد، وإنما هي لأمر أعظم من ذلك.

قوله: «**فقال ﷺ : إنها لم تُرم لموت أحدٍ ولا لحياته**» في هذا تصحيح منه ﷺ لاعتقادهم، وفيه تعليم الجُهّال، ولاسيَّما في المناسبات الشبيهة بهذه.

قوله: «**ولكن ربنا إذا قضىٰ أمرًا سبَّحت حَمَلة العرش**»: إذا قضىٰ أمرًا ﷻ من الأمور التي ستحدث في هذا الكون مما قضاه وقدَّره، فإن الملائكة الذين يحملون العرش يشرعون بالتسبيح، وهذا فيه أن كلَّ شيء يحدث في هذا الكون إنما هو بقضاء وقدر من الله ﷻ ، فلا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه الله ﷻ وقضاه وأراده وقدَّره؛ وفي هذا إثبات القدر.

قوله: «**حتىٰ يُسبِّح أهل السماء الذين يلونهم**»: هؤلاء الملائكة إذا سمعوا كلام الله، فإنهم يسبِّحون له؛ أي: يُنزِّهونه -جلَّ وعلا- عن النقص والعيب، فيشتغلون بالذِّكر.

وقوله: «**حتىٰ يبلغ التسبيح أهلَ السماء الدُّنيا**»: هذا فيه أن السموات معمورة بالملائكة، فكلُّ سماء لها ملائكة خاصُّون يسكنونها، وهي سبع سموات، والملائكة هم عمَّار السموات بالعبادة والتسبيح والتهليل، ومنهم حملة العرش.

وقوله: «**فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟**»: هذا فيه إثبات وجود حملة العرش، وهم أربعة ملائكة، ولا يعلم عِظَم خِلْقَتِهم إلا الله ﷻ ، ثم إنه يوم القيامة

عند قيام الساعة يضاعف عددُهم فيكونون ثمانية؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. زاد عددهم الضعف للهَوْل الذي يحصل.

وقوله: «فيستخبر أهل السموات بعضُهم بعضًا»: يسأل بعضهم بعضًا: ما الذي قضاه الله؟ وما الذي قاله -جلَّ وعلا-؟

وقوله: «حتىٰ يبلغ الخبرُ أهل السماء الدنيا»: السماءُ الدُّنيا هي التي تلي الأرضَ، فحينما يتكلمون، فإن الشياطين تسترق السمع فترتفع في العَنان، ويركب بعضُهم بعضًا حتىٰ يصلوا إلىٰ الجوِّ قُرب السماء؛ ليستمعوا ماذا تقول الملائكة.

وقوله: «فتَخطف الجِنُّ السَّمع فيُلقونه إلىٰ أوليائهم»: فهؤلاء الجنُّ يحاولون استراق السَّمع فيُرمون بالشُّهب، ولا يُدركون ما أرادوا إلَّا في بعض الأحيان، فقد يخطف الشيطان كلمةً من كلام الملائكة، ثم يُلقيها إلىٰ وليِّه من بني آدم من الكهنة؛ لأن هؤلاء الكُهَّان يأخذون عن الشياطين؛ قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، فإذا حصل الشيطان علىٰ هذه الكلمة ألقاها إلىٰ الكاهن من بني آدم، ثم الكاهن يكذب معها مائة كذبة، ويحدِّث بها فيُصدِّقه الناس في كلِّ ما قال من الكذب بسبب الكلمة التي سمعها الشيطان من كلام الملائكة.

وقوله: «فما جاءوا به علىٰ وجهه، فهو الحقُّ»: يعني: يصدُق في كلمة واحدة وهي التي سمعتها الشياطين، ثم قال: «ولكنهم يَقْرِفون ويزيدون»: أي: ولكن الكهنة يزيدون علىٰ الكلام الذي يسمعونه كما جاء في الحديث، أنه: «يكذب مع الكلمة الواحدة مائة كذبة»(١). فيحدِّث بها الناسَ فيُصدِّقونه في كل ما قال بسبب كلمة واحدة ويقبلون منه التسع والتسعين من الكذب؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

والرسول ﷺ قد بيَّن للصحابة، ولغيرهم من المسلمين إلىٰ أن تقوم الساعة سبب

(١) انظر: البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رَمْي الشُّهب، وأنه ليس كما تقوله الجاهلية إنما كان لموت عظيم أو لولادة عظيم، وإنما كان ذلك بسبب محاولة اختراق الشياطين للسمع، وأنهم يُرمون بهذه الشُّهب، هذا ما يدلُّ عليه هذا الحديث.

وفي الحديث أيضًا: إثبات صفة العُلوِّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فوق مخلوقاته علىٰ عرشه.

وفيه: أن السموات معمورة بالملائكة، كل سماء مملوءة بالعُمَّار من الملائكة الذين يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويمتثلون ما يأمرهم به.

وفيه: إثبات القضاء والقدر، وفيه تفسيرٌ للآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] . كما يأتي هذا في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التالي.

٢٩- وعن النَّواسِ بنِ سَمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ-؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ، صُعِقُوا، -أَوْ قَالَ: خَرُّوا- للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا، يَا جِبْرَائِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ، مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رواه ابن جرير، وابن خزيمة، والطبراني، وابن أبي حاتم واللفظ له[1].

الشَّرح

قوله: «إذا أراد الله»: هذا فيه إثبات الإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: «تكلَّم بالوحي»: فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ «أخذت السموات منه رجفة -أو قال: رِعْدة- شديدة»: السموات -وهي جماد- ترتجف وترعد من خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعظيم كلامه -جلَّ وعلا-.

وقوله: «صعقوا»: يعني: أصابهم الغشيُ من هيبة الله -جلَّ وعلا-، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ هذا لما تجلَّى الله للجبل، واندكّ ذلك الجبل خرَّ موسى على الأرض صعقًا من شدَّة الهول والخوف من الله تعالى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الصعق ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وكذلك الملائكة إذا أُزيل الفزع الذي أصاب قلوبهم، أخذوا ينادون جبريل، ويسألونه.

وقوله: «فيكون أول مَنْ يرفع رأسه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ»: لأنه أمين الوحي، والسفير بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين رسله بالوحي، وهو أشرف الملائكة سمَّاه الله أمينًا، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ

(١) ابن جرير الطبري في «تفسير» (١٠/ ٣٧٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير» ابن كثير (٣/ ٧٠٧)

﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّل بالوحي، وهذا يدلُّ علىٰ شرفه وفَضْله -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: «**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**»: هذا فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، فيكلم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي الذي يوحيه إلىٰ أحد أنبيائه.

وقوله: «**ثم يمرُّ جبرائيل علىٰ الملائكة، كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها، ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟**»: هذا فيه اهتمام الملائكة بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه فضل جبريل كونه هو الذي يحمل الوحي، اختُصَّ بذلك من بين الملائكة، حتىٰ إن الملائكة يسألونه سؤال المتعلِّم للعالِم.

وقوله: «**فيقول: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير**»: يقول جبريل بعد ما سأله الملائكة: «ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟». فيُجيبهم «فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل». وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن كلامه حقٌّ لا يعتريه الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله: «**فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبرائيل**»: أي: قالوا كلهم: «**قال الحقَّ، وهو العليُّ الكبير**»: هذا تفسير آية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. أي قالوا: قال اللهُ الحقَّ.

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ**»: أي: ينتهي به جبريل إلىٰ ما أمره الله من تبليغ الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن جبريل هو الوسيط بالوحي بين الله عَزَّوَجَلَّ، ورسله -عليه الصلاة والسلام-؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. واليهود يُعادون جبريل، فقد قالوا للرسول ﷺ: لو كان الذي يأتيك غير جبريل لآمنَّا بك؛ لأن جبريلَ عدوٌّ لنا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

فهذا القرآن ليس من كلام جبريل، وإنما هو من كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿مَن

كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨]. هذه مقالة اليهود، وهناك من الطوائف الضالَّة المنحرفة مَنْ يقول بقول اليهود، ويقولون: إن جبريل خان الرسالة؛ لأنها لعلي بن أبي طالب، ولكن جبريل صرفها لمحمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين -قبحهم الله- لأنهم هم أنفسهم منحدرون من اليهود، فهذه مقالة اليهود تمامًا.

بـاب

قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

الشَّرْح

هذا الباب جاء في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وتفسير هذه الآية جاء في السُّنة كما في صحيح مسلم[١]: «**يطوي الله عَزَّوَجَلَّ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا المَلِك، أين الجبّارون، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»: ويكرِّر هذا فلا يُجيبه أحد، كما جاء في حديث آخر[٢]، فيجيب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ولا أحد يعترض علىٰ هذا، كلٌّ مقرٌّ بأنَّ الملك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا من توحيد الرُّبوبية وهو مُقرَّة به جميع الأمم، وأن المُلْك اليوم لله، ولكنهم في حياتهم الدُّنيا كانوا يعبدون معه غيره، يزعمون أن هؤلاء شفعاء ووسائط عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإلَّا فهم يعرفون أنَّ هذه المعبودات ليس لها من الملك شيء، وأن الملك لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) برقم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «المستدرك» للحاكم (٢/ ٤٧٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[قَبْض الله تعالى الأرض وطيُّ السماء بيمينه]

٣٠- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟». رواه البخاري(١).

الشَّـرْح

وهذا تفسير آخر للآية فيه: أن الله -تبارك وتعالىٰ- يقبض الأرض، ويطوي السماء بيديه ﷻ، وفي هذا دليل علىٰ عظمة الله -جلَّ وعلا-، وأن هذه المخلوقات حقيرة قياسًا بعظمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧]. أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ حيث إنهم كذَّبوا رسله وأشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ وعبدوا غيره، وأنكروا كلامه، وأنكروا أسماء الله وصفاته، وتجرءوا علىٰ حرماته، وتركوا طاعته، كل هؤلاء ما قدروا الله حقَّ قدرِهِ. وهم الكفَّار والمشركون والعُصاة والفِرق الضالَّة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين نَفَوا أسماء الله وصفاته وحرَّفوا، فجميعهم داخلون في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: أي: ما عظَّموه حق تعظيمه.

وكذلك كل مَن خالف أمر الله وعصاه وارتكب ما نهاه عنه، وترك ما أوجبه عليه، فإنه لم يُقدر الله حقَّ قَدْرِه، وقد بيّن سبحانه عظمته، وأنَّ من عظمته أنه يطوي هذه المخلوقات يوم القيامة، ويقبضها بيديه علىٰ الرغم من اتساعها وضخامتها، وهي سبع سموات وسبع أرضين مضافًا إليهما ما في الأرض من المخلوقات والجبال والبحار والأشجار، كلها يقبضها الله عَزَّوَجَلَّ بيديه، وعلىٰ أصابعه -جلَّ وعلا- كما جاء في الحديث(٢).

---

(١) برقم (٧٣٨٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٧).

(٢) انظر: البخاري (٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣١- وله[(١)] **عن ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **عن رسول الله** ﷺ **قال:** «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ».

الشَّرْح

يقول الله -جلَّ وعلا- يوم القيامة: «**أنا الملك**». أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ لقد كان في الدُّنيا جبابرة ومتكبِّرون عن طاعته -جلَّ وعلا-، وكانوا يستعملون جبروتهم على الناس، ويظلمونهم، ويتسلَّطون على العباد؛ لكن في الآخرة وبمجرد أن تقوم القيامة يذهب سلطانهم ومُلكهم، ولا يبق المُلك إلا لله الواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الحديث فيه: إثبات أن من أسمائه -جلَّ وعلا- المَلِك، وهو الملك الحقيقي، وأما غيره من الملوك فملكهم إنما هو مجرد منحة منه -جلَّ وعلا-، وإلا فالمُلْك الحقيقي هو لله -جلَّ وعلا-؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فملوك الدنيا جميعهم إنما مُلْكهم منحة وعطية منه -جلَّ وعلا-، وليس مُلْكهم بسبب قوتهم، ومكانتهم، وإنما هو ابتلاء وامتحان منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يبتليهم، ويبتلي بهم، يبتليهم بإعطائهم الملك، ويبتلي بهم الناس بتسليطهم عليهم.

---

(١) البخاري (٧٤١٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٨).

٣٢- وفي روايةٍ، عنه: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ذَاتَ يَوْم عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ يُحَرِّكُهَا، وَيُقْبِلُ بِهَا، وَيُدْبِرُ: يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ المِنْبَرُ، حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». رواه أحمد(١).

الشَّرح

لقد بيَّن الرسول ﷺ للصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الآية وفسَّرها علىٰ المنبر، فأخبرهم أن الله ﷻ يقبض السموات والأرض بيديه، ثم يقول: أنا الملِكُ، أين ملوك الدُّنيا؟ أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؛ ثم إنه -جلَّ وعلا- يُعظِّم نفسه بأسمائه وصفاته، كما ذكر ذلك النبيُّ ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، حتىٰ إن المنبر -وهو جماد- قد اهتزَّ من هيبة الله وجلاله وعظمته، وهذا يعني: أن الإدراك موجود في الجمادات، فهي تعرف ربَّها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. فكلُّ المخلوقات تسبِّح الله بلغتها التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

وهذا المنبر قد اهتزَّ من هيبة الله، وعظمته -جلَّ وعلا-، وقد كان ﷺ يخطب في أول الأمر علىٰ جِذْع نخلة، فيضع يده عليها ﷺ ويخطب، ثم لما صُنع له المنبر ترك الجذع وصعد علىٰ المنبر وصار يخطب الناس، ولكن الجذْع حَنَّ إلىٰ رسول الله ﷺ، وبكىٰ كما يبكي الصبيُّ، وسمع الصحابة الجذع، حتىٰ نزل رسول الله ﷺ، ووضع يده عليه، فجعل يَئِنُّ كأنين الطفل(٢)، وهذا إدراك من الجمادات، وقد يُظهر الله لعباده شيئًا من ذلك للاعتبار والعِظَة.

(١) في «المسند» برقم (٥٤١٤).

(٢) انظر البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٣٣- ورواه مسلم، عن عُبيد الله بن مِقسَم: أنه نظَر إلىٰ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كيف يحكي عن رسول الله ﷺ، قال: «يَأْخُذُ اللهُ سَمَوَاتِهِ، وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقْبِضُهُمَا فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟»[1].

الشَّرح

الرسول ﷺ يوضِّح في هذا الحديث للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كيفية قبض الله تعالىٰ للسموات والأرض، وأنه قبضٌ حقيقي، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يقولون بالمجاز، فيبيِّن لهم ﷺ أنه قبض حقيقي، فيقبض بيديه ويفتحهما، وهذا توضيح وليس معناه تشبيه يَدَيَ الرسول ﷺ بيد الله، كما قال ﷺ: «**أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته**»[2]. فليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما هو تشبيه لرؤية الله برؤية القمر، وكذلك هنا كما جاء في رواية ابن عمر، فقد قبض الرسول ﷺ يديه؛ ليبيّن لهم أن القبض حقيقي، وليس مجازًا.

وقوله: «**حتىٰ نظرت إلىٰ المنبر يتحرَّك من أسفل شيء منه...**» إلخ. هذا فيه: أن المنبر أصابه ما أصابه من الهيبة لله وهو جماد!

---

(١) برقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[ما هو أوَّل هذا الأمر]

٣٤- وَفِي «الصَّحِيحَين»(١)، عن عمرانَ بن حصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. قَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ. قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا، فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ. قَالَ: كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: يَا عِمْرانُ، انْحَلَّتِ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا. قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا، فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي».

الشَّرْح

الرسول ﷺ عَرَضَ البشرىٰ علىٰ بني تميم؛ ولكنهم استعجلوا ذلك، وقالوا: أعطنا، دون أن يستفسروا ويعرفوا حقيقة هذه البشرىٰ، وإنما كان همُّهم نصيبَهم من عَرَض الحياة الدُّنيا، فقالوا: بشَّرتنا فأعطنا، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

فأعرض عنهم الرسول ﷺ، وقال لأهل اليمن: «**اقبلوا البشرىٰ، يا أهل اليمن**». قال ذلك بعدما لم يقبلها بنو تميم، فقالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر؛ ذلك أن بني تميم لم يقبلوا؛ ولكنهم قالوا: فأعطنا؛ ظنًّا منهم أن البشرىٰ أمر دنيويٌّ؛ ولكنه ﷺ لم يكن هذا قصده، ولذلك كان أهل اليمن أحسن أدبًا من بني تميم؛ فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله؛ فأخبرنا عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول هذا الخَلْق، فقد طلبوا من الرسول ﷺ أن يُبيِّن لهم بداية هذا الخَلْق، والخَلْق -لا شك- أنه حادثٌ، وأن له بداية.

وأما الخالق -جلَّ وعلا-، فإنه ليس له بداية، ولهذا قال ﷺ: «**أنت الأول فلس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت**

---

(١) البخاري (٤٧١٨)، وأحمد (١٩٨٧٦)، ولم يخرِّجه مسلم.

الباطن فليس دونك شيء»[١]. هذا تفسير الرسول ﷺ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. في هذه الأسماء الأربعة المتقابلة.

قوله: «**كان الله قبل كلِّ شيء**»: يعني: أنه سبحانه ليس له بداية، وأما المخلوقات فإن لها بداية؛ لأنه هو الأول فليس قبله شيء تعالىٰ.

وقوله: «**وكان عرشه علىٰ الماء**»: أي: علىٰ الماء الذي فوقه السموات، وهذا فيه دليل علىٰ أن العرش هو أول المخلوقات، وهو أعلاها، إذ ليس قبل العرش شيء من المخلوقات، وكان علىٰ الماء، فهو بحر في السموات، كما جاء في الحديث: «**وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش علىٰ الماء، والله** عَزَّ وَجَلَّ **علىٰ العرش يعلم ما أنتم عليه**»[٢]. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقوله: «**وكتب في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كلِّ شيء**»: فهذا فيه أن كل شيء يحدث من أول الخَلْق إلىٰ آخره إنما هو مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفي هذا إثباتُ القضاء والقدر، والكتابة في اللوح المحفوظ.

وقوله: «**قال: فأتاني آتٍ، فقال: يا عمران، انحلَّت ناقتك من عقالها...**» إلخ. لم يكن عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استكمل كلامه مع الرسول ﷺ بسبب أن ناقته كانت قد انحلَّت من عقالها، فلما أُخبر بذلك خرج في إثرها لطلبها، ولم يكن قد أدرك آخر الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٠٢) (٩٩٨٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[النهي عن الاستشفاع بالله على أحد]

٣٥- وعن جُبير بن محمَّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جدِّه، قال: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ، وَبِاللهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَا سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا -وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ-، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». رواه أحمد، وأبو داود[1].

الشرح

وهذا الحديث كذلك جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. فهذا الأعرابي كان قد حصلت منه إساءة في حقِّه -جلَّ وعلا-، فهو ما قَدَر الله حقَّ قدره، وذلك لأنه لم يعرف الله عَزَّوَجَلَّ من خلال قوله للرسول ﷺ: «... وبالله عليك» بسبب جهله؛ والجهل آفة.

ففي هذا الحديث: الحثُّ علىٰ معرفة الله -جلَّ وعلا- بأسمائه وصفاته وأفعاله، حتىٰ يَقدِروه حقَّ قدره -جلَّ وعلا-، فمَنْ لم يعرف الله فإنه حَرِيٌّ بألَّا يَقْدِر الله حقَّ قدره.

وقوله: «**جاء أعرابيٌّ**»: الأعرابي: هو الذي يسكن البادية؛ والحَضَري: هو الذي يسكن الحاضرة. والغالب علىٰ الأعراب الجفاءُ والجهل؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. ولهذا جاء

---

(١) أبو داود (٤٧٢٦) ولم أقف عليه في النسخ المطبوعة من «مسند أحمد».

النهيُ عن البقاء في البادية، ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ سكن البادية جَفا**»[(١)].

وجاء الحدثُّ علىٰ الذهاب إلىٰ أهل الحواضر؛ لأجل التعلُّم، فلا يبقىٰ الإنسان أعرابيًّا وبدويًّا طوال حياته، وإنما ينبغي له أن يتفقَّه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا الأعرابي جاء وطلب من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، وطلبٌ كهذا لا غُبار عليه، فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا أجدبوا يطلبون من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، وكان هذا الأعرابي قد أخبر النبي ﷺ ما حصل للناس بسبب تأخُّر نزول المطر من الجدب والقحط والفقر، ومثل هذه الأمور لا بأس من ذِكْرها للغير حتىٰ يكون هذا حافزًا لطلب السُّقيا من الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال هذا الأعرابي للنبي ﷺ: «فإنَّا نستشفع بك علىٰ الله». وهذا القول أيضًا لا غبار عليه، أنهم يطلبون الشفاعة من الرسول ﷺ، وطلب الشفاعة منه ﷺ، أو من غيره إن كان حاضرًا لا بأس به، وهذا بخلاف طلب الشفاعة من الميت، فهو الممنوع.

والشفاعة معناها: الدُّعاء، فإذا دعوت لأخيك فقد شفعت له، وصلاة المسلمين علىٰ الميت شفاعة له، والشفاعة إنما تُطلب من الأحياء القادرين علىٰ الدُّعاء، فقوله: «**نستشفع بك علىٰ الله**» يعني: بدعائك، وهذا القول منه للنبي ﷺ مقبول.

وقوله: «**وبالله عليك**»؛ أي: نستشفع بالله عليك، هذه الجملة هي التي أنكرها الرسول ﷺ؛ لأنه جعل الله -جلَّ وعلا- شفيعًا عند الرسول ﷺ، فجعل الخالق شافعًا عند المخلوق، وهذا فيه تنقُّص لله عَزَّوَجَلَّ، فهو لم يُقْدر الله حقَّ قدره، فهذا هو وجه إنكار الرسول ﷺ علىٰ قوله هذا؛ لأنه تنقَّص الله فاستشفع به إلىٰ الرسول ﷺ، وهو ﷺ لم يرضَ بهذا؛ بل أنكره.

ففي هذا الحديث: إنكار المنكر، وفيه تغليظ علىٰ مَنْ أساء بحقِّ الله تعالىٰ، فلا يُقال: هذا جاهل؛ بل يُغلَّظ عليه؛ لأجل أن يرتدع هو وغيره، فمَنْ أساء بحقِّ الله فإنه ينكر

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٣٦٢)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩) من حديث ابن عباس رَضِّيَاللَّهُعَنْهُمَا.

عليه ويشدَّد القول بحقِّه ولا يُترك بحُجَّة أنه جاهل؛ لأجل أن يَدرك ويعرف أنه أخطأ وأساء الأدب مع خالقه -جلَّ وعلا-؛ فيتوب ويُقدِّر الله -جلَّ وعلا- حقَّ قدره؛ ولهذا شدَّد الرسول ﷺ عليه وسبَّح الله ونزَّهه عما قال هذا الأعرابي، وكرَّر التسبيح تنزيهًا لله عمَّا قاله هذا الأعرابيّ!

وقوله: «**فمازال يُسبِّح ﷺ حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه**»: يعني: قد شاهد الصحابة -رضوان الله عليهم- شدَّة التأثُّر في وجهه ﷺ، لِمَا قاله هذا الأعرابي. وبالتالي عُرف ذلك في وجوه الصحابة رضي الله عنهم.

ثم بيَّن ﷺ للأعرابي بعدما أنكر عليه وبعدما نزَّه الله -جلَّ وعلا- عن هذا التنقُّص وعلَّمه بقوله: «**ويحك! أتدري ما الله؟**». ثم بيَّن له ﷺ عظمة الله -جلَّ وعلا- وأن هذه المخلوقات العظيمة الهائلة من السموات والأرض كلها تحت العرش، والعرش هو أعظمها وأكبرها، والله -جلَّ وعلا- فوق عرشه، وهذا العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات له تأثُّر من استواء الله عليه، حتىٰ إنَّ له أطيطًا، يعني: له صوت؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنه لَيئطُّ به أطيطَ الرَّحْل بالركب**». وهذا دليل علىٰ عظمته تبارك وتعالى، فهذا العرش العظيم الذي فوق السموات ومحيط بها، وشاملٌ لها كلها، والكرسي، قد وسع السموات والأرض، والكرسي في العرش كحلقة في فَلاة، وهذا دليل علىٰ عظمة هذا العرش، والله -جلَّ وعلا- أعظم من ذلك، فالعرش مع عظمته وسعته يحصل له هذا التأثر الذي عبَّر عنه ﷺ بقوله: «**وإنه ليئط به أطيط الرَّحْل بالراكب**»: من استواء الله عليه، فكيف مَنْ هذا شأنه، وهذه عظمته تبارك وتعالى يُستَشفع به علىٰ مخلوقٍ من خَلْقه؟! ولهذا قال ﷺ للأعرابي: «**أتدري ما الله؟!**». أي: هل تعرف شأن الله وتعرف معنىٰ ما قلتَه بحقِّ الله تبارك وتعالى، وكيف أنك أسأت بحقِّه وتنقَّصتَه؟!

وأما قوله: «**فمازال يُسبِّح**»: هذا فيه التسبيح عند إنكار المنكر، وكذا التكبير عند رؤية أو سماع شيء منكر، وكذلك عند رؤية شيء يُعجب به، فإنه يُسبِّح ويكبِّر الله -جلَّ وعلا-.

وقوله: «**حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه**»: فقد تأثَّروا -رضوان الله عليهم-؛ لتأثُّر رسول الله ﷺ، فالأمر عظيم، والكلمة شنيعة، وهذا فيه: أن بعض الكلمات تكون وخيمة، فينبغي علىٰ الإنسان أن يحفظ لسانه، وفيه: أن الإنسان لا يتكلم بحقِّ الله -جلَّ وعلا- إلا عن عِلْم ومعرفة، ولا يقول علىٰ الله بلا عِلْم.

وقوله: «**ثم قال: وَيْحَكَ!**»: كرَّر قوله ﷺ: «**وَيْحَكَ!**»: دلالة علىٰ عظم الأمر، وكلمة «**وَيْحَك**» كلمة تقال لِمَن أشرف علىٰ الهلكة، وفيها معنىٰ الزَّجر.

وقوله: «**إن عرشه علىٰ سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القُبة**»: أي: أشار بيديه كالقُبَّة؛ لأن العرش هو سقف المخلوقات، فإذا كان هو كذلك ففيه دليل علىٰ عظمته؛ لأن المخلوقات علىٰ سعتها وامتدادها بما في ذلك السموات والأرض وما بينهما، كلها سقفها العرش، فهو عرش مُتناهٍ في العِظَم! وفيه بيان أن العرش مُقبَّب.

وقوله: «**ليئطُّ به أطيط الرَّحل بالراكب**»: بيان أنه إذا كان هذا العرش علىٰ عظمته وضخامته يُصيبه هذا التأثر من عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ فكيف بغيره من المخلوقات؟!

وهذا فيه إثبات استواء الله علىٰ عرشه، وفيه: أن العرش هو أعظم المخلوقات، وفيه: أنه لا يستغاث بالله علىٰ أحدٍ من خَلْقه، وإنما العكس أنه يستغاث بالمخلوق الحي الحاضر إلىٰ الخالق، بمعنىٰ: طلب الشفاعة من المخلوق عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك بدعائه تعالىٰ للمحتاج، والدعاء للمحتاج إنما هو شفاعة أو نوع منها.

[صبر الله تعالى على تكذيب المخلوق له]

٣٦- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»[(١)].

٣٧- وَفِي رِوايةٍ عَن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ وَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا». رواه البُخَارِيُّ[(٢)].

الشَّرح

في هذا الحديث تكذيب المخلوق لخالقه -جلَّ وعلا-، وذلك أنه -جلَّ وعلا- أخبر أنه سيبعث الخَلْق يوم القيامة، وكثير من الخَلْق قد أنكروا البعث، وقالوا: إن الميت لا يمكن أن يُبعث حيًّا مرةً أخرىٰ بعد أن صار ترابًا، فهؤلاء القائلون لهذه المقالة ما قَدَروا الله حقَّ قدره، وما عرفوا أن الله علىٰ كلِّ شيء قدير، ووصفوا الله قدرة الله بالعجز عن إحياء الأموات، وفي هذا تكذيب له عَزَّوَجَلَّ، مع أنه سبحانه قد أقام الأدلَّة والبراهين الدالَّة علىٰ إعادة الخلق والإحياء والبعث، فذكر أنه يُحيي الأرض بعد موتها، فتكون جدباء قاحلة، ثم ينزل عليها الماء وسرعان ما تهتزُّ فتصبح خضراءَ وبهيجةً، فالذي قدر علىٰ إحياء الأرض بعد موتها قادر علىٰ أن يُحيي الأموات يوم القيامة.

ثم إن الذي خلقهم أوَّل مرة من عَدَم أليس قادرًا علىٰ أن يعيدهم مرة ثانية؛ والإعادة في نظر العقول أهونُ من البداية، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) برقم (٤٤٨٢).

فالذي قدر على البداءة من لا شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]. فهو قادرٌ على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

ثم إن خلق السموات والأرض أعظم من خَلْق الإنسان، فالذي قدر على خَلْق ما هو أعظم قادرٌ على خَلْق ما هو دون ذلك من باب أَوْلى، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]. وهذه كلها براهين عقلية على حصول البعث، ومع ذلك فإن بعض الخلق ينكر ذلك، ويكذب الخالق -جلَّ وعلا-، وما كان لهم أن يكذِّبوه ﷻ!.

وأمَّا شَتمُه لله ﷻ وذلك بأن ينسبوا له الولد، والله -جلَّ وعلا- لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ولأنَّ الولد يُشبه الوالد، وهو ﷻ لا شبيه له، والولد كذلك جزءٌ من الوالد، وهو ﷻ ما ينبغي أن يكون له جزء مخلوق -تعالى الله عن ذلك- وفي القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]. يعني: ولدًا، والولد كما ذكرنا جزءٌ من الوالد، والولد بذلك يكون إلهًا مع الله، والله -جلَّ وعلا- ليس له شريك، فلو كان له ولد لصار له شريك -تعالى الله عن ذلك.

والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، وأهل الجاهلية من مشركي العرب، قالوا: الملائكة بنات الله؛ لأنه سبحانه -بزعمهم- تزوَّج من الجنِّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. فينسبون البنات إليه ﷻ، وهم لا يريدون البنات لأنفسهم! قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢] -تعالى الله عما يقولون.

وقوله في حديث ابن عباس: «**سبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا**». قوله: «**صاحبة**». يعني: زوجة؛ لأن الولد لا يكون إلا من زوجة، والله سبحانه ليس له صاحبة؛ قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] يعني: ليس له سبحانه زوجة.

[النهي عن سبِّ الدهر]

٣٨- وَلَهُمَا(١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

الشَّرْح

في هذا الحديث: بيان أن ابن آدم يسبُّ الله من خلال سبِّه للدهر، فإذا ما أصابه شيء أخذ يلوم الدَّهرَ واليومَ والساعة والسنة، والدهر إنما هو زمان خلقه الله -جلَّ وعلا-، وهو ظرف زمان ليس بيده شيء، وإنما الذي أوجد هذه النوازل والحوادث والمصائب والمكاره هو الله -جلَّ وعلا-، فكان سبُّه للدهر سبًّا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله هو الذي قدَّر هذه الحوادث والنوازل والمصائب التي تقع على العباد.

وقوله: «**أنا الدهر**»: ليس معناه: أن الدَّهر من أسماء الله -جلَّ وعلا-، وقد فسَّر ذلك في آخر الحديث، وقال: «**بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار**». وهذا تفسير منه ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، وهو في سياق حديث قدسي شريف.

وقوله: «**بيدي الأمر**»: تفسير لقوله: «**وأنا الدهرُ**». إذ البعض يعتقد أن كلمة «**الدهر**» من أسماء الله -جلَّ وعلا-!

---

(١) البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

[باب: الإيمان بالقدر]

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٣٩- وفي صحيح مسلم[1]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، -قَالَ-: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **«باب الإيمان بالقدر»**.

القَدَرُ، هو: إحاطة الله ﷻ بمقادير الأشياء. وقضاؤه سبحانه ما يجري بهذا الكون من الحوادث التي تقع شيئًا فشيئًا في هذا الكون، فإنه لا يقع في هذا الكون من شيء، أو يحصل فيه من شيء إلا وقد علمه الله -جلَّ وعلا- في الأزل وقضاه وقدَّره، لا يخرج شيء عن قدره وقضائه، **والأزل معناه:** الزمان الماضي الذي لا حدّ له، ولا بداية له. **والأبد، هو:** الزمان المستقبل الذي لا حدّ لنهايته، فلا يجري في هذا الكون شيء اعتباطًا، أو دون تقدير وقضاء من الله -جلَّ وعلا-، ولا يكون فيه شيء يخرج عمَّا قضاه ﷻ وقدَّره في الأزل.

والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، كما قال ﷺ: **«الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»**[2].

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ومحل الشاهد: قوله: «**وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»: فما يجري من الخير والشرِّ في هذا الكون فإنه قد قضاه الله وقدَّره، فمَنْ لم يؤمن بهذا فإنه ليس بمؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ، وإذا مات وهو ينكر القضاء والقدر فإنه من أهل النار، كما جاءت بذلك الأحاديث التي ستأتي في هذا الباب، أن مَنْ لم يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه لم يؤمن بالله؛ لأنه نفىٰ شيئًا من أفعال الله ﷻ، وزعم أن الله عاجز، وأنه يحدث في مُلْكه ما لم يَقضِه ولم يُقدِّرهُ - تعالىٰ الله عن ذلك-، فمَنْ لم يؤمن بهما فهو كافر، وعليه وعيد شديد، وهو من أهل النار، ولو أنفق مثل أُحد ذهبًا، فإن الله لا يتقبله منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بأن الله علم ما كان، وما يكون في علمه الأزلي، ولا يقع شيء إلا يعلمه الله ﷻ.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كلّ شيء إلىٰ أن تقوم الساعة، علمه أولًا، ثم كتبه في اللوح المحفوظ، «**أولُ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتبُ ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»(١).

وكما قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. والكتاب، هو: اللوح المحفوظ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نوجدها.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأنَّ الله ﷻ شاء كلَّ شيء وأراده مما قضاه وقدَّره في اللوح المحفوظ، فلا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته ﷻ، ولا يقع في مُلْكه ما لا يريد؛ قال تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأنَّ كلَّ ما يقع في هذا الكون هو من خَلْق الله -جلَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣٩٩) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعلا-، فكلُّ شيء في هذا الكون من خير أو شرٍّ إنما هو من خلقه -جل شأنه-، وهو فِعْل العباد، فالخير والشرُّ من أفعال العباد، وهما خلقٌ من خَلْق الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. أي: وخَلَق ما تعملون، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. وكلُّ ما يجري وما يحدث وما يكون فإنه خَلْق الله -جلَّ وعلا-.

فلابدَّ من الإيمان بهذه المراتب كلِّها، سواء الإيمان بعِلْم الله السابق، أو الإيمان بالكتابة باللوح المحفوظ، والإيمان بمشيئة الله وإرادته وبكلِّ ما يحدث، والإيمان بأن كلَّ ما يحدث بأنه خلق الله ﷻ، فلا أحد يخلق مع الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكفي الإيمان بمرتبة دون مرتبة أخرىٰ، أو بمرتبة واحدة أو اثنتين أو ثلاث، فلابد من الإيمان بكل هذه المراتب الأربع، وهي موجودة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه مرتبة العلم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هذه مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. فهذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إنه بعد الإيمان بالقضاء والقدر وإثباته، كما جاء فلا ينبغي تركُ العمل بحُجَّة أنَّ كلَّ شيء مقدَّر ويكفي التسليم بالقضاء والقدر، وبحجة أن دخول الجنة والنار مقدَّر منه ﷻ، ولا فائدة من العمل هذا كلام باطل؛ لأن الإنسان مأمور بالعمل، إذ دخول الجنة لا يكون إلا بالعمل لها، ولا يمكن دخول النار إلا بسبب، والله لا يعذِّب علىٰ القضاء والقدر، وإنما يعذِّب علىٰ الأعمال، ولا يُنعِّم بالقضاء والقدر وإنما بالأعمال؛ قال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

فالثواب والعقاب لا يتعلَّقان بالقضاء والقدر، وإنما يتعلقان بأفعال العباد، ولهذا لما أخبر النبيُّ ﷺ الصحابة أن كلَّ إنسان مقدَّر مقعده من الجنَّة، ومقعده من النار، قالوا: يا رسول الله، ففِيمَ العمل، أفلا نتَّكِل علىٰ كتابنا ونَدَع العمل؟ قال: «اعملوا،

فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، أمَّا مَنْ كان من أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأمَّا مَنْ كان من أهل الشَّقاء فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاء»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [1] الآية. يعني: الجنة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾. رتب تفسيره لليسرىٰ علىٰ العمل، علىٰ عمل العبد ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

هي النار، رتَّب تيسيره للعسر علىٰ عمل العبد، وليس بسبب القضاء والقدر، فإذا ما كان الجوع الذي يشعر به الإنسان يتطلَّب البحث عن الطعام والرزق، وكذا دفع الظُّلم يحتاج إلىٰ عمل وردَّة فعل وطَلَب القصاص ممن ظَلَم، فكيف يُقال: إنَّ الجنة والنار لا تحتاجان إلىٰ عمل، أو إن المصير إليهما لا يترتب علىٰ العمل الذي يقوم به العبد، والحق أنه لابدَّ من السعي والعمل؛ سواء في أمور الآخرة أو في أمور الدنيا، فإذا كان الإنسان في أموره الدنيا لا يتكل علىٰ القضاء والقدر، فأمور الآخرة من باب أولىٰ، فليس معنىٰ الإيمان بالقضاء والقدر ترك العمل؛ لأن هذا لا يكون إلَّا من القدرية الذين يحتجُّون بالقضاء والقدر علىٰ تَرْك الفرائض، وهؤلاء محجوجون، كونهم لا يحتجون بالقضاء والقدر في مصالحهم الدُّنيوية.

وفائدة الإيمان بالقضاء والقدر؛ معناه الصبر علىٰ المصائب، وعدم الجزع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. والحِكْمة في ذلك متمثلة في قوله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

هذه هي الحِكْمة في ذلك، وهي: أن الله أخبرنا بأن كل ما يحدث من مصائب إنما هو في كتاب في اللوح المحفوظ؛ لأجل ألَّا يجزع الإنسان؛ بل يصبر ويحتسب، هذه هي حِكْمة الإيمان بالقضاء والقدر، وليس معناه: تَرْك العمل وتعطيله؛ ولهذا يقول ﷺ: «**احرِصْ علىٰ ما يَنفعُكَ، واستَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وإن أصابكَ شيءٌ فلا تَقُل: لو**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، وبنحوه مسلم (٢٦٤٧) من حديث عليّ رضي الله عنه.

أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تَفتَحُ عملَ الشيطانِ»[١]. هذه هي فائدة الإيمان بالقضاء والقدر المبنية علىٰ الصبر والاحتساب، وعدم الجزع والتسخُّط.

والإيمان بالقضاء والقدر ضَلَّ فيه طائفتان؛ طائفة الجبرية، وطائفة القدرية من المعتزلة.

فالجبرية غَلَتْ في إثبات القَدَر ونَفَت أفعال العباد، وقالت: إنما هذه أفعال الله وقضاؤه، والعبد إنما هو مجبور كالآلة، أو كالريشة يُحرِّكها الهواء -تعالىٰ الله عما يقولون-، فالزِّنا والسرقة وظُلْم العباد وشُرْب الخمر إنما هي أفعال الله -جلَّ وعلا- وليست أفعال العبيد، وكفىٰ بهذا القول شناعة وكفرًا!!

وأما القَدَريّة فكانت في مقابلة الجَبْرية، فغَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقدر، وقالوا: إن الإنسان حُرٌّ حرية كاملة، ليس لها تعلُّق بقضاء الله وقَدَره، فهو الذي يخلق فِعْل نفسه، ولم يخلقه الله، وليس له سبحانه تدخُّل في أفعال العباد؛ وهم في ذلك كانوا علىٰ النقيض من الجبرية الذين غَلَوا في إثبات القضاء والقدر ونَفَوا أفعال العباد، وهؤلاء القدرية كانوا علىٰ العكس، فقد غَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقَدَر؛ ولذلك يسمَّون بالقدرية؛ لأنهم نَفَوا القدر، فهؤلاء لا يؤمنون بالقضاء والقدر، وهم بذلك جحدوا الركن السادس من أركان الإسلام.

وأمَّا أهل السُّنة والجماعة فقد توسَّطوا -كعادتهم أنهم وسط في جميع الأمور- بين الإفراط والتفريط، وبين الغُلوِّ والجفاء، فقد أثبتوا القضاء والقدر، وأثبتوا أفعال العباد، ولا تناقض بينهما، فالله -جلَّ وعلا- قضىٰ وقدَّر، والعبد يفعل باختياره وإرادته، ولكنه لا يخرج عن قضاء الله وقدره، وهذا هو موجب الكتاب والسُّنة، وهو المذهب الوسط والعدل المتمشي مع الأدلة، هذا حاصل الخلاف في مسألة القضاء والقدر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. يعني: في القضاء والقدر؛ حيث إنَّ الله قدَّر لهم الجنة والنَّجاة من النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ...﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]. هذا فيه إثبات القضاء والقدر. فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: أي: قدَّرنا لهم ذلك، فهم عملوا ما يُسبِّب لهم دخول الجنة، فأبعدهم الله عن النار.

وسبب نزول الآية: أن الله -جلَّ وعلا- لما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

لما سمع المشركون هذه الآية، قالوا: نحن نعبد أُناسًا صالحين، فإذا كانوا معنا في النار، فإن الأمر يَهُون علينا، يعني: هم ينتقدون كلام الله ﷻ، ومن جملة ما يعبدون من دون الله ملائكة ورسلًا مثل عيسىٰ عليه السلام؛ فكيف يكونون في النار؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: وهم الملائكة والأنبياء والرسل والصالحون، هؤلاء لا تتناولهم هذه الآية، فهو تخصيص بعد عموم، لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال ابن الزِّبَعْري: فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارىٰ تعبد المسيح عيسىٰ ابن مريم، فهل هؤلاء معنا في النار[1]؟! وغرض المشركين من هذا انتقاد كلام الله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨]؛ لأنه من المعروف أن عيسىٰ بن مريم والصالحين لا يدخلون النار؛ لأن الله تكفَّل بأن يدخلهم الجنة، وهم يعرفون هذا، لكنهم من باب المغالطة يقولون ذلك،

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير الطبري» (٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦٥).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٨، ٥٩].

وقد ردَّ الله -جلَّ وعلا- عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾.

كعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعُزير، ومَن عُبد من دون الله من عباد الله الصالحين، هؤلاء مستثنون من دخول جهنم.

والشاهد من الآية: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، هذا فيه إثبات القضاء والقدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وهذه الآية متضمِّنة إثبات القضاء والقدر، فقوله تعالىٰ: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: أي: الأمر الكوني، علىٰ اعتبار أن أمر الله قسمان:

الأول: الأمر الكوني كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والثاني: الأمر الشرعي، كالأمر بالصلاة، والزكاة، وبِرِّ الوالدين، ونحو ذلك من الأمور التكليفية.

والأمر الكوني لابد أن يقع، وأما الأمر الشرعي فقد يقع، وقد لا يقع، فمن الناس مَن يمتثل، ومنهم مَنْ يعصي، هذا الفرق بين الأمرين؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾: يُراد به الأمر الكوني القَدَري، بمعنىٰ: أن كل ما يجري في هذا الكون مقدَّر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. أي: وخلق ما تعملون، هذه الآية فيها أن أعمال العباد إنما هي من خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نعم هي فعل الخَلْق، ولكنها خَلْق الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيجتمع فيها الأمران أنها خَلْق الله، وأنها فِعْل العبد، وفي الآية ردٌّ علىٰ المعتزلة الذين ينفون القضاء والقدر، ويقولون: إن العبد إنما يفعل باختياره المطلق الذي ليس لله فيه أيّ قضاء وقدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وفي هذه الآية أيضًا: إثباتٌ

للقضاء والقدر؛ إذ كلُّ المخلوقات من خير أو شرٍّ إنما يقع بقَدَر الله ﷻ؛ ففي الآية أمران:

الأول: أن كلَّ ما يحدث في هذا الكون إنما هو خَلْقُ الله ﷻ.

الثاني: أن كلَّ ما يحدث إنما هو بقَدَر الله -جلَّ وعلا-.

وأما حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو حديث الباب الذي فيه: «**إن الله قدَّر مقادير الخلائق...**» إلخ. فهذا فيه إثبات أن الله قدَّر مقادير الخلائق، وأن التقدير سابقٌ لخَلْق السموات، والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء، فهذا فيه إثبات أسبقية القضاء والقدر علىٰ حدوث الأشياء، وأنها مقدَّرة قبل وقوعها.

[عدم جواز الاتِّكال على القضاء والقدر وترك العمل]

٤٠- وَعَنْ عَلِيّ بن أَبِي طَالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟! قَالَ: اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؛ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشَّـرْح

لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة علىٰ إثبات القضاء والقدر بيّن أنه لا يجوز الاعتماد علىٰ القدر، وترك العمل، وإنما ينبغي للمسلم أن يعمل الأعمال التي تنفعه في الدنيا والآخرة، وعدم الاتكال علىٰ أن كل شيء مقدَّر؛ سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فكما أنَّ الإنسان لا يتّكل في أمور دُنياه علىٰ القضاء والقدر؛ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- رتَّب الأشياء علىٰ الأسباب.

وكذلك الأمر نفسه، يُقال في أمور الآخرة، فالإنسان بفطرته التي تقتضي أنه عليه أن يعمل؛ لتحصيل أمور دُنياه، فكيف يُعطِّل أعمال الآخرة، ويعتمد علىٰ القضاء والقدر؟!

ومن دلالة فِقْه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه لما ذكر أدلة القضاء والقدر، ذكر أدلة إثبات العمل، فَسَاق هذا الحديث الذي يدل علىٰ أن الأصل في الإنسان عدم ترك العمل،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

اعتمادًا على القضاء والقدر.

فقد بيَّن ﷺ في هذا الحديث للصحابة بعدما ذكر لهم أن كل إنسان قد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، وأجابوا بقولهم: أفلا نتَّكل ونَدَع العمل؟ ولكنه ﷺ بيَّن لهم غَلَطهم في هذا، وأن ما فهموه من قوله إنما هو فَهم خاطئ، وأنه ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر تَرْك الأعمال؛ بل بيَّن ﷺ أن هذا فيه حثٌّ للإنسان على العمل؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ عمل لها، وأن النار لا يَسلمُ منها إلا من ترك الأعمال التي من شأنها أن تورد المرء إيَّاها.

ثم استدل ﷺ بالآية الكريمة، فقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. فدلَّ على أن دخول الجنة، إنما هو بسبب الأعمال، وأن دخول النار كذلك، لا سبب القضاء والقدر فحسب؛ لأن القضاء والقدر إنما هو من شأن الله -جلَّ وعلا-، والإنسان لا يدخل بشئون خالقه، وإنما يدخل في شئون نفسه، والذي ينبغي له هو العمل، لا السؤال عن القضاء والقَدَر.

٤١- وعن مسلم بن يسارٍ الجُهني، قال: سُئل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ النَّارَ». رواه مالكٌ، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم[١].

ورواه أبو داود[٢] من وجه آخر، عن مسلم بن يسار، عن نُعيم بن ربيعةَ عن عمر.

الشَّرح

قوله: «**وبعمل أهل الجنة يعملون**»: لم يقل: خلقتهم للجنة، فهم يدخلون الجنة، وإنما قال: «**وبعمل أهل الجنة يعملون**»؛ فدلَّ علىٰ أن الجنة لا تُدخل إلَّا بعمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢].

وكذا قوله: «**وبعمل أهل النار يعملون**»: لم يقل: خلقتهم للنار، فحسب؛ بل قال: «**وبعمل أهل النار يعملون**»: فدلَّ علىٰ أنه -كما ذكر- أنه لا أحد يدخل الجنة إلا بعمل، ولا يدخل النار إلا بعمل، أي: ليس بمجرد القضاء والقدر، وهذا واضح من الحديث.

ففي الحديث: بيانٌ أنه لابدَّ من العمل، ولا يعني هذا أن مَنْ قضىٰ الله له أنه من أهل النار أنه يترك العمل الذي ينجيه من النار، أو مَنْ قدَّر الله له أنه من أهل الجنة أنه يترك العمل الذي يسبِّب له دخول الجنَّة، فلابدَّ من العمل؛ لأن الجنة لا تُدخل إلا بعمل الخير، والنار كذلك لا تُدخَل إلا بعمل الشرِّ، فلا ينبغي أن تعطَّل الأعمال.

---

(١) مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٨٠).

(٢) برقم (٤٧٠٣).

٤٢- وقال إسحاقُ بن راهويه: حدثنا بقيّة بن الوليد، فقال: أخبرني الزُّبيدي محمد بن الوليد، عن راشد بن سعد بن عبد الرحمن بن أبي قتادة، عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام: أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُبْتَدأُ الأَعْمَالُ، أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ، فَقَالَ: هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ، وَهَؤُلاءِ لِلنَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»[١].

الشَّرح

هذا الحديث يشهد للذي قبله في أن القضاء والقَدَر حاصل؛ ولكنه لابدَّ من العمل، سواء العمل الذي يُنجي من النار، ويدخل الجنة، أو الذي يدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٩١) (١٨٥٤).

[كتابة العمل، والأجل، والرِّزق، والشقاء، والسعادة]

٤٣- وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادقُ المصدوق-: إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِماتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَيَدْخُلُهَا». متفق عليه [(١)].

الشَّرْح

قوله ﷺ: «أربعين يومًا نطفةً».

النطفة: هي: المنيُّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيبقىٰ منيًّا أربعين يومًا، ثم بعد الأربعين يتحوَّل إلىٰ «علقة»؛ يعني: إلىٰ دم، فيبقىٰ أربعين يومًا كذلك، وهو دم، ثم بعد الأربعين الثانية يتحول إلىٰ «مضغة» يعني: قطعة لحم.

والمضغة: هي: التي يكون منها تركيب الإنسان من: العروق، والأعضاء، والعَصَب، والسَّمع، والبصر، والعِظام، وغير ذلك من تراكيب الإنسان.

ثم في الأربعين الأخيرة تُنفخ فيه الرُّوح بعدما يأتيه الملك، ثم يُؤمر الملَك بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأَجلَه ورزقه، وهل هو شقيٌّ أو سعيد، وهي كتابة خاصة غير الكتابة التي في اللوح المحفوظ؛ بل هي كتابة مأخوذة من اللوح

---

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

المحفوظ، التي هي كتابة عامة.

فهناك كتابة خاصة وكتابة عامة، ومن الكتابات الخاصة ما يأتي في ليلة القَدر، ومنها ما جاء في هذا الحديث، وأما ما يأتي في كل يوم من الأيام، فكلُّها من باب الكتابة الخاصة المنقولة من اللوح المحفوظ.

وقوله ﷺ: «**ثم يكون علقة مثل ذلك**».

العلقة: قطعة من اللحم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]. وتفضيل هذه الأمور في سورة (المؤمنون)، وقوله في الآية الكريمة: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والقرار المكين، هو: رحم المرأة الذي هو ثابت لا يتغير، والنطفة مستقرة فيه دون اضطراب، وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ يعني: المني ﴿عَلَقَةً﴾: يعني: دمًا يعلق باليد؛ جاء بـ: «ثم» التي تفيد التَّراخي؛ إذ كل طَوْر له أربعون يومًا: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: «**ثم يبعث الله إليه الملك**»: لينفخ فيه الروح ليحيا ويتحرك، ولذلك يتحرك الحمل في الشهر الرابع.

وقوله: «**فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد**»: مع نفخ الروح فيه يُكتب ما يجري عليه من الكتابة الخاصة بالنسبة لكل فرد من بني آدم، وأما الذي في اللوح المحفوظ فهي كتابة عامة للجميع فلا تعارض بين الكتابتين، فالكتابة العامة سابقة لخَلْق السموات والأرض، والكتابة الخاصة تتكرر بإذن الله إلىٰ آخر الخليقة مع كل مولود.

وقوله: «**ثم ينفخ فيه الرُّوح**»: كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]. أي: من روح الله عَزَّوَجَلَّ المخلوقة، فالروح مخلوقة، وإضافتها إلىٰ الله إضافة مخلوق إلىٰ خالقه، فهي ليست من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هي معنىٰ قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾: أي: الروح المخلوقة له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»: إذا قدّر أنه من أهل النار؛ فلابد وأن يعمل بعمل أهل النار؛ إما في كلِّ عمره، يكون من أهل المعاصي وأهل الكفر ويَموت علىٰ هذا، وإما بأن يعمل بعمل أهل الجنة، يُختم له بعمل أهل النار، فتسوء خاتمته فيدخل النار، أو العكس يعمل بعمل أهل النار طول عمره، ثم يُختم له بعمل صالح فيكون من أهل الجنة، والأعمال بالخواتيم، وفي هذا مسألتان:

المسألة الأولى: أنه لابد من العمل.

المسألة الثانية: أن الأعمال بالخواتيم، ولذلك لا ينبغي أن يشهد لأحد بجنَّة أو نار؛ لأنه لا يُدرىٰ ما يُختم له؛ لأنه في عِلْم الله -جلَّ وعلا-.

ففي هذا الحديث العظيم جملة من الفوائد:

منها: أولًا: بيان قدرة الله -جلَّ وعلا- علىٰ خَلْق هذا الإنسان، ونَقْلِهِ من طور إلىٰ طور.

ثانيًا: فيه إثبات القضاء والقدر؛ لأن الملك يكتب رزق الإنسان، وأجلَه، وعملَه، وهل هو شقيٌّ أو سعيدٌ.

ثالثًا: فيه أن الجنة والنار لا تُدخلان إلَّا بعمل؛ إما بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة، ولو بعملٍ قليل، فإذا ختم له بعمل صالح دخل الجنة، وإما بعمل أهل النار، فيدخل النارَ، ولوَ عمل ابتداءً بعمل أهل الجنة؛ لأنه في آخر عمره عمل بعمل أهل النار كأنْ يرتدّ فيموت علىٰ الرِّدةِ، فيكون من أهل النار.

رابعًا: وفيه أن الأعمال بالخواتيم، فعلىٰ الإنسان ألَّا يغترَّ بصلاته وصلاحه واستقامته؛ بل عليه أن يخشىٰ من سوء الخاتمة، وعلىٰ العاصي ألَّا يقنط من رحمة الله؛ بل يرجو حُسن الخاتمة، ويسأل الله حُسنها.

خامسًا: فيه أنه لا يُشهد لأحد بجنَّة أو نار، وإنما يُرجىٰ للمحسنين، ويُخاف علىٰ المسيئين؛ لأن الشهادة لابُدَّ فيها من خبر المعصوم ﷺ أن هذا من أهل النار، وهذا من أهل الجنة.

٤٤- وعن حذيفةَ بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبلغُ به النبيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ، فَلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْقَصُ». رواه مسلم[1].

الشَّرْح

هذا الحديث، كحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سلف قبله، ففيه: أن الملك يدخل علىٰ الجنين في بطن أمِّه -والله قادرٌ علىٰ كل شيء- فيسأل ربَّه ماذا يكتب، والله -جلَّ وعلا- يُخبره ماذا يكتب.

ففي هذا الحديث: بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله -جلَّ وعلا-، وفيه: إثبات حقيقة القضاء والقدر، وفيه: أنه لابد من العمل.

(١) برقم (٢٦٤٤).

[لا يقطع لأحد بدخول الجنة والنار إلا بدليل]

٤٥- وفي صحيح مسلم[(١)]: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: طُوبَىٰ لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا، وَلَمْ يُدْرِكْهُ. فَقَالَ: أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».

الشَّرْح

في هذا الحديث: إنه لا يُشهد لأحدٍ بأنه من أهل الجنَّة إلَّا بدليل، وكذلك لا يُشهد لأحدٍ أنه من أهل النار إلَّا بدليل، وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: في هذا الحديث: «**طُوبىٰ له، عصفور من عصافير الجنة**». وهي بذلك شهدت له بدخول الجنة؛ ولكن الرسول ﷺ أنكر عليها هذه الشهادة.

وأما مسألة أطفال المسلمين، وماذا يكون مصيرهم في الآخرة، نقول: إن أطفال المؤمنين تَبع لآبائهم في الجنة، وأمَّا أطفال الكفَّار فهؤلاء موضع خلاف بين العلماء:

منهم مَن يقول: إنهم من أهل النار، وهم تَبَع لآبائهم.

ومنهم مَن يقول: إنهم من أهل الجنة؛ لأنهم لم يعملوا عملَ أهل النار، فهم من أهل الجنة.

ومنهم مَنْ يقول: إنه يُرسل إليهم رسول يوم القيامة ويدعوهم، فمَن آمن دخل الجنة، ومَنْ كفر دخل النار.

- **والصحيح:** التوقُّف في هذا الأمر، وهو أمر موكولٌ إلىٰ الله -جلَّ وعلا-، فهو أعلم بهم وبمصيرهم، وأمَّا نحن فينتهي علمنا عند ذلك.

---

(١) برقم (٢٦٦٢).

[كلُّ شيء بقدر]

٤٦- وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّىٰ الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ». رواه مسلم[1].

الشَّرح

قوله ﷺ: «كلُّ شيء بقدَر»: فيه إثبات القَدَر، «حتىٰ العجز والكَيْسِ»: فالعجز من الإنسان، وكونه يترك العمل تكاسلًا، فهو مقدَّر عليه؛ قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

والكَيْس هو: النشاط والعَزْم والحزم علىٰ مزاولة العمل الصالح، فهما مكتوبان في اللوح المحفوظ، ومقدَّران علىٰ الإنسان، بأن يكون كسلان أو نشيطًا وحازمًا في العمل؛ فدلَّ هذا علىٰ أنَّ الكسل والحزم إنما هما من فعل العبد إلَّا أنهما مقدّران مكتوبان في اللوح المحفوظ.

---

(١) برقم (٢٦٥٥).

[تفسير قوله تعالى:
﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾]

٤٧- وَعَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤]- قَالَ: «يُقْضَىٰ فِيهَا مَا يَكُون فِي السَّنَةِ إِلَىٰ مِثْلها». رواه عبد الرزاق، وابن جرير(١).

وقد رُوي معنىٰ ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وسعيد بن جُبير، ومقاتل(٢).

الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾: هذا التقدير الحَوْلي سَبق التقدير العُمُري في بطن الأُم؛ والتقدير الحَوْلي، هو: ما يحصل في ليلة القدر، وهي من ليالي رمضان؛ قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]. هذه ليلة القدر يُقدَّر فيها ما يجري في السنة من حياة وموت، وخصب وقَحْط، وغنًىٰ وفقر وغير ذلك، وهو مأخوذ من القَدَر السابق المكتوب في اللوح المحفوظ، هذا التقدير الحولي، وهو تقدير الخاص.

وقوله: «يُقضىٰ فيها ما يكون في السنة إلىٰ مثلها»: أي: يُقدَّر فيها ما يكون في السنة، وهو مأخوذٌ من التقدير العام المدوَّن في اللوح المحفوظ.

---

(١) عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٥٣).
(٢) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٨، ٥٦٩).

[ما جاء في صفة اللوح المحفوظ]

٤٨- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]». رواه عبد الرزاق، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢)، لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها: «فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلُّق النفس به، والذي قبله كذلك عند أوَّل تخليقه، وكونه مُضغة، والذي قبله تقدير سابقٌ علىٰ وجوده؛ لكن بعد خَلْق السموات والأرض، والذي قبله تقدير سابق علىٰ خَلْق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكلٌّ واحد من هذه التقادير؛ كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل علىٰ كمال علم الرَّبِّ، وقدرتِه وحكمتِه، وزيادةِ تعريفِه للملائكة، وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

ثم قال: فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها، علىٰ أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه؛ بل يُوجب الجِدَّ والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك، قال: «ما كنت بأشدَّ اجتهادًا مني الآن».

وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: «لأنا بأوَّل هَذَا الأمرِ أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِآخِرِه».

وذلك؛ لأنه إذا كان قد سَبق له من الله سابقةٌ، وهيّأه ويسّره للوصول إليها كان فَرَحُه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بعدها.

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٦، ٥٦٥).

(٢) انظر: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحِكْمة والتعليل» (١/ ٢٣، ٢٤).

الشَّـرح

قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾: هذا من التقدير اليومي بعد التقدير السَّنوي أو الحَوْلي، وهناك ثلاثة أنواع من التقدير:

الأول: التقدير العُمُري.

والثاني: السنوي.

والثالث: التقدير اليومي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾: وجاء تفسير ذلك في الحديث الذي ساقه المصنف في هذا الباب، وفيه: «**ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة**». فيدبِّر ما يشاء ﷻ، ويقضي ويخلق ويرزق كل يوم إذا نظر في اللوح المحفوظ، وهذا تقدير خاصٌّ من التقدير العام.

وابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق جملة من نحو هذه الأحاديث، وعلَّق عليها في كتابه «شفاء العليل في القضاء والقدر، والحِكْمة والتعليل»، فقوله: «هذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عُمُري»: هذا قد أخذه واستنبطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مجموع الأحاديث.

فقوله: «**هذا تقدير يومي**»، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾.

وقوله: «**والذي قبله تقدير حَوْلي**»، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقوله: «**والذي قبله تقدير عُمُري**»: وهو ما يُكتب علىٰ الجنين في بطن أمه.

وقوله: «**والذي قَبله كذلك عند أول تَخليقه، وكَونِه مُضغةً**»: يشير بذلك إلىٰ ما جاء في حديث حذيفة بن أَسيد من أن: «**الملك يدخل علىٰ النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة**». وأما حديث ابن مسعود[١]، فذكر أنه عندما تُنفخ فيه الرُّوح، وهذا مراده من ذِكر هذا القول. وهو بيان اختلاف الحديثين؛ حديث

---

(١) السالف برقم (٤٣).

ابن مسعود والذي بعده.

وقوله: «والذي قبله تقدير سابق علىٰ وجوده؛ لكن بعد خَلْق السموات والأرض»: يشير بذلك إلىٰ التقدير العام السابق علىٰ وجود المخلوقات، وهو ما كان في اللوح المحفوظ؛ والمراد به: حديث آدم عندما الذي أخذ الله ذريته، وقال: «**هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار**»(١). وهذا بعد خَلْق السموات والأرض؛ لأن خَلْق آدم متأخِّر عن خلقهما.

وقوله: «والذي قبله سابق علىٰ خَلْق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»: يريد بالذي قبله ما جاء في الحديث من أنَّ الله «**مسح ظهر آدم، فاستخرج منه ذرية، وقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار**»(٢). فهذا تقدير بعد خَلْق السموات والأرض حين خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. والذي قبله النهائي هو التقدير العام.

فلقد رتَّب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مدلولات هذه الأحاديث علىٰ هذا الترتيب الدَّقيق العجيب؛ فكلُّ واحد من هذه التقادير التي بعدما في اللوح المحفوظ تفاصيل لما في اللوح المحفوظ، وهذه التقادير الدقيقة التي لا تتخلف أبدًا، إنما هي دليل علىٰ عِلْم الرب وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأنه سبحانه أظهر هذا لعباده؛ ليتعرَّفوا عليه، ولتتعلَّق رغبتهم في الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ليخافوا منه ويرجوه، وليعبدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فاطلاعه سبحانه لهم علىٰ هذه التقادير وأنواعها في القرآن والأحاديث إنما هو من مصلحة العباد؛ لأجل أن يعرفوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقضاءه وقدَره، وتدبيراته، وأحكامه؛ ليكونوا علىٰ بصيرة، لا أن يكونوا كالبهائم التي لا تدري لماذا خُلقت! هذا مراده رَحِمَهُ اللَّهُ من قوله: «وفي ذلك دليل علىٰ كمال عِلْم الربِّ...» إلخ.

وأما قوله: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها علىٰ أن القَدَر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال...»: إذ كل الأحاديث يأتي فيها ذِكر العمل، فدلَّ علىٰ أن التقادير لا تسدُّ مسدَّ العمل؛ ولذلك أعطىٰ الله -جلَّ وعلا- الإنسان القدرة والمشيئة

---

(١) السالف برقم (٤١).

(٢) السالف برقم (٤١).

والاختيار بعد أن بيَّن له الخير من الشرِّ، كلُّ ذلك؛ لأجل أن يعمل، لا من أجل الاطلاع فقط، وهذا من لُطفه -جلَّ وعلا- بالإنسان، وهذا يوجب عليه بعد معرفته لهذه الأمور أن يجتهد للعمل الصالح، ويتجنَّب العمل السيئ.

وقوله: «لما سمع بعض الصحابة ذلك، قال: ما كنت بأشدَّ اجتهادًا منِّي الآن»: هذا من فِقْه الصحابة رضي الله عنهم، فلمَّا عرفوا هذا زاد اجتهادهم في العمل، ولم يتكاسلوا، أو يتكلوا علىٰ القضاء والقدر.

[ثمرة الإيمان بالقدر]

٤٩- وعن الوليد بن عُبادة قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي، وَاجْتَهِد لِي. فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِاللهِ تبارك وتعالى حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخطأَكَ لَمْ يَكُن لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ.

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. يَا بُنَيَّ، إِنْ مِتَّ، وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارِ». رواه أحمد[1].

الشَّرح

وهذا الحديث أيضًا في موضوع الإيمان بالقضاء والقَدَر، والإيمان بهما هو أحد أركان الإيمان السِّتة.

ففي هذا الحديث: أن الوليد بن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه دخل علىٰ أبيه عبادة ابن الصامت رضي الله عنه وهو في آخر حياته عند الموت، فلمَّا عَلم بأنَّ أباه قد احتُضر، أو قارب الموت طلب منه وصيَّةً تكون من الميت؛ لأنه يُستحب أن يُوصِيَ قبل موته أولاده، وأقاربه بتقوىٰ الله، والتمسُّك بالدِّين من بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهكذا يطمئن الوالد علىٰ عقيدة أولاده من بعده، وهذا من النُّصح ومن كمال الشفقة، وإذا كان هذا عند الموت، فكيف بحال الحياة والصحة؛ ولهذا فإنه ينبغي

---

(١) في «المسند» برقم (٢٢٧٠٥).

للوالد أن يعتني بالمحافظة علىٰ أولاده، والمحافظة علىٰ عقيدتهم، وعلىٰ دينهم، وأن يُعلِّمهم الخير، ويحثهم علىٰ تجنُّب الشرِّ، ووسائل المعاصي حتىٰ ينشئوا نشأة صالحةً.

وفي هذا الحديث أيضًا: أن الوليد يطلب من والده أن يُوصيه، وهذا من حرص السَّلف علىٰ الخير، والتواصي به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي الحديث: أن عبادة بن الصامت طلب أن يُجلسوه، اهتمامًا منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالوصية، فأجلسوه، فأوصىٰ ابنه وصيته العظيمة، أوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر؛ فدلَّ علىٰ أهمية هذا الأمر، فإنه في هذا الموقف، وهذه الحالة الحرجة، أوصاه الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه قد ظهرت في آخر عهد الصحابة فرقة القَدَرية الذين كانوا ينفون القَدَر، فتحاذرهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وحذَّروا منهم.

وهكذا ينبغي للمسلمين إذا ظهرت فرقة ضالَّة أن يُحاصروها، وأن يُحذِّروا منها، وأن يقوموا ضدَّها حتىٰ يسلم هذا الدِّين من دُعاة الضلال.

ولما ظهرت فرقة القدرية أوصىٰ عُبادة ابنه بالحذر من هذه الفرقة، ومذهبها، وأن يؤمن بالقضاء والقدر عكسًا لِما عليه هذه الفرقة الضالة التي تُشكِّك، أو تنفي القضاء والقدر، فأوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر.

وقال له: «لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تُؤمن بالقضاء والقدر، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليُصيبك»: ورویٰ عن رسول الله ﷺ -وهكذا ينبغي لمَنْ يقول قولًا، أن يذكر دليله من الكتاب والسنة.

فهذا عبادة بن الصامت لما أوصىٰ ابنه بهذه الوصية العظيمة ذكر دليله علىٰ هذه الوصية من حديث الرسول ﷺ، وأشار بأنه ﷺ ذكر بأن مَنْ لم يؤمن بالقضاء والقدر أحرقه الله بالنار، هذا وعيد شديد؛ يدل علىٰ كُفر مَنْ أنكر القضاء والقدر.

[عدم المنافاة بين الإيمان بالقدر والتداوي]

٥٠- وعن أبي خُزامةَ، عن أبيه، قال: «قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ». رواه أحمد، والترمذي وحسَّنه(١).

الشرح

هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه أنه لا منافاة بين الإيمان بالقضاء والقدر، واتخاذ الأسباب النافعة، فلا يُقال: نؤمن بالقضاء والقدر، دون الحاجة إلىٰ اتخاذ الأسباب؛ لأنه من الخطأ، ولا يُقال: نتخذ الأسباب وحسب، ولا حاجة إلىٰ الإيمان بالقضاء والقدر.

وهذا أيضًا من الخطاء؛ لأن الاعتماد علىٰ القضاء والقدر ضلال، وكذلك الاعتماد علىٰ الأسباب لوحدها ضلال.

والحق هو: الجمع بين الإيمان بالقضاء والقدر، واتخاذ الأسباب النافعة؛ لأنها لا تنافي القضاء والقدر؛ لأن اتخاذ الأسباب إنما هو من القضاء والقدر، فلولا أن الله قدَّر اتخاذ هذه الأسباب لما اتخذها الإنسان، فلا تنافي في ذلك بينهما؛ لأنه لا يكون في هذه الكون شيء إلا بقضاء الله وقدره.

وقوله في الحديث: «**رُقًىٰ نسترقيها**».

رُقى -جمع رُقية، والمراد بها-: التعويذة التي يتعوَّذ بها المريض.

وهذه الرُّقىٰ إن كانت من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الأدعية المشروعة فهي رقًىٰ شرعية صحيحة، فقد رَقىٰ النبيُّ ﷺ، ورُقي الرُّقىٰ الشرعية، وهي صحيحة، فِعْلها ومضمونُها؛ لأنها من اتخاذ الأسباب، والله -جلَّ وعلا- جعل القرآن شفاءً من الأمراض، ومن الشكوك والأوهام والشُّبهات، فهو شفاءٌ للأجسام وللقلوب، كما قال

---

(١) أحمد في «المسند» (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٥٦ و٢١٤٨).

تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. فهو يشفي من الأمراض والأسقام، ويشفي من الشُّبهات والشكوك والوساوس التي تكون في القلوب.

فإذا كانت الرُّقية من القرآن الكريم، ومن الأدعية المشروعة، فإنه لا بأس به، وأمَّا إن كانت من الشركيات، وعن طريق الاستعانة بالجن والشياطين، أو كانت بألفاظ مجهولة، وبحروف مقطَّعة وطلاسم فهي رُقية شركية شيطانية، فلا يجوز العمل بها.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**اعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرُّقىٰ ما لم تكن شِرْكًا**»[١]؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعملون الرُّقىٰ الشِّركية. وأما الإسلام فقد جاء بالرُّقىٰ الشرعية.

وقوله: «**ودواء نَتداوىٰ به**»: المراد: الأدوية الحسِّية التي يتداوىٰ بها الناس في المستشفيات والمستوصفات، أو بالطِّب النبويّ المعروف. وما يُسمُّونه بالطب الشعبي، والصحيح منه هو الطِّبُّ النبوي، وما ليس بصحيح فهو ليس من الطب النبوي؛ فالأدوية الحسَّية لا بأس بها، فقد قال ﷺ: «**ما أَنزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاء**»[٢]. وفي رواية بزيادة: «**عَلِمَه من عَلمَه، وجهِلَه مَن جَهِلَه**»[٣]. فهو سبحانه جعل في هذه المخلوقات، وهذه النباتات أدوية يستخرجها الأطباء وأهل الخبرة فينفع الله بها، فلا بأس بالتداوي والعلاج بالأدوية المباحة؛ لكن السائل سأل النبي ﷺ عن هذه الرُّقىٰ والأدوية والتُّقاة التي يتَّقون بها المكروه: هل هي تردُّ القضاء والقدر؟

فقال النبيُّ ﷺ: «**هي مِنْ قَدَر الله**»؛ لأنها مخلوقة، والله هو الذي قدَّرها ﷻ وجعلها أدوية وشفاءً للناس، فهي من القضاء والقدر، ولا تنافيه، فأن يتداوىٰ الناس ويؤمنوا بالقضاء والقدر فذلك هو المنهج الصحيح، والعقيدة السَّليمة، فاتخاذ الأسباب المباحة لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنها هي من القضاء والقدر؛ فلا شيء في هذا الكون إلا وقد قدَّره الله -جلَّ وعلا-.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٦) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٥٧٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف]

٥١- وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ؛ احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». رواه مسلم[(١)].

الشَّرح

في هذا الحديث الصحيح: أنه لا تنافي بين فِعْل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر.

قوله ﷺ: «**المؤمن القويّ**»: أي: القويّ في إيمانه وعزيمته، ورأيه وفي بَدَنِه، فإذا اجتمع له قوة الإيمان، والقوَّة البدنية فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف في رأيه وإيمانه؛ لأن المؤمن القوي ينفع نفسَه، وينفع غيرَه، وأمَّا المؤمن الضعيف فهذا يقتصر نفعُه علىٰ نفسِه فقط، ولا ينفع غيرَه.

وقوله: «**وفي كلٍّ خيرٌ**»: أي: المؤمن القويّ والمؤمن الضعيف، كلٌّ منهما فيه خير؛ لكن الخير الذي في المؤمن القوي أكثر منه في الضعيف، فهذا فيه مدح للمؤمن القوي؛ لِمَا يجعل الله فيه من الخير والبركة للمسلمين، وفيه: أن المؤمن الضعيف فيه خير فلا يُزهد فيه؛ لأنه مؤمن؛ لكن نفعُه قاصرٌ علىٰ نفسه.

وقوله ﷺ: «**احرِصْ علىٰ ما يَنفعُك**»: احرصْ؛ أي: جِدَّ في طلب الخير ولا تكسل، واحرص علىٰ ما ينفعك في دينك ودُنياك، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الكسب والعمل، وألَّا يركن الإنسان إلىٰ الراحة والخمول، أو الاتِّكال علىٰ القضاء والقدر دون العمل والمثابرة عليه، فهذه مغالطة يُضلِّل فيها شياطين الإنس والجنّ الجُهّال من المسلمين، لتخذيلهم من السعي لطلب الخير، بحجَّة أنَّ المقسوم حاصل.

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

وقوله ﷺ: «**واستَعِنْ بالله**»: يعني: لا تعتمد علىٰ حرصك وأعمالك؛ بل لابدَّ من الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه تعالىٰ.

فالأصل في هذا هو الجَمْع بين الأمرين، الحرص علىٰ ما ينفع، والاستعانة بالله والتوكُّل عليه -جلَّ وعلا-؛ فهذا فيه دليل علىٰ أنَّ السَّعي في طلب الرزق، وغيره من الأمور النافعة لا يكفي دون التوكُّل علىٰ الله، والاستعانة بطلب العون منه ﷻ؛ فلا يقتصر الإنسان علىٰ التوكُّل علىٰ الله، ويترك السعي لطلب الخير، ولا يعتمد علىٰ السَّعي، ويترك التوكُّل علىٰ الله، فلابدَّ من الجمع بين الأمرين.

وقوله: «**ولا تعجزَنَّ**»: يعني: لا تكسل؛ والعجز هنا معناه: الكسل والخمول؛ إذ بعض الناس يُقعده العجز والكسل، ولهذا ينهىٰ ﷺ عن العجز والكسل؛ ولهذا استعاذ ﷺ من العجز والكسل ومن الجبن والبخل بقوله: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والجُبْن والبُخل**»[1].

فإذا فعلت هذا بأنْ سعيت في طلب الخير واستعنَت بالله، فإن حصل كل مقصودك فاحمد الله تعالىٰ، وإن لم يحصل لك مقصودك فلا تتحسَّر وتيأس؛ بل اعلم أن هذا قضاء وقدر، وأنه لو كان قُدِّر لك هذا الشيء لحصل، فارضَ بقضاء الله وقدره بعد تقديم الأسباب، وأما الرضا بقضاء الله وقدره مع تعطيل الأسباب فهو غير مشروع.

فإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فالقدر لا يُنجي منه شيء، ولكن قُلْ: قدَّر الله، وما شاء فعل، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا يُطمئن المؤمن؛ لأن الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر إذا فاته ما يريد فإنه يتحسَّر، وأما المؤمن فلا يحزن ولا يتحسَّر ولا يلوم أحدًا؛ لأنه يؤمن بالقضاء والقدر لِمَا فيه راحة للمؤمن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

بابُ ذكر الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والإيمان بهم

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] الآية.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] الآية.

الشَّرح

كما ذكرنا سابقًا أن الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان الستة، فكذلك الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والملائكة، -جمع مَلَك-، والملك أصله مَلْأَك -بالهمز- مأخوذ من الأُلوكة، وهي: الرسالة؛ لأن المَلَك رسولٌ من الله ﷻ، والملائكة خَلْق من خَلْق الله -جلَّ وعلا- من عالَم الغيب، نؤمن بهم ولو لم نرهم؛ اعتمادًا علىٰ خبر الله -جلَّ وعلا-

وخبر رسوله ﷺ، فإنَّ الله أخبر عن الملائكة، وكذا النبيُّ ﷺ، فليس كلُّ موجود يُرىٰ ويُشاهد، فالرُّوح مثلًا هي موجودة؛ ولكنها لا تُرىٰ، وكذا العقل هو موجود؛ ولكننا لا نراه، ونحن نؤمن بالملائكة وإن لم نَرَهم بخلاف الملاحدة الذين يقولون: لا نؤمن إلا بما نشاهده، فهؤلاء ليس لهم مِيزة؛ ولكن المِيزَة تكون للذين يؤمنون بالغيب اعتمادًا علىٰ خبر الله -جلَّ وعلا-، وخبر رسوله ﷺ، ولهذا فإنه جاء أول سورة (البقرة) قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]. أي: ما غاب عنهم، والله -جلَّ وعلا- عالِمٌ الغيب والشهادة، يعلم المشاهَد ويعلم الغائب، أمَّا نحن فلا نعلم إلَّا المشاهَد، وأمَّا الغائب فلا نعلمه إلا بواسطة الوحي المنزَّل من عند الله ﷻ.

فالملائكة من عالَم الغيب، خلقهم الله من نور، وخلق الشيطان من لهب النار، وخلق آدم من تراب، قال ﷺ: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم**»[١].

وقد خلق الله الملائكة لِحكَم عظيمة، ومن ذلك: أنه خَلقهم لعبادته؛ قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وخَلقهم ﷻ أيضًا؛ لتنفيذ أوامره في هذا الكون، فكلُّ صنفٍ من الملائكة موكَّل بشيء من العمل، فمنهم الموكَّل بالوحي، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم الموكَّل بالقَطْر والنبات، وهو ميكائيل، ومنهم الموكَّل بقَبْض الأرواح والنَّفْخِ في الصور وهو إسرافيل.

ومنهم: الموكَّل بالأجنَّة في البطون، فيدخل علىٰ الجنين ويكتب رزقه وأَجلَه وعمله وشقيّ أو سعيد، ومنهم الموكَّل بحفظ أعمال بني آدم وهم الحَفظَة الذين يتعاقبون علىٰ بني آدم بالليل والنهارُ، يُسجلون أعمالهم ويصعدون بها إلىٰ الله ﷻ، وكلُّ صنفٍ من الملائكة له وظيفة وكلها الله إليه، لا يتخلف عنها؛ قال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقال عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. فلا أحد منهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يتخلَّف عن عمله الذي أوكله الله إليه، بل هم يمتثلون أوامر الله -جلَّ وعلا-، فيجب الإيمان بهم، وهم -كما ذكرنا- أصناف:

منهم: الموكلون بحَمْل العرش، ومنهم: مَنْ هم حول العرش، ومنهم: المقرَّبون من الله ﷻ، ومنهم: خازن الجنان، ومنهم خزنة النار، فهم أنواع كثيرة، لا يعلمها إلّا الله ﷻ، وخِلْقة المَلك الواحد عظيمة ليست كخِلْقة بني آدم؛ ولذلك لا يأتون إلىٰ البشر في خَلْقتهم الأصلية المَلكية، وإنما يأتون إلىٰ البشر بصورة البشر؛ لئلا ينفروا منهم؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملك علىٰ هيئته الملَكية؛ ولذلك يأتون بصورة آدمي، كما كان جبريل يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل من الصحابة، وهو دِحْية الكلبي، فيتخاطب مع الرسول بما أرسله الله به، ولم يَرَ الرسول ﷺ جبريل علىٰ خِلْقته إلا مرتين، مرة رآه بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، كل جناح منها سدَّ الأفق، ومرة ثانية رآه ليلة المعراج عند سِدْرة المنتهىٰ[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. لما عُرج به ﷺ إلىٰ السماء، وأمَّا بقيَّة مجيء جبريل إلىٰ الرسول ﷺ، فإنه كان يأتيه علىٰ صورة آدمي.

والملَك الواحد أعطاه الله -جلَّ وعلا- قوَّة كبيرة، ومنهم: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي قال الله -جلَّ وعلا- عنه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. يعني: جبريل. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: قيل: المِرَّة: الهيئة الحسنة. وقيل: المِرَّة: القوَّة، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قويّ.

ومما يدلُّ على قوَّته: أن الله لما أمره بقلب قُرىٰ قوم لوط رفع سبع مدائن مملوءة بالخَلْق والمباني جميعًا علىٰ طرف جناحه حتىٰ سمعت الملائكة في السماء نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها عليهم، فخسف الله بهم، وهذا ما يدل علىٰ قوّة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولما صاح بقبيلة ثمود صيحة واحدة صاعقة قطَّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

---

(١) انظر: البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صيحة واحدة من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أهلكت أمة عظيمة، وهذا أيضًا ما يدلُّ علىٰ قوَّته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، سبب نزول هذه الآية: أن اليهود اعترضوا علىٰ تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة المشرفة وهم يعلمون أنه حقٌّ، ويجدون هذا في كتبهم التي فيها وَصْف النبي ﷺ، بحيث لو أن الرسول ﷺ بقي علىٰ استقبال بيت المقدس لاعترضوا أيضًا بحجَّة أن الرسول الموصوف عندهم في كتبهم يستقبل الكعبة، ولقالوا: إنك تستقبل بيت المقدس، فهم سيعترضون علىٰ كلتا الحالتين.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]. يعني: حوّلناكم إلىٰ الكعبة؛ لئلا يكون لليهود عليكم حُجَّة؛ لأنهم يعلمون أن الرسول الذي سيبُعث سيستقبل الكعبة المشرفة، فلو بقي محمدٌ ﷺ يستقبل بيت المقدس، لقالوا: ليس هذا الرسول الموعود، فلما حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة المشرفة، قبل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- اعترضوا، فالله -جلَّ وعلا- يقول: ليست الطاعة أن تُستَقبل المشرق أو المغرب؛ ولكن الطاعة أن تستقبل الجهة التي آمركم بها، فالمدار علىٰ الأمر، لا علىٰ الجهة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: يعني: أنه من الإيمان بالله استقبال الجهة التي يأمر الله -جلَّ وعلا- بها.

وقد ذكر الله -جلَّ وعلا- في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: ذكر في هذه الآية خمسة أركان من أركان الإيمان الستة، والشاهد في ذلك هو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فجعل الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان السِّتة، فمَن لم يؤمن بالملائكة فقد افتقد ركنًا من أركان الإيمان، ولا يكون مسلمًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]. هذا خبرٌ من الله -جلَّ وعلا-، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: يعني:

أعلنوا توحيد الألوهية، ولا إله إلا الله؛ أي: لا معبود عندهم بحقٍّ إلا الله ﷻ، فنطقوا بالحقِّ، وهي شهادة: أن لا إله إلا الله، وليس المراد النطق بالحروف فحسب؛ ولكن النُّطق بالألسنة والاعتقاد بالقلوب والعمل بالجوارح، فشهادة أن لا إله إلا الله لابدَّ من التلفُّظ بها، ومعرفة معناها والعمل بمقتضاها، فلابدَّ من هذه الأمور مجتمعة.

أما قول: لا إله إلا الله، دون معرفة معناها، أو معرفة معناها دون العمل بمقتضاها، أو معرفة معناها والعمل بمقتضاها دون التلفظ بها كحال المشركين، كلُّ هذا لا ينفع حتىٰ ينطق بها، ويعرف معناها ويعمل بمقتضاها، ومن العمل بمقتضاها: البراءة من الشرك والمشركين هذا مقتضىٰ التوحيد؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، لم يقتصر علىٰ قوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، بل قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: يعني: عملوا بهذه الكلمة، فأفردوا الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، هذه هي الاستقامة، أما مجرَّد النطق بها من غير استقامة؛ أي: من غير عمل بمقتضاها، فإنها لا تنفع صاحبها.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: هذا هو مَحَلُّ الشاهد، والملائكة تتنزل عليهم عند الموت، وهي ملائكة الموت، فمَلَك الموت جعل الله معه ملائكة يساعدونه؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. وقال في آية أخرىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. يعني: الملائكة؛ لأنهم رسل، وفي آية أخرىٰ، قال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٢].

والجمع في ذلك، هو: أن ملك الموت معه أعوان من الملائكة، يستخرجون الرُّوح من جسد الإنسان، ثم يقبضها منهم ملك الموت، وأما الباقون فهم أعوان له.

فالملائكة تتنزل علىٰ الإنسان عند الاحتضار في الموقف الحرج، وحينها يطَّلع الإنسان علىٰ ما هو أمامه، فيطَّلع علىٰ منزلته في الآخرة؛ إما في الجنة، وإما في النار، فيحصل عند الإنسان في هذا خوف شديد، فتطمئنه الملائكة بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾؛ ﴿تَخَافُوا۟﴾: مما أنتم قادمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾: علىٰ ما فاتكم من الدنيا، علىٰ أولادكم وأموالكم، ﴿وَأَبْشِرُوا۟﴾: بعدما هدّؤوهم بشَّروهم ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى

كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾. يعني: نتولىٰ أمركم ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] هذه صفة احتضار المؤمن.

وأما الكافر والمنافق، فإنَّ الملائكة إذا نزلت لقَبْض رُوحه، فإنها تبشِّره بالنار والتهديد والضرب؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. يعني: باسطو أيديهم بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]. بعدما استعصبت أنفسُهم، وامتنعت عن الخروج من الأجساد، وذلك إذ يُبشِّرونهم بالنار والعذاب؛ هذه صفة احتضار الكافر والمنافق.

وفي هذا دليل علىٰ وجوب الإيمان بالملائكة، وأن منهم صنفًا مهمَّتهم قَبْض الأرواح، وبشارة المؤمنين بالجنة، وبشارة الكفار والمنافقين بالنار عند هذه الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾: أي: عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يستكبر أو يمتنع من أن يكون عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النصارىٰ اعتقدت في المسيح أنه هو الله، أو أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والله -جلَّ وعلا- يقول: إن المسيح -عليه الصلاة والسلام-، لا يدّعي هذا الذي تقولونه، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يعترف بأنه عبد الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. يعني: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال تعالىٰ علىٰ لسانه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. هذا أول ما نطق به، وهو في المهد، ولم يقل: إني ابن الله، وقال كما ذكر سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

هذا قول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه عبد الله ورسوله، بخلاف ما تدّعيه النصارىٰ من أنه ابن الله -تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- وهذا فيه ردٌّ علىٰ زعمهم بأنه ابن الله، فهو

عَلَيْهِ السَّلَامُ يتشرف في أن يكون عبدًا لله، وأفضل الخُلْق محمد ﷺ يقول: «**إنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه**»(١). والعبودية: هي أعلىٰ مراتب الشَّرف لبني آدم وللملائكة ولجميع الخَلْق، وأمَّا الألوهية، فإنها لا تكون إلا لله ﷻ:

لله حـــقٌّ لـــيس لعبـــده ولعبـــده حـــقٌّ همـــا حَقّـــانِ

لا تجعـــل الحَقَّـــينِ حقًّـــا واحـــدًا مـــن غـــير تمييـــز ولا فُرْقَـــانِ

فيجب التفريق بين حقِّ الله وحق الرسول ﷺ، فحقُّ الله: العبادة، وحقُّ الرسول ﷺ: المتابعة والطاعة له ﷺ، والإيمان برسالته، ومحبَّته أكثر من محبَّة النفس والأهل والمال والولد والناس أجمعين، هذا هو حقُّ الرسول ﷺ؛ لأنه ليس له في العبادة حقٌّ؛ لأنها حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ وحده دون سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: هذا هو محلُّ الشاهد؛ فالملائكة لا يستكبرون أن يكونوا عبيدًا لله -جلَّ وعلا-؛ بل هم معترفون بالعبودية، ولهذا فهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: فيه دليل علىٰ أن هناك صنفًا من الملائكة مقرَّبون عند الله ﷻ، فالملائكة درجات، فمنهم المقرَّبون عند الله -جلَّ وعلا-، ولكن مع كونهم مقرَّبين عند الله إلَّا أنهم لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله ﷻ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. وهذا أيضًا في وصف الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-؛ يقول الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَلَهُۥ﴾: أي: لله ﷻ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: كلهم عبيده؛ المؤمن والكافر، والجن والإنس، كلهم عبيد لله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. لكن الكافر عبدٌ لله العبودية العامة، وأما المؤمن فهو عبدٌ لله العبودية الخاصّة، وإلا فكلُّهم عباد الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾: أي: الملائكة، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: لا يستنكفون ولا يسأمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. فالملائكة لا يدَّعون الألوهية، ولو قُدِّر أنهم ادَّعوا الألوهية لأحرقهم الله في النار؛ لأن العبودية حقٌّ له ﷻ دون سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]. قوله: ﴿رُسُلًا﴾: إلىٰ خلقه يرسلهم الله -جلَّ وعلا- بالمهمَّات التي يُنفِّذونها في الأرض، فمنهم مَنْ ينزل بالوحي، ومنهم مَنْ ينزل بالعذاب، ومنهم مَنْ ينزل بالبشارة للمؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. فهناك رسلٌ من الملائكة، ورسلٌ من البشر، فالملائكة رسل يرسلهم الله -جلَّ وعلا- لِما يريد من أمره.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾: هذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة؛ لأن الملائكة تطير في الهواء، وهذه الأجنحة كثيرة لا يعلمها إلا الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّثْنَىٰ﴾: يعني: منهم مَنْ له جناحان، ﴿وَثُلَٰثَ﴾: أي: ومنهم مَنْ له ثلاثة أجنحة، ﴿وَرُبَٰعَ﴾: أي: منهم مَنْ له أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: أي: زيادته -تبارك وتعالىٰ- في خَلْق هذا الملك من الأجنحة علىٰ الآخر ما يشاء ونُقصانه عن الآخر ما أحبَّ، فمنهم مَنْ له ستمائة جناح كما في الحديث الصحيح (١).

فهذا فيه: إثبات أن الملائكة رسل، وأنهم ليس لهم من الرُّبوبية والألوهية شيء، وإنما هم مجرَّد رسل، وأنَّ لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وأنَّ هذه الأجنحة متعدِّدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. وهذا صنفٌ آخر من الملائكة أيضًا هم حملة

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

العرش، الذي هو أعظم المخلوقات يحمله ملائكة وهم أربعة، ومع عِظَم العرش الكريم يُذكر عِظَم هؤلاء الملائكة الذين يحملونه، ويوم القيامة يُضاعف عددهم فيكونون ثمانية ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]. يعني: من الملائكة الذين يُقال لهم: حملة العرش.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾. أي: حول العرش، وهم الملائكة المقرَّبون.

ومن نُصحهم ومحبَّتهم للمؤمنين، فإنهم يستغفرون لهم، ولهذا وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾: أي: يُنزِّهون الله -جلَّ وعلا-، ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فهم يستغفرون للمؤمنين من بني آدم؛ لأنهم يحبُّون المؤمنين منهم، وهم أنصح الخَلْق لبني آدم، بخلاف الشياطين الذين هم أكثرهم غشًّا لبني آدم.

[خلقت الملائكة من نور]

٥٢- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رواه مسلم[1].

الشرح

ما زال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر الأحاديث الواردة في الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وفي هذا الحديث المرويّ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيه: أن الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الملائكة من النُّور، وخلق الجانَّ وهم إبليس وذُريته من مارج من نار، والمراد بقوله ﷺ: «مَنْ مارج من نار». أي: من اللَّهب، وخلق آدم أبا البشرية عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مما وُصِفَ لكم»: يعني: مما ذكر الله في الآيات كثيرة أنه خلقه من تراب، هذا أصل خِلْقة الملائكة والشياطين والإنسان، والله علىٰ كلِّ شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

وكان إبليسُ قد استكبر علىٰ آدم وأبىٰ أن يسجد له وعصىٰ أمر الله، وقال كما ذكر الله عنه سبحانه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]. فبزعمه أن النار أحسن من الطِّين، وهذا قياس فاسد، فإنَّ الطين أحسن من النار؛ لأن النار محرقة متلفة، ولا تُنتج شيئًا.

أمَّا الطِّين، فإنه مبارك، ويُنتج النباتات والأشجار الطَّيبة، وفيه منافع للناس كثيرة، فلو رجعنا إلىٰ القياس والأصل لوجدنا أنَّ آدم أطيب أصلًا من إبليس، مع أنَّ هذا القياس الفاسد في مقابل الأمر؛ أي: أمر الله -جلَّ وعلا- الذي كان من الواجب امتثاله من قِبَل إبليس وغيره، فإذا أمر سبحانه بشيء فلا اعتراض، ويجب الانقياد له، والله يُؤتي فضله مَنْ يَشاء، والذي حَمَل إبليس علىٰ هذا هو الحَسد، فحسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ،

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

واستكبر عن أمر الله، فحصل عليه من العقوبة ما حصل.

والشاهد من الحديث: أن الملائكة خُلقوا من النُّور، فيؤمن المسلم بما جاءه عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن رسوله ﷺ، وقد سبق القول بأنهم عباد مكرمون، وأنهم أصناف كثيرة.

[ذكر عبادة الملائكة والبيت المعمور]

٥٣- وثبت في بعض أحاديثِ المعراجِ[(١)]: «أَنَّهُ ﷺ رُفِعَ لَهُ البَيْتُ المَعْمُور الَّذِي هُوَ فِي السَّماءِ السَّابِعَةِ. وَقِيلَ: فِي السَّادِسَةِ بِمَنْزِلَةِ الكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ، وَهُوَ بِحِيَال الكَعْبَةِ، حُرْمَتُه فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخلُه كُلَّ يَومٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لا يَعودُونَ إِلَيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِم».

الشَّـرح

هذا الحديث فيه ذِكْر عبادة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وأنَّ الله -جلَّ وعلا- جعل لهم بيتًا في السَّماء، كما جعل لبني آدم بيتًا في الأرض، وهذا البيت الذي في السماء بحِيال الكعبة المشرفة التي في الأرض؛ وذلك لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، لهذا البيت الذي في السماء هو البيت المعمور، يزوره هذا العدد كلَّ يوم من الملائكة، ولا يرجعون إليه؛ بل يأتي غيرهم، فهذا يدل علىٰ أمرين:

الأول: أن الملائكة يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، وأنهم عباد ليس لهم من الأمر شيء.

الثاني: فيه دليل علىٰ كثرة الملائكة؛ حيث إنه يأتي البيت المعمور كلَّ يوم سبعون ألف ملك إلىٰ البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه إلىٰ يوم القيامة؛ حيث لا يعلم عددهم الهائل إلَّا الله تَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٥٤- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَم إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]». رواه محمد بن نصر، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ(١).

الشَّرْح

وهذا الحديث أيضًا يدلُّ على: أنَّ الملائكة يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ بالركوع، والسُّجود والقيام عبادةً لله عَزَّوَجَلَّ، وفيه بيان كثرتهم في السَّماء علىٰ سعتها، إذ ليس فيها موضع قَدَم إلَّا وفيه مَلَك يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا دليل علىٰ كثرتهم، وأنهم ملئوا السماء علىٰ سعتها، ويدل علىٰ هذا قوله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾؛ لأن الملائكة تَصفُّ عند ربِّها للعبادة؛ ولهذا قال ﷺ: **«ألا تَصفُّون كما تَصفُّ الملائكة عند ربِّها»**: يعني في الصلاة، قالوا: وكيف تصفُّ الملائكة؟ فقال ﷺ: **«يُتِمُّون الصَّفَّ الأوَّلَ، ويتراصُّون في الصَّفِّ»**(٢).

وفي هذا دليل علىٰ عبادة الملائكة لله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ كثرة عددهم؛ حيث إنهم يملئون السماء علىٰ سعتها.

---

(١) محمد بن نصر في «الصلاة» (١/ ٢٦٠)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٣٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٩٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٠)، من حديث جابر بن سَمُرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٥- وروىٰ الطبراني[(١)]، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ، وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٍّ، إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَالُوا -جَمِيعًا-: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا».

الشَّرح

وهذا الحديث، كالأحاديث السابقة، فيه ذِكْر عبادة الملائكة، وفيه ذِكْر كثرتهم؛ حيث إنه لم يَبقَ في السَّماء فضاء؛ بل هم ملئوه، وفيه ذِكْر مسألة عظيمة، وهي: أنه علىٰ الإنسان ألَّا يغترَّ بعمله مهما كثُر، فالملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، ومع هذا يقولون لله عَزَّ وَجَلَّ: **«سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك»**؛ لأن حقَّ الله عظيم، ولو قارن الإنسان عمله بنِعَم الله عليه لما بلغت شيئًا يُذكر أمام هذه النِّعَم.

فالعمل قليلٌ وإن كثُرُ؛ لأن نِعَم الله أكثر وأكثر، فلا أحدَ يعبد الله حقَّ عبادته؛ لعظم حقِّ الله تَعَالَىٰ؛ ولهذا فإن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخَلْق علىٰ الإطلاق وأكثرهم عبادة لله عَزَّ وَجَلَّ، يقول: **«سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك»**[(٢)]. هذا فيه اعتراف بأنَّ عمل المخلوق مهما بلغ، فإنه لا يعادل حقَّ الله تَعَالَىٰ، وهذا فيه أيضًا: أنه علىٰ الإنسان ألَّا يَغترَّ بعمله، أو يُعجَب به.

وفي قولهم: **«إلَّا أنَّا لم نُشرك بك شيئًا»**: بيان أنَّ مَنْ سَلِمَ من الشِّرك فإنه سَلِمَ من خطر عظيم، وفيه أيضًا: الخوف من الشِّرك، وأن الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شكروا الله عَزَّ وَجَلَّ أنه سلَّمهم من الشِّرْك وهذه نعمة عظيمة، فمَن سَلِمَ من الشرك فإنه قد سَلِم من الخطر العظيم، ومَن وقع في الشِّرك ولم يَتُبْ منه فإنه لا نجاة له.

---

(١) في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤) (١٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

[ذِكْر عِظَم خِلْقة الملائكة]

٥٦- وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». رواه أبو داود، والبيهقيُّ فِي «الأسماء والصِّفاتِ»، والضِّياء فِي «المختارة»[(١)].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: ذِكْر عِظَم خِلقة الملائكة، وأنَّ هذا الملَك من حَمَلة العرش، ما بين شحمة أُذنِه وعاتقِه مسيرة سبعمائة عام، فدلَّ علىٰ عِظَم خِلْقة الملائكة، وأنه لا يعلم خِلْقة المَلَك إلَّا الله تَعَالَىٰ، وإذا كان هذا عِظَم المخلوق فكيف بعِظَم الخالق تَعَالَىٰ؟!!

وفيه: أنَّ من الملائكة صنفًا يحملون العرش، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وقوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧].

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧)، والبيهقي (٨٤٦).

فمِنْ سادتِهم: جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد وَصفَه الله تعالىٰ بالأمانةِ، وحُسنِ الخلق، والقوَّة، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦].

الشَّرْح

من سادات الملائكة: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الملَك الموكَّل بالوحي، وقد مدحه الله -جلَّ وعلا- بالأمانة، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. فهو أمين علىٰ الوحي، ومدحه بالقوَّة، قوَّة الخِلْقة والبَدَن، فقوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: ووصفه بحُسْن الصورة، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. أي: خِلْقة حسنة، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: علَّم نبيَّنا محمدًا ﷺ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسيأتي ذِكْر شيء من قوته -عليه الصلاة والسلام-.

وَمِنْ شِدَّةِ قُوَّتِهِ؛ أَنَّهُ رَفَعَ مَدائِنَ قَوْم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُنَّ سَبْعًا بِمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الأُمَمِّ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعْمِائَةِ أَلفٍ، وَمَا مَعهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَالحَيَوَانَات وَمَا لِتِلكَ المَدَائن مِنَ الأَرَاضِي وَالعِمَارَات؛ عَلَىٰ طَرَفِ جَنَاحِهِ، حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِنَّ عَنَانَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ سَمِعتِ المَلائِكَةُ نبَاحَ كِلابِهِمْ، وَصِياحَ دِيكَتِهِمْ، ثُمَّ قَلبَها فَجَعَل عَالِيهَا سَافِلَهَا، فَهَذَا هُوَ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

الشَّرْح

قوله تعالىٰ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، جاء أنه لما أمره الله بإهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولوط نبيٌّ من أنبياء الله، وهو ابن أخي إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإبراهيم هو عمُّه -عليهما الصلاة والسلام-، وجاء مهاجرًا مع إبراهيم من أرض بابل بالعراق إلىٰ الشام، وأرسله الله إلىٰ قومه، وكان قومه أُمّةً خبيثة، قومَ سَوءٍ، وكانوا يأتون الذُّكران من العالمين، وهم أول مَنْ فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فقد خلق الله للرجال النساء يكنَّ زوجات لهم، وهنَّ طيبات ومحلٌّ للحَرْث والإنجاب، وكون هؤلاء القوم الخبثاء يَعْدِلون عمَّا خلق الله لهم من أزواج، ويَكفِرون نعمة الله، ويهلكون الحَرْث ويضعونه في أدْبار الرجال، فهو دليل علىٰ خُبثهم.

وهذه جريمة شنيعة تأنف منها حتىٰ البهائم، فأرسل الله إليهم لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنكر عليهم فِعْلَتهم، وقال لهم كما أخبر الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. يعني: متجاوزون من الحلال إلىٰ الحرام، وهؤلاء خرجوا من الإنسانية إلىٰ البهائمية المنحطَّة؛ بل حتىٰ البهائم لا تفعل هذا الفعل، فلما أَبَوا أن يتركوا هذه الجريمة عاقبهم الله بعقوبة لم يُعاقب بها أُمةً من الأمم؛ لأن فِعْلهم لم يفعله أحد من قَبل، فأمر الله جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يرفع ديارهم -وكانت سبع مدن مكتظَّة بالسكان- وما فيها من الأمتعة والحيوانات، فحملها جبريل علىٰ طرف جناحه إلىٰ أن بلغ بها عنان السماء.

فسمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها عليها، وأُتبعوا بحجارة من سجِّيل عقوبةً لهم.

وكانت هذه البلاد المخسوفة ممرًّا للعرب إذا سافروا إلىٰ الشام ولا يعتبرون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

وتسمَّىٰ بحيرة لوط، أبقاها الله علىٰ هذه الصورة عِبْرة وعِظَة؛ ولهذا جاء في الأحاديث عن النبي ﷺ، أنه قال: «**مَنْ وَجَدْتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١). وأجمع الصحابة علىٰ قتل مَنْ يفعل فعلهم؛ ولكنهم اختلفوا في كيفية القتل.

فمنهم مَن يرى: أنه يُرفع إلىٰ أعلىٰ مكان في البلد، ثم يُلقىٰ، ويُتبَع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط.

ومنهم مَنْ يرى: أنه يُحرَّق في النار، وقد حرَّق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن العلماء مَنْ يرى: أنهم يُقتلون بالسيف، فالعلماء لم يختلفوا في قتلهم، وإنما اختلفوا في كيفية قتلهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٣٣)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]. أَيّ: ذُو خُلُقٍ حَسَنٍ وَبَهَاءٍ، وَسَنَاءٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَة. قَالَ مَعْنَاه ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. أَيّ: ذُو قُوَّةٍ.

الشَّرْح

قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: لابدَّ أن بينهما فَرْقًا، فالمِرَّة غير القوة، والمِرَّة: هي الهيئة الحسنة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي صِفَتِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]. أَيّ: لَهُ قُوَّة وَبَأس شَدِيد، وَلَهُ مَكَانَة وَمَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَة عِنْدَ ذِي العَرْش المَجِيد، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾: أَيّ: مُطَاع فِي المَلأِ الأَعْلَىٰ، ﴿أَمِينٍ﴾: أَيّ: ذِي أَمَانَةٍ عَظِيمَةٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ هُوَ السَّفِير بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ.

الشَّرح

هذه أوصاف جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: فيه وصف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكرم، ووصفه بالرسالة، فهو رسول من عند الله عَزَّ وَجَلَّ يرسله إلىٰ مَنْ يشاء من رسله من بني آدم بالوحي، فهو واسطة بين الله عَزَّ وَجَلَّ والرسل من البشر بالوحي، وهذا مدحٌ له، ولهذا قال عنه تعالىٰ: ﴿كَرِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾: فوصفه تعالىٰ بالقوة، ثمَّ وصفه بما هو أعلىٰ، فقال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: بعُلوِّ المكانة، فهو قريب من الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم قال: ﴿مَكِينٍ﴾: أي: له مكانة عظيمة، ثم قال تعالىٰ: ﴿مُّطَاعٍ﴾: أي: تطيعه الملائكة، فهو رئيسهم ومقدَّمهم، ثم قال تعالىٰ: ﴿ثَمَّ﴾: أي: في السماء، ثم قال: ﴿أَمِينٍ﴾: فوصفه تعالىٰ بالأمانة، هذه أوصاف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال تعالىٰ عن نبيِّنا محمد ﷺ الذي يتلقَّىٰ الوحي من جبريل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾؛ لأنهم كانوا يصفونه ﷺ بالجنون، والله -جلَّ وعلا- نفىٰ عنه ذلك، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾: أي: رأىٰ محمد ﷺ جبريل علىٰ خِلفته التي خلقه الله عليها بالأفق، وذلك في بطحاء مكة، لما حصل علىٰ النبي ﷺ من الضِّيق والشدَّة من كفَّار أهل مكة، فسمع ﷺ صوتًا من فوق رأسه، فرفع طرفه إلىٰ السماء، فإذا هو جبريل بين السَّماء والأرض، له ستمائة جناح[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٣، ٢٤] ما هذا الرسول ﷺ ﴿بِضَنِينٍ﴾ علىٰ الغيب؛ أي: ما هو بمُتَّهم علىٰ الأخبار التي يُخبر بها

---

(١) انظر: البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن الله ﷻ، بل هو صادق -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾: هذا القرآن ليس من قول الشياطين؛ لأن الشياطين لا تقرب الوحي؛ لأنه يُحرقها، وهي لا تطيق ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: يعني: بالقرآن، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾: أي: لا يليق بهم: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. يعني: عن الوحي فهم مبعدون، يُرجمون بالشُّهب، فلا يستطيعون أن يَقْربوا من الوحي، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥،٢٦]. ليس لكم طريقٌ لتكذيب هذا الرسول، وهذا القرآن بعد هذه الأوصاف العظيمة، وهذا السند المتصل إلىٰ الله -جلَّ وعلا-، فالسند إنما هو عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن الله -تبارك وتعالىٰ.

[ذكر صفة خِلْقة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ]

٥٧- وَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ رَآهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ الَّتِي خَلَقَه اللهُ عَليها مَرَّتَين، وَلَهُ ستمائة جناح. روىٰ ذَلِكَ البُخَارِيّ، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

الشَّـرح

لقد رأىٰ رسول الله ﷺ جبريلَ علىٰ خِلْقته التي خلقه الله عليها مرتين؛ مرة في مكة حين رفع رأسه ﷺ، وفي المرة الثانية ليلة المعراج؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. أي: ليلة عُرِج به ﷺ.

وأما في بقيَّة الأحوال فقد كان يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة البشر، ويراه الصحابة، ويظنون أنه رجل من البشر؛ لأنهم لا يطيقون رؤية جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ خِلْقته، فيأتي بصورة رجل كما في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم؛ إذ طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعْر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد». هذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك قال ﷺ في نهاية الحديث: «أتدرون من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل، أتاكم يُعلِّمكم دينكم»[(٢)].

---

(١) برقم (٤٨٥٦ و٤٨٥٧)، وأخرجه مسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

٥٨- وروى الإمامُ أحمد[١]، عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ والْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ». إسنادُه قوي.

الشَّرْح

ما زال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يسوق الأحاديث الدالَّة علىٰ عِظَم خِلْقة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُؤيِّد ما جاء في هذه الأحاديث، قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. دلَّت الآية علىٰ أن للملائكة أجنحة، وأنها كثيرة، منها ما هو مثنىٰ وثلاث ورباع، ثم قال تعالىٰ: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

(١) في «المسند» برقم (٣٧٤٨).

[صفة ثياب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ]

٥٩- وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». رواه مسلم[(١)].

الشَّرْح

وهذا دليل آخر، علىٰ عِظَم خِلْقَةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ هيئته جميلة، وقد بسط أجنحته بحُلَّته الخضراء الجميلة، وقد سبق بيان جمال وبهاء وعِظَم خلقته عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما مضىٰ من الأحاديث.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧٤٠)، والترمذي (٣٢٨٣) وعندهما: «من رفرف» بدل: «خضراء». ولم يخرِّجه مسلم.

- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ، قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنهَبِطًا، قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ مِنْ سُنْدُسٍ، مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رواه أبو الشيخ[(١)].

- ولابن جريرٍ[(٢)]، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «جبرائيل: عبدُ الله، وميكائيلُ: عبيد الله، وكلُّ اسمٍ فِيهِ إيل، فهو عبد الله».

٦٠- وله[(٣)]، عن عليّ بن الحسين مثله، وزاد: وإسرافيل عبد الرحمن.

الشَّرح

هذا تفسير لكلمة: «إيل» في أسماء الملائكة الكرام.

(١) في «العظمة» (٣/ ٩٧٢) (٤٩٥) بنحوه، وانظر: صحيح مسلم (١٧٧).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٨٦ و٤٧٦).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٤٧٦).

[جبريل أفضل الملائكة]

٦٣- وروى الطبراني[١]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلا أُخبِرُكُم بِأَفضَلِ المَلائِكَةِ؟! جِبرَائِيلُ».

الشَّرح

هذا فيه: أن جبريل -ويُقال: جبرائيل- هو أفضل الملائكة؛ لأن الله اختصَّه بالوحي، وبسماع كلامه تَعَالَى، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمع كلام الله، ويُبلِّغه لِمَنْ أمره الله بتبليغه له كما جاء في الحديث: «إذا أراد الله أن يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، فأخذت السموات منه رَجفةٌ -أو قال: رعدة- شديدة خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صَعقُوا -أو قال: خَرُّوا- لله سُجَّدًا، فيكون أولَ مَنْ يرفع رأسَه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيُكلِّمه الله من وَحيِهِ بما أراد»[٢]. فهذا دليل على فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على غيره من الملائكة.

---

(١) في «المعجم الكبير» (١١/ ١٦٠) (١١٣٦١).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٣٦) (٥٩١) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[خشية الملائكة من عصيان الله تعالى]

٦٤- وعن أبي عِمران الجوني، أنَّه بلغه أَنَّ جِبْرَائِيل أَتَىٰ النَّبِي ﷺ -وَهُوَ يَبْكِي-، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: وَمَا لِي لا أَبْكِي، فَوَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ النَّارَ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيَقْذِفَنِي فِيهَا». رواه الإمام أحمد فِي «الزُّهد»[١].

الشَّـرْح

وهذا الحديث فيه -كما سبق- أن الملائكة مع كثرة عبادتهم أنهم لا يَغترُّون بأعمالهم، ويخافون أن يعصوا الله عَزَّوَجَلَّ، فيقذفهم في النار كما حصل لإبليس، فإن كان مع الملائكة يعبد الله، فلمَّا عصىٰ الله، لعنه الله عَزَّوَجَلَّ وأبعدَه، وجبرائيل لما رأىٰ النار وشدَّة عذابها، وأنها دار العقاب خشي أن يعصي الله فيقع فيها.

وفي هذا دليل علىٰ أنه لا ينبغي للإنسان أن يُزكِّي نفسَه، وأنه ينبغي له أن يخاف من النار، ويخاف الله ومكره عَزَّوَجَلَّ بمَنْ عصاه.

---

(١) لم أجده فيه، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٢١) (٩١٥).

[الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله]

٦٥- وَللبُخَارِيِّ[(١)]، عَنِ ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرَائِيلَ: «أَلا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤]. وَمِنْ سَادَاتِهِم: مِيكَائِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مُوَكَّل بِالْقَطْرِ والنَّبَاتِ».

الشَّرْح

في هذا الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ طلب من جبريل أن يكثر الزيارة له؛ لأنه ﷺ يحبُّ جبريل، فيُؤخذ منه الحثُّ علىٰ محبَّة عباد الله الصالحين وزيارتهم، فطلب رسول الله ﷺ من جبريل الإكثار من الزيارة؛ ليكثر فرحُه وأُنسُه به ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾، فهذا فيه: أن الملائكة تحت تدبير الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنهم لا ينزلون إلا بأمره ﷻ، ولا يَتنزَّلون بحسب رغبتهم هم، وإنما ينزلون إذا أمرهم الله بالنزول.

وقوله: «**ومن ساداتهم: ميكائيل** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وهو موكَّل بالقَطْر والنبات**»: كان النبيُّ ﷺ إذا قام من الليل يستفتح، فيقول: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض...** » إلخ[(٢)].

وخصَّ ﷺ هؤلاء الثلاثة؛ لأن جبريل موكَّل بالوحي الذي فيه حياة القلوب، وميكائيل موكَّل بالقَطْر الذي فيه حياة الأرض، وإسرافيل موكَّل بالنفخ في الصُّور الذي فيه حياة الناس يوم القيامة بعد الموت، هؤلاء الثلاثة هم أفضل الملائكة؛ لأن كلَّ واحد منهم موكَّل بالحياة؛ حياة القلوب، وحياة الأرض، وحياة الأبدان عند البعث من القبور.

---

(١) برقم (٢٢١٨ و٤٧٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فالذي ينفخ في الصُّور هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ينفخ فيه نفخة الصعقة فيموت كلُّ مَن في السموات والأرض إلَّا من استثنىٰ الله تَعَالَىٰ، ثم ينفخ فيه ثانية، فيَحيا كلُّ مَنْ مات ويقوم سويًّا، فهذا وَجْه كون الرسول ﷺ خصَّ هؤلاء الثلاثة في استفتاحه.

٭٭٭

٦٦- وروى الإمامُ أحمد[١] عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ».

الشَّرْح

وهذا كما سبق في الحديث عن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه كان يبكي، فسأله النبيُّ ﷺ عن بكائه، فقال: **«وما لي لا أبكي، فوالله ما جَفَّتْ لي عين منذ خَلَقَ الله النارَ»**[٢]. وهذا ميكائيل مثله، لا يستطيع أن يضحك منذ خُلقت النار من شدَّة خوفه منها، فالملائكة مع عبادتهم وقُرْبهم ومكانتهم من الله تعالىٰ لم يأمنوا علىٰ أنفسهم من النار.

فهذا فيه: الحثُّ علىٰ شدَّة الخوف من النار، وليس المراد هو: مجرَّد الخوف من النار فقط، ولكن الخوف والعمل للنجاة منها، فالمطلوب هو الخوف مقرونًا مع عمل ما يُرضي الله، وتَرْك معصيته -جلَّ وعلا-، فالخوف دون العمل لا يُفيد شيئًا، والعمل دون الخوف لا يفيد شيئًا كذلك.

والمفيد هو الجمع بين الأمرين: العمل والخوف؛ والرجاء قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. يعني: يؤتون من الأعمال الصالحة العظيمة، وهم خائفون من ردِّها، ومن عذاب الله ﷻ، ولا يغترُّون بأعمالهم، أو يُدْلون بها علىٰ الله ﷻ.

---

(١) في «المسند» (١٣٣٤٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٢١) (٩١٥) من حديث أبي عمران الجوني بلاغًا.

وَمِنْ سَادَاتِهم: إِسْرَافِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَحَدُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ.

الشَّرْح

الصُّور: قَرنٌ لا يعلم عِظَم خِلْقَتِه إلا الله تعالىٰ، وفيه أرواح بني آدم، فإذا نفخ فيه إسرافيل خرجت منه كلُّ روح، ودخلت فيه بدن صاحبها.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فتطير الأرواح، كلُّ روحٍ إلىٰ جسمها.

[تهيؤ ملك النفخ في الصور]

٦٧- روى الترمذيُّ وَحَسَّنه(١)، والحاكم، عن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ، وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ. قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا».

الشرح

هذا الحديث فيه: ذِكْر خوف الرسول ﷺ مما أطلعه الله عليه من أنَّ مَلَك النَّفخ في الصُّور قد تهيَّأ لذلك منتظرًا للأمر، وهذا فيه دليل علىٰ قُرب قيام الساعة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيام الساعة هولٌ عظيمٌ.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. فيكف لا يخاف الإنسان من هذا الهول، ولا يستعدُّ له؟!

---

(١) برقم (٢٤٣١)

[إسرافيل من حملة العرش]

٦٨- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». رواه أبو الشيخ، وأبو نعيم في «الحلية»[1].

الشَّرْح

وهذا دليل آخر علىٰ عِظَمِ خِلْقة الملائكة، فهذا مَلَك من الملائكة قَدماه في الطبقة السُّفلىٰ من الأرض، ورأسه قد اخترق الطبقة العُليا من السماء السابعة، وهذا دليل علىٰ عظِمَ خِلْقَتهم وهَيْئَتهم.

---

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٩٧) (٢٨٨)، و(٣/ ٩٤٩) (٤٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦).

٦٩- وروى أبو الشيخ[(١)] عن الأوزاعي، قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنُ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ، قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَواتٍ صَلاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ».

الشَّرْح

هذا فيه: أنَّ الله أكرم إسرافيل بِحُسْنِ الصَّوتِ، وأن الملائكة تُصغي لصوته، ويذهلون عن تَسبيحهم وتهليلهم إذا سمعوه.

ومِن ساداتِهم: مَلَكُ الموتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يجئ مصرحًا باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة، وقد جاء في بعض الآثارِ تَسميتُه بعزرائيلَ، فالله أعلم. قاله الحافظ ابن كثير[(٢)].

الشَّرْح

تسمية مَلَك المَوْت، هكذا جاءت في القرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ولكن لم يُسمَّ بعزرائيل، ولم يثبت له اسم معيَّن في القرآن، ولا في السُّنة، وإنما قال الله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، وجاء في بعض الآثار أن اسمه: عزرائيل، والله أعلم بصحة ذلك!

انتهىٰ المصنف الآن من بيان عِظَم خِلْقة الملائكة وعبادتهم، وخوفهم من الله -جلَّ وعلا-، وبيان كثرة عددهم، ثم شرع في بيان أعمالهم وأصنافهم، فكلُّ صنفٍ منهم له عمل وكَّله الله إليه ليقوم به.

---

(١) في «العظمة» (٣/ ٨٥٦) (٤٠٠).

(٢) انظر: «تفسيره» (٣/ ٦٠٤)، و«البداية» (١/ ٤٧).

وَقَالَ(١): إِنَّهُم بِالنَّسْبَةِ إِلَىٰ مَا هيَّأهم لَهُ أَقْسَامٌ:

- فَمِنْهُمْ: حَمَلة العَرش.

الشَّـرح

من هؤلاء الملائكة، مَنْ هم موكلون بحمل عرش الرَّحمن -تبارك وتعالىٰ-، وقد سبق بيان ذِكْرهم، ومنهم الذين هم حول العرش؛ ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- ومنهم: الكَروبيُّون الذين هم حول العرش، وهم مع حَمَلَة العرش أشرف الملائكة؛ وهم الملائكة المقربون، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

الشَّـرح

ومن هؤلاء الملائكة الذين هم حول العرش الكربيُّون وهم من أفضل الملائكة؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. فهؤلاء أقرب الملائكة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. دلَّ علىٰ أن الملائكة منهم مَن هم مقرَّبون من الله عَزَّوَجَلَّ، وهم الذين حول العرش.

---

(١) يعني: الحافظ ابن كثير، انظر: «البداية والنهاية» له (١/ ٤٩).

- وَمِنْهُم: سُكَّان السَّموات السَّبع يَعمُرُونَها عِبادةً دائِمةً لَيْلًا ونَهارًا، صَباحًا ومَسَاءً كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. .

الشَّرْح

ومن هؤلاء الملائكة: مَنْ يشتغل بالعبادة، ليلًا ونهارًا في السموات السَّبع، كلُّ سماء لها سكانها من الملائكة يَعْمُرونها بالعبادة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

- وَمِنْهُمْ: الَّذِين يَتَعَاقَبُون إِلَىٰ البَيت المَعْمُور.

الشَّرْح

كما سبق، فإنَّ البيت المعمور في السماء يتعاقب عليه الملائكة، فكلُّ يوم يأتيه عدد كبير منهم، ثم لا يرجعون إليه؛ لأن الله قسمهم في زيارة البيت.

قُلْتُ: الظَّاهِر أَنَّ الَّذِين يَتَعَاقَبُون إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَوَات.

الشَّرْح

يعني: هل هناك فَرْق بين سكَّان السموات وبين الذين يأتون إلىٰ البيت المعمور؟ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون»: أي: لعلهم هم سكّان السموات؛ إذْ لا فرق بينهم، والله أعلم.

- وَمِنْهُم: مُوَكَّلونَ بِالجِنَانِ وَإِعْدَادِ الكَرَامَات لِأهلِهَا، وَتَهْيِئَة الضِيافَة لِسَاكِنِيهَا؛ مِنْ مَلابِسَ وَمَآكلَ، وَمَشَارِبَ وَمُصَاغ وَمَسَاكِن، وَغَيْرَ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر.

الشَّرْح

أي: ومن الملائكة مَنْ هم وظيفتهم داخل الجنان، يُعِدُّون فيها مِن الكرامات التي يأمرهم الله بها فيغرسون فيها مِن الأشجار، ويَبنون فيها مِن القصور وغيرها للمؤمنين، هذا دَأْبُهم، ورئيسهم رضوان كما جاء في الحديث[١].

---

(١) كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (٣/ ٣٣٥) (٣٦٩٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- وَمِنْهُمْ: المُوَكَّلُون بِالنَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا- وَهُمْ: الزَّبَانِيَةُ، وَمُقَدَّموهم تِسْعَةَ عَشَرَ، وَخَازِنُهَا مَالِكٌ، وَهُوَ مُقَدَّم عَلَىٰ الخزنة، وَهُمْ المَذْكُورونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠،٣١].

الشَّرْح

ومِن هؤلاء الملائكة: مَن هم موكَّلون بحراسة النار وإعداد العذاب فيها، ورئيسهم مالك كما في الآية التي ساقها المصنف، ومنهم الزَّبانية التسعة عشر المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

وقوله تعالىٰ علىٰ لسان المعذَّبين يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ﴾: قالوا للخزنة، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، نادوا رئيس الخزنة، فهم يطلبون الموتَ، ليستريحوا بزعمهم، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: أي: لا موت لكم، فهم مرَّة ينادون الخزنة، ومرَّة ينادون رئيسهم وهو مالك.

وأمَّا المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: فهؤلاء مقدَّمو الخزنة؛ ومقدَّمهم جميعًا هو مالك، ولما سمع أبو جهل أن عدد الملائكة الذين علىٰ النار تسعة عشر، قال لقريش: أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[1]: أي: ليسوا من البشر، فهم ملائكة، ولا يعلم مدىٰ قوَّتهم وعظمتهم إلَّا الله تعالىٰ، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المدثر: ٣١]. أي: ابتلاء لهم، ولذلك فهم سخروا من هذا العدد، وأما أهل

---

(١) انظر: «تفسير» ابن جرير (١٢/ ٣١٢)، فيما أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الإيمان فلا يصير عندهم تساؤل في هذا الأمر؛ لأن هذا كلام الله ﷻ، والملائكة لا يعلم عِظَم قوتهم وعددهم إلَّا الله ﷻ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. فهؤلاء التسعة عشر لا يعلم قوَّتهم وبأسهم وشدَّتهم إلا الله ﷻ!

- وَمِنْهُم: المُوَكَّلون بِحِفْظِ بَنِي آدم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاس: «مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونه مَنْ بَينِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله خَلَوا عَنْهُ»[(١)].

الشَّرْح

مِنَ الملائكة مَنْ هو موكَّل بحِفْظ بني آدم الأخطار، يمشون معه، ويمنعونه من الوقوع فيها، وهذا من رحمة الله ﷻ وإذا نام يحرسونه، قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: أي: بأمر الله ﷻ ورحمته بعبده، فإذا جاء أجلُه خلَّىٰ الله بينه وبين الأجل.

كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أنه: «إذا جاء أمر الله خَلَوْا عنه»؛ وذلك لأنه انتهت مهمَّتهم، فهم كانوا يحفظونه حينما كان علىٰ قَيد الحياة، ولكن إذا حان وقت دُنوِّ أجلِه وانتهاء حياته فإنه تنتهي مهمَّتهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ عَبْدٍ، إِلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّل بِحِفْظِهِ؛ فِي نَوْمِهِ، وَيَقَظَتِهِ، مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ والهَوامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيه يُرِيدُه إِلَّا قَالَ لَهُ: وَرَاءَك، إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ الله تَعَالَىٰ فِيهِ فَيُصِيبه»(١).

الشَّرْح

وهؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان من الجنِّ والهوامِّ والدوابّ والسِّباع والأخطار، إلَّا ما قدَّره الله تعالىٰ للعبد مما يُصيبه، فإنه يُصيبه بتقدير الله تعالىٰ له وبأمره.

❀❀❀

- وَمِنْهُمْ: المُوَكَّلُون بِحِفْظِ أَعْمَالِ العِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

الشَّرْح

ومن هؤلاء الملائكة: الحفَظة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. فهؤلاء هم الحَفَظة، يحفظون أعمالَ بني آدم، وما مِنْ أحدٍ من الناس إلَّا ومَلَك عن يمينه ومَلَك عن شماله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، هؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الأعمال، ويكتبونها، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله: ﴿وَرُسُلُنَا﴾: أي: الحفظَة.

❀❀❀

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠).

[النهي عن التعرِّي ووجوب الاستحياء من الملائكة]

٧٠- رَوَىٰ البزَّار عَن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُمْ، الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، الَّذِينَ لا يُفَارِقُونَكُمْ، إِلا عِنْدَ إِحْدَىٰ ثَلاثِ حَالاتٍ: الْغَائِطِ، وَالْجَنَابَةِ، وَالْغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ؛ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ، أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ أَوْ بِغَيْرِهِ»[١].

قَالَ الحَافظ ابن كَثِير: وَمَعْنَىٰ «إِكْرَامِهِم»: أَنْ يَسْتَحي مِنْهُمْ، فَلَا يُمْلِي عَلَيْهِم الأَعْمَال القَبِيحَةَ، الَّتِي يَكْتبُونَها، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ كِرَامًا فِي خِلْقِهم وَأَخْلاقِهم.

ثُمَّ قَالَ -ما معناه-: إِنَّ مِنْ كَرَمِهم: أَنَّهُم لا يَدْخُلُون بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ، وَلَا جُنبٌ، وَلَا تِمْثَال، وَلَا يَصْحَبُونَ رِفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ»[٢].

الشَّرْح

في هذا الحديث: النَّهيُ عن التَّعرِّي حتىٰ وإن كان الإنسان خاليًا بنفسِه، ولا أحد يُشاهده، فإن الملائكة تشاهده ولهذا ينبغي الاستحياء منهم، كما ينبغي الاستتار منهم بجدار أو بثوب، ونحوه إن أراد الاغتسال، ولا بأس والحالة هذه من أن يتعرَّىٰ؛ لكن يكون ذلك من وراء ساتر، وليس في الفضاء دون سِتْر.

وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ «من أنهم لا يدخلون بيتًا فيه كلب، ولا صورة...» إلخ. وذلك لأنهم يكرهون هذه الأشياء، فيبتعدون عن البيت الذي فيه كلب أو صورة، وقد ابتُلي الناس الآن باقتناء الكلاب؛ لأنهم رأوا الكفّار يقتنون الكلاب

(١) «كشف الأستار» (١٠/ ١٦٠) (٣١٧).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١/ ٥١) وانظر في هذا الباب: ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٥٦٦)، ومسلم (٢١١٣)، وأبو داود (٢٥٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتشبَّهوا بهم حتىٰ أدخلوها في السيارات معهم، وهذه الكلاب إذا كانت في البيوت، فإنها تمنع دخول الملائكة، وكما ابتُلوا بتعليق الصور في بيوتهم، وهي كذلك تمنع دخول ملائكة الرَّحمة عليهم.

[تعاقب الملائكة في البشر ليلاً ونهاراً]

٧١- وروى مالكٌ، والبخاريُّ ومسلم[١]، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

٧٢- وَفِي رِوَايَةٍ[٢]: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

الشرح

ما زال الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ يسوق الأحاديث الواردة في أعمال الملائكة -عليهم الصلاة والسلام، فمِن أعمال الملائكة: حِفْظ أعمال بني آدم؛ لأن الله يرسلهم إلىٰ البشر في الأرض يكتبون ما يصدر من بني آدم من خيرٍ أو شرٍّ، من أعمال صالحة أو أعمال سيِّئة، أو أقوال، فهم يرصدون ويكتبون كلَّ ما يصدر من أقوالٍ وأفعال؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وهؤلاء يُقال لهم: الحَفَظة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]. فالإنسان ليس مهملًا، وإنما هو تحت مراقبة دائمة من الله وملائكته، وأن أعماله وأقواله لا تضيع، ولا تذهب سُدًىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. فالإنسان ليس بمُهمَل، وإن أهمل نفسَه، ولهذا فإنه ينبغي له أن يستحضر هذا، ويستحضر كلَّ ما يصدر عنه ويُدرك بأنه سيُسجَّل وسيُحاسب عليه، فحينئذٍ سيكون له تخوف، وتوقف عن كثير من الأقوال والأفعال.

---

(١) مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٠)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) أخرجها البخاري (٤٧٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

وهذا الصنف من الملائكة الذين جاء ذِكْرهم في الحديث ينزلون من السماء إلىٰ الأرض؛ حيث يسكن بنو آدم، وهم علىٰ قسمين: حفظة في النهار، وحفظة في الليل؛ فحفظة النهار ينزلون في صلاة الفجر، ويبقون مع الإنسان إلىٰ وقت صلاة العصر، ثم ينزل ملائكة الليل، ويحضرون صلاة العصر ويستمرون إلىٰ صلاة الفجر، فهذا معنىٰ قوله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**»؛ حيث لا تمضي فترة من الوقت تخلو من هؤلاء الحَفَظة، فتجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار في صلاة الفجر ويحضرونها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. يعني: صلاة الفجر، فقوله تعالىٰ: ﴿مَشْهُودًا﴾. أي: محضورًا تحضره الملائكة.

وقد سمّىٰ الله صلاة الفجر قرآنًا؛ لأنها تُطوَّل فيها القراءة فمن هنا يُستحب للإمام أن يُطيل القراءة في صلاة الفجر إطالةً لا تَشُقُّ علىٰ المأمومين؛ لأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، وكذلك في صلاة العصر تجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار، هؤلاء يصعدون وهؤلاء ينزلون ويحضرون صلاة العصر؛ ولهذا صار لصلاتي الفجر والعصر مِيزةٌ علىٰ غيرهما من الصلوات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: يعني: صلِّ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. المراد: هو ذِكْر فضيلة هذين الصلاتين: صلاة الفجر، وصلاة العصر.

وقوله ﷺ: «**ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم**»: هذا فيه دليل علىٰ إثبات العلوّ لله تعالىٰ، فيصعد الملائكة الذين انتهت مهمَّتهم إلىٰ الله تعالىٰ.

وقوله: «**فيسألهم -وهو أعلم-**»: أي: يسألهم ﷻ سؤال تقرير وشهادة، وإلَّا فهو ﷻ يعلم حالهم، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم، «**كيف تركتم عبادي؟**»: يسأل سبحانه الذين صعدوا إليه: «**كيف تركتم عبادي**»: فهذا سؤال تقرير، واستشهاد للملائكة علىٰ أعمال بني آدم.

وقوله: «**فيقولون: تركناهم، وهم يصلُّون**»: صلاة العصر: «**وأتيناهم، وهم يصلون**». صلاة الفجر، أو العكس، «**وأتيناهم، وهم يصلون**»: أي: صلاة العصر، «**وتركناهم

وهم يصلون»: أي: صلاة الفجر، فهذه شهادة من الملائكة للمسلمين عند الله ﷻ وهم في حال طاعةٍ؛ لتكون شهادتهم له بأحسن الشهادة، هؤلاء هم الملائكة الحَفظة، وهذا عملُهم، وهذه أوقات نزولهم وصعودهم.

[تجوُّل الملائكة على حِلَق الذِّكر والعلم]

٧٣- وروى الإمام أحمد ومسلم[١] حديث: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

الشَّرْح

وهذا الحديث أيضًا فيه: بيان صنفٍ من الملائكة، وهم الملائكة الذين يتجوَّلون يطلبون حِلَق الذِّكر، فمِن الملائكة مَنْ مُهمَّتُهم: حضور دروس العلم، وحِلَق الذِّكر، فهذا فيه فضل طلبِ العلم والحثُّ عليه؛ لأن الملائكة تعتني بهذا، وتبحث عنه وتأتي إليه.

فقوله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله**»: يعني: من المساجد، وهذا فيه: أن تعليم العلم ينبغي أن يكون في المساجد؛ لأنه تحضره الملائكة، وكذا يحضره طلاب العلم والعوامّ فيستفيدون من هذه الدروس، فهو بيت السَّكينة والرحمة وهو مأوىٰ الملائكة، بخلاف ما إذا ما أُقيم الدرس في غير المسجد، فإنه تَقِلُّ أهميته، ويفقد هذه الصِّفة، ويصبح مقصورًا علىٰ الحاضرين من الطلاب فقط.

فينبغي أن يُعلن العلم ولا يُخزَّن، ومحلُّ إعلانه يكون في المساجد، ولا يكون في المخيمات، أو في محلات يجتمع فيها الطلاب والمشايخ، ولا يحضره غيرهم، فمثل هذا تَقِلُّ أهميته وفائدته، ويفقد هذه الميزة العظيمة، وهي حضور الملائكة.

وقوله ﷺ: «**يتلون كتاب الله**»: أي: القرآن الكريم، ويدخل فيه السُّنة؛ لأن السُّنة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فيقرءون كتاب الله، ويتفقهون فيه ويتدارسونه فيما بينهم، فيُعلِّم بعضهم بعضًا، فهذا فيه فضل حِلَق وتحفيظ القرآن في المساجد.

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٧٤٢٤)، ومسلم (٢٦٩٩).

وهذه ظاهرة عظيمة عند المسلمين، و«**يتدارسونه**»: فإن من تدارس القرآن تدارس معانيه وقراءة التفسير، فيقرءون القرآن ويتأمَّلون معانيه ويتدبَّرونه؛ لأنه ليس المقصود قراءة القرآن، أو حفظه فقط مع أهمية ذلك؛ لكن هذا لا يكفي، إذ لابدَّ من تدارس معانيه، وفَهْم ما أراده الله -جلَّ وعلا- به، والاهتداء بهَدْيه، وأما مجرد الحِفْظ له دون تدبُّر معانيه، وفهمها فهو عمل ناقص.

وقوله: «**إلَّا نزلت عليهم السكينة**»: والسَّكينة: شيء يجعله الله في القلوب، وهي الطمأنينة، وذهاب الوساوس، والانشغال القلبي، وهذا خاصٌّ بالمساجد، فالطمأنينة إنما تكون في المساجد التي هي بيوت الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**وغَشيتهم الرحمة**»: أي: غطَّتهم رحمةٌ من الله تَعَالَى، وهذه فائدة ثانية من فوائد الاجتماع في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأجل طلب العلم الشرعي.

وقوله: «**وحفَّتهم الملائكة**»: وهذا هو محلُّ الشاهد؛ حيث إن الملائكة تحيط بهؤلاء المجتمعين في بيوت الله -جلَّ وعلا-، وتتحلَّق معهم، فما أعظم أن تُحيط ملائكة الرحمن، وتجلس في حِلَق الذّكر بعدما ينزلون من السماء، ويبحثون في الأرض، فإذا وجدوا حِلَق الذِّكر، قالوا: هلمُّوا إلىٰ بُغيتكم، فيجيئون فيَحفُّون بهم إلىٰ السماء الدُّنيا كما جاء في الحديث[1].

وأما أولئك الذين يلهون ويلعبون ويُغنُّون، فهؤلاء تحضرهم الشياطين وتشجِّعهم علىٰ هذا الشيء، وأمَّا الذين يُقبلون علىٰ كتاب الله تعالىٰ، وعلىٰ سُنَّة رسوله ﷺ بالحِفْظ والدِّراسة، والتفقُّه، فهؤلاء تحضرهم ملائكةَ الرحمن.

وقوله ﷺ: «**وذكرهم الله فيمَن عنده**»: هذه أعظم فائدة ذُكرت في هذا الحديث؛ حيث إنه تَعَالَى يُثني عليهم في الملأ الأعلىٰ عند الملائكة، فهذه فضائل اجتمعت في حِلَق الذِّكر، وهي:

أولًا: نزول السكينة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٧٤٢٤)، والبخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثانيًا: غشيان الرحمة.

ثالثًا: حضور الملائكة.

رابعًا: وهي أعظم الفوائد؛ حيث إنه سبحانه يذكرهم في الملأ الأعلىٰ، فقوله: «**ذكرهم الله**»: أي: أثنىٰ عليهم ومَدَحهم، «**فيمن عنده**»: يعني: من الملائكة المقرَّبين عنده تَعَالَىٰ، وكفىٰ بهذا شرفًا وفضلًا لمجالس الذِّكر والعلم.

ثم قال ﷺ: «**ومَنْ بطّأ به عملُه، لم يُسرع به نَسَبه**». فالله -جلَّ وعلا- لا ينظر إلىٰ الأنساب، وإنما ينظر إلىٰ العمل، قال تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١]. فالأنساب إنما هي من شأن الدُّنيا بين الناس؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. فلا مانع من تعلُّم الأنساب ومعرفتها؛ ولكن دون الافتخار بها، والاقتصار عليها، فهي لا تكفي عند الله تعالىٰ، ولا وزن لها يوم القيامة، وإنما المقصود منها في الدُّنيا: التعارفُ والتواصل بين الأقارب والأرحام، والتعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، ولكن لا ينفع عند البارئ عَزَّوَجَلَّ إلا العمل.

فقوله: «**من بطّأ به عملُه**»: يعني: تأخَّر عمله، «**لم يسرع به نسبُه**»: فانظر إلىٰ أبي لهب، وهو عمُّ رسول الله ﷺ ومِن صميم بني هاشم؛ ولكن لما لم يكن عنده عمل صالح لم ينفعه ذلك، وأنزل الله فيه قرآنًا يُتلىٰ في ذمِّه إلىٰ يوم القيامة، فقال: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد: ١]. أي: خاب وخسر، وهو عمُّ الرسول ﷺ، وله نسب شريف رفيع؛ ولكنه لم ينفعه، ولا ضرَّ بلالًا، وسليمان أنهم ليسوا قَبليِّين، وليسوا من العرب، وأنهم أعاجم، فالأول من الحبشة، والآخر من بلاد فارس؛ لكن الله -جلَّ وعلا- رفعهم بالعمل الصالح، ولا ضرَّهم أنهم ليس لهم نسب عربيٌّ وشريف؛ ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ بطَّأ به عملُه، لم يُسرع به**». أي: لم يقدِّمه «**نَسَبُه**».

[توقير الملائكة لطالب العلم]

٧٤- وفِي «المُسند»، وَالسُّنَن: حديث: «إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ؛ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»(١). وَالأَحَادِيث فِي ذِكْرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

الشَّرْح

وهذا كالحديث الذي قبلها، فيه أنَّ الملائكة توقِّر وتحترم طالبَ العلم، ولهذا قال ﷺ: «لتضَعُ أجنحتها» احترامًا لطالب العلم، وهذا يدلُّ علىٰ شرف طلب العلم الشرعي، فينبغي للناس احترام طالب العلم، كما تحترمه ملائكة الرَّحمن، وتتواضع له، ولكن كثيرًا من الناس -مع الأسف- يتنقَّصون طلبة العلم والعلماء، ويحطُّون من قَدْرهم، ويصفونهم بالتغفيل وعدم فِقْه الواقع، وأنه ليس لهم همٌّ إلَّا دراسة الحيض والنِّفاس، فيسخرون منهم، ومن الأحكام الشرعية، وهذا دَيْدَن بعض الناس مع طلبة العلم والعلماء، وهو الاحتقارُ والازدراء من العلماء؛ بل يتجاوز إلىٰ احتقار أحكام العِلْم، فيسمُّونها الحيض والنفاس، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

فمثل هذا، ونحوه إنما هو رِدَّة عن دين الإسلام، فكلُّ مَن يَحتقر العِلْم الذي أنزله الله، إنما هو مرتدٌّ عن دين الله، فالأمر جَدٌّ خطير، فليس الأمر مجرَّد كلام وانتهىٰ، وإنما هذا الكلام ونحوه يرجع علىٰ قائله بالخسارة، ولا يَضرُّ طلبة العلم والعلماء؛ بل يزيدهم رِفْعة عند الله ﷻ.

والقصد من هذا: أنه ينبغي احترام طالب العلم؛ لأن الملائكة تحترمه فتضع أجنحتها له، وهذا فيه وَصْف الملائكة بأن لهم أجنحة، وهذا قد ذكره الله تعالىٰ في القرآن الكريم، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ

---

(١) أحمد (١٨٠٨٩) من حديث صفوان بن عسَّال، وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]. لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، فلقد أعطاهم الله القدرة علىٰ الطيران والنزول والصعود.

وأما قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأحاديث في ذِكْرهم -عليهم السلام- كثيرة جدًّا».

فقد أفاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيراد الأحاديث الواردة في ذِكْر الملائكة؛ لأن الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان السِّتة، فيجب معرفة هؤلاء الملائكة، والإيمان بهم إيمانًا مفصَّلًا، ولا يكفي الإيمان بهم إيمانًا مجملًا.

ولذلك أفاض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيراد الأحاديث المتضمنة لصفة الملائكة وأعمالهم، وأصنافهم من أجل اعتقاد ما جاء في الأحاديث التي اشتملت علىٰ كل هذه التفاصيل.

وهذا بخلاف قول الفلاسفة القائلين بأنَّ الملائكة عبارة عن الهواجس الكامنة في النفس البشرية، فإن كانت هذه الهواجس تعبِّر عن الخير فهي الملائكة، وإن كانت هواجس شرّ، فهي الشياطين، فليس في فِكْرهم أن الملائكة والشياطين مخلوقون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، وإنما يفسِّرون الملائكة بقوىٰ الخير الكامنة في الإنسان، والشياطين بقوىٰ الشرِّ، هذا مذهب الفلاسفة ورأيهم في الملائكة.

وأمَّا مشركو العرب فإنهم يقولون: بأن الملائكة إنما هم بنات الله! وأنه سبحانه تزوَّج من الجن -تعالىٰ الله عمَّا يقولون-، فولدت له البنات، وهم الملائكة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. يعني: لهم الذُّكور.

وقال: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٧]. فهم يصفون الملائكة بأنهم بنات.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧-٥٩]. فهؤلاء يكرهون البنات، فمنهم مَنْ يُبقيها علىٰ ذلَّة واحتقار ويظلمها، ومنهم مَنْ يدفنها حيَّة، وهي الموءودة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾: يعني: يبقيها حيَّة مُهانة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: يعني: يدفنها وهي حيَّة ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. فهؤلاء لا يرضون البنات لأنفسهم، ويترفَّعون عنها وينسبونها لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا تنقُّص له عَزَّوَجَلَّ، والشاهد من هذا كلِّه هو قول بعض مشركي العرب في الملائكة، بأنهم بنات الله -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وهناك صِنفٌ آخر من مشركي العرب، يعبدون الملائكة، ويدعونهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ويَغْلُون فيهم، قال تعالىٰ في وصف هؤلاء وعاقبة أمرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فعبادتهم ليست عبادة للملائكة، وإنما هي عبادة للشياطين؛ لأن الشياطين هم الذين أمروهم بذلك، أمروهم أن يعبدوا الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم، وإنما يعبدون الشياطين، ولهذا قال تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

[بابُ الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

الشَّرْح

في هذا الحثُّ على التمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-، يُقال: أوصىٰ بكذا؛ أي: أمر وأكَّد بالشيء، والله تعالىٰ أوصىٰ بالتمسُّك بكتابه، والنبيُّ ﷺ أوصىٰ كذلك بالتمسُّك بكتاب الله تعالىٰ؛ لأنه لا نجاة من الضَّلال في الدُّنيا، ومن النار في الآخرة إلَّا بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-، واتِّباع الرسول ﷺ، فمَنْ لم يتمسَّك بهما فإنه يكون ضالًّا في الدنيا علىٰ غير هُدًى، ويكون في الآخرة من الخاسرين ومن أهل النار، فلا نجاة إلا بالتمسُّك بكتاب الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]. هذه وصيَّة الله تعالىٰ بالقرآن والسُّنة.

والآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جاءت في سياق أول سورة (الأعراف)، من قوله تعالىٰ: ﴿ المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣]. فقوله: ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ هذا أمرٌ من الله -جلَّ وعلا-: ﴿ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: وهما القرآن والسُّنة؛ لأن السُّنة منزَّلة من الله تعالىٰ، ولهذا قال سبحانه في حقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ثم لما أمر باتِّباع المنزَّل نهىٰ عن اتِّباع غيره، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾: يعني: لا تتَّبعوا غيرَه من الأكابر والرؤساء، والرِّجال الذين تزعمون أنهم علماؤكم وأولياؤكم، فتطيعونهم وترفضون ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا من اتِّخاذ الأولياء.

فمَنْ أطاع مخلوقًا في معصية الله، فقد اتَّخذه وليًّا من دون الله، فلا يُطاع العلماء، ولا أحدٌ من الناس إلَّا إذا أطاع الله ﷻ، ووافق كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

أمَّا مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر، سواء كانت مخالفته عن تعمُّد وعناد، أو كانت عن اجتهاد وأخطأ فيه، فلا يجوز تقليد الناس تقليدًا أعمىٰ من غير بصيرة، وإنما يجوز تقليد مَنْ تمسَّك بالكتاب والسُّنة وأصاب الحقَّ.

وأما مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر حتىٰ ولو كان مجتهدًا وأخطأ في اجتهاده، وهذه قاعدة ينبغي أن يعرفها طالب العلم، إذ إن هناك مَنْ يتعصَّبون لمذاهبهم ومشايخهم ولرؤسائهم وقادتهم دون رجوع إلىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

والحق في ذلك، هو: أن تُوزَن كلُّ الأمور بميزان الكتاب والسُّنة، فما وافقهما وجب الأخذ به، وما خالفهما جب رفضُه وعدمُ الالتفاتِ إليه، ولا يُعتبر هذا إهانةً للعالِم إذا ما تُجنَّب خطؤه؛ بل إنَّ العلماء أنفسَهم يقولون: إذا وافَق قولُنا قولَ الرسول ﷺ فخُذوه، وإذا خالفه فاضربوا بقولنا عُرْض الحائط. كذا قال الشافعي، ومثله الإمام مالك، وأحمد ومن قبلهم الإمام أبو حنيفة -رحمهم الله جميعًا-.

فكلُّهم حذَّرونا من أخذِ أقوالهم كقضيَّة مسلَّمة؛ بل ينبغي أن تُعرض أقوالُهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، فإذا وافقت فبها ونِعْمَت، وإنْ خالفت فإنَّنا نترحَّم عليهم ونعتذر لهم؛ ولكن لا نأخذ خطأهم، ولا يُعتبر هذا تنقُّصًا لهم -حاشا وكلَّا-.

[الحثُّ على التمسُّك بالكتاب والسنة]

٧٥- عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَلا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي؛ فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ؛ أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَتَمَسَّكُوا بِهِ -فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ-، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي».

وَفِي لَفْظٍ: «كِتَابُ اللهِ، هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ الضَّلالَةِ». رواه مسلم(١).

الشَّـرح

هذا الحديث الذي رواه مسلم فيه: أنَّ النبيَّ ﷺ خطب أصحابه في موضع يُقال له: غدير خُمّ، والغدير، هو: مجتمع السَّيل من الوادي. وخُم، قيل: اسم رجل نُسب إليه الغدير. وقيل: اسم غَيضة ملتفَّة بالأشجار نُسب إليها الغدير، وهو قريب من الجُحفة. فلما رجع النبيُّ ﷺ هو وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من حجَّة الوداع ونزل علىٰ غدير خُم، خطبهم ﷺ هذه الخُطْبة، فحمد الله وأثنىٰ عليه.

فقوله: «**فحمد الله، وأثنىٰ عليه**»: فيه: أنَّ الخُطْبة تُبدأ بحمد الله تعالىٰ، والثناء عليه، سواء كانت خطبة جمعة، أو عيد، أو استسقاء أو تعليم، فكلُّ الخُطَب تُستفتح بحمد الله، والثناء عليه، كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، ويدخل في هذا خُطْبة الدروس والمناسبات الأخرىٰ.

وقوله ﷺ: «**أمّا بعد**»: هذه الجملة يُؤتىٰ بها للانتقال من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر، فهي كلمة فَصْل بين كلامين.

(١) برقم (٢٤٠٨)، (٣٦)، (٣٧).

وقوله: «إنِّي بَشَر»: فهو -عليه الصلاة والسلام- من بني آدم، ليس ملكًا من الملائكة، وليس له من الرُّبوبية شيء، ولهذا جاء في كتاب الله قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. أي: مخلوق مما يُخلق منه بنو آدم من أبٍّ وأمٍّ.

وهذا بخلاف قول أهل الضّلال، والانحراف الذين يقولون: إن الرسول ﷺ مخلوق من نور، وبعضهم يقول: إنه خُلق -عليه الصلاة والسلام- قَبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ! وهذا ونحوه من الأقوال المنحرفة، إنما هو من الغُلوِّ المذموم، إذ كيف خُلق ﷺ قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من بني آدم؟! فالرَّسول ﷺ بَشَر وإنسان من بني آدم؛ فقوله ﷺ: «فإنَّما أنا بشر»: فيه إبطال الغُلوِّ في حقِّه ﷺ، أو أن يُقال: إنه مخلوق من نور، أو قبل آدم، وقد دلَّ هذا الحديث علىٰ أنه ﷺ مخلوقٌ ممَّا خُلق منه بنو آدم، والأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسَّلام-.

وفيه: أنه ﷺ لا يُدعىٰ مِنْ دون الله، ولا يُستغاث به؛ لأنه بَشَر، وإنما الذي يُدعىٰ، ويُستغاث به هو الله -جلَّ وعلا-.

وقوله ﷺ: «**يُوشك أن يأتيَني رسولُ ربِّي**»: أي: ملكَ الموتِ «**فأجيبَ**». وقد جاءه رسولُ ربِّه ومات -عليه الصلاة والسلام-؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فالرسول ﷺ بَشَر ومات كما يموت البشر، وفي هذا ردٌّ علىٰ الغُلاة الذين يقولون: إن الرسول ﷺ لم يمت، وأنه حيّ! فإنه لو كان حيًّا لما دُفن في التراب، ولو كان حيًّا ﷺ لذهب إليه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند اختلافهم؛ ليفصل بينهم!

لكن أهل الباطل لا ينظرون إلىٰ ما تقتضيه العقولُ فضلًا عمَّا تقتضيه أدلَّة الشَّرع، فهم يركبون رؤوسهم وأهوائهم، فالرَّسول -عليه الصلاة والسلام- بَشَر وهو ميِّت، وقد بلَّغ الرِّسالة وأدَّىٰ الأمانة، وأكمل الله به الدِّينَ، ثم بعد ذلك توفَّاه الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن شفقته ﷺ بأُمته أنه أوصاهم بعد موته ولم يتركهم، وإنما أوصاهم بما يقودهم إلىٰ الجنة، وهذا من نُصْحه -عليه الصلاة والسلام- حيًّا وميِّتًا.

وقوله ﷺ: «**وأنا تاركٌ فيكم ثقَلين**»: ثَقَلين مثنىٰ: ثَقَل، والمراد: القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وسُمِّي القرآن ثقلًا وكذا السُّنة؛ لأنه يثقُل العمل بهما علىٰ أهل الكسل والخُمول، وقيل: سُمّيا ثَقَلين لعِظَمهما وكبير شأنهما.

وقوله: «**وأوَّلهما كتابُ الله فيه الهدىٰ والنُّور**»: وتدخل فيه السَّنة فهي من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهي الوحي الثاني، فالوصية بكتاب الله وصيَّةٌ بالسُّنة أيضًا؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فالسُّنة من عند الله عَزَّوَجَلَّ وهي وحيٌ أوحاه الله إلىٰ رسوله ﷺ، وقد أثنىٰ -عليه الصلاة والسلام- علىٰ كتاب الله ورغَّب في العمل به؛ لأنه هو طريق الهداية، وهو النور المبين، وهو الرُّوح، وهو الحقُّ والصِّراط المستقيم.

وقوله ﷺ: «**وأهلُ بيتي**»: فقد أوصىٰ -عليه الصلاة والسلام- بأهل بيته، وأهل بيته ﷺ؛ هم قرابته، وزوجاته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي خطاب أزواج النبيِّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣]. يعني: الْبَثْنَ في بيوتكنَّ، ولا تكثرنَ الخروجَ، فهذا فيه أن الأفضل للمرأة أن تبقىٰ في بيتها، ولا تخرج إلا لما لابدَّ لها منه؛ لأنَّ الله أمر نساءَ الرَّسول ﷺ، وهنَّ أطهر نساءِ العالمين بالبقاء في البيوت؛ ودُعاةُ السفور والانحلال يقولون: إن المرأة محجوبة مسجونة بين الجدران، لا يدرون أن هذا كرامة وحفظٌ لها؛ ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فدلَّ علىٰ أنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ من أهل البيت، وكذلك قرابتُه -وهم بنو عمِّه من المؤمنين، بنو العباس وبنو أبي طالب: عليّ وجعفر وعقيل وأبناؤهم والحسن والحسين ابنا عليٍّ- هؤلاء هم أهل بيت الرَّسول ﷺ ، فكلُّ مَنْ تحرُم عليه الصَّدقة هم أهل بيت الرسول ﷺ .

أوصىٰ بهم -عليه الصلاة والسلام- بالإحسان إليهم، ومحبَّتهم ومعرفة قَدْرِهم وعدم تنقُّصهم؛ لأن الإحسان إليهم وتوقيرهم توقيرٌ للرسول ﷺ ، والنَّقص من قَدْرهم إنما هو تنقُّص للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام-، وإيذاؤهم إيذاءٌ له ﷺ .

قال ﷺ : **«يا أيّها الناس، مَنْ آذىٰ العبّاسَ فقد آذاني، إنما عَمُّ الرَّجلِ صِنْوُ أبيه»**(١) . فلا شكَّ أنَّ آل البيت الطيبين الصالحين لهم فضلٌ وشرف وكرامة من أجل رسول الله ﷺ .

وفي هذا ردٌّ على طائفتين:

الأولى: طائفة الرَّوافض الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت حتىٰ اعتقدوا أنَّ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ باطلة، وأن عليًّا هو أوْلَىٰ بالخلافة بعد النبي ﷺ ، ولهذا فهم يُسمُّون عليًّا بالوصي؛ أي: وصيّ النبي ﷺ ، وهذا غُلوٌّ في أهل البيت، وإهدار لفَضْل أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وإبطال لخلافتهم، وأنهم ظَلَمة مغتصبون للخلافة -بزعمهم-؛ بل يقولون: هم كَفَرة، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وقد زاد الأمر في حبِّهم لآل البيت بزعمهم أنهم عبدوهم من دون الله، فلم يقتصر الأمر علىٰ اعتقاد أن الخلافة لهم بعد الرَّسول ﷺ ، وإنما زاد الأمر إلىٰ أن عبدوهم مِنْ دون الله، وبَنَوا علىٰ قبورهم المشاهد وسمَّوها المقدَّسات وهم يَحجُّون إليها الآن، هؤلاء هم الرافضة الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت، وخرجوا عن الحقِّ إلىٰ الكُفْر، والشِّرك والضَّلال.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥١٦)، والترمذي (٣٧٥٨) من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

والثانية: هي طائفة النواصب، الذين يُبغضون آل البيت، ويتنقصُّونهم ويَحطُّون من قَدْرهم، فهم علىٰ طَرَفي نقيض مع الروافض، فأولئك يَغلُون وهؤلاء يُفرِّطون في حقِّ أهل البيت، ويتنقَّصون من قَدْرهم ويذمُّونهم.

وأما أهل السنة والجماعة فهم توسَّطوا في أهل البيت، فعرفوا قَدْرَهم وأحبُّوهم وأكرموهم واحترموهم وحفظوا فيهم وصيَّة رسول الله ﷺ خلافًا للنواصب؛ لكنهم لم يَغلُوا فيهم مثل غُلوِّ الرَّوافض، ولم يَهينوهم ويُفرِّطوا في حقِّهم كتفريط النَّواصب الذين ناصَبوا العداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ.

وقد أوصىٰ بهم الرسول ﷺ، لهذا يجب العمل بوصيَّته -عليه الصلاة والسلام-، فمَن أهدر حقَّهم وتَنقَّصهم فقد خالف وصيَّته -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: وفي لفظٍ «**كتابُ الله: هو حَبْل الله المتين، مَنِ اتَّبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومَنْ تركه كان علىٰ الضلالة**» هذا تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد فسَّر الحديث أن المراد بـ: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ هو القرآن، وأنَّ مَنِ اعتصم به، فإنه يَهتدي، ويُفلح ويَسعد في الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني: القرآن ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ يعني: لم تعمل بها، وليس معنىٰ النسيان أنه نسي حِفْظها، وإنما نسي العمل بها ولو كان يقرؤها ويحفظها، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

فالإنسان لو عمل بالقرآن، وإن لم يكن يَحفظْهُ فهو من أهل القرآن ومن المتمسِّكين به، فليست المسألة مسألة حفظه وحسب، وإنما المسألة هي مَدَىٰ التمسُّك بالقرآن والعمل به؛ ولكن يُقال: إنَّ حِفظَ القرآنِ، إنما هو وسيلة إلىٰ العمل به للوصول إلىٰ الهُدىٰ والابتعاد عن الضلالة؛ لأن فيه النجاة في الدُّنيا والآخرة، كما بيَّن ذلك ﷻ.

٧٦- وَلَهُ[(١)] **فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا؛ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابَ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ -قَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ-: اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثلاث مرات.**

الشَّرح

هذا الحديث جاء في سياق خُطبته ﷺ يوم عرفة في حجَّة الوداع، وأنزل الله تعالىٰ عليه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فخطب ﷺ قبل صلاة الظُّهر في وادي عُرنَةَ، وكان من جملة ما أوصىٰ به كتاب الله، فقال ﷺ: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا إن اعتصمتم به: كتاب الله**» وهو القرآن والسُّنة التي هي من كتاب الله؛ لأنها وحيٌ منه ﷻ، فمَن تمسَّك بما جاء به الرَّسول ﷺ من القرآن والسُّنة، فإنه لن يَضِلَّ في الدُّنيا ولن يشقىٰ في الآخرة؛ لأنه مشىٰ علىٰ الطريق الصحيح، وهو الصِّراط المستقيم، والحَبْل المتين، وحالُنا في هذه الدنيا في لُجَّةٍ وَغَرقٍ مليء بالضَّلالات والأهواء والشَّهوات، وليس لنا نجاة إلا من خلال هذا الحَبْل، فمَن تمسَّك به وعضَّ عليه بالنَّواجذ نجا من هذه الأخطار والضَّلالات، ومَنْ أطلق هذا الحَبْل هلك وغرق في هذه اللُّجج والبحار.

ثم إنه ﷺ بعد ما أوصىٰ بكتاب الله في حجَّة الوداع التي وادَعَ فيها الناس، توفِّي بعدها -عليه الصلاة والسلام-، فهذه الخُطْبة التي خطبها ﷺ هي آخر خُطْبة خَطَبها مع خطبة غَدير خُمّ، وقد تشابَهت الخطبتان، ففي كلا الخطبتين أوصىٰ -عليه الصلاة والسلام- بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-، والسِّرُّ في تكرار هذه الوصية -والله أعلم- أنه شعر ﷺ بقُرب أجله، فكرَّر الإيصاءَ بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-،

---

(١) برقم (١٢١٨)

وهذا من شفقته -عليه الصلاة والسلام- بأُمَّته، ونُصحه لها.

وقوله ﷺ: «**وأنتم تُسألون عنِّي**»: هذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٦] فالله -جلَّ وعلا- يسألُ الأممَ يوم القيامة: هل بلَّغتكم رسلكم؟ فأهلُ الإيمان يقولون: نعم بلَّغتنا، وأما أهل الكفر فيقولون: ﴿**مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**﴾ [المائدة: ١٩] فهم يجحدون، فقوله ﷺ: «**وأنتم تُسألون عني**»: يعني: تسألون هل بلَّغتكم؟ ولهذا فقد أجابه الصحابة -رضوان الله عليهم-: «نشهد أنك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ».

وفي قوله: «قال بإصبعه السَّبّابة يرفعها إلىٰ السماء»: فيه إثبات عُلوِّ الله -جلَّ وعلا-، فَرفْعُ أصبعِه -عليه الصلاة والسلام- إشارةً إلىٰ ربِّه، ففي هذا إثبات واضح لعلوِّه -جلَّ وعلا- علىٰ خَلْقِهِ؛ لأنه ﷺ أشار إليه في العُلوِّ، فهذا من أدلَّة عُلوّ الله علىٰ خَلْقه.

وقوله: «**يَنْكُتُها إلىٰ الناس**»: يعني: يُصوِّبها إلىٰ الحاضرين، ثم قال: «**اللهُمَّ اشهدْ**» ثلاث مرات، يعني: أنِّي بلَّغتُهم وأنَّهم أقرُّوا بالبلاغ، فاستشهد الله عليهم؛ لئلا يقول أحد: إنَّ الرسول ﷺ لم يُبلِّغ.

[النهيُ عن ترك العمل بكتاب الله تعالى]

٧٧- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «أَلا إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ. قُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَا تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ(١)، وَقَالَ: غَرِيب.

الشَّرح

هذا الحديث من جملة الأحاديث التي ساقها المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ سبقه أحاديث صحيحة في الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وذا من جملتها، وهذا قد رواه الترمذي وغيره(٢)؛ ولكن الترمذي، قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وهذا الحديث من أقسام الآحاد علىٰ اعتبار أن الحديث في الأصل ينقسم إلىٰ قسمين: حديث متواتر، وآخر آحاد.

والحديث المتواتر: ما يرويه جماعة عن جماعة يتعذَّر تواطؤهم علىٰ الكذب من بداية السَّند إلىٰ نهايته.

والحديث الآحاد: هو الذي لا يبلغ حدَّ التواتر، فلا يرويه جماعةٌ عن جماعة، وهو

---

(١) برقم (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٣١)، والبزار (٨٣٦).

ثلاثة أقسام: المشهور، والعزيز، والغريب.

والمشهور: ما رواه ثلاثة فأكثر، إلَّا أنَّه لم يبلغ حدَّ التواتر.

والعزيز: ما رواه اثنان.

والغريب: ما تفرد به واحد، وحديث الباب من هذا القسم، فقد تفرَّد به واحد، والحديث ضعيفٌ؛ كما أشار إلىٰ ذلك الترمذي؛ لأنه من رواية الحارث الأعور، عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحارث الأعور متكلَّم فيه.

ورَفْعُه إلىٰ الرسول ﷺ خطأ، والصواب: أن يكون من كلام عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، فيكون من الموقوف، ومعناه صحيح تؤيِّده الأدلَّة الأخرىٰ.

قوله ﷺ: «**ألا إنها ستكون فتنةٌ**»: هذا إخبار منه ﷺ عن وقوع الفتن، وقد بيَّن ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، ومن ذلك قوله ﷺ: «**مَنْ يَعْش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»[2].

وفي مسلم وغيره[3]: «**بادروا بالأعمال، فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبح الرَّجل مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، أو يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دِينَه بعَرَضٍ من الدنيا**». فقوله ﷺ: «**ألا إنها ستكون فتنةٌ**»: صحيح جاءت به الأحاديث الصحيحة.

والفِتن: جمع فتنة، وهي: الابتلاء، والامتحان، والاختبار؛ ليظهر الصادقُ الإيمانِ المتمسِّك بدينه من المنافق؛ لأن عند الفتن يتميَّز ويظهر الصادق من المنافق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]. أي: ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم والكاذبين في دعوىٰ الإيمان، فإن الكاذب والمنافق عند الفتن يتخلَّىٰ الواحد منهم عن دينه.

---

(١) انظر: «مسند البزار» (٣/ ٧١) عند الحديث نفسه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٣) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسلم (١١٨)، وأحمد في «المسند» (٨٠٣٠)، والترمذي (٢١٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الصادق فإنه يتمسَّك بدينه ويصبر علىٰ ما يُصيبه، وهذه علامة الصِّدق، بخلاف المنافق الذي ينسلخ من دينه؛ لأجل أن يسلم في دُنياه، فيبيع آخرته بدُنياه.

وقوله: «**ما المَخرج منها**»: يعني: ما هو طريق السلامة من هذه الفتن؟

قوله: «**كتاب الله**»: أي: القرآن، ويشمل هذا السُّنة النبوية الشريفة؛ لأنها مستمدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال ﷺ: «**عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين**»[1]. فكتاب الله يشمل القرآن والسُّنة.

وقوله: «**فيه نبأ ما كان قبلكم**»: فإنَّ القرآن يحتوي أخبار الأمم الماضية.

والنبأ، هو: الخبر المهمُّ، والمراد: أنَّ القرآن فيه قصص الأنبياء والمرسلين، فهو يُخبر عمَّا جرىٰ ووقع في الماضي، كأنه مشاهد من أجل أن يكون الناس علىٰ بيِّنة، وأنَّ هذا الابتلاء والامتحان الناتج عن الفتن ليس جديدًا، وإنما هو شيء جرىٰ علىٰ الأمم السابقة، فمنهم مَنْ هلك، ومنهم مَنْ نَجا.

وقوله: «**وخبر ما بعدَكُم**»: أي: القرآن، ويدخل في هذا السُّنة كذلك؛ إذ كلٌّ منهما يُخبر عن المستقبل، وما يُمكن أن يكون في آخر الزَّمان من الفتن، وما يمكن أن يكون بعد الموت من أحوال أهل القبور، وما بعد ذلك من البعث والنشور، وما يكون من الأهوال في القيامة، كلُّ هذا تحدَّث عنه القرآن الكريم، والسُّنة النبوية الشريفة حتىٰ كأنه مشاهَد.

وقوله: «**وحكم ما بينكم**»: أي: أنه في حال اختلافكم، فإن القرآن يحكم فيما فيه تختلفون، فيعطي صاحب الحقِّ حقَّه، ويُنصف المظلوم من الظالم، هذا في الخصومات، وأمَّا في المقالات فإنه يُبيِّن المقالة الصحيحة من المقالةِ الخاطئة؛ لأنه إذا ما رُجع إلىٰ القرآن فإنه يفصل بين الناس في الخصومات والمقالات، وفي كلِّ شأنٍ من شئون حياتهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فالقرآن يحكم بين الناس، ولهذا أنزله الله، فلم ينزله سبحانه للتلاوة والتَّغنِّي به، وتجويده وتحسين الأصوات بقراءته فقط، أو للتلذُّذ بسماعه، فما أنزله من أجل هذا فقط؛ بل أنزله ليكون حكمًا بين الناس فيما يمكن أن يختلفوا فيه؛ وليكون المرجع إليه.

وقوله: «**وهو الفصْل ليس بالهَزْل**»: وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤]. والهَزْل ضد الفَصْل، فهو يفصل بين الحقِّ والباطل، والهَزْل: هو اللعب، والقرآن الكريم منزَّهٌ عن أن تكون هذه صفته.

وقوله: «**مَنْ تركَه مِنْ جبَّار إلَّا قَصمَه الله**»: أي: أعرضَ عنه، ولم يلتفت إليه، فإنَّ الله يَقصِمُه، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾، وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

وقوله: «**ومَنِ ابتغىٰ الهُدىٰ من غيره أضلَّه الله**»: فمَن أراد الهدىٰ من غير كتاب الله، فلن يصل إلىٰ طريق الهُدىٰ والصواب، فمَن يرجع إلىٰ المنطق والجدل وعلم الكلام، ويستدل بهذه الأمور علىٰ أنها قواعد عقلية يقينية، وأنَّ كتاب الله دلالته ظنِّية؛ لأنه دليل سمعي وليس عقليًّا، فمَن كانت هذه طريقته، وهي طريقة المبتدعة الذي يستدلون بالمنطق وعلم الجدل والكلام، فلن يصل إلىٰ الهدىٰ والصواب، كيف لا وهم يئوِّلون كلام الله حتىٰ يتفق مع منطقهم، وهذه هي طريقة أهل الضلال.

وأمَّا أهل الحقِّ فإنهم لا يَعْدِلونَ عن القرآن؛ لأنه هو دليلهم، ولا يعبئون بقواعد المنطق وعلم الكلام، ولا يلتفتون إليها؛ لأنَّ الله أغناهم عنها، فأهل السُّنة والجماعة يستدلُّون بالقرآن في أبواب العقائد والمعاملات والأحكام وفي كل شيء، ولا يلتفتون إلىٰ الجدل كأهل الضلال من: الجَهْمية، والمعتزلة، والأشاعرة، الذين يستدلون

بقواعد المنطق، ويتركون أدلة القرآن بحُجَّة أنها ظنِّية، لا تفيد العلم اليقيني، وأما علم الجدل، وقواعد المنطق فهي أدلة عقلية تفيد اليقين عندهم!

وقوله: «**وهو حَبْل الله المتين**»: ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وحَبْل الله، هو: القرآن الذي أنزله الله لهداية الخَلْق، فمَن تمسَّك بهذا الحبل نَجا، ومَنْ تركَه هلك.

وقوله: «**وهو الذِّكر الحَكيم**»: هذا كما وصفه الله تعالىٰ، فقد وصفه بالذِّكر، وبالقرآن، وبالفُرْقان، وغير ذلك من أسماء القرآن وأوصافه.

وقوله: «**وهو الصِّراط المستقيم**»: وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. والصراط: هو القرآن، فمَنْ سار علىٰ هُداه رَشَد، ومَنِ ابتعد عنه ضلَّ.

وقوله: «**هو الذي لا تَزيغُ به الأهواء**»: فمَنْ كان هواه تابعًا للقرآن فإنه لا يزيغ؛ بمعنىٰ: لا يضلُّ ولا يشقىٰ، ومَن كان هواه مخالفًا له، فإنه يزيغ ويضيع، ويضلُّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]. يعني: عن القرآن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. فهؤلاء الذين زاغت بهم الأهواء يحسبون أنهم علىٰ الصواب مستمرُّون علىٰ ما هم عليه من الضلال، فلا يحصل عندهم شكٌّ فيما هم عليه، ولا يظنون إلّا أنهم علىٰ الحقِّ والصَّواب!

وقوله: «**ولا تَلتبسُ به الألسنةُ**»: أي: لا تُخطئ به ولا تختلط، فهو كما قال تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. يقرؤه العربي بوضوح وسهولة، حتىٰ إنَّ الأعجمي الذي لا يعرف اللغة العربية إذا تلا القرآن فإنه يقرؤه كما هو، لا يغيِّر منه حرفًا، وهو لا يعرف كلمة واحدة من كلمات اللغة العربية، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقوله: «ولا تَشبع منه العلماءُ»: في التفقُّه في معانيه وتدبُّره، فلا أحد يُحيط بما في القرآن من الأسرار والأحكام والحِكَم مهما تأمَّل وتدبَّر، فكلُّ عالِم يأخذ منه بقَدْر ما يستطيع، فلا أحد استطاع أن يحيط بكل ما في القرآن الكريم من المعاني والأسرار التي فيه؛ لأنه بَحْر؛ ولكن كلٌّ يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفَهْم، ويبقىٰ الكثير والكثير في هذا البحر الزاخر، المليء بالمعاني والأسرار المتنزَّلة من لَدُن حكيم عليم.

وقوله: «ولا يَخلُق عن كثرة الرَّدِّ»: لأنَّ من إعجاز القرآن الكريم وعجائبه أنه لو كرَّر قارئه قراءته، فإنه لا يسأم من قراءته، ولو سمعه السامع عدَّة مرَّات لما سئم من سماعه، بخلاف الكلام الآخر الذي مصدره البشر فإنه لو كُرِّر لَملَّ منه القارئ والسامع علىٰ السَّواء، بخلاف كلام الخالق الذي كُلَّما كُرِّر زادت الرَّغبةُ فيه، والتلذُّذ بقراءته وسماعه، فإذا سمعه السامع، أو قرأه القارئ فإنه يشعر وكأنه يقرؤه أو يسمعه لأوَّل مرة، وهذا من إعجاز كتاب الله -جلَّ وعلا- الذي أحكمَ نَظْمَهُ وأتقنَ بيانَه.

وقوله: «ولا تنقضي عجائبه»: وهذا شبيهٌ بقوله: «ولا تَشبع منه العلماءُ»: فعجائبه كثيرة من جوانبَ عديدة، فمنها ما يتعلَّق بالقصص، وفي الأخبار المستقبَلَة، ومنها ما يتعلَّق في الفقه الذي فيه، ومنها ما يتعلق بتراكيبه وألفاظه وأساليبه وبلاغته وفصاحته، فكُلَّما استعرض القارئ قراءته تبدَّت له عجائبه في جمال لُغته وفي سَرْد قَصَصِه، وفي أساليب أوامره ونواهيه، وفي عَرْض أخباره، وغير ذلك كثير مما هو كامنٌ بين دفَّتيه.

وقوله: «وهو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذْ سمعتْهُ حتىٰ قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]».

وفي هذا قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾: والجنُّ: خَلقٌ من خَلق الله من عالَم الغيب، مكلَّفون ومأمورون ومنهيُّون مثل الإنسان، والنبيُّ ﷺ بُعث إلىٰ الجنِّ والإنس، وقد وَفَدَ علىٰ النبي ﷺ وَفدٌ من الجنِّ وطلبوا منه موعدًا، فأعطاهم الموعدَ، فكلَّموه ﷺ وكلَّمهم، وقد أَثنتِ الجنُّ علىٰ هذا القرآن، وتعجَّبت منه، ودَعت قومها إلىٰ الإيمان به، وهذا من عجائب هذا القرآن.

وقوله: «**مَنْ قال به صدَقَ**»: أي: بالقرآن فقد صَدق؛ لأن القرآن الكريم معصوم من الخطأ، فمَن اتَّبعه، وقال بما يدلُّ عليه فإنه يصدق في قوله واجتهاده وحُكمه.

وقوله: «**ومَنْ عَمِل به أُجِرَ**»: أي: مَنِ امتثل بما جاء به القرآن الكريم من الطاعات والأعمال الصالحة، فإنَّ الله يُثيبه ويكتب له الأجر العظيم.

وقوله: «**ومَنْ حكم به عَدل**»: أي: مَنْ جعله مَرْجعًا للحكم في الخصومات بين الناس والمنازعات فإنه يعدل، فيُعطي صاحبَ الحقِّ حقَّه، ويَمنع الظالمَ عن ظُلمه، وهذا هو العدل، وهذا إنما يكون في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: «**ومَنْ دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم**»: فمَن دعا إلىٰ كتاب الله، فإنه يدعو إلىٰ هدًىٰ، وأما مَن دعا إلىٰ غيره فإنه يدعو إلىٰ ضلال، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال!

هذه هي أوصاف القرآن الكريم، وهي أوصاف صحيحة، وإن كان الحديث لم يثبت عن النبي ﷺ؛ لكن معانيه صحيحة مؤيَّدة بالأدلة الثابتة عنه ﷺ، وموافقة لما عليه الواقع قديمًا وحديثًا، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

٧٨- وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا، قَالَ: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَىٰ شَيْئًا»، ثُمَّ تَلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]». رَوَاهُ الْبَزَّار، وَابْن أَبِي حَاتِمٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ[(١)].

الشرح

وهذا كما في الحديث الصحيح: «**إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ، وبينهما أمورٌ مُشتبهات، لا يَعلمهنَّ كثيرٌ من الناس**»[(٢)]. وهذا الحديث كذلك فيه: أنَّ ما أحلَّه الله فهو الحلال، وما حرَّمه فهو الحرام، وما سكت عنه فهو عفوٌ؛ لأنَّ الله لم يسكت عنه نسيانًا، وإنما سكت عنه؛ لأنه عفا عنه رحمةً بعباده.

فالواجب من الإنسان أن يَقبل من الله عافيتَه، ويُحلّ الحلالَ ويُحرِّم الحرامَ، وما سَكت عنه فهو معفوٌّ عنه، فلا يسأل عنه؛ لأن الحلالَ بيِّن والحرامَ بيِّن، وفي الرُّجوع إلىٰ كتاب الله، وسُنة رسوله يتبيَّن منهما الحلال والحرام.

---

(١) البزار كما في «كشف الأستار» (١٢٣ و٢٢٣١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢٠٩) (٢١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[بيان أن الصِّراط هو الإسلام]

٧٩- وَعَنْ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ، يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَلا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ! لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، ثُمَّ فَسَّرَهُ، فَأَخْبَرَ: أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الإِسْلامُ، وَأَنَّ الأَبْوَابَ الْمُفتَّحَةَ مَحَارِمُ اللهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ: حُدُودُ اللهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ». رواه رَزين، ورواه أحمد، والترمذي، عن النَّواس بن سمعان بنحوه(١).

الشَّرْح

الصِّراط في اللغة، هو: الطريق، والمراد به هنا: الإسلام، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالإسلام هو الطريق الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، فمَنْ أراد الوصول إلىٰ مرضاة الله، وجنَّته، لا بُدَّ له من اتِّباع النهج الموصِل إليه، وهو الإسلام الذي هو صراط الله؛ ولكن من حِكْمة الله تعالىٰ أن جعل علىٰ جَنبَتي هذا الطريق أبوابًا يمينًا وشمالًا، وعلىٰ هذه الأبواب ستور مُرخاة، وهذه الأبواب إنما هي أبواب الفتن والشرور.

فمَن فتحها ووَلج فيها فقد خرج عن الطريق المستقيم، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فهناك صراط مستقيم، وهناك سُبلٌ كثيرة وهي الأبواب التي علىٰ جنبتي علىٰ الصِّراط.

---

(١) رزين كما في «مشكاة المصابيح» (٨/ ٤١)، وأحمد في «المسند» (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩).

فالواجب: هو السَّير علىٰ الصِّراط وعدم الالتفات إلىٰ هذه الأبواب، ولا كَشْف السُّتور التي عليها، والسُّتور هنا هي الحدود التي جعلها الله لرَدْع مَنْ يريد أن يدخل في هذه الأبواب؛ ولهذا قال في تفسيره لهذا الحديث: «**وأنَّ السُّتور المُرخاة هي حدودُ الله، وأنَّ الداعي علىٰ رأس الصِّراط هو القرآن، وأنَّ الداعي من فوقِه هو واعظُ الله في قلب كل مؤمن**». وكل ذلك واضح معناه.

[خطورة اتباع ما تشابه من القرآن]

٨٠- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فَقَرَأَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. قَالَتْ: قَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». مُتَفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرح

هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه: أن الله ﷻ أنزل الكتابَ، وجعل منه آياتٍ محكمَاتٍ، وأُخر متشابهات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ [آل عمران: ٧]. أي: انحراف ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ علىٰ قراءة من يعطف قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعلىٰ قراءة أخرىٰ في الوقوف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ يكون ابتداءَ كلام.

ومعنىٰ الآية الكريمة واضح؛ حيث إن القرآن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات.

والمحكمات: هي التي لا يحتاج في تفسيرها إلىٰ غيرها؛ لأنها واضحة في معانيها.

وأمَّا المتشابهات: فهي الآيات التي يُحتاج في تفسيرها إلىٰ إرجاعها إلىٰ غيرها مثل المطلَق، والمجمَل، والمنسوخ، فهذه الأنواع ونحوها لا يُستدلّ بها حتىٰ يُراجع القسم الآخر من الآيات المحكمة، فيُقيَّد المطلَق، ويُبيَّن المجمَل، ويُنسخ المنسوخ، ويُعمل بالناسخ، وهذه طريقة الراسخين في العلم أنهم يردُّون المتشابه إلىٰ المُحكَم، ويجمعون بين الآيات والأحاديث بعضها مع بعض؛ لأن كلام الله يُفسِّر بعضُه بعضًا،

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وكذلك كلام الرَّسُول ﷺ يفسِّر بعضُه بعضًا.

وأمَّا أهل الزَّيغ فعلىٰ العكس، فيأخذون المتشابه ويتركون المُحكَم، ويستدلون به.

فبالنظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فإنها تدلُّ علىٰ أنَّ القاتل كافر خارج من الملَّة وخالدٌ في النار، ولكن بردِّها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. فإنها تفسِّرها، وتدلُّ علىٰ أن القتل ليس بكُفْر أكبر؛ ولكنه كُفْر أصغر؛ بدليل قوله ﷺ: «**لا تَرجعوا بَعدي كفّارًا، يضربُ بعضُكم رقابَ بعض**»[1]؛ فقتْل المؤمن متعمدًا كفرٌ، ولكنه كفرٌ أصغر، وليس بكفر مخرَّج من الملَّة، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. فالخطاب في هذا إلىٰ المؤمنين بأن يُصلحوا بين إخوتهم من المؤمنين، فدلَّ علىٰ أنَّ القاتل لا يكفر، وإنما هو فاعل لكبيرة من كبائر الذُّنوب.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. فلو أخذنا بهذه الآية، لقلنا: إنَّ عدَّة الوفاة سُنة؛ لأن هذا صريحُ الآية، ولكن بإرجاعها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فتكون هذه الآية ناسخة للآية الأخرىٰ، فنُسخت العِدَّة من سنة إلىٰ أربعة أشهر وعشرة أيام، فالمنسوخ لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ.

وأمَّا أهل الزَّيغ، فيأخذون بالمنسوخ بحجَّة أنها آية من كتاب الله، وأنَّه لا مانع من الاستدلال بكتاب الله! فأهل الزَّيغ يأخذون طرفًا من الأدلَّة، ويتركون الطرف الآخر.

والخوارج -وهم من أهل الزَّيغ- قد أخذوا آيات الوعيد وكفَّروا المسلمين، وتركوا آيات الوعد، ولو جمعوا بينهما كما فعل أهل السُّنة لاهتدوا.

والمُرجئة علىٰ العكس، فقد أخذوا آيات الوعد والرَّجاء، وتركوا آيات الوعيد

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فضلُّوا؛ فالخوارج ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف، وهؤلاء ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف من النُّصوص.

وأما أهل السُّنة والجماعة، فجمعوا بين النُّصوص، وقالوا: كلٌّ من عند ربِّنا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه هي طريقة الراسخين في العلم.

وأما أهل الزَّيف، فإنهم يأخذون طرفًا من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر الذي يُقيِّده ويُفسِّره أو ينسخه أو يُبيِّن مجمَله؛ ولذلك فإنه لا يجوز الاستدلال بالقرآن الكريم إلَّا لمن بلغ في العلم مرتبة تؤهِّله للاستدلال، وهم المجتهدون، أما المبتدئ في طلب العلم، فهذا لا يجوز له أن يستقلَّ بالفهم والرأي، أو أن يُصدر الأحكام؛ لأنه لم يتمكَّن من طريقة الاستدلال، وفَهم الأدلة وربط بعضها ببعض.

فقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. الأمُّ: هي التي يَرجع إليها الشيء، فالمتشابهاتُ تُردُّ إلىٰ الأُم، وهي المحكمات حتىٰ تفسِّرها، ولا تُقطع عنها.

وقوله ﷺ: «**فاحذروهم**». أي: لا تَغترُّوا بهم؛ لأنهم أهل زَيغٍ، ويُضلُّون عن سبيل الله، وما أكثرهم اليوم بسبب الجهل، وعدم التمكُّن من العلم، وبعضهم قد يكون عالمًا؛ ولكنه صاحب هوًىٰ فيأخذ المتشابه؛ لأجل التلبيس علىٰ الناس.

٨١- وَعَنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ». ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ. وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]». رَوَاهُ أَحْمَد، وَالدَّارِمِيُّ، وَالنَّسَائِيّ(١).

الشَّرح

حديثُ ابن مسعود، هذا مثل حديثه الذي سلف قبل حديث عائشة السابق تمامًا، وفيه: أن النبي ﷺ أراد أن يُفسِّر هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فأراد ﷺ أن يفسِّرها بضرب المَثَل الذي يوضِّحها، وذلك أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا علىٰ الأرض، ليس فيه انحراف، ثم خط خطوطًا أخرىٰ عن يمينه، وعن شماله، فقال عن الخط المستقيم: «**هذا سبيلُ الله**» يعني: صراطه المستقيم، وقال عن الخطوط التي عن يمينه وشماله: «**وهي سُبلٌ، علىٰ كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه**». وهي الانحرافات التي تُضلُّ الناسَ، انحرافات في كلٍّ منها مذاهب فاسدة، ونِحَلٌ باطلة، وأقوالٌ كاذبة، هذه هي السُّبل، وصراطُ الله واحدٌ، والسُّبل كثيرة؛ لأن أهواء الناس وأقوالهم كثيرة، فإذا ما اتَّبع أحدٌ أقوالهم ضاع وضلَّ.

ومَنْ اتَّبع صراطِ الله اهتدىٰ دون أن يحصل عنده لَبْس؛ لأنه ليس عنده إلَّا طريق واحد، فمَن يسير في طريق واحد لا بدَّ أنه سيستريح، ومَنْ أراد السَّير في طرق كثيرة، فإنه لا يدري في أيِّ طريق يكون الصواب، وستلتبس عليه الطريق وبالتالي سيضيع بين هذه الطُّرق.

فمن رحمة الله وفضله علىٰ خَلْقه أنْ وحَّد لهم الطريق، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

---

(١) أحمد (٤١٤٢)، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٧٤).

مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فمَنِ انحرف عن الصراط هلك في هذه السُّبل والطرق المليئة بالمقالات، والمذاهب والمتاهات؛ ولأجل تلاشي هذه الانحرافات -رحمةً بالخلق- جعل الله لهم القرآن والسُّنة، فإذا ما اشتبهت الأمور والمذاهب عليهم رجعوا إليهما؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

[النهي عن الأخذ من الكتب السابقة]

٨٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قَالَ: «كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ، وَأَضَلَّ الضَّلالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، وَإِلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ»، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]». رَوَاهُ الإِسْمَاعِيلي فِي «مُعْجَمِهِ»، وَابْنُ مَرْدَوَيَّه[١].

الشَّرح

في هذا الحديث النَّهيُ عن أخذِ شيء من التوراة أو الإنجيل والكتب السابقة؛ لأنَّها نُسخت بالقرآن الكريم، والشيء إذا نُسخ فإنه لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ، وهذه الشرائع إنما كانت لمَن قَبلنا وقد انتهت بشريعتنا.

فشريعتنا هي الحاكمة، وهي المُهيمنة، ورسولنا ﷺ هو خاتم الرُّسل، وتجب طاعته علىٰ كلِّ مخلوقٍ من الجنِّ والإنس، ومن اليهود والنصارىٰ، ومن كلِّ أصحاب المَلَلِ والنِّحَل، فلا يجوز لأحد أن يقول مثلًا: أنا علىٰ شريعة موسىٰ، أو علىٰ دين المسيح، ولهذا قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسىٰ كان حيًّا ما وَسِعَه إلَّا أن يتَّبعَني**»[٢]. فكيف بغير موسىٰ؟!

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ يعني: محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم

(١) الإسماعيلي في «معجمه» (٣٨٤)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٢)، وعزاه للإسماعيلي، ولابن مردويه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٥٦)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. لقد أخذ الله تعالىٰ الميثاق علىٰ الرُّسل أنه إذا بُعث الرَّسول محمد ﷺ، أن يتَّبعوه، فإذا كان الرُّسل يجب عليهم اتِّباع نبيِّنا محمد ﷺ، فكيف بغيرهم؟!!

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون الآن: أن اليهود علىٰ دين، والنصارىٰ علىٰ دين، والمسلمين علىٰ دين، وأن كلًّا من اليهود والنصارىٰ إنما يقصدون الوصول إلىٰ الله ﷻ، وأنَّ كلًّا من هذين الفريقين تابعٌ لرسولٍ من الرُّسل!

كيف يستقيم هذا مع أنه بعد بعثه الرسول ﷺ لا أحدَ يُتبع إلا محمدًا ﷺ؛ قال ﷺ: «**والذي نَفْسُ محمدٍ بيَده، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلَّا كان من أصحاب النَّارِ**»(١). فبعدَ بعثة الرسول محمد ﷺ لا ينبغي لِدين أو مِلَّة أن تكون إلَّا ملَّة الإسلام، وتلك الشرائع السابقة، قد انتهت ولا يجوز العمل بها بعد بعثته ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فالكتاب الذي هو القرآن كافٍ، فلا ينبغي الذهاب إلىٰ التوراة والإنجيل أو إلىٰ الزَّبور، كما لا يجوز الالتفات إلىٰ غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ قد انتهىٰ العملُ بها، فالذي أنزلها هو -جلَّ وعلا-، وهو الذي أنهىٰ العملَ بها، وأحال علىٰ القرآن، فلم يبق بعد بعثة النبي ﷺ كتاب ولا دِين إلَّا القرآن والإسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فأمَّا الذي لا يؤمن بحُجَّة أن جميع الكتب السابقة صحيحة، وأنها كلُّها من عند الله، وأنَّ جميع الأديان باقية، ولم تُنسخ فهو كافر وليس بمؤمن، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه المقالة التي يُردِّدونها الآن بأنه لا يجوز التحجُّر، وأن اليهود علىٰ حقٍّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والنصارىٰ كذلك، وأنهم أصحاب دِين فلا مانع من التعاون والتآخي، ومن إقامة المؤتمرات والندوات لهذا الشأن؛ كلُّ هذا إنما هو من أجل أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، ولهذا ينبغي للمسلمين أن يتنبَّهوا لهذه المكيدة!

٨٣- وَعَنْ عَبْد الله بنُ ثَابت بن الحَارثِ الأَنْصَاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِكِتَابٍ، فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: هَذِهِ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تغَيُّرًا شَدِيدًا، لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، فَقَالَ عبدُ اللهِ بْنُ الْحَارِثِ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟! فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبالإِسْلام دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: لَوْ نَزَلَ مُوسَىٰ، فَاتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ». رَوَاهُ عَبْد الرَّزَاق، وابن سعد، وَالحَاكِم فِي «الكُنَىٰ»[(١)].

الشَّرح

هذا الحديث فيه: أنَّ رسول الله ﷺ استنكر علىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأىٰ معه شيئًا من الكتب السابقة، فظهر علىٰ وجهه ﷺ الاستنكار حتىٰ قيل لعمرَ؛ أنه أخطأ وأغضب رسولَ الله ﷺ.

فهذا فيه دليل أيضًا علىٰ أنه لا يجوز لنا العُدول عن القرآن إلىٰ الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ انتهت، والقرآن كافٍ وشاملٌ لِمَا فيها من الحقِّ، فلا يبقىٰ كتابان بأيدي المسلمين، وإنما هو كتاب واحد هو كتاب الله ﷻ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

---

(١) عبد الرزاق في «المصنف» (٦/ ١١٣) (١٠١٦٤).

باب: حقوق النبي ﷺ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

الشَّرْح

بعدما انتهىٰ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من بيان التوحيد الذي هو رأس الإيمان، وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وبيان أنَّ التوحيد هو حقُّ الله ﷻ علىٰ عباده، كما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي فيه قوله ﷺ له: «**هل تدري ما حقُّ الله علىٰ عباده، وما حقُّ العباد علىٰ الله؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّ حقَّ الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد علىٰ الله: ألَّا يعذِّب مَنْ لا يُشرك به شيئًا**». هذا هو حقُّ الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ العباد أن يعبدوه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا ... بهوى النُّفوسِ فذاك للشَّيطانِ
من غير إشراكٍ به شيئًا هما ... سَبَبا النَّجاةِ فحَبَّذا السَّببانِ
لم يَنْجُ من غضب الإله ونارِه ... إلا الذي قامتْ به السَّببان
والناسُ بعدُ فمُشركٌ بإلهه ... أو ذو ابتداعٍ أو له الوصفانِ

هذا حقُّ الله ﷻ: عبادتُه بالأمر؛ يعني: بالشَّرع لا بهوىٰ النُّفوس كالبِدَع والمُحدَثات؛ لأنها كلُّها للشيطان، وإن كان صاحبُها يظنُّ أنه يتقرَّب بها إلىٰ الله؛ ولكن الله -جلَّ وعلا- لا يرضىٰ إلّا بما شَرع؛ ولهذا قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا ... بهوى النُّفوسِ فذاك للشَّيطانِ

فلابدَّ من البراءة من الشِّرك، فلا تكفي عبادة الله وحدها؛ لأن المشركين يعبدون

الله؛ ولكنهم يعبدون معه غيره، فعبادتهم لله باطلة؛ لأنهم لم يتركوا الشّرك، فهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن غير إشراكٍ به شيئًا». وقوله: «هما» أي: الإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ، ثم ذكر أنَّ الناس بعد ذلك منقسمون، فمنهم المشرك ومنهم المُبتَدِع غير المشرك، ومنهم مَنْ جَمعَ الوصفين: الشرك والبدعة؛ ولهذا قال:

والنـــاسُ بعـــدُ فمُـــشركٌ بإلهـــه ... أو ذو ابتـــداعٍ أو له الوصـــفانِ

فلم يَنجُ من الناس إلَّا مَنْ جمع بين الإخلاص وبين المتابعة للرَّسول ﷺ، وأمَّا بقيّة الناس فلم يخرجوا عن بقية هذه الأقسام الثلاثة: إمَّا مشركون، وإمَّا مبتدعة، وإمَّا جامعون بين الوصفين: الشرك والابتداع في الدِّين، فينبغي التنبُّه لهذا، فهذا هو حقُّ الله ﷻ، وهو الحقُّ الأول.

والحقُّ الثاني: هو حقُّ الرَّسول ﷺ، لكنه بعد حقِّ الله -جلَّ وعلا-، فلا يُخلط حقُّ الرَّسول مع حقِّ الله تعالىٰ، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لله حـــقٌّ لا يكـــون لغـــيره ... ولعَبـــدِه حـــقٌّ همـــا حقّـــانِ

لا تجعلـــوا الحقَّـــين حقًّـــا واحـــدًا ... مـــن غـــير تميـــيز ولا فرقـــانِ

فالله -جلَّ وعلا- له حقٌّ علىٰ حِدَة، والرَّسول ﷺ له حقٌّ علىٰ حِدَة، فلا ينبغي خلطُ الحقَّين وجعلهما حقًّا واحدًا، فالرَّسول ﷺ ليس له من العبادة شيء، وعليه فيجب معرفة ما هو حقُّ الرَّسول ﷺ، من أجل عدم الخلط بين حقِّه ﷺ وبين حقِّ الله تعالىٰ الذي سبق ذكره فيما سلف، وأما الرَّسول ﷺ فله عدَّة حقوق ومن أهمها:

أولًا: الإيمان به ﷺ وبرسالته.

ثانيًا: محبَّته ﷺ أكثر من محبَّة النفس والمال والوالد والولد والناس أجمعين؛ لأنه هو الذي أنقذ الله به الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهو الذي هدىٰ الله به الخلق إلىٰ الإسلام، فتجب محبَّته أكثر من محبَّة المرءِ لنفسه وولده ووالديه كما سيأتي في الحديث.

ثالثًا: طاعته ﷺ فمَن آمن به وأحبَّه، فإنه لابدَّ وأن يُطيعه فيما أمر، وفيما نهىٰ عنه فيجتنبه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. فالطاعة والمتابعة له ﷺ من جملة حقوقه على الناس، وإلّا فما فائدة الإيمان به، ومحبَّته إذا لم يُطع ﷺ ويُتَّبع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فمهمَّة الرسول ﷺ هي البلاغ، وأمَّا الهداية فهي بيد الله تعالى؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فيجب معرفة أن الهداية، إنما هي بيد الله تعالىٰ، وليست بيد الرَّسول ﷺ الذي لا يملك إلَّا البلاغ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ: ٤٨].

وأما هداية القلوب، فهي بيد الله تعالى، وليست بيد الرسول ﷺ، نقول هذا؛ لأنَّ بعض الناس يَغْلُو في حقِّ الرسول ﷺ، ويجعله في مرتبة الألوهيَّة، وبينما البعض الآخر يَجفُو في حقِّ الرَّسول ﷺ فلا يُطيعه في كثير من الأمور، وإنما يتَّبع نفسَه وهواه، فما وافق هواه فيما جاء به الرَّسول ﷺ أخذه.

وما خالف هواه راوغ لأجل التخلُّص منه، وهذه طريقة أصحاب الأهواء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالرسول ﷺ ويُحبُّونه، ولكنهم لا يتركون البِدَع والمُحدثات التي نهىٰ عنها الرَّسول ﷺ متناسين، أو متجاهلين أن من حقِّه ﷺ عليهم اجتناب ما نهىٰ عنه، واتِّباع ما أمر به، ومتجاهلين قوله ﷺ: «**إيَّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة**»(١).

فالذين يُزاولون البدع قد نَقَصوا حقَّ الرَّسول ﷺ، وإن كانوا يزعمون أنهم يُحبُّونه، فالمحبَّة تقتضي الاتِّباع؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تَعــصي الإلهَ وأنــتَ تَــزعمُ حبَّــه وهــذا لعمــري في القيــاس شــنيعُ
لــو كان حبُّــكَ صــادقًا لأطعتَــه إنَّ المُحــبَّ لمَــن يُحــبُّ مطيــعُ

فالاتِّباع من علامة محبَّة الله ورسوله، والمحبَّة الصادقة، لا تكون مجرَّدة عن العمل الذي يعني: اتِّباع ما أَمَرا به ونَهَيا عنه!

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

ذكر الله في هذه الآية ثلاثة حقوق:

١- حقّ الله -جلَّ وعلا-.

٢- حقّ الرسول ﷺ.

٣- حق وُلاة أمور المسلمين.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سنَّته؛ وأما القرآن فهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ فطاعة ما جاء في القرآن طاعةٌ لله عَزَّوَجَلَّ والسُّنة هي كلام الرسول ﷺ، فطاعة ما جاءت به السُّنة الشريفة هي طاعة للرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، و«من» التي في ﴿مِنكُمۡ﴾ تبعيضية، فيجب طاعة وليّ الأمر المسلم؛ لأن معنىٰ: ﴿مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، وأمَّا إذا كفر أو ارتدَّ فإنه لا يُطاع؛ ولكنه ما دام مسلمًا، ولم يخرج من الإسلام، فتجب طاعتُه وإن عصىٰ وخالف، ما دامت مخالفته لم تصل إلىٰ حدِّ الكفر المخرَّج من المِلَّة فإنه تَجبُ طاعتُه، وإن جارَ وإن ظلم وإن فجر فجورًا دون الكفر؛ لِمَا في طاعتهم من المصلحة واجتماع الكلمة، وحَقْن الدِّماء والمصالح الكثيرة التي من بينها دَفْع الظَلَمةِ ونُصرة المظلومين.

إلَّا أن طاعة وُلاةِ الأمور مقيَّدة، وأمَّا طاعة الله تعالىٰ وطاعة الرسول ﷺ فهي طاعةٌ مطلقة؛ لأنَّ الله لا يأمر إلا بما هو حقٌّ؛ وكذلك الرسول ﷺ.

وأما وُلاة الأمور فإنهم قد يأمرون بمعصية فهم ليسوا بمعصومين؛ ولهذا قال

ﷺ: «**إنما الطاعةُ في المعروف**»(١).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق**»(٢)، فإذا أمر الوُلاة في معصية فلا طاعة لهم في هذا، ولكن ليس معنىٰ هذا أن تنعزل ولايتُهم، وإنما تبقىٰ؛ ولكن لا يُطاعوا فيما أمروا من المعاصي، وإنما يُطاعوا فيما لم يخالف كتابَ الله وسُنة رسوله ﷺ؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾.

قال المفسِّرون: المراد بهم: الأمراءُ. **وقال آخرون**: المراد بهم: العلماء.

والصواب: أن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾. يشمل الأمراء، والعلماء، فهؤلاء بسلطتهم، وهؤلاء بعلمهم، فالعلماء من وُلاة الأمور؛ لأنهم يتكلمون عن الله تعالىٰ، وعن رسوله ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فهو سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: صلُّوا؛ لأنه ليس المقصود صورة الصَّلاة، وإنما المقصود إقامة الصَّلاة؛ أي: أن تكون الصلاة قائمة، بمعنىٰ: أنها صلاة موافقة للشرع تؤَدَّىٰ في وقتها مع جماعة المسلمين، وبطهارة وخشوع كاملين وحضور بين يَدَي الله ﷻ، هذا المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إقامتها علىٰ الوجه المشروع من إكمال شروطها وأركانها وواجباتها ومتمَّماتها من السُّنن والمستحبَّات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزكاة قرينة الصَّلاة في كثير من الآيات، فالصَّلاة حقٌّ لله، والزَّكاة حقٌّ للفقراء والمساكين، قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. فهي حقٌّ للمساكين والفقراء والمصارف التي بيّنها الله ﷻ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وهذا الأمر الثالث، جاء بعد الأمر بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ وطاعته ﷺ تكون فيما أمر به، وفيما نهىٰ عنه، فلا يكفي أن يُقيمَ المسلم الصَّلاةَ وأن يؤتي الزَّكاة؛ بل لابدَّ له من طاعة الرَّسول ﷺ فيما أمر فيُفعل، وفيما نهىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٥) من حديث علي رضي الله عنه.

عنه فيُجتَنب، ثم قال ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الالتزام بهذه الأوامر الثلاثة يسبِّب الرحمة من الله تعالىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. هذا فيه ذِكْر حقِّ الله تعالىٰ، وقوله: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ فيه ذكر حقِّ الخَلْق من الفقراء والمساكين من المسلمين، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيه ذِكْر حقِّ الرسول ﷺ، وهو الشاهد في هذه الآية.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. فالمراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: من الأوامر، ومن الأموال أيضًا؛ لأن سبب نزول الآية كان في الفَيء، فما آتاكم الرسول ﷺ من المال فخذوه، وقوله: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. عن المعاصي والمخالفات.

فسبب نزول الآية في الفيء؛ ولكن لفظها عامّ، والعِبْرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب؛ هكذا الأصل عند العلماء، أي: فما آتاكم الرَّسول ﷺ من الأموال ومن الأوامر فاقبلوه، وما نهاكم عنه من المخالفات فيجب عليكم اجتنابه.

وفي هذه الآية إثبات العمل بالسُّنة النبوية، وفيها ردٌّ علىٰ القائلين بأنه لا ينبغي الأخذ إلا بالقرآن الكريم، والله -جلَّ وعلا- ردَّ عليهم بهذه الآية، بقوله: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ والسُّنة مما آتانا الرسول ﷺ.

فهذه الآية تعتبر أصلًا لكلِّ ما جاءت به السُّنة مما لم يرد له ذِكْرٌ في القرآن الكريم، وعلىٰ هذا الدَّرب والطريق الواضح مَنْ جاء بعد الصحابة من أئمَّة العلم والدين.

[الحثُّ على قتال المشركين حتى يكون الدِّين كلُّه لله]

٨٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ مُسْلِم[١].

الشَّرْح

قوله ﷺ: «أُمِرْتُ»: الذي أمره ﷺ هو الله -جلَّ وعلا-: «أن أُقاتل الناسَ حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله». هذا فيه وجوب قتال المشركين حتىٰ يكون الدِّين كلُّه لله، ولا يبقىٰ شِرْك، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فقتال المشركين إنما هو لأجل شِرْكهم وإزالته؛ لأن الخَلْق خُلقوا لعبادة الله -جلَّ وعلا-، فإذا عبدوا غيرَه وجب قتالهم بأمر الله -جلَّ وعلا-، فهو سبحانه لم يخلقهم ليعبدوا غيره؛ بل خلقهم ليعبدوه، فإذا خالفوا وعبدوا غيرَه فإنهم يُقاتَلون، ولا ينبغي تركُهم ينشرون الشِّرك في الأرض ويجبرون الناس عليه.

وفي الحديث ردٌّ على القائلين: إن الإسلام دينُ مسالَمةٍ وسلام وتسامح، وليس دينَ قتالٍ إلَّا في حَقِّ مَنِ اعتدىٰ علىٰ المسلمين، فإنه يُقاتَل مِنْ باب الدِّفاع! هذا كلام باطل؛ بل يجب قتالُ المشركين؛ لأجل شِرْكهم وإزالتِه، وقَمْعِ المشركين، حتىٰ يكون الدِّين كلُّه لله، إذا كان عند المسلمين قوَّة واستطاعة، فلا ينبغي لهم أن يتركوا الجهاد؛ لأنه واجبٌ وفرض من فروض الإسلام.

وأما الدفاع، فكلُّ الخَلْق يدافعون عن أنفسهم، حتىٰ البهائم تدافع عن نفسها،

---

(١) برقم (٢١).

فكلُّ مَنِ اعتُدي عليه، يُدافع عن نفسه، فهذا لا يحتاج إلىٰ أمر من الخالق -جلَّ وعلا؛ لأنه أمرٌ فطريٌّ وغير خاصٍّ بالمسلمين، ولا بغيرهم،، فلا يحتاج إلىٰ نزول آية، أو أمرٍ إلىٰ الرسول ﷺ، وإلىٰ المؤمنين.

ولكن الكلام هنا في هذا الحديث، إنما هو عن جهاد الكفار؛ لنشر الإسلام، وإزالةَ الشِّرك، وهذا من أعظم فرائض الإسلام، وقد جعله النبيُّ ﷺ ذِرْوَة سَنَام الإسلام[١]، فلا ينبغي الالتفات إلىٰ مقالة مَن يُهَوِّنون أمر الجهاد؛ لإرضاء الكفار بالقول لهم: إنما نحن إخوة في الإنسانية، ودينُنا دينُ مسالَمةٍ مع غير المسلمين، وليس في ديننا أن نُقاتلَ مَنْ هم علىٰ غَير ملَّتنا، ونحو ذلك من المقالات التي لم يأمرهم الله بها، فكلُّ هذا الكلام وشِبهُه من باب تعطيل الجهاد الذي أمر الله به نبيَّه ﷺ والمسلمين، وهو جَحْدٌ لرُكنٍ من أركان الإسلام؛ لأن بعض العلماء عَدَّ الجهاد ركنًا من أركان الإسلام، فجعله الرُّكن السادس من أركان الإسلام.

وقوله ﷺ: «**حتىٰ يشهدوا، أن لا إله إلا الله**»: لم يقل ﷺ حتىٰ يَكُفُّوا أذاهم؛ ليصبح الأمر مجرَّد دفاع عن النفس، وإنما قال ﷺ: «**حتىٰ يشهدوا، أن لا إله إلَّا الله**». فالغاية التي ينتهي عندها قتال الناس هي عند شهادتهم أن لا إله إلا الله.

وقوله ﷺ: «**ويؤمنوا بي**». يعني: يشهدوا أنَّ محمدًا رسولُ الله، فإذا أتوا بالشهادتين وَجَب الكفُّ عنهم؛ حتىٰ يتبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، فإذا تبيَّن فإنهم يُعتبرون مرتدِّين، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، كفَفْنَا عنهم، ووَكَلْنا سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ.

ولهذا لما لحق أسامة بن زيد مشركًا بالسيف، وأدركه وأراد قَتْلَه شهد الرجل، بأن: لا إله إلا الله، فقتله أُسامةُ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ، أنكر علىٰ أسامة إنكارًا

---

(١) انظر في هذا ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شديدًا، وقال: «**أقَتَلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!**». فقال أسامةُ: إنما قالها خوفًا من السِّلاح. فقال ﷺ: «**أفلا شققتَ عن قلبه، حتىٰ تعلمَ أقالَها أم لا؟!**»[١].

وفي رواية، قال له ﷺ: «**فكيف تصنعُ بلا إله إلا الله، إذا جاءتْ يومَ القيامة؟**»[٢].

وقوله ﷺ: «**إذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقِّها**». فقوله: «**إلا بحقها**». يعني: إلَّا إذا تبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، كأنْ يجحدوا الزَّكاة، أو يُنكروا وجوبَ الصلاة، ولهذا لما امتنع طوائف من العرب عن دفع الزَّكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلَهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: «والله، لأقاتلن مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال». قال رضي الله عنه ذلك بعدما قال له عمر رضي الله عنه: «كيف تُقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتلِ الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلَّا الله، فمَنْ قالها عصم مني ماله ونفسَه إلَّا بحقِّه وحسابُه علىٰ الله؟**». فقال رضي الله عنه: إن الزَّكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدُّونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ مَنْعِها. فقال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه، فعرفت أنه الحقُّ»[٣].

فكان في ذلك الخيرُ والمصلحةُ للإسلام والمسلمين؛ لأنه رضي الله عنه لو تركهم علىٰ ما هم عليه لحصل في الإسلام نقصٌ كبير، ولتركت كل طائفة من الناس ركنًا من أركان الإسلام، فالحَزْم كان شِيمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في هذا الأمر الخطير، مستدلًّا بهذه الكلمة النبوية العظيمة: «**إلا بحقِّها**». أي: حق لا إله إلا الله، والصلاة من حقِّ لا إله إلا الله، وكذا الزكاة والصيام والحج. فليست «لا إله إلا الله» مجرَّد لفظ.

والتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة هو صميم لا إله إلا الله، فمَن كان يقولها وهو يشرك بالله فإنها لا تنفعه، ولا يُعصم دمُه ولا مالُه؛ بل يُقاتل ولو كان يقولها؛ لأن هذا من التناقض، فكيف يقولها ويدعو غير الله، كأن يقول مثلًا: يا علي، يا حسين، يا

---

(١) انظر: البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجها مسلم (٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٤ و ٦٩٢٥)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بدوي، فكلُّ هذا ونحوه من الشِّرك؛ لأنه قال: (لا إله إلا الله) ولم يعمل بمقتضاها، فيجب التفقُّه في مثل هذه الأمور والتنبُّه لها، فكل هذه الأمور ونحوها إنما هي من الشُّبهات التي يُوردها أهلُ الضلال، ولا بُدَّ من الرَّدِّ عليها بكلام الرسول ﷺ.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: «**ويؤمنوا بي، وبما جئت به**». فهذا هو حقُّ الرسول ﷺ، وهو الإيمان به، وبما جاء به وتصديقه.

[ذكر الخِصال التي فيها حلاوة الإيمان]

٨٥- وَلَهُمَا[(١)]، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

الشَّرح

في هذا الحديث ذكرت ثلاثُ خِصَال؛ مَنْ كانت فيه هذه الثلاث وَجد بهن حلاوة الإيمان، كما أخبر ﷺ، ويُفهم من هذا: أنَّ الإيمان له طعم وموصوف بالحلاوة، فقد يكون المرء مسلمًا؛ ولكنه لا يجد طعم حلاوة الإيمان، ولا توجد حلاوة الإيمان إلا لمَنْ تلذَّذ بالعبادات وأحبَّها، وكَرِه المعاصي وأبغضها، كما يكره أن يُقذف في النار.

فمَنْ كانت فيه هذه الصفات؛ وجد طعم حلاوة الإيمان، وقد بيَّنها ووضَّحها ﷺ، فقال: **«أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهما»**. يعني: مِنَ النفس، ومن الوالد والولد والأقارب والناس أجمعين، فلا يقدِّم علىٰ محبَّة الله -جلَّ وعلا-، ومحبَّة رسوله ﷺ شيئًا أبدًا، وإذا تعارض شيءٌ مع محبَّة الله تعالىٰ، ومحبَّة الرَّسولُ ﷺ فإنه يترك ويتخلّىٰ عن هذا الشيء، فيترك الوطنَ والمال والولد والوالد، أو أيَّ شيء آخر من أجل محبَّة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]. فتقديم ما يحبُّه الله ورسوله علىٰ ما تُحبُّه النفس إنما هو علامة محبَّة الله ورسوله، وأمَّا إن كان العكس وذلك بتقديم ما تحبُّه النفس علىٰ ما يحبُّه الله

---

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

ورسوله كان ذلك علامة من علامات الفِسْق.

وفي الحديث: بيان أنه ينبغي أن تكون محبَّة الله تعالىٰ أولًا وقبل كل شيء، وبعدها محبَّة الرسول ﷺ؛ لأن كثيرًا من المبتدعة لا يلهجون إلا بمحبة الرسول ﷺ؛ ولا يذكرون محبَّة الله تعالىٰ، ولا تأتي لهم علىٰ لسان، مع أنَّ الأصل في هذا هو محبَّة الله تعالىٰ، وفي الدرجة الثانية محبَّة الرسول ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**». فقدَّم الله تعالىٰ أولًا، ثم ذكر نفسه ﷺ.

وقوله ﷺ: «**وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله**»: أي: بعد أن يكون الله تعالىٰ ورسوله ﷺ أحبَّ إليه من كل شيء، ينبغي للمرءِ المسلم أن يُحبَّ ما يحبُّه الله تعالىٰ من الأشخاص، وأن يترك ما يَكرهه الله تعالىٰ من الأشخاص، فيُحبُّ ما يُحبُّه ويُبغض ما يبغضه الله تعالىٰ؛ لأن هذا من علامة صدق محبَّة الله تعالىٰ ومحبَّة رسوله ﷺ.

وقوله ﷺ: «**وأن يَكره أن يعود في الكفر...**» إلخ؛ لأنَّ الله يكره الكفرَ والشِّركَ والمعاصي، فلا يجد المرء طَعْم الإيمان، إلا بعد أن يبغض هذه الأشياء، ولا يكفي منه أن يتجنَّبها فقط؛ بل لابدَّ أن يبغضها بقلبه؛ لأن بُغْضَ هذه الأشياء لا يكون إلَّا عند مَنْ وَجد حلاوة الإيمان.

والشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**». وهذا فيه محبَّة الرسول ﷺ، وأنها تأتي بعد محبة الله تعالىٰ مباشرة، وأنها مقدَّمة علىٰ كلِّ شيء.

٨٦- وَلَهُمَا[١]، عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ: وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

الشَّرْح

وهذا فيه: أنَّ الإيمان لا يتحقَّق إلا إذا كان الرسول ﷺ أحبَّ إلىٰ المرء المسلم من ولدِه، وأحبَّ إليه من والدِه ومِن جميع الناس، فإذا كان المرءُ كذلك فإنه يكون قد قدَّم علامةً علىٰ صدق محبّته للرسول ﷺ أكثرَ من محبَّته لوَلِده ووالدِه والناس أجمعين، هذه هي العلامة، ومنها تقديم ما أمر الله به الرَّسول ﷺ وما نهىٰ عنه علىٰ ما يُمكن أن يأمر به الوالد والولد، أو ما يمكن أن يأمر به الناس، فيترك جميع ما يمكن أن يأمروا به، ويأخذ ما نهىٰ عنه الرسول ﷺ، هذه علامة محبَّة الرسول ﷺ، كما يُفهم ذلك من الحديث.

---

[١] البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)

[الردُّ على مَنِ اكتفى بالقرآن دون السُّنة]

٨٧- وَعَنِ المقْدَام بن معدِي كرِبَ الكِنْدِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ؛ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ! أَلا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ». رَوَاهُ التِّرمِذيُّ، وابن ماجه[1].

الشَّرْح

وهذا الحديث من معجزاته ﷺ؛ حيث أخبر عن شيء سيحصل، وحصل كما أخبر به ﷺ، أنه يأتي أناسٌ مُتْرَفون علىٰ أرائكهم، لا يَجِدُّون في طلب العلم، وإذا ذُكر لهم حديثٌ عن الرَّسول ﷺ أخبر بأنه لا يعمل إلا بما في القرآن الكريم، فما كان فيه من حلال أو حرام أخذ به.

وأما أحاديث الرَّسول ﷺ، فهي محلُّ شكٍّ عندهم من حيث أسانيدِها ورُواتها ومتونها، فهؤلاء لا يقبلون إلا ما جاء في القرآن الكريم، بحجَّة أنه متواتر، وأما السُّنة فأكثرها آحاد، وليست متواترة فيتركونها!! فهؤلاء ونحوهم يُسمّون بالقرآنيّين الذين يدَّعون العمل بالقرآن فقط، وهي فِرْقة معروفة في الهند وفي غيرها، ومثلهم الخوارج الذين يُنكرون السُّنة، ويدَّعون بأنهم لا يعملون إلا بما جاء في القرآن الكريم؛ لأنهم جهَّال بالسُّنة، ولهذا يُشكِّكون في أسانيد الأحاديث المتضمنة للسنة، فيطعنون في رُواتها وحفاظها.

ومِنْ هؤلاء مَنْ لا يُنكر جميعَ السُّنة وإنما يُنكر الآحاد من الأحاديث، ولا يقبل إلا المتواتر منها، بحجَّة أن الأحاديث الآحاد ظَنِّية، والمتواتر هو الذي يفيد العلم، والآحاد عندهم يُعمل به في مسائل الفقه، وأما في العقائد فلا يعملون بخبر الآحاد؛

---

(١) الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢).

بحجة إفادته للظنِّ، والعقائد لا تُبنىٰ -بزعمهم- إلَّا علىٰ العلم، هكذا يقولون!! وهذا ما عليه المعتزلة، وما يسمّىٰ في زماننا بالعقلانيين؛ ولذلك فهم يُنكرون صفات الله، وأشياء كثيرة في العقيدة بحُجَّة أنها ما جاءت إلا برواية الآحاد!!

ونحن نقول: إن ما صح عن الرسول ﷺ سواء كان متواترًا، أو آحادًا فهو يفيد العلم واليقين ويجب العمل به، والرَّسول ﷺ لم يكن يرُسل جماعات إلىٰ الأقطار، وإنما كان يرسل أفرادًا ويعمل وُلاته ﷺ وأمراؤه بخبر الرسول الذي أرسله الرسولُ مع واحد ﷺ، فيُبلِّغ عنه ﷺ، ولم يكن يرفض أمراؤه هذا بحُجَّة أنه ﷺ لم يُرسل إليهم جماعة ليشهدوا أن الرسول ﷺ قال ما جاء رُسُله وهم فُرادىٰ.

والصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانوا يصلون العَصْر إلىٰ بيت المقدس، لبقائهم علىٰ الأصل ولمَّا نُسخت القِبْلة وحوِّلت، صلىٰ الرسولُ ﷺ العصرَ في مسجده إلىٰ الكعبة، فخرج رجلٌ واحد من عنده ﷺ وأتىٰ إلىٰ أُناسٍ يصلُّون إلىٰ بيتِ المقدس صلاة العصر، فقال: إنَّ القِبْلة قد حُوِّلت إلىٰ الكعبة؛ فاستداروا أمامهم نحو الكعبة(١)؛ فلم يقولوا: هذا خبرُ آحاد فلا نعمل به، ولذلك فإنه ما دام الخبر صحيحًا فلا مجال للتشكيك فيه، وإن كان خبرَ آحادٍ.

ثم إن القرآن الكريم يتضمن مُجملات لا يُفصِّلها إلا السُّنة النبوية، فنرىٰ أن القرآن الكريم قد أمر بالصلاة في كثير من الآيات؛ ولكنه لم يذكر منها عدد ركعاتِ أيِّ صلاة منها، في حين نجد هذا مذكورًا ومفصَّلًا في السُّنة النبوية، فسُنَّته ﷺ مُبيِّنة لِمَا جاء مجملًا في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. فالسُّنة النبوية الشريفة مبيِّنة للقرآن، ومُقيِّدة لمُطلَقِه، وهي دليل عليه ومفسِّرة له.

ومن ذلك أنَّ الله تعالىٰ ذكر في كتابه فَرضيَّة الزكاة؛ ولكننا لا نجد في القرآن الكريم -علىٰ كثرة الآيات التي تناولت هذه الفريضة- الأموال التي تجب فيها هذه الزكاة،

---

(١) انظر البخاري (٤٠ و٣٩٩)، ومسلم (٥٢٥) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فلم يُذكر في القرآن زكاة الإبل، والبقر، والغنم، أو زكاة الخارج من الأرض، ولا زكاة عروض التجارة.

فلا نجد في القرآن إلَّا الأمر بإيتاء الزكاة، ولا نجد فيه ذِكْر النِّصاب، لا نصاب الإبل والبقر ولا الذَّهب ولا الفضة، ولا غير ذلك مما نراه مبيَّنًا ومفصلًا في السُّنة النبوية الشريفة، ففي قوله تعالىٰ مثلًا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. لم يُذكر في الآية أيَّ اليد تُقطع؛ ولكن جاءت السُّنَّة الشَّريفة؛ فبيَّنت أنَّ اليد اليمنىٰ هي التي تُقطع؛ وبيَّنت كذلك حدَّ اليد التي تقطع، فبيَّنت أن الذي يُقطع من اليد هو من بداية مفصل الكَفِّ، ويُترك الذراع والعَضُد.

فلو اقتصرنا علىٰ ما جاء في القرآن؛ لبقيت الأحكام معطَّلة؛ لأنه لا يوجد ما يُفسِّرها، ولا ما يُوضِّحها ويُبيِّنها، كما هو موجود في السنة النبوية، سواء كانت متواترة أو آحادًا؛ إذ المتواتر من الأحاديث قليل قياسًا لمجموع السُّنة النبوية الشريفة التي أغلبها من الأحاديث الآحاد، فلو تركنا الآحاد لَما بَقي شيء يُذكر منها.

ولكن هؤلاء حالُهم كما جاء في الحديث جهلة خاملون، لا يطلبون العلم من مظانِّه، ولا يتكلف أحدهم دراسة الأسانيد، وإنما هو متكئ علىٰ أريكته كما وصفه رسول الله ﷺ، وهذا كلُّه نتيجة البقاء علىٰ الجهل، وعدم السَّعي للتعلُّم.

وفي هذا خطر عظيم يُخشىٰ علىٰ الأُمَّة منه، ومن هذه المقالات الفاسدة، والعلم لا يؤخذ من كل مَنِ ادَّعاه وإنما يؤخذ من العلماء الراسخين المعروفين الذين تلقَّوه عمَّن قبلهم، وإلَّا سنقع فيما أخبر عنه الرَّسول ﷺ.

ففي الحديث الدَّعوة إلىٰ وجوب العمل بالسُّنة والتَّصديق بها، وأنَّ هذا من حقِّ الرسول ﷺ علينا، وعدم الاكتفاء بما جاء في كتاب الله تعالىٰ الذي يدعو أصلًا إلىٰ أخذ ما جاء به الرسول ﷺ، وإلا فما معنىٰ، قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. أو ليس في القرآن، قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؟ أو ليس في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ

أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

والسنة النبوية وحيٌ من الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]. ولهذا فإنَّ العلماء يُسمُّونها الوحي الثاني، والقرآن هو الوحيُ الأول.

باب تحريضه ﷺ على لزوم السُّنة

والتَّرْغِيب فِي ذَلِكَ، وَتَرْكُ البِدَعِ، والتَّفَرُّق وَالاخْتِلاف، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

الشرح

قوله: «باب تحريضه ﷺ على لزوم السُّنة»: التحريض، معناه: الحثُّ على «لزوم السُّنة» أي: التمسُّك بطريقة النبي ﷺ، فالسُّنة يُراد بها: الطريقة؛ أي: طريقة النبي ﷺ، ويُراد بها: ما ثبت عنه ﷺ من: أقوال، وأفعال، وتقريرات.

فمعنى «لزوم السُّنة»، أي: التمسك بها؛ لأنها من ضمان النجاة يوم القيامة، فمَنْ ترك السنة هلك، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أي: قدوة حسنة، وقال ﷺ: «عليكم بسُنتي، وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهدِّيين»[١]، وقال أيضًا ﷺ: «إنِّي تاركٌ فيكم، ما إن تَمسَّكتم به، لن تضلُّوا بعدي، كتاب الله وسُنَّتي»[٢]. والمراد بكتاب الله: القرآن، والمراد بالسُّنة: ما كان عليه ﷺ من الطريقة، والأقوال، والأفعال والتقريرات الواردة عنه ﷺ؛ لأن السُّنة تُفسِّر القرآن، وتوضِّحه، وتدلُّ عليه، وهي الوحي الثاني، هي الحِكْمة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٤٢)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ و٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٤٥)(١٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﵟٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَﵞ [الجمعة: ٢].

فلا نجاةَ إلا بالتمسُّك بسُنة الرسول ﷺ، ولا شكَّ أن أصل سُنة الرسول هو التمسك بالقرآن الكريم؛ فقوله: «والسنة» أي: القرآن؛ لأن القرآن الكريم هو الأصل، فلا نجاة إلا بالتمسُّك بالسنة في كل وقت، وفي كل زمان.

فمَن حاد عن السنة، وأخذ بغيرها هلك، ومَنْ أخذ بها وسار عليها نجا، سواء كانت السنة في العقيدة، أو في العبادات، أو في المعاملات، أو في الآداب والأخلاق، فالسُّنة عامة وأوْلىٰ ذلك في العقيدة التي دعا إليها الرسول ﷺ، فقد كان أول ما دعا إليه النبيُّ ﷺ كغيره من الأنبياء هو التوحيد، وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك ما يأتي العمل فيما دعوا إليه -عليهم الصلاة والسلام-.

وقوله: «وتَرْك البدعِ»: فقد نهىٰ ﷺ عن المُحدَثات، والبدع؛ لأنها مخالفة للسُّنة النبوية الشريفة.

والبِدع -جمع بدعة-، وهي: كلُّ ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه. ويشمل البدعة في الاعتقاد، والبدعةَ في العبادة، وفي الأعمال.

قال ﷺ: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(١). وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعةٌ**»(٢).

فالواجبُ: أن تُعرض أقوالُ الناس، والعلماء وأفعالهم وعباداتهم واجتهاداتهم علىٰ سُنَّة الرسول ﷺ، فما وافق السُّنة، فإنه يُؤخذ به، وما خالفها فإنه يُترك ولا يعمل به، وإن استحسنه مَنِ استحسنه، واعتبره زيادة خير أو عبادةً، الحقيقة أن ما خالف السُّنة إنما هو شرّ وليس بخير؛ لأنه يُبعد عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقول الله تعالىٰ: ﵟلَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض ابن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. في هذه دليلٌ علىٰ وجوب التزام السُّنة النبوية، والاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

والأسوة: هي القدوة؛ والتأسِّي، معناه: الاقتداء، فالقدوة هو الرسول ﷺ، ومَنْ عداه فإنما يُقتدىٰ به، إذا وافق سُنَّته ﷺ، وأمَّا مَنْ خالفها فهو ليس قدوة؛ بل هو قدوة سيِّئة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. لقد ساق المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؛ لأنه جاء في ترجمة الباب النهي عن التفرُّق والاختلاف؛ والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾. والدِّين واحد وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وما خالفه فليس بدين، وإن زعم أصحابه أنه من الدِّين، والتفرُّق يُحدث الشِّقاق والبغضاء، وكثرةَ الأهواء، وقد يُحدثُ القتال وسفك الدماء، وقد يُخِلُّ بالأمن، فلا بُدَّ من الاتِّفاق علىٰ ما جاء به الرَّسول ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فقد ذكر الله تعالىٰ عن أهل الكتاب أنهم لما تفرَّقوا هلكوا، فالتفرُّق لا خير فيه.

ومن المعلوم أن الناس يختلفون في الاجتهاد والآراء والفِقْه؛ ولكن الواجب عَرْض أقوالهم واجتهاداتهم وآرائهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ؛ ليجمع المتفرِّقون؛ قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلىٰ كتاب الله، و﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ في حياته -عليه الصلاة والسلام- يُردُّ إليه، وبعد موته إلىٰ سُنته ﷺ؛ فالخلاف يُحسم، والنزاع يُنهىٰ وذلك بالرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ.

وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يختلفون في بعض الأمور، ولكنهم كانوا

يردُّون خلافهم إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ثم يتفقون، وهكذا كان مَنْ بَعدهم من أهل الإيمان والصِّدق، فقد كانوا إذا اختلفوا ردُّوا خلافهم إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ، فلم يكن أحدهم يتعصَّب لرأيه؛ لأن هذا لم يكن من شأنهم -رحمهم الله تعالىٰ-.

وقوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أي: شرع الله لكم ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو أول الرُّسل ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ هؤلاء خمسة رسل، وهم أُولو العزم الوارد ذِكْرهم في آية أخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل علىٰ القول المشهور ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾.

ودين الرُّسل واحد؛ لكن ذكر هؤلاء الرسل؛ لأنهم أولو العزم، وإلَّا فدينُ الرسل والأنبياء جميعهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم بحسب المصلحة، والحِكْمة التي يعلمها الله تعالىٰ؛ ولكن عبادة الله هي عبادته في كل وقت بما شرع، فإذا نُسخ فالعمل علىٰ الناسخ، ويُترك المنسوخ، والله -جلَّ وعلا- يشرع لكل أُمَّة ما يُناسبها، ثم ينسخه بشريعة أخرىٰ تناسب الجيل الذي بعده.

وهكذا إلىٰ أن جاء محمد ﷺ فنسخ الله به الشرائع السابقة، وبقي دين الإسلام الذي جاء به -عليه الصلاة والسلام-، هذا في الفروع.

وأما في الأصول فلا يقع فيها نسخٌ؛ فالتوحيد ليس فيه نسخ، وإنما النسخ يكون في الأحكام العملية كالبيع والشراء والأنكحة، ونحو ذلك مما يجري فيه التغيير حسب حِكْمة الله -جلَّ وعلا-، بخلاف أصول الدِّين والعقيدة فلا نسخ في ذلك.

والشاهد في الآية، قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. أي: أقيموا الدِّين علىٰ ما جاء من غير اختلاف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

٨٨- وَعَنِ العِرْبَاض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَا تَعْهَدُهُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاود، وَالتِّرمِذِيّ وَصحَّحَه، وابن مَاجَه(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ(٢): «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا»، ثُمَّ ذَكَرَهُ بِمَعْنَاه.

الشَّرْح

هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه أن الرسول ﷺ وعظ أصحابه، وهذا من سُنَّته ﷺ أنه كان يَتخوَّلهم بالموعظة أحيانًا، فيؤخذ من هذا مشروعية الموعظة، وأنَّ العالِم أو الواعظ أو إمام المسجد ينبغي له ألَّا يَغفُل عن جماعته من المسلمين؛ بل يعظمهم أحيانًا، ولا يُطيل عليهم ويتركهم دون أن يُذكِّرهم بما فيه خيرُهم في الدُّنيا والآخرة.

وقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعظ أصحابَه، فطلبوا منه أن يداوم علىٰ الموعظة، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا(٣).

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ وعظ أصحابه في يوم من الأيام، وجاء في بعض الأحاديث أنَّ ذلك كان بعد صلاة الفجر(٤).

وقوله: «**موعظة بليغة ذرفت منها العيون**»: وذلك أنه ﷺ أُعطيَ جوامعَ الكَلِمِ،

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).

(٢) ابن ماجه برقم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١)

(٤) انظر: مسند أحمد (١٧١٤٥) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وفَصْلَ الخطاب، وكان ﷺ يختار الألفاظ المؤثِّرة في موعظته دون أن يستطرد بما لا فائدة فيه، وقوله: «**وَجِلَتْ منها القلوب**». يعني: بلغ تأثيرها إلىٰ القلوب والأفهام.

وقوله: «**فقال رجل: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع**». يعني: كان قد فَهِم هذا الرجل أن هذه الموعظة في آخر حياته ﷺ، فسأل رسولَ الله ﷺ بما فَهِم.

وقوله: «**فما تعهد إلينا**». يعني: أوصنا؛ لأنه من عادة العالِم أو وليِّ الأمر، أو الوالد أنه يُوصي عند نهاية حياته مَنْ خَلْفَه.

وقوله ﷺ: «**أُوصيكم بتقوىٰ الله**»: وتقوىٰ الله: هي فِعْل أوامره وترْك نواهيه، وسُمِّيت تقوىٰ؛ لأنها تقي من عذاب الله، والتقوىٰ كلمة عظيمة، رتَّب الله -جلَّ وعلا- عليها خيرات كثيرة، ومعناها: العمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، لرجاء ثواب الله، وترْك معصية الله، علىٰ نورٍ من الله؛ مخافة من عقاب الله، فقوله ﷺ: «**أوصيكم بتقوىٰ الله**» أي: فعل أوامره وتَرْك نواهيه؛ رجاءً وخوفًا.

وقوله ﷺ: «**والسَّمع والطاعة**» لوليِّ الأمر؛ لأنه بها يحصل اجتماع الكلمة، وتنتظم بها المصالح، وهي سببٌ للاتفاق، ومَنْجاةٌ من الاختلاف، فلا يحصل الاجتماع والاتفاق إلا بوليِّ أمر يَسُوس الناس، ويُنفِّذ فيهم أوامر الله ﷻ، ويدفع عنهم الأذىٰ والعدوَّ، ويُقيم الحدودَ، ويمنع الظالم، ويردُّ الحقوق إلىٰ أصحابها، ولا يكون كلُّ هذا إلا بوجود وليِّ الأمر، ولا يكون وليُّ الأمر إلا بالسمع والطاعة؛ ولهذا قال -**جلَّ** وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «**وإن كان عبدًا حبشيًّا**»: أي: لا تحتقروا وليَّ الأمر، ولا تُهوِّنوا من شأنه، ولا تَسبُّوه عند الناس إن كان ممن نَسَبُه وضيعٌ عندكم، فلا يُنظر إلىٰ نَسَبه وإنما يكون النَّظر في هذا إلىٰ المنصب، فالإنسان سواء كان حرًّا أو عبدًا فإنه إذا ما تولَّىٰ أمر المسلمين فإنه يُنظر إلىٰ منصبه فتَجِبُ طاعتُه، وتحرُم مخالفته.

وقوله ﷺ: «**فإنه مَنْ يَعِشْ منكم**»: أي: مَنْ ستطول به الحياة، وهذا خبرٌ منه ﷺ «**فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**» وهذا أيضًا خبرٌ من باب التحذير، بأنه سيكون في ذلك الزمان

اختلاف واسع عمَّا عليه الوضع الآن، وإذا ما حصل هذا الاختلاف فلا عاصم منه، ولا شيء يمكن أن يُنجي منه سوىٰ العودة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسُنة نبيِّه ﷺ والتمسُّك بهما؛ ولهذا قال ﷺ: «**فعليكم بسُنَّتي**» فهي سبيل النجاة «**وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي**». وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديُّون، وعملهم حُجَّة وسُنَّة تُتَّبع؛ ولهذا قال ﷺ: «**فعليكم**» وهي كلمةُ حَثٍّ، معناها: الزَموا سُنَّتي كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]. أي: الزموا أنفُسَكم.

وقوله ﷺ: «**تَمسَّكوا بها**»: زيادة تأكيد لقوله: «**فعليكم**». وزاد تأكيدًا ﷺ وقال: «**عضُّوا عليها بالنواجذ**». والنواجذ: الأضراس، وهذا مثال للذي وقع في مصيبة أو مهلكة، أو كالغريق المُمْسك بالحَبْل الذي هو سبيل نجاته حال خوفه أن يفقد هذا الحَبْل، فإنه يَعَضُّ عليه بأسنانه وأضراسه، إذ لو أفلت منه هذا الحبل لهلك، فلا نجاة له بعد الله إلا هذا الحبل، فهو من شدة خوفه، وحرصه عليه، فإنه يعضُّ عليه بأضراسه ولم يكتف بأن يمسكه بيديه خوفًا من أن ينفلت منه؛ فقد شبَّه ﷺ الذي يقع في الفتن وحاجته للتمسُّك بالسُّنة كحاجة الغريق؛ لأن يتمسَّك بالحبل وإلا فإنه لن ينجو؛ وهذا تشبيه بليغ منه ﷺ.

ثم قال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور**»: في هذا تحذير منه ﷺ من إحداث البدع، والبدعة: ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه، وأمَّا ما أُحدث في أمور الدُّنيا من الصناعات والمخترعات فلا بأس به، ولا يُعدُّ من البدع، وإنما الكلام علىٰ ما أحدث في الدِّين مما ليس منه.

قوله: «**فإنَّ كل محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة**»: في هذا ردٌّ علىٰ القائلين بأنَّ هناك بدعة حسنة ومحدثات طيبة؛ لأنه ليس هناك بدعة حسنة، وإنما كلَّ البدع والمحدثات شرٌّ؛ لأن الله جل علا أكمل لنا الدِّين، وما تُوفي الرسول ﷺ إلا بعد ما أكمل الله به الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلا حاجة إلىٰ إضافات واستحسانات يأتي بها الناس في أمور الدِّين، فيكفينا الدِّين الذي أكمله الله تعالىٰ، ولا حاجة لنا إلىٰ الزيادة.

وقوله ﷺ في الرواية الأخرىٰ: «**لقد تركتكم علىٰ البيضاء**»: أي: الجادة الواضحة، وهي صراط الله -جل علا-، فَمَنْ سار عليه نجا، ومَنْ تركه هلك، فلا طريق إلىٰ الجنة إلا من خلال اتِّباع سُنَّةِ الرسول ﷺ، فمَنْ تركها كان حالُه كحال الذي أضاع الطريق في مهلكة.

ويدور علىٰ ألسنة بعض الناس قولهم: «**تركتكم علىٰ المحجة البيضاء**». وكلمة «**محجة**» لم تثبت عن النبي ﷺ، وإنما الذي ثبت قوله ﷺ: «**تركتكم علىٰ البيضاء**». وهي المِلَّة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشُّبه أصلًا، ولهذا جاء بعدها قوله ﷺ: «**ليلها كنهارها**». فصار حال إيراد الشُّبه عليها كحال كَشْفها عنها ودَفْعِها.

[هَدْيه ﷺ خير الهدي]

٨٩- وَلِمُسْلِمٍ[1]، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

الشرح

كان ﷺ يقول في خُطَبه: «**أما بعدُ**»: وهي كلمة يُؤتىٰ بها للانتقال من كلام إلىٰ كلام آخر، فهي فاصلة بين كلامين، وقيل: هي فَصْل الخطاب الذي أُوتيَه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. فكان ﷺ يحمد الله في خُطَبه ويُثني عليه، ثم يقول: «**أما بعد**».

وقوله ﷺ: «**فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله**»: أي: القرآن، والحديث معناه: الكلام، والقرآن حديث؛ لأنه كلام الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. فالقرآن حديث؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فيسمَّىٰ حديثًا ويسمّىٰ قرآنًا وكلامًا، وهو خيرُ الحديث، فلا شيء يُوازي القرآن؛ لأنه كلام الله -جلَّ وعلا-، وهو أصدق الحديث.

وقوله: «**وخيرُ الهَدْي**»: أي: السُّنة التي تُتَّبع «هَدْي محمد ﷺ»، وفي رواية: «**أحسنُ الهدي، هَدْي الأنبياء**»[2]. ولكن المعروف، والمشهور «**خير الهَدي، هديُ محمد**».

وقوله: «**شرَّ الأمور محدثاتها**»: لما ذكر ﷺ خير الأمور ذكر شرَّها، وهي المحدثات التي تُحدَث في الدِّين، وفي هذا ما يدلُّ علىٰ أنه لا يكفي من المرء أن يُبيِّن للناس الحقَّ، ويترك بيان الباطل، كما يقول بعض الجُهَّال: علِّموا الناسَ التوحيد، ولا

---

(١) برقم (٨٦٧).

(٢) أخرجه القُضَاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٦٣) (١٣٢٣) من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

داعي لتعليمهم الشرك!

والصحيح في ذلك، هو: ذِكْر النقيض أيضًا؛ لأجل أن يجتنبوه، والرسول ﷺ ذكر الأمرين، فلمَّا ذكر الخير ذكر أيضًا الشرَّ؛ لأجل أن يحذره الناس، فلابدَّ من بيان الخير وبيان الشر، ولهذا نجد في كتب العقائد بيانًا للتوحيد وبيانًا للشرك، ونجد فيها بيانَ قول أهل السُّنة والجماعة، وبيان قول الطوائف الضالَّة من أجل الحذر منهم؛ ولهذا قال ﷺ: «**وشرَّ الأمور محدثاتها**». وهي البدع.

وقوله ﷺ: «**وكل بدعة ضلالة**». هذا زيادة توضيح منه ﷺ، وفي هذا نَفيٌ، وردٌّ لَمن يقول بوجود بدعة حسنة، وكلمة «**كل**» فيها ردٌّ للقائلين بهذا القول، وجاء في بعض الروايات: «**وكل ضلالةٍ في النار**»[1].

---

(١) أخرجه النسائي (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[معصية الرسول ﷺ توجب دخول النار]

٩٠- وَللبُخَارِي(١)، عَنْ أَبي هُرِيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ. قِيلَ: وَمَنْ أَبَىٰ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ».

الشَّرْح

هذا الحديث فيه: أنَّ مَنْ أطاع الرَّسول ﷺ دخل الجنَّة، فالذي يريد الجنة عليه بطاعة الرَّسول ﷺ، وقد بيَّن ﷺ كيف أن الإنسان يأبىٰ دخول الجنَّة، وذلك بعصيانه ومخالفة أمره ﷺ.

وفي هذا دليل علىٰ أنَّ طاعة الرسول ﷺ هي السبب لدخول الجنَّة، وأنَّ معصيته هي السبب للحرمان من الجنَّة، والدخول في النار؛ لأن طاعته ﷺ إنما هي طاعة الله -جلَّ وعلا-، وهو ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله به، فمَنْ فعل ما أمره به الرسول ﷺ، فإنما أطاع الله -جلَّ وعلا-، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) برقم (٧٢٨٠).

[سُنَّة الرسول ﷺ هي السُّنة السمحة]

٩١- وَلَهُمَا(١)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا، كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا؛ فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلا أُفْطِرُ. وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

الشَّـرْح

في هذا الحديث: بيانُ أنَّ سُنة رسول الله ﷺ، هي السُّنة السمحة، والسهلة؛ التي ليس فيها تشدُّد ولا غُلوٌّ، ولا تطرُّف، كما أنه ليس فيها تساهلٌ، فهي سنةٌ معتدلة، بعيدةٌ عن الإفراط والتفريط.

قوله: «جاء ثلاثةُ رهْطٍ»: أي: من الصَّحابة؛ والرهطُ: من ثلاثة إلىٰ عشرة، «إلىٰ أزواج النبي ﷺ»: وهذا من حرصهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ علىٰ الخير، وهم إنما أرادوا الرجوع إلىٰ سنة النبي ﷺ ليبنوا عليها ما هم عليه من العبادة.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون، فيرجع إلىٰ سُنة الرسول ﷺ دون أن يبتدع شيئًا من عنده، فهؤلاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لم يعتمدوا علىٰ اجتهادهم، وإنما ذهبوا إلىٰ بيوت النبي ﷺ؛ لأنه هو القدوة، فسألوا عن عمله؛ لأجل أن يقتدوا به.

فلما ذكرت لهم نساءُ النبيِّ ﷺ عبادته -عليه الصلاة والسلام- «كأنهم تقالُّوها» أي: رأىٰ كلٌّ منهم أنها قليلة، ثم إنهم اعتذروا لرسول الله ﷺ؛ بمعنىٰ: أنهم قالوا: إن

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) بنحوه.

رسولَ الله ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ أي: إنه ﷺ ليس بحاجة إلىٰ زيادة عبادة، وأين نحن منه، وقد غفر الله له؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ومع أنه ﷺ مغفور له إلَّا أنه لم يترك العبادة؛ بل قام حتىٰ تفطرت قدماه من طول القيام، ولما قالت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟ وذلك بعدما رأت أنه قد تفطرت قدماه ﷺ، من كثرة ما كان يقوم من الليل، قال: «**أفلا أُحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا**»[1]، فالرسول ﷺ كانت سُنته الاعتدال، فكان يصوم، ويفطر ويُصلِّي وينام، وكان يتزوَّج النساء، فلا يحرم نفسَه من الراحة، ولا من المتعة -عليه الصلاة والسلام-، وفي الوقت نفسه لم يكن ليترك العبادة؛ بل كان يعطيها حقَّها، فكان ﷺ يجمع بين هذا وهذا؛ فيُعطي نفسَه حقَّها من أمور الدُّنيا، ويُعطي العبادة حقَّها من أمور الدِّين.

وقوله: «كأنَّهم تقالُّوها»:أي: استقلُّوها وعدُّوها قليلة؛ ولكنهم اعتبروا أن هناك فرقًا بينهم وبين الرسول ﷺ ؛ حيث غفر الله من ذنبه ما تقدَّم منه، وما تأخر، وقالوا: نحن بحاجة إلىٰ الزيادة، وأين نحن من رسول الله ﷺ ؟! هكذا اجتهدوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال كلٌّ منهم مقالته مبيِّنًا وذاكرًا ما عليه حاله من العبادة من قيام الليل، وصوم النهار، واعتزال النساء.

فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب، ثم قال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أمَا والله إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج الناس، فمَنْ رغب عن سُنتي فليس منِّي**». فمَنْ مال إلىٰ التشدُّد، وإلىٰ حرمان نفسه ممَّا أباح الله لها من الراحة والشهوة والاستجمام، وحمل نفسه علىٰ الجِدِّ أبدًا، فهو مخالفٌ لسُنَّة الرسول ﷺ .

ففي قوله ﷺ : «**فمَنْ رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**»: دليل علىٰ تحريم التشدُّد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧).

والتنطُّع في العبادة، وتحريم الغُلوِّ والإفراط فيها.

وفيه: أنَّ علىٰ الإنسان أن يعتدل، وأن يأخذ من الدِّين بقدْر ما يستطيع، فلا أحد يستطيع أن يستكمل الدِّين كلَّه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يُشادَّ الدِّين أحدٌ إلا غلبه**»[(١)]. فلا أحد يستطيع أن يصل بنفسه إلىٰ درجة الكمال، ولهذا قال ﷺ: «**إن المُنْبت لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ**»[(٢)].

والمُنبتُّ: هو الذي قُطع مركوبُه من شدَّة السير، مأخوذٌ من البَتِّ: وهو القَطْع؛ أي: صار منقطعًا لم يصل مقصوده، وفَقَد مركوبه الذي كان سيوصله لو رفق به، والراحلة هي النفس، فإذا شددتَ عليها قطعتك، فعلىٰ المرء أن يأخذ من الطاعات كقيام الليل، والصيام، وسائر العبادات دون تشديد علىٰ نفسه؛ لأنَّ الاعتدال هو الطريق الصحيح، وفي الحديث: «**أحبُّ العملِ إلىٰ الله أَدومه، وإن قلَّ**»[(٣)]. ففي العمل القليل مع المداومة عليه خيرٌ كثير، بخلاف العمل الكثير المنقطع؛ فالوسط والاعتدال هو الخير وهو أضمنُ للاستمرار، وأما الفرائض فلا بدَّ منها وهي ليس فيها تشدُّد، ولله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٠٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

[بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا]

٩٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ». رَوَاهُ مُسْلِم[(١)].

الشَّرْح

قوله: «**بدأ الإسلام**». أي: في أول بعثة النبي ﷺ لما دعا الناس إلىٰ توحيد الله تعالىٰ ممتثلًا قول ربِّه تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]. فاستجاب له ﷺ الأفرادُ علىٰ خوفٍ من الكفار؛ ولهذا قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا**». والغريبُ: هو الإنسان الذي فارق وطنه وأهله، فسار في بلد غير بلده، وبين أُناسٍ غير أهله وأقاربه، وقد قال النبيُّ ﷺ لابن عمر: «**كُنْ في الدُّنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيل**»[(٢)].

والإسلام أول ما بدأ كان أتباعُه قليلين، وهم غرباء في وسط المجتمع الكافر في مكَّة، ولما سأل عمرو بن عَبسة النبيَّ ﷺ: مَنْ معك علىٰ هذا الأمر، قال ﷺ: «**حرٌّ وعبدٌ**»[(٣)]. أي: أبو بكر وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم ازداد عدد المسلمين الذين دخلوا في الإسلام في مكَّة، ومن مختلف القبائل، ثم إنه بعد الهجرة، وتشريع الجهاد زادت أعدادهم، إلىٰ أن فتح الرَّسول ﷺ مكَّة فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم إنه بعد وفاته ﷺ وحصل ما حصل من ردَّة كثير من القبائل العربية وقف أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموقف الحازم، فجاهد المرتدِّين حتىٰ أخضعهم لحكم الإسلام.

وفي عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتشرت الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، حتىٰ وصل الإسلام إلىٰ كثير من أصقاع الأرض وانتشر انتشارًا هائلًا، وبلغ

---

(١) برقم (١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤) من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإسلام ما بلغ الليلُ والنهارُ؛ قال الله -جل علا-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. فظهر دين الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ سائر الأديان، وكثُر أتباعُه.

وبعد ذلك جاءت خلافة بني أُميَّة، وانتشر الإسلام واتَّسعت الفتوحات، وامتدَّت حتىٰ خلافة بني العبَّاس، وتلا ذلك فتنة التتار وحصل فيها علىٰ المسلمين ما حصل، ثم ما زال الإسلام يَضعُف ويَقلُّ أهلُه إلىٰ أن يعود في آخر الزَّمان غريبًا كما بدأ، فيكون عليه القلَّة من الناس، والمراد بالإسلام: الإسلام الحقيقي لا الإسلام المدّعىٰ الذي عليه كثيرٌ من الناس، ولكن العِبْرة بالإسلام الحقيقي، وهو الذي لا يكون عليه سوىٰ قلَّة من الناس الذين يكونون كالغُرباء، ولهذا جاء أنَّ المسلمين بالنسبة للأمم الأخرىٰ غرباء.

وأهل السنة والجماعة بالنسبة للفِرَق المخالفة التي تدّعي الإسلام غُرباء كذلك، وسيئول الأمر إلىٰ ما أخبر عنه ﷺ فيعود الإسلام غريبًا وما عليه إلّا القلَّة من الناس الذين يتمسَّكون به تمسُّكًا صحيحًا، فهناك مَنْ يدَّعي الإسلام؛ ولكنه ليس علىٰ حقيقة ما ادَّعاه، وإنما هي مجرَّد دعوىٰ لا وزن لها، وهناك مَنْ يدَّعِي الإسلام ويتشدَّد فيه حتىٰ يخرج منه ليصبح كالخوارج والغُلاة؛ لأنَّ الإسلام الحقيقي ليس فيه غلوٌّ ولا تشدُّد وهو الإسلام الصحيح، وهذا يَقِلُّ أصحابه في آخر الزَّمان حتىٰ يكون غريبًا.

ولا بدَّ من وقوع ما أخبر به ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ، وهذا خبرٌ منه ﷺ، معناه: الحثُّ علىٰ التمسُّك بالإسلام عند حصول الغُربة؛ لئلا ينجرف الإنسان مع التيارات المختلفة والمنحرفة؛ بل يثبت علىٰ الإسلام مهما ناله وأصابَه من المضايقات والأذىٰ حتىٰ ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام وغيرهم من الكفَّار، حتىٰ يغدو غريبًا بين الناس.

وقد جاء في الحديث أنه يأتي زمان «**المتمسِّك بدينه كالقابض علىٰ الجمر، أو علىٰ خَبَطِ الشَّوكَةِ**»(١). فما أحوج المسلم في ذلك الوقت إلىٰ الصبر، وإلّا فإنه سينحرف، وقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٩٠٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

سئل ﷺ عن الغرباء؟ فقال: «**الذين يَصلحون إذا فَسد الناس**»(١). وفي رواية: «**يُصلحون ما أفسدَ الناسُ**»(٢). فهؤلاء هم الغُرباء، يَصلُحون في أنفسهم، ويُصلحون ما أفسده الناس، ومَن يصبر علىٰ هذا إلَّا أهلُ الإيمان والثبات.

وكما أن الإسلام في غربته الأولىٰ نال أهلُه من الأذىٰ والمضايقات ما نالهم، فسينال المسلمين في آخر الزَّمان المتمسِّكين بالإسلام أشدُّ مما نال الأولين؛ لأنَّ الأولين فيهم رسول الله ﷺ؛ ولكن في آخر الزَّمان نجد أن المتمسِّك بالإسلام ليس له أعوانٌ ولا أنصار؛ بل هو واقع بين أعداء كثيرين، وقد يكون بعض هؤلاء الأعداء من أهله، أو حتىٰ من أولاده وإخوانه وجيرانه، فيحتاج المسلم المتمسِّك بدينه إلىٰ صَبر وثبات؛ ولهذا فإنه ﷺ قال: «**فطُوبىٰ للغرباء**». وذلك لموقفهم الثابت.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**طُوبىٰ للغرباء**». أي: إن لهؤلاء الغرباء الفرح والخير وقُرَّة العين، أو نِعْمَ ما لهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٩]. وقيل: «طوبىٰ»: شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، تخرج منها حُلَل أهل الجنة. وقيل: الجنَّة تُسمىٰ طُوبىٰ فتكون هذه للغرباء في آخر الزمان، فلهم الجنَّة عوضًا عما فاتهم في الدُّنيا من الراحة والتلذُّذ بالعيش، فيُعوِّضهم الله نعيمًا لا ينفد.

فهذا حديث عظيمٌ يدل علىٰ هذه الأمور العظيمة، وفيه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالإسلام مهما وصل المسلمَ من الأذىٰ والمضايقات، فمَنْ أراد الأجر؛ ليكون من أهل طوبىٰ فليصبر علىٰ ما هو عليه من الدِّين الصحيح ومن الحقِّ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٩٠) من حديث عبد الرحمن بن سَنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) هي عند الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[علامة الإيمان: حبُّ ما جاء به الرسول ﷺ]

٩٣- وَعَنْ عَبْدُ الله بن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». رَوَاهُ البَغَوِيُّ فِي «شَرح السُّنَة» وَصَحَّحه النَّوَوي(١).

الشَّرح

قوله ﷺ: «**هواهُ**». يعني: رغبته ومَيْله ومحبَّته لما جاء به الرسول ﷺ، وإن خالف هواه وما تريده نفسُه، فإذا بلغ هذه المنزلة صار يُحبُّ ما يحبُّه الرَّسول ﷺ، اعتُبر هذا علامة من علامة الإيمان.

وهذا الحديث رواه البغوي في «شرح السنة» وهو كتاب جليل مطبوع في أربعة عشر مجلدًا، وهو مَرْجع من مراجع الإسلام، والبغوي: هو الإمام محيي السُّنة: ابن مسعود البغوي، له التفسير المشهور المسمىٰ: «معالم التنزيل»، وله «شرح السُّنة».

وقوله: «**صححه النووي**»: أي: في «الأربعين النووية»، فقال: حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحُجَّة» بإسناد صحيح؛ وكتاب «الحجة» اسمه «الحُجَّة علىٰ تارك المحجّة» وهو كتاب طُبع أخيرًا محققًا، للفقيه نصر المقدسي.

فالإمام النووي حكم بصحة إسناد هذا الحديث، بينما الحافظ ابن حجر في «شرح الأربعين» ضعَّف هذا الحديث، ولكنَّ الحديث له شواهد من القرآن الكريم.

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. الآية واضحة في أن المسلم لا يكره حُكم الله تعالىٰ، وحكم رسوله ﷺ، ولو كان يخالف رغبته.

---

(١) انظر: «شرح السنة» (١٠٤).

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]. فالآيات تشهد للحديث في أنه يجب على المسلم أن يكون هواه تابعًا لِما جاء به الرسول ﷺ، فإن كان هواه مخالفًا لِما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر؛ لأن من نواقض الإسلام بُغض الرسول ﷺ، أو بُغض ما جاء به.

وأما إن كان لا يُبغض ما جاء به الرسول ﷺ؛ ولكنه يتكاسل ويتثاقل عن العمل بما جاء به الرَّسول ﷺ فهو ناقص الإيمان، ولا يكون مرتدًّا، فيكون قوله ﷺ: «لا يؤمن». يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل، أي: نفيٌ لكمال الإيمان، وأمَّا إن كان يبغض ما جاء به الرسول ﷺ فهو نفيٌ للإيمان وأصل الإيمان.

[صفات الفرقة الناجية من النار]

٩٤- وَعَنْهُ، أَيْضًا قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي، كَمَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، حَتَىٰ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً؛ لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رَوَاهُ التِّرْمِذِي(١).

الشَّرْح

هذا الحديثُ فيه فوائد عظيمة، فيه: أن النبي ﷺ أخبر عن وقوع التشبُّه باليهود والنصارىٰ، وقد نُهينا عن التشبُّه بهم، فقال ﷺ: «**مَنْ تشبه بقوم فهو منهم**»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا الحديث أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهرة يقتضي كُفر المتشبِّه بهم)(٣).

وذلك أن مَنْ تشبَّه بهم في الظاهر فهذا دليل علىٰ أنه يُحبُّهم في الباطن، إذ لو كان يُبغضهم في الباطن لما تشبَّه بهم، فلا يجوز التشبُّه بالكفار وبعباداتهم ودينهم، ولا في عاداتهم وتقاليدهم؛ لأن المسلمين أعزُّ الأمم فينبغي عليهم الاعتزاز بدينهم، فلا يقلِّدون أحدًا إلا أهل الخير والدِّين والصلاح من المسلمين، ولا يُقلِّدون أهل الضلال والكفر والإلحاد؛ بل يترفَّعون عن ذلك ويستقلُّون بشخصيَّتهم وإن كان بعض مَنْ يتشبَّهون بالكفار يريد الرُّقي والكمال، فيرىٰ أنهم متقدِّمون في الجانب الحضاري والتشبُّه بهم -في زعمه- رُقيٌّ، وهو في حقيقته ضلال.

---

(١) برقم (٢٦٤١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٣).

فقد قال عمر بن الخطاب: نحن أُمَّة أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العِزَّة بغيره أذلَّنا الله(١).

وقد أخبر الرَّسول ﷺ أنَّ التشبُّه سيكون «**حَذْوَ النَّعل بالنَّعل**»: يعني: لا يُترك شيء من أفعالهم إلا ويفعله المتشبه بهم، حتىٰ يُصبح مثلهم كما يُشْبه النَّعْل النَّعل الآخر، سواء بسواء فيقلِّدهم ويتشبَّه بهم في كلِّ شيء، وما يجري في وقتنا الحاضر يشهد لذلك، فقد أصبح تقليد الكفَّار والتشبُّه بهم منتشرًا حتىٰ في الأمور التافهة والحقيرة، فيتخذونها علىٰ أنها من الرُّقي والتقدم، وهم يعلمون أنها تافهة وحقيرة، لا لشيء إلا لأن الكفَّار يفعلونها، فهذا مصداق قوله ﷺ: «**حَذْوَ النَّعل بالنعل**». وفي حديث: «**حتىٰ لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ تَبعتموهم**»(٢).

بل هناك ما هو أشدُّ من ذلك؛ وهو قوله ﷺ: «**إن كان منهم مَنْ أتىٰ أُمَّه علانيةً لكان في أُمتي من يصنع ذلك**»: والتشبُّه بالكافر في وقتنا الحاضر علىٰ مصراعيه، وربما يبلغ إلىٰ الحدِّ الذي ذكره الرَّسول ﷺ؛ فإذا كان الزِّنا محرمًا وهو أشدِّ الكبائر؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فكيف إذا كان هذا في ذات محرم، فهو أشدّ، وكيف إذا كان بالأم، فهو أشدُّ وأشنع؛ ولكن يبلغ التشبُّه والتقليد للكفار لدرجة أنه إن كان فيهم مَنْ يزني بأُمِّه علانية فسيكون في هذه الأُمة مَنْ يزني بأُمِّه، وهذا تحذير منه ﷺ بألَّا نَنْساقَ وراء التشبُّه بالكفَّار.

وقوله ﷺ: «**وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثنتين وسبعين مِلَّة**»: فاليهود والنصارىٰ كذلك افترقوا في دينهم، فالنصارىٰ افترقت إلىٰ إحدىٰ وسبعين فِرْقة، واليهود افترقوا علىٰ ثنتين وسبعين فِرْقة، وستفترق هذه الأُمة علىٰ ثلاث وسبعين فِرْقة، وكلُّ هذا من باب التشبُّه باليهود والنصارىٰ، لما افترقوا في دينهم تشبَّه بهم من هذه الأُمة، مَنْ تفرَّقوا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠) (٣٣٨٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠) (٢٠٧) من حديث طارق بن شهاب.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في دينهم، مع أن الواجب هو أن يكون الدِّين واحدًا، لا اختلاف فيه ولا تفرُّق؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فالواجب علىٰ المسلمين هو اجتماع كلمتهم علىٰ الحق، وعلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ وعلىٰ عدم التفرُّق والاختلاف، ولكن سيقع ما قضىٰ الله وقدَّر، وأخبر عنه الرسول ﷺ من أنَّ هذه الأُمة ستفترق، وقد افترقت علىٰ ثلاث وسبعين فِرْقة، وأكثر.

وقوله ﷺ: «**كلُّها في النار**». هذا وعيدٌ منه ﷺ لهذه الفرق في أنه سيكون منهم مَنْ هو في النار لكُفْره، إذا بلغ التفرُّق درجة الكفر، ومنهم مَنْ يكون في النار لضلاله، وقد يدخل النار مَنْ لا يخلَّد فيها، بل يُعذَّب فيها، ثم يخرج منها فهم كلُّهم متوعَّدون بالنار؛ إمَّا لكفرهم وإما لضلالهم.

وقوله ﷺ: «**إلا واحدة**»: أي: كلُّهم متوعَّدون بدخول النار إلَّا فرقة واحدة «قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**». فلا ينجو من النار إلَّا هذه الفرقة، ولذلك تُسمَّىٰ الفرقة الناجية، وهم أهل السُّنة والجماعة؛ فتسمَّىٰ بالناجية؛ لأنها نَجَتْ من النار بتمسُّكها بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابُه، ولم يفترقوا ويختلفوا، قالوا ﷺ: «**فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسَّكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(١). فلا ينجو من النار إلَّا مَنْ كان علىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وأمَّا مَنْ خالف وذهب مع الفِرَق فإنه معرَّض للوعيد بالنار.

ففي الحديث النهي عن التفرُّق والاختلاف؛ ولكن الاختلاف من طبيعة البشر،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولكن الله -جلَّ وعلا- جعل لهم مخرجًا من هذا الاختلاف وهو الرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالمخرج من الخلاف أو الاختلاف هو الرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، وقال -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٠]. فالمرجع الذي يُعرف به الحقُّ من الباطل مما اختلف فيه الناس هو كتاب الله تعالىٰ وسُنة رسوله ﷺ؛ لأن كلَّ فرقة ستدَّعي أنها علىٰ الحقِّ وغيرها علىٰ خطأ أو ضلال، ولكن الفصل هو الرجوع إلىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وإلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

[أجر من دعا إلى هدًى]

٩٥- ولمسلم[١]، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مرفوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

الشَّرْح

في هذا الحديث: أنَّ الدعوة إن كانت إلىٰ حقٍّ فهي مشروعة ومطلوبة؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فالدَّعوة إلىٰ الحق مطلوبة ومأمورٌ بها، وفيها فضل عظيم.

وقوله ﷺ: **«مَنْ دعا إلىٰ هدًىٰ»**: أي: من كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ: **«كان له من الأجر مثلُ أجورِ مَنْ تَبِعَه»**: أي: يناله أجرٌ عظيم؛ لأن كل مَنْ تبعه واقتدىٰ به وعمل بالهدىٰ، فإنَّ الداعي الأول له مثل أجور مَنْ تبِعَهَ إلىٰ يوم القيامة، فالرسول ﷺ له مثل أجور أُمَّتِه.

وكذلك أئمَّة الإسلام الذين دعوا إلىٰ الله تعالىٰ، وألَّفوا الكتب واهتدىٰ الناس بدعوتهم علىٰ اختلاف العصور لهم من الأجر مثل أجور مَنْ تبعهم إلىٰ يوم القيامة، وفي هذا فضلٌ عظيم، وخيرٌ كثير.

وقوله ﷺ: **«ومَنْ دعا إلىٰ ضلالة»**: الضلالة ضد الهدىٰ، أي: دعا إلىٰ باطل وبدعٍ ومحدثات وخرافات، وإلىٰ شركيّات **«كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]. فدُعاة الضلال عليهم من الآثام مثل آثام

---

(١) برقم (٢٦٧٤).

مَنِ اقتدىٰ بهم، وعمل بالضلال تبعًا لهم، فيتحمّلون ذلك ويجري عليهم الإثم حتىٰ وهم أموات.

وأمَّا دُعاة الحقِّ فيجري عليهم الأجر، وهم أموات كما قال ﷺ: «**إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثةٍ، إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[1]. فيجري أجرُ العلم علىٰ صاحبه إلىٰ يوم القيامة، حتىٰ وهو ميت، وفي هذا خير كثير.

ففي الحديث فَضْلُ الدَّعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الدَّعوة إلىٰ الحقِّ، وفيه النهي والتحذير من الدعوة إلىٰ الضلالة، وفيه: أنَّ الدُّعاة ينقسمون إلىٰ قسمين: دُعاة هدًىٰ، ودعاة ضلال، وهذا واقع فيه حياة الناس اليوم، ودعاة الضلال في وقتنا الحاضر أكثر من دُعاة الهدىٰ، فلا يُغترُّ بهم.

(١)أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٩٦- وله[١]، عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي، فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: مَا عِنْدِي. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّه عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ».

الشَّرْح

وهذا الحديث كسابقه في بيان عِظَم أجرِ فِعْل الخير والدلالةِ عليه والدعوة إليه، وأنَّ أجرَه يكون مثل أجرِ فاعله.

وقوله: «أبدِعَ بي»: أي: انقطعت راحلتي، أو هلكت دابَّتي، وهي مركوبي. فطلب من النبيِّ ﷺ أن يَحمله بأن يُعطيه دابةً يركبها وَحمل عليها، والنبيُّ ﷺ اعتذر إليه بقوله: «ما عندي». فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أدلُّه علىٰ مَنْ يَحملُه.

وقوله ﷺ: «مَنْ دلَّ علىٰ خيرٍ فلَه مثلُ أجرِ فاعلِهِ». والدلالة علىٰ الخير تشمل الخير المعنوي، وتشمل كذلك الدَّعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك مَنْ دلَّ أحدًا علىٰ آخر يُعينه، كمَن دلَّ محتاجًا علىٰ واحدٍ من المحسنين ليُعينه، فله من الأجر مثل أجرُ المُحسِن الذي حقَّق طلب هذا المحتاج.

ففي الحديث: الحثُّ علىٰ التعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، وفيه أنَّ مَنْ دلَّ علىٰ الخير كان له من الأجر مثل أجر فاعله، وهذا ترغيب للدلالة علىٰ الخير المعنوي والحسِّي.

---

(١) مسلم برقم (١٨٩٣).

[أجر مَنْ أحيا سُنة من سننه ﷺ]

٩٧- وعن عَمرو بن عوفٍ رضي الله عنه، مَرْفُوعًا: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي، قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي؛ فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا». رَوَاهُ التِرْمِذِي وَحسَّنه، وابن ماجه وهذا لفظه[١].

الشَّرْح

قوله ﷺ: «مَنْ أحيا سُنَّة من سُنَّتي قد أُميتَتْ»: المراد: مَنْ عَمِلَ بسُنَّةٍ من سُنن الرسول ﷺ بعد أن تُركتْ من الناس، أو جهلوها، ثم نشرها أحدُ الناس كان «له من الأجر مثل مَنْ عَمل بها». ففي هذا الحثُّ علىٰ إحياء السُّنَن التي قد نسيها الناسُ أو جهلوها.

وقوله ﷺ: «ومَنِ ابتَدعَ بدعةَ ضلالةٍ لا تُرضي الله ورسولَه كان عليه مثل إثم مَنْ عمل بها». هذا فيه أنَّ من أحيا أو ابتدع بدعة فعليه من الإثم مثل آثام مَنْ عمل هذه البدعة، وفي هذا أيضًا ردٌّ علىٰ مَنْ يُروِّجون للبدع من إحياء الموالد وزيارة آثار الصالحين والتبرك بها، فهؤلاء عليهم من الإثم مثل آثام مَنْ تبعهم.

---

(١) الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢١٠).

[أسباب الفتن]

٩٨- وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «كَيْفَ أَنْتُم إِذَا لَبِسَتْكُم فِتْنَةٌ، يَرْبو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهرُم فِيهَا الكَبِير، وَتُتَّخَذ سُنْةٌ يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا، فَإِذَا غُيِّر مِنهَا شَيْءٌ. قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّة، قِيل: مَتَىٰ ذَلِك يَا أَبَا عَبْد الرَّحَمن؟ قَالَ: إِذَا كَثُر قُرَاؤكُم، وَقَلَّ فُقهَاؤكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُم، وَقَلَّ أُمَناؤكم، وَالتمست الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وتفقِّه لِغَيرِ الدِّين». رَوَاهُ الدَارِمِيّ[1].

الشَّرح

هذا أثرٌ عظيمٌ من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابيِّ الجليل، قوله: «**كيف أنتم**». أي: كيف يكون حالكم؟ أو كيف تكونون؟

وقوله: «**إذا لبستكم**». أي: خالطَتْكُم «**فتنةٌ يربو عليها الصغير**». يعني: ينشأ عليها الأطفال، «**ويَهرم فيها الكبير**». أي: يكبرُ ولم تُغيَّر حتىٰ تستقر ويظنُّها الجهّال سُنَّة.

وقوله: «**فإذا غُيِّر منها شيء، قيل: تركتْ سُنة**». أي: تُتخذ السنة بدعة، والبدعة تتخذ سُنة، وسيكون هذا في آخر الزَّمان، فإذا ما دعا أحد الناس إلىٰ سُنَّة الرسول ﷺ قالوا: هذا مبتدع أو خارجي، أو وهابي، فيُلقِّبونه بألقاب شنيعة؛ لأنه خالف ما عليه الناسُ؛ علمّا بأن المطلوب هو الرجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسُنة رسوله ﷺ لا ما عليه الناس؛ فدلَّ علىٰ أن ما عليه الناس لا يتخذ حُجَّة ما دام مخالفًا لِمَا جاء في سُنَّة الرسول ﷺ وإن تطاوَل زمنُها أو توارثها الناس، فلا عِبْرة بها، فينبغي التفطُّن لهذا الأمر؛ لأنها إذا استقرت في عقول الناس ظنوها سُنة لدرجة أنهم يُدافعون عنها ويقولون: غُيِّرت السُّنة لجهلهم بذلك، فدلَّ هذا علىٰ أنه يجب المبادرة لإنكار البدع والمحدثات، ولا يجوز السُّكوت عنها؛ لأنه إذا سكت عنها توارثها الناسُ واحتجوا بها.

---

(١) في «سُننه» (١/ ٧٥) (١٨٦).

وقوله: «**قالوا: ومتىٰ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟**» هذه كنيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واسمه: عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي، من السابقين الأولين إلىٰ الإسلام.

وقوله: «**إذا كثُر قُراؤكم وقلَّ فقهاؤكم**». الفقه: هو الفهم في دين الله عَزَّوَجَلَّ، قال ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فلم يقل -جلَّ وعلا-: ليحفظوا أو ليقرءوا، وإنما قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾. فالمدار هنا علىٰ الفقه والفهم عن الله ورسوله.

وأما الذي يحفظ النصوص، ويقرؤها، ويكثر المطالعة في الكتب دون أن يفهمها، فهو من القراء وليس من الفقهاء، ومثل هذا يكثر في آخر الزمان؛ حيث يكثر القُرَّاء الذين يحفظون النصوص ويطَّلِعون علىٰ الكتب وليس عندهم فِقْه وفَهْم لما تدلُّ عليه، وهذا كما قال ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعُه من العباد؛ ولكن يُقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يَبْقَ عالمًا اتخذ الناسُ رءوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير عِلْم فضَلُّوا وأضلُّوا**»(٢).

فدلَّ علىٰ أن فُقدان الفقهاء في المجتمع خطر عظيم، وأن وجود القراء لا يكفي ولا ينفع ولا يُسمن ولا يغني من جوع؛ بل يضرُّ لأنهم يفتون بغير علم؛ ولهذا قال الله تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. والأماني هي القراءة، فيقرءون كثيرًا؛ ولكنهم لا يفهمون.

فينبغي التفقُّه في كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ، وذلك بالتلقِّي عن أهل العلم والفقه في دين الله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. يعني: سافروا إلىٰ الرسول ﷺ، وإلىٰ العلماء: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾. لا أن يبقوا في بلادهم، أو بواديهم يقرءون القرآن؛ لأن هذا لا يكفي؛ لأن العلم هو الفقه، وليس

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الحفظ فقط؛ ولكن الحفظ وسيلة إلىٰ الفقه.

والنبي ﷺ يقول: «**رُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ، وربَّ حاملٍ فقه إلىٰ مَنْ هو أفقه منه**»[1]، ويقول ﷺ: «**رُبَّ مبلغٍ أوعىٰ من سامعٍ**»[2]. فقد يسمع المرء ويحفظ دون وعي؛ ولكن ربما يُبلغ هذا إلىٰ إنسان فقيهٍ يعرف معناه.

فليس المدار علىٰ ما عليه الكثير من الشباب اليوم حيث عكفوا علىٰ قراءة الكتب، ثم تصدَّروا للشرح بعدما قرءوا، أو تعلَّم بعضهم علىٰ يد البعض الآخر، وتركوا العلماء، ففي هذا خطر شديد، وهو الذي حذَّر منه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بل حذَّر منه الرّسول ﷺ، فقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إذا كثُر قراؤكم**». فدلَّ علىٰ أن كثرة القراءة والقُرَّاء لا يفيد شيئًا.

وقوله: «**وقلَّ فقهاؤكم**»: هذه هي الآفة، وهي قلَّة وجود الفقهاء أو انعدامهم.

وقوله: «**وكثُرت أموالكم، وقلَّ أُمناؤكم**»؛ حيث يفشو المال في آخر الزمان، وتُنزع الأمانة من قلوب الناس، فيكثر الخِدَاع والغِشُّ والكذب في معاملاتهم.

وقوله: «**والتُمست الدُّنيا بعمل الآخرة؛ وتفقِّه لغير الدِّين**»: هذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١٥]. يعني: يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ويتعلَّم العلم الشرعي؛ لأجل الوظيفةِ وعمل الشهادة لا رغبةً في العلم، ويكون النظر دائمًا للمستقبل الدُّنيوي لا الأخروي.

وهذا واضح من عمل بعض الناس اليوم؛ حيث يطلبون الدُّنيا في أمور الآخرة إلا مَنْ رحم الله، فالواجب علىٰ المسلم أن يُخلص عمله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الأحوال هي التي تكثُر فيها البدع والمنكرات؛ لأن كلَّ واحد منهمك في دُنياه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٥٩٠)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[ذِكْر ما يمكن أن يهدم الإسلام]

٩٩- وعن زياد بن حُدير، قال: قال لي عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهدِمُه زَلَّةُ العَالِم، وَجِدَالُ المُنَافِقِ بِالكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَةِ المُضِلِّين». رواه الدارمي أيضًا[1].

الشَّرْح

هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرِ المؤمنين، وقد بيَّن ما يمكن أن يهدم الدِّين، ويسيءُ إلىٰ الإسلام وأهله.

فقوله: «زلة العالمِ»؛ لأن العالِمَ إذا أخطأ وأفتىٰ بفتوىٰ خاطئة اتَّخذها الناسُ علىٰ أنها فتوًىٰ من عالم، وهذا مما يوجب علىٰ العالِم الحذر من الإقدام علىٰ الفتوىٰ إلَّا إذا تثبت من دليلها من كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا يتسرَّع في الفتوىٰ فيُفتي ويأخذها الناس علىٰ أنها صواب؛ لأنها من عالِم، بخلاف فتوىٰ العوامّ الذين لا عِبْرة بما يصدر منهم؛ لأن الناس يعرفون أنه لا يصلح للفتوىٰ، ولكن المشكلة أن يصدر الخطأ في الفتوىٰ من العالِم المعروف بالعلم! وهذا مما يؤكِّد ويُوجب علىٰ العلماء أن يتأكَّدوا ويتحرَّوا ويتثبَّتوا في الفتوىٰ؛ لئلا يخطئوا فتصير فتواهم حجَّة للناس والعوامِّ فيأخذون بها، وهي خطأ.

وقوله: «وجدال المنافق بالكتاب» المنافق: هو الذي يُظهر الإسلام، ويُبطن الكفر، ويحفظ القرآن ويقرأ الكتب، ويتعلّم حتىٰ يكون عليم اللسان لا عليم القلب، فتراه يُجادل بالكتاب والسُّنة؛ لأنه يحفظ النُّصوص ويغرِّر بالناس، كما يفعل بعض الكُتاب في وقتنا الحاضر الذين يلتمسون بعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث الشريفة للدلالة علىٰ مقالاتهم الضالَّة، وفي هذا خطر عظيم؛ لأنه إذا ما برز المنافقون في الكتابة

---

(١) في «سننه» (١/ ٨٢) (٩٩).

والتأليف والخطب والمحاضرات والندوات، فستكون الأمةُ علىٰ خطر؛ لأن الناس لا يعلمون نفاقهم، ولا يعلمون أنهم لا يفهمون الكتاب والسنة، فإنهم إذا ما سمعوا الآية، أو الحديث ربما يقتنعون بما صدر عن هؤلاء.

وقوله: «وحُكم الأئمة المضلِّين»: والمراد بهم: السلاطين المضلُّون الجبابرة الذين لا يريدون الحقَّ، فهم يهدمون الإسلام؛ لأن الناس يتبعونهم؛ إما خوفًا من سطوتهم، وإما رغبةً فيما عندهم من حُطام الدُّنيا، فأخطر ما يكون علىٰ المسلمين هؤلاء الأصناف الثلاثة، وقد قال ﷺ: «**إنما أخاف علىٰ أُمتي الأئمَّة المضلِّين**»[(١)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٣)، وأبو داود (٤٢٥٣)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[الدعوة إلى الاقتداء بالسَّلف الصالح]

١٠٠- وعن حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كلُّ عبادةٍ لا يتعبَّدُها أصحابُ رسولِ الله ﷺ فلا تَعبدوها، فإن الأوَّلَ لم يَدَعْ للآخِرِ مَقالًا، فَاتَّقُوا اللهَ يا مَعْشَر القُرَّاء، وَخُذُوا مَنْ كَانَ قَبْلَكُم». رواه أبو داود[١].

الشَّـرْح

هذا مرَّ نحوه في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي فيه قوله ﷺ: «**كلُّهم في النار إلا واحدة**». قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[٢]. وهنا يقول حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تعبدوها.

فالصحابة هم القدوة بعد الرَّسول ﷺ؛ لأنهم تلاميذ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وأخذوا وتلقَّوا العلمَ عنه، وقد قال ﷺ: «**خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونَهُم**»[٣]، فهم أفضل الأُمة، وهم القدوة بعد الرسول ﷺ؛ لأنهم أُمناء علىٰ دين الله، فيؤخذ عنهم العلم والدِّين.

وقوله: «**فإنَّ الأوَّلَ لم يَدَع للآخِر مقالًا**»: أول الأُمَّة؛ وهم الصحابة والتابعون والقرون المفضَّلة لم يَدَعوا لمَنْ جاء بعدهم مقالًا، فقد بيَّنوا الدِّين وبيَّنوا الحقَّ وقعَّدوا القواعد، فهذا فيه الترغيب بالتمسُّك بما كان عليه السلف الصالح، وفيه التحذير ممن جاء بعد القرون المفضلة؛ إلا مَنْ كان سائرًا علىٰ ما كان عليه السلف الصالح من الأئمة الهُداة.

وقوله: «**فاتقوا الله، يا معشر القراء، وخذوا طريق مَن كان قبلكم**». أي: اتبعوا سبيل العلماء، الذين يقرءون كتاب الله ويتَّبعون سُنَّة رسول الله ﷺ، ولا تُحدِثوا شيئًا من عندكم، أو تأخذوا عمَّن جاء بعد هؤلاء.

---

(١) ليس عند أبي داود، وأخرجه بنحوه البخاري (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠١- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا؛ فَلْيَسْتَنَّ بِمَن قَدْ مَات، فَإِنَّ الْحَيَّ لا تُؤْمَن عَليهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّد ﷺ، كَانوا أَفْضَلَ هذِه الأُمَّة؛ أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَها عِلْمًا، وَأَقلَّها تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُم الله لِصُحْبَةِ نَبيِّه ﷺ، وَلإِقَامَة دِينَهُ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبعوهم عَلَىٰ أَثَرِهم، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُم مِنْ أَخْلاقِهِم وسِيَرِهم، فَإِنَّهُمْ كَانوا عَلَىٰ الهُدىٰ المُسْتَقِيم». رواه رَزِين(١).

الشَّرْح

وهذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كانت كلماته كلها حِكْمة ونور، التي رسم فيها الطريق الصحيح التي من خلالها يصل المسلم إلىٰ السُّنة الصحيحة، دون انحراف أو اعوجاج عن الصراط المستقيم.

فقوله: «**مَنْ كان مُستنًّا فليستنَّ بمَنْ قد مات**»؛ لأن الميت قد انتهىٰ، ولا يُخشىٰ عليه من الفتنة، وأمَّا الحيُّ فإنه عُرْضة للفتن، فمَنْ أراد الاقتداء فليقتدِ بالأئمَّة السابقين، وأمَّا بالنسبة لمَنْ جاء بعدهم، فإنه يؤخذ منهم ما وافَقَ الحقَّ، ويُترك ما خالفه.

وقوله: «**أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل الأُمة...**». وهذا مثل قول حذيفة الذي سبق في الأثر السابق، القائل فيه: «كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ، فلا تعبدوها». لِمَا في الصحابة -رضوان الله عليهم- من الصفات التي لا توجد في غيرهم من هذه الأمة؛ لأنهم كانوا «أبرَّها قلوبًا، وأعمَقها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا». فقلوبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أتقىٰ قلوب هذه الأُمة، وعلمُهم راسخ وليس متذبذبًا، وإنما هو ثابتٌ علىٰ الكتاب والسُّنة، ولا يتكلَّفون الكلام وكثرته، وإنما يقتصر كلامهم علىٰ الإفادة.

ولهذا يقول ابن رجب: «كان المتقدِّمون أكثر علمًا، وأقلَّ كلامًا، والمتأخِّرون أكثر كلامًا وأقلَّ علمًا».

(١) كما في «مشكاة المصابيح» (١/ ٤٢).

وقوله: «**اختارهم الله لصُحْبة نبيِّه ﷺ، ولإقامة دينه**»؛ لأنه سبحانه ما اختارهم إلَّا لعلمه بأنهم يصلحون لخلافة النبي ﷺ لأُمته.

وقوله: «**فاعرفوا لهم فضلهم**»: فلا تتنقَّصوهم، أو تتكلَّموا فيهم كما يفعل المبتدعة، وأهل الضلال من الرافضة والمعتزلة وغيرهم، بخلاف أهل السُّنة الذين يقدِّرون الصحابة ويحترمونهم ويجلُّونهم ويترضَّون عنهم، ويقتدون بهم، ويثقون بهم تمام الثقة.

[تحريم المجادلة في كتاب الله]

١٠٢- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَؤُونَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ». رواه أحمد، وابن ماجه(١).

الشَّرح

وإن القرآن كلام الله ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقد فصِّلت آياته، ويصدِّق بعضُه بعضًا ويفسِّر بعضُه بعضًا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فكلام الله -جلَّ وعلا- معصوم من الاختلاف، ومن أن يُناقض بعضُه بعضًا؛ بل يصدِّق بعضُه بعضًا، ويُفسِّر بعضُه بعضًا، وقد قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. فهناك آيات واضحة في نفسها، وهي المُحكمة، وهناك آيات يحتاج في تفسيرها لآيات أخرىٰ؛ لأنه لا يتَّضح المطلوب منها في نفسها؛ بل لابدَّ من ضمِّها إلىٰ الآيات المحكَمة لتفسِّرها.

فطريقة الراسخين في العلم أنهم يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض، فالمُطلق منه تقيِّده آيات أخرىٰ، والمُجمل توضِّحه آيات أخرىٰ، وهناك آيات منسوخة تنسخها آيات أخرىٰ، وهذا يحتاج إلىٰ معرفة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز للإنسان أن يَدْخُل في تفسير كتاب الله دون أن يكون عنده أصول يعرف بها كيف يفسِّر كلام الله، ولذلك وضع العلماء قواعد للتفسير تسمىٰ أصول التفسير، ولابدَّ لطالب العلم أن يعرف هذه القواعد وهذه الأصول.

---

(١) أحمد في «المسند» (٦٩٤٧)، وابن ماجه بمعناه (٨٥).

وأما الذين في قلوبهم زيغ، وهدفهم التلبيس على الناس، وتشكيكهم في دينهم، فإنهم يأخذون المتشابه، ويستدلون به دون أن يردُّوه إلىٰ المُحكم، وسيأتي في الحديث: «**إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذروهم**»(١).

وهناك صنفٌ آخر ليس عندهم زيغ، وإنما عندهم جهل، فلا يُتقنون تفسير القرآن علىٰ الوجه المطلوب، فيأخذون الآيات المتشابهات دون أن يردُّوها إلىٰ المحكمات، ويستدلون بها لا عن زيغٍ؛ ولكن عن جهل، وهذا حرام ولا يجوز، والأول كُفْر؛ لأن الذي يقصد التلبيس فهو كافر.

وأما الذي حمله الجهلُ علىٰ هذا المدخل فهذا يعتبر ضالًّا، والنبي ﷺ، يقول: «**مَنْ قال في القرآن بغير علم؛ فليتبوّأ مَقعدَه من النار**»(٢)، وقال: «**مَن قال في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فقد أخطأ ولو أصاب**»(٣).

فكتابُ الله -جلَّ وعلا-؛ يُجلُّ ويُعظَّم، فلا ينبغي أن يدخل في تفسيره والاستدلال به إلا أهل العلم والرُّسوخ، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. والأمُّ هي التي يرجع إليها الشيء: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾. والناس في ذلك قد انقسموا إلىٰ قسمين:

الأول: وهم أهل الزِّيغ الذين أخذوا المتشابه، وتركوا المُحكَم بقصد التضليل.

الثاني: وهم أهل الرسوخ في العلم، وهم الذين يردُّون المتشابه إلىٰ المحكم، ويقولون: كلٌّ من عند ربِّنا، المحكَم والمتشابه، فلا يأخذون طرفًا ويتركون الطرف الثاني؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضًا.

والنبيُّ ﷺ في هذا الحديث خرج علىٰ الصحابة، وهم يبحثون في بعض الآيات المشكلةَ، فوجَّههم ﷺ، وقال: «**فلا تكذِّبوا بعضَه ببعض، فما عَلمتم منه فقولوا، وما**

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٦٩)، والترمذي (٢٩٥٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جهِلتم فكِلُوه إلىٰ عالِمه»؛ لأن الذي لا يُحسن ولا يتقن فَهْم كلام الله لا يدخل فيه تفسيره، ويتقوَّل علىٰ الله بأنه أراد كذا وكذا، ففي هذا خطر عظيم عليه، وعلىٰ غيره، فإذا كان لا يعلم فليتوقَّف ويرُدُّ عِلْمَهَ إلىٰ عالِمه ﷻ.

والحاصل: أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز الخَوْض فيه إلا بعلم وبصيرة، وإلمام بقواعد وضوابط تفسيره.

وقوله: «**يتدارؤون في القرآن**»: أي: يتدافعون فيُبدي كلٌّ واحد رأيه ويخطئ الآخر فيختلفون في تفسيره.

وقوله: «**إنما هلَكَ مَنْ كان قبلكم**»: أي: من اليهود والنصارىٰ، فحرَّفوا التوراة والإنجيل وغيَّروا فيهما فهلكوا.

وقوله: «**ضربوا كتاب الله بعضَه ببعض**»: يعني: جعلوا بعضَه يُعارض بعضًا في حين أنه لا يتعارض أبدًا؛ ولكن يحتاج إلىٰ عِلْم وبصيرة؛ لئلا يقع هذا التعارض المزعوم.

وقوله: «**وإنما نزَّل كتابُ الله يُصدِّق بعضَه بعضًا...**» إلخ. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فالآيتان مختلفتان في الظاهر، فواحدة تُوجب العِدَّة سنة، والأخرىٰ توجب العدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام، فالعدَّة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام.

وفي هذا يقول العلماء: إن آية الحول منسوخة بآية الأربعة أشهر وعشرة أيام، فالعدة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وأما المتاع للحول فهذا كان في أول الأمر ثم نُسخ، والقرآن يدخله النسخ، قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. فلا تعارض بين الآيتين لأن العمل علىٰ الآية الأولىٰ، وأما الثانية فهي منسوخة.

وفي مثل قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ

﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. فهذه فيها الأمر بالوصية للوالدين، وهي منسوخة بآية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله قد أعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث»[(١)]. فلا يُجمع للوالدين بين الميراث والوصية، ومثل هذا الاستنباط والفهم يحتاج إلىٰ علم وبصيرة، وأصول التفسير تُبيِّن هذه القواعد، وتوضِّحها، وكذلك سُنة الرسول ﷺ تُفسِّر القرآن وتوضِّحه.

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فلم تذكر الآية من أين تُقطع اليد، ولكنَّ الرسول ﷺ بيَّن أن تُقطع من مَفصِل الكفِّ من الذِّراع، فقد بيَّنَتْهُ السُّنة العملية من الرسول ﷺ، ثم لم تذكر الآية أيتهما تُقطع اليمنىٰ أم اليسرىٰ، وقد جاء في قراءة: ﴿فاقطعوا أيمانهما﴾[(٢)]. فهذه القراءة تفسِّر المطلق، وهذا يحتاج إلىٰ سعة عِلْم وبصيرة.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فلم يذكر في الآية عدد الركعات وهيئاتها، ولا عدد الصلوات، فلا نجد بيان هذا وتوضيحه إلا في السنة النبوية الشريفة، وقد بُيِّن في آيات أخرىٰ أوقات الصلوات، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨]. فيفسِّر القرآن بعضه بعضًا، والسُّنة كذلك تفسِّره.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) وبها قرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٤/ ٥٦٩).

ومن ذلك لا نجد مقادير الزكاة المستحقة من الأغنياء للفقراء، وما هي الأموال التي تجب فيها، ومتىٰ تَجِبُ، وكم النِّصاب، فهذا وغيره بينتهُ السُّنة النبوية الشريفة، فلابدَّ من التعقُّل في هذه الأمور، وتركها لأصحاب الرُّسوخ في العلم الذين يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض أو بسُنَّة رسوله ﷺ القولية والعملية.

باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب

١٠٣- فيه حديث الصحيحين[١]، -في فتنة القبر-: «أَنَّ الْمُنَعَّمَ يَقُولُ: جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ؛ فَآمَنَّا وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، وَأَنَّ الْمُعَذَّبَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ».

الشَّرْح

هذا الحديثُ فيه ذمُّ التقليد الأعمىٰ، وذلك أنَّ المعذَّب هو المقلِّد الذي يقول: «سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه». لأنه لا يؤمن به ولم يتعلَّم كتابَ الله وسُنة رسوله ﷺ، ولا حاول أن يتعلَّم أمورَ دينه؛ لأنه لا يهتم به، وإنما أخذ الدِّينَ بالتقليد فقط، وهذا مما ينبغي ألَّا يكون؛ لأنَّ الواجب علىٰ المسلم أن يتعلَّم أمور دينه، والعقيدة لا يجوز فيها التقليد مطلقًا، فلابدَّ للإنسان من أن يتعلَّم عقيدته؛ إمَّا مجملةً، وإما مفصلة حسب الاستطاعة ولا يقلِّد أحدًا فيها، وهذا هو الذي يقوله فيه المعذَّب: سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلتُه؛ بعدما يُجيب بلا أدري إذا ما سئل عن ربِّه ودينه ونبيِّه؛ فالتقليد في العقيدة لا يجوز؛ ولابد من تعلُّمها وأقل الأحوال في ذلك أن يتعلَّم المختصرات في العقيدة المشتملة علىٰ أنواع التوحيد وأنواع الشِّرك، وما يتعلق بهما حتىٰ يعبد الله علىٰ بصيرة.

ويتعلَّم معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويعرف مَنْ هو الرسول ﷺ، فيعرف اسمه، ونسبه، وموطنه، ومتىٰ بُعث -عليه الصلاة والسلام-، ويعرف سيرته، وأين بُعث، وأين هاجر، فلا بدَّ من معرفة ذلك.

وينبغي كذلك معرفة الدِّين، وأركان الإسلام الخمسة، ومعرفة ما هو الإسلام، وتعريفه وحقيقته ومعرفة الأركان الستة للإيمان.

---

(١) البخاري (١٠٥٣)، ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

[فضيلة التفقُّه في الدِّين]

١٠٤- وَفِيهِمَا[١]، عَنْ مُعَاوِيةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

الشَّرْح

في هذا الحديث الوارد في الصحيحين، من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الحثُّ علىٰ التفقُّه في الدِّين، وأنه علىٰ الإنسان ألَّا يجهل أمور دينه؛ بل لابدَّ له من أن يتفقَّه في أمور دينه، والفقه معناه: الفهم، والمراد به هنا: فَهْم أمور دينه علىٰ وجهٍ يتمكَّن فيه من الإتيان به علىٰ الوجه المطلوب والمشروع، لا عن جهل وتقليد، وإنما عن عِلْم وبصيرة.

فالفقه في الدِّين معناه: الفَهْم في الدِّين ومعرفته؛ وذلك بتعلُّمه، فمَنِ اعتنىٰ بدينه وتعلَّمه كان ذلك دليلًا علىٰ أن الله أراد به خيرًا، ومَنْ لم يتعلَّم ولم يتفقَّه أمور دينه كان ذلك دليلًا علىٰ أن الله أراد به شرًّا، فمنطوق الحديث: أنَّ من علامة الخير هو تفقُّه الإنسان في دينه، ومن علامة الشرِّ أن يجهل الإنسان أمور دينه.

والفقه علىٰ قسمين:

الأول: فَرْض عين علىٰ كلِّ مسلم.

والثاني: فرض كفاية.

فالذي هو فرضٌ علىٰ الأعيان، وهو تعلُّم أركان الإسلام الخمسة: التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج، فيتفقَّه المسلم في هذه الأركان، ويعرف معناها لأجل أن يؤدِّها علىٰ بصيرة، وهذا لا يُعذر أحدٌ بجهله، فإن جهله أحدٌ فهو علىٰ خطر عظيم، فتعلُّم الإنسان ما لا يستقيم دينه إلَّا به فهو فرضُ عين.

---

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وأما ما زاد علىٰ ذلك من فِقْهِ المعاملات والمواريث والأنكحة والطلاق والقضاء، فهو فرض كفاية إذا قام به مَن يكفي من الأُمَّة سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركوه كلهم أَثِموا جميعًا؛ لأنه لا بدَّ وأن يوجد هذا العلم حتىٰ يقوم العلماء في الحكم به بين الناس في معاملاتهم ومواريثهم وأنكحتهم وفي القضاء فيما بينهم.

١٠٥- وفيهما[١]، عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الكثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

الشَّرْح

هذا الحديث متضمن للأمثلة النبوية؛ والله -جلَّ وعلا- يَضرب الأمثال للناس، وكذلك النبيُّ ﷺ يضرب الأمثال لتوضيح الأحكام وترسيخها في الأذهان، وهذا مثلٌ عظيم من الأمثال النبوية.

فقد شبَّه النبيُّ ﷺ العلمَ الذي جاء به من الكتاب والسُّنة بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض فأحياها، وكذلك العلم فإنه تُحيىٰ به القلوب، ثم قسَّم ﷺ الناس مع العلم إلىٰ ثلاثة أقسام كأقسام الأرض تمامًا، فالأرض إذا نزل عليها المطر تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يحفظ الماء في الخوالي والأتربة فيُنبت الكلأ والعشب. فيجتمع فيه حفظ الماء والإنبات، فينتفع الناس بالسقي والرِّي، وينتفعون بالعشب والكلأ، وهذا مثله كمثل الفقهاء المحدِّثين الذين حفظوا النُّصوص وتفقَّهُوا فيها، وبيَّنوا فقهها للناس فشرحوها ووضَّحوها، كالأرض التي جمعت الماء، وأنبتت الكلأ، فَحِفظُ العلماء للنصوص والأحاديث مَثله كمثل جمع الماء في الغدران وفي باطن الأرض، وتفقههم مثله كمثل إنبات الكلأ، فهؤلاء يُقال لهم: فقهاء الحديث، كالإمام أحمد، والشافعي، ومالك، والبخاري ونحوهم ممَّن جمع بين الحفظ والفهم الذي هو

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

الفِقْه، وهؤلاء أفضل طبقات العلماء.

والقسم الثاني: هي الأرض الصُّلْبة التي لا تُنبت، ولا تُنتج؛ ولكنها مشتملةٌ علىٰ مخابي الماء التي ينتفع بها الناس، فيشربون منها، ومَثَل ذلك كمَثَل حُفّاظ الحديث والنصوص الذين اعتنوا بأسانيدها وميَّزوا الصحيح منها من غيره، فاعتَنَوا بحفظ السُّنة دون أن يكون لديهم فِقْه بهذه النصوص.

فكما تنفع الأرض الجدباء التي تحتفظ بالماء الذي ينتفع به الناس، فكذلك ينفع هؤلاء الحفاظ الناسَ بما حفظوه لهم من النصوص التي نفع الله بها بسبب حفظهم لسُنة نبيه ﷺ، وتدوينهم لها، فهؤلاء فيهم خير كثير لا يصل إلىٰ درجة الصنف الأول الذين جمعوا بين الحِفْظ والفقه.

والقسم الثالث: الأرض الجدباء التي لا تُمسك ماء، ولا تُنبت كلأً، وهذه مَثلُها كمثل الذين لا يحفظون ولا يتفقَّهون، وهذا القسم هو شرُّ الأقسام، الذي لا يُستفاد منه بشيء كالأرض السَّبِخة التي لا تنتفع بالماء، ولا تُمسِكُه لينتفع به الناس، وكذلك هذا النوع الثالث من الناس الذين ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه فلا هم نفعوا أنفسهم، ولا غيرهم.

وفي هذا الحديث أنواعٌ من العلم منها ضربُ الأمثال، وفَضْل العلم والتعليم وشدَّة الحثِّ عليه وذم الإعراض عنه.

١٠٦- ولهما[١]، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مرفوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ».

الشَّرْح

هذا الحديث سبق ذِكْره في مسألة المتشابه من القرآن، وذكرنا أن المتشابه هو الذي لا يتَّضح معناه بنفسه، وإنما بإرجاعه إلىٰ غيره من النصوص، وهذا لا يُستدلُّ به منفردًا؛ بل يُرجع فيه إلىٰ المحكم فيُردُّ إليه ليُفسِّره.

فالراسخون في العلم يجمعون بين النصوص، فيردون المتشابه إلىٰ المحكم، وأما أهل الزَّيغ فيأخذون المتشابه، ويتركون المحكم؛ ولهذا قال ﷺ: «**إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشبه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ الله**». والمراد من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. يعني: تفسيره بمفرده، وهو لا يفسَّر إلَّا بردِّه إلىٰ المُحكَم، ولا يفسَّر بالرأي، هذا إذا أُريد بالتأويل: التفسير.

وأمَّا إذا أُريد بالتأويل ما تئول إليه هذه الأخبار في المستقبل فهذا لا يعلمه إلَّا الله، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. والمراد بتأويله هنا: مآلهُ، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رفع أبويه علىٰ العرش وخرُّوا له سجدًا: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ وتأويلها: مآلها، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]. فالتأويل علىٰ قسمين:

الأول: تأويل يُراد به التفسير، وهذا يعرفه العلماء الراسخون في العلم.

والثاني: تأويل يُراد به ما يئول إليه المغيَّب من الأخبار كأخبار الآخرة والجنة والنار، فهذه لا تُعلمُ حقيقته إلّا إذا وقعت مستقبلًا، وهذا لا يعلمه إلا الله -جلَّ وعلا.

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥)

[مَنْ هم حواريُّو الأنبياء]

١٠٧- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ». رواه مسلم(١).

الشَّرْح

في هذا الحديثِ: بيانُ أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يكون لهم أصحاب وحواريُّون، أي: أنصار ينصرونهم، ويأخذون عنهم العلم، ويتلقَّون عنهم الشريعة، ويعلمون بها، وهؤلاء الذين أخذوا عن رسول الله ﷺ هم خير القرون، كما قال ﷺ: **«خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**(٢).

وذلك لأنهم تلقَّوا عنه ﷺ الكتابَ والسُّنة والشريعة فبلَّغوها بأمانة وعملوا بها، فهؤلاء الذين يكونون مع الأنبياء من الحواريِّين والأنصار وهم أفضل الأمم.

وقوله ﷺ: **«تخلُفُ مِنْ بعدهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون»**. وهم المتأخِّرون الذين يخالف قولُهم فِعلَهم، فلا يعملون بما علموه من الحقِّ، وإنما يعملون أشياء لم يؤمروا بها، ويتعبَّدون بأشياء ابتدعوها من عند أنفسهم وبمحدثات أحدثوها، فيتركون السُّنن ويعملون بالبدع والمحدثات، وهذا شيء واقع، فنجد كثيرًا من هؤلاء الآن لا يلتفتون إلىٰ السُّنن وإنما يحرصون علىٰ العمل بالبدع، فلا يُبالون بالسُّنن والأوامر الإلهية وإنما يعبدون الله علىٰ حسب ما تستحسنه أهواؤهم

---

(١) برقم (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وما يأمرهم به أكابرهم وقادتهم، فهم يفعلون ما لا يؤمرون.

وفي هذا بيان الفَرْق بين السَّلف والخَلَفِ، وهو أن السَّلف يتقيَّدون بأوامر الله وسُنَّة رسوله ﷺ في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، فيمتثلون للكتاب والسنة ويتجنبون البدع والمحدثات، وأما الخلف فعلىٰ العكس من ذلك، فهم يتركون السُّنن ويعملون بالبدع والمحدثات.

وقوله ﷺ: «**فمَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن**». وهذا كقوله ﷺ: «**مَنْ رأىٰ منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[(١)]. فعلىٰ أصحاب السلطة مجاهدة هؤلاء المبتدعة، وأصحاب الضلال باليد، ومَنْعِهم من هذه الأمور، ومَنْ لم يكن عنده سلطة ولديه علم فإنه يجاهدهم باللسان، وذلك بالردِّ والتعقيب عليهم، وبيان الباطل الذي يعملون به، ومَنْ لم يكن عنده علم، ولا سلطة، فإنه يكرههم بقلبه، ويترك ما هم عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[النهيُ عن الأخذ من اليهود والنصارى]

١٠٨- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَىٰ أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ، كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي». رواه أحمد[١].

الشَّرْح

لقد قال ما قاله ﷺ في الحديث؛ لأن شريعته شريعة كاملة؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فهي شريعة كاملة وشاملة لمتطلبات الناس إلىٰ أن تقوم الساعةُ، وهي أيضًا شريعة ناسخة لما قبلها من الشرائع، فيجب العمل بالناسخ وتَرْكِ المنسوخ.

فلا يجوز لنا أن نأتي بشيء من التوراة أو من الإنجيل، وننشره بين الناس؛ لأن في شريعتنا ما يكفي الجن والإنس، ويكفي لجميع الأزمان إلىٰ أن تقوم الساعة.

فينبغي الاقتصار علىٰ سُنة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أنكر علىٰ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأىٰ معه أوراقًا من التوراة، وقال له: إنا نسمع أحاديث من يهود فتعجبنا، أفترىٰ أن نكتب بعضها؟ فقال ﷺ: «**لو كان موسىٰ حيًّا، ما وسعه إلا اتِّباعي**». وذلك لأن شريعة موسىٰ نُسخت، وأُمر الجميع باتِّباع الرسول ﷺ.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ

---

(١) في «المسند» برقم (١٥١٥٦).

وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يسمعُ بي يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموت، ولم يؤمن بما أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[١]. فالذي يبقىٰ علىٰ النصرانية بعد بعثة الرسول ﷺ، أو يبقىٰ علىٰ اليهودية إنما هو من أهل النار؛ لأنه ترك ما أمره الله به من اتِّباع هذا الرسول ﷺ.

(١) الدارقطني (٤/ ١٩٣)(٤٣)، والبيهقي (٣/ ١٢) (١٢٥٠٩)

[أقسام أمور الدِّين]

١٠٩- وعن أبي ثعلبة الخُشَنّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رواه الدارقطني وغيره[1].

الشَّرْح

ذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ أمور الدِّين علىٰ أربعة أقسام:

الأول: الواجب والفرائض، وهذا لا يجوز أن يُضيَّع شيء منها؛ بل يجب الإتيان بها.

والثاني: المحرمات التي حرَّمها الله، وهذه يجبُ تجنُّبها والابتعاد عنها، وعدم فِعْلِ شيء منها.

الثالث: الحُدود، وهي المباحات التي أباحها الله وأحلَّها للناس، فلا ينبغي تعدِّي الحلال إلىٰ الحرام؛ قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحدود الله تُطلق، ويُراد بها المباحات، فيُقال: لا تعتدوها وتُطلق ويُراد بها المحرمات، فيقال: فلا تقربوها؛ يعني: ابتعدوا عنها وعن الوسائل الموصلة إليها، وأمَّا المباحات فلا تتعدُّوها إلىٰ الحرام.

الرابع: المسكوت عنه الذي لم يُفرض ولم يُحرَّم ولا يوجد دليل علىٰ إباحته، وسكت الله عنه فنسكتُ عنه، وهذا معفوٌّ عنه، فلا نبحث فيه من حيث هو حلال أو حرام، فلا دليل علىٰ تحريمه، ولا علىٰ إباحته، ولا علىٰ أنه واجب، فيَسَعُنا السكوت عنه؛ لأنه لو كان لنا به حاجة لبيَّنه الله لنا.

وفي هذا الحديث: أنه يجب فِعْلُ الواجبات، وتركُ المحرَّمات والاقتصار علىٰ المباحات، والسكوت عن المسكوت عنه، ومثل هذا كان في وقت النبي ﷺ، ولهذا

---

(١) الدارقطني (٤/ ١٩٣) (٤٢)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣/ ١٢) (١٢٥٠٩).

جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٠١].

فهل هذا يعني: ترك البحث عن المسكوت عنه في عهد الرسول ﷺ أم هو عامٌّ إلىٰ أن تقوم الساعة؟

الظاهر -والله أعلم-: أنه عامٌّ إلىٰ أن تقوم الساعة، فالمسكوت عنه الذي لا دليل علىٰ إيجابه، ولا علىٰ تحريمه، ولا علىٰ إباحته، فإننا نسكت عنه، كما سكت الله عنه، والله -جلَّ وعلا- لم يسكت عنه نسيانًا؛ لأن الله لا ينسىٰ، وإنما سكت عنه رحمةً بالعباد، ولهذا قال عنه ﷺ: «**رحمة لكم غير نسيان**».

ومن هنا قال العلماء سؤال أهل العلم على قسمين:

الأول: السؤال الذي القصد منه التعنُّت والمباهاة، وإظهار العلم مباهاة، وهذا لا يجوز، وهذا مثل أسئلة بني إسرائيل لأنبيائهم كما قال ﷺ: «**إنما هلك مَنْ كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

فالسؤال الذي يُقصد به التعنُّت، أو التنطُّع أمر مرفوضٌ، ولا يجوز.

الثاني: السؤال الذي يُقصد به معرفة الحكم الشرعي، فهو مأمورٌ به، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[النهي عن الاختلاف والتفرُّق]

١١٠- وَفِي الصَّحِيحين[١]، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ».

الشَّـرْح

قوله ﷺ: **«ما نَهيتُكم عنه فاجتنبوه»**. هذا كقوله ﷺ: **«إن الله حرَّم أشياء فلا تنتهكوها»**[٢]. فالحرام يُجتنب كلُّه، وأما المأمور به فيُؤتىٰ منه بالمستطاع، ولهذا قال ﷺ: **«ما أمرتُكم به فأتوا منه ما استطعتم»**. بخلاف الحرام فإنه يُجتنب كلُّه.

وذلك لأنَّ اجتنابه سهلٌ، ولكن قد يكون في المأمورات شيء لا يُستطاع، فقد لا يستطيع المريض أن يتوضَّأ فإنه يتيمَّم، ولا يستطيع أن يصلي قائمًا فيصلِّي جالسًا، فإن لم يستطع فإنه يصلِّي علىٰ جنب، فقد تأتي أحيانًا أحوالٌ لا يستطيع الإنسان فيها أن يُطبِّق الأمر تمامًا فإنه يفعل ما يستطيع منه، وهذا من تيسير الله ﷻ، فالأمر يُؤتىٰ منه يستطاع؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأمَّا النهيُ فإنه سهل تجنُّبه؛ ولهذا قال ﷺ: **«وما نهيتكم عنه، فاجتنبوه»**. أي: كلُّه.

وأما قوله ﷺ: **«فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم»**. هذا كحديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق في قوله ﷺ: **«وسكت عن أشياءَ رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»**.

ويوضِّح ذلك أن الرسول ﷺ قال: **«أيها الناسُ، قد فَرض الله عليكم الحجَّ**

---

(١) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٩٣) (٤٣)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٢) (١٢٥٠٩) من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فحُجُّوا». فقال رجلٌ: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتىٰ قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: «**نعم لوَجَبت ولما استطعتم**». ثم قال: «**ذروني ما تركتُكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيء فادعوه**»(١).

ومثل ذلك ما ذكره الله عن بني إسرائيل حينما أمرهم الله علىٰ لسان نبيه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنْ يذبحوا بقرة، فلو أنهم أخذوا أيّ بقرةٍ وذبحوها لحصل المطلوب؛ ولكنهم قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٨-٧١].

شدَّدوا علىٰ أنفسهم فشدَّد الله عليهم، وهذا من سوء أدبهم مع الله عَزَّوَجَلَّ، ولو أنهم أخذوا أيّ بقرة وذبحوها لحصل المطلوب! وهذا من تعنُّتات بني إسرائيل، وقد نُهينا أن نفعل مثل فعلهم مع نبينا -عليه الصلاة والسلام-، بل أُمرنا أن نتأدَّب معه، ونفعل ما أُمرنا به، أو نفعل ما نستطيع، وما نهانا عنه اجتنبناه، وما سكت عنه نسكت عنه، هذا هو الأدب مع النبوة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[فضيلة طلب الحديث، والنصيحة للمسلمين]

١١١- وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا، سَمِعَ مَقَالَتِي؛ فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ: ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ الْعَمَلِ للهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ». رواه الشافعي، والبيهقي في «المدخل»، ورواه أحمد، وابن ماجه، والدارمي، عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

١١٢- ورواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

الشَّرْح

هذا الحديث يشتمل على مسألتين:

الأولى: طلب الحديث.

الثاني: النصيحة لله وللمسلمين.

أما الأولى: ففي قوله ﷺ: **«نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتي؛ فحفظها، ووعاها، وأداها»**: ففي هذا الحثُّ علىٰ العناية بسُنَّة الرسول ﷺ فقوله ﷺ: «مقالتي». أي: حديثه ﷺ؛ لأنَّ أحاديث الرسول ﷺ هي الوحي الثاني بعد القرآن الكريم، فهي من عند الله عَزَّ وَجَلَّ والرسول ﷺ إنما هو مبلِّغ، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]

ولهذا يقول العلماء: السنة هي الوحي الثاني، فهي في الدَّرجة الثانية بعد القرآن في

---

(١) الشافعي في «مسنده» (١/ ٢٤٠) (١١٩٠)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٢٣)، والترمذي (٢٦٥٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٢٩)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، ولم يخرجه أحمد من حديث زيد بن ثابت.

الاحتجاج والعمل؛ ولا بدَّ من العناية بها من خلال حفظ الأحاديث، كما جاءت عن الرَّسول ﷺ بألفاظها من غير تغيير، والوعي الوارد في قوله ﷺ: **«ووَعاها»**. معناه: الفقه فيها؛ فلا يكفي الحفظ وحده، وإنما الحفظ مع الفِقْه ومعرفة معانيها، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الفقه مع الحفظ؛ لينتفع المسلمون بسُنَّتِه ﷺ.

ولا يكفي أن يحفظ المسلم الأحاديث ويفقه معناها؛ بل لابد وأن يُبلِّغها إلىٰ غيره، فينبغي علىٰ طالب العلم إذا عَلم شيئًا ألَّا يكتمه؛ بل يُبلِّغه إلىٰ غيره؛ لأن هذا العلم للأُمة إلىٰ أن تقوم الساعة.

وقوله ﷺ: **«فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيهٍ»**؛ لأن حامل الفقه إذا بلَّغه إلىٰ غيره فربما يكون هذا المبلِّغ أعرف لمعناه وأفقه.

وفي هذا بيانٌ أنه لا ينبغي للمرء أن يُزكِّي نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. فقد يحفظ المرءُ الحديث ولا يتَّضح له معناه، فيُبلِّغه إلىٰ مَنْ هو أفقه منه، فيستنبط منه ما لا يفهمه الحامل له، فإذا بلَّغه برئت ذمَّتُه، وأوصل العلمَ إلىٰ غيره، فيحصل بذلك الخير الكثير.

فيتضح من المسألة الأولىٰ الحثُّ علىٰ حفظ الأحاديث النبوية والتفقُّه في معانيها وإبلاغها للغير من المسلمين.

فيه أيضًا: النهيُ عن كتمان العلم، والنهيُ عن تزكية النفس وألَّا يرىٰ المرء نفسَه بأنه صار فقيهًا وأنه أفقه من غيره؛ بل هناك مَنْ هو أفقَهُ منه، وهذه سُنة الله في خَلْقه؛ حيث إن الناس يتفاضلون فيما يُعطيهم الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا خَفِيَ علىٰ أحدهم شيءٌ فهناك من المسلمين مَنْ لا يخفىٰ عليه هذا الشيء، إذا بلغه الحديث أو الخبر، فلا ينبغي للمرء أن يقتصر علىٰ فهمه، أو أنْ يظنَّ أن هذا الحديث لا يُفهم معناه؛ لأن هناك مَنْ يفهم معناه.

المسألة الثانية: تتمثل في قوله ﷺ: **«ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم؛ إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تُحيطُ مِنْ ورائهم»**.

فقوله ﷺ: «**ثلاث**». أي: ثلاث خِصَال «**لا يَغِلُّ**» من الغِلّ، وهو: الحقد، «**عليهنَّ قلبُ مسلم**»: بمعنىٰ: أن هذه الثلاث خصال تطهِّر قلب المسلم من الغِل الذي هو الحقد والبُغض للمسلمين.

الخصلة الأولى: «**إخلاص العمل لله**» وهي مما يطهِّر القلب من الحقد، ويجمع القلوب، فإنَّ القلوب إنما اجتمعت علىٰ التوحيد، فالله -جلَّ وعلا- أَلَّف بين قلوب المسلمين بكلمة لا إله إلا الله، فلما صار المعبود واحدًا، تألَّفت قلوبهم، ولما كانوا يعبدون آلهة متفرِّقة تعادوا فيما بينهم؛ فالتوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله يوحِّد القلوب ويجمعها علىٰ معبود واحد، وعلىٰ عبادة واحدة؛ فيجب أن يكون العمل خالصًا لله خاليًا من الشرِّك، فلا يُعبد الله ويُعبد معه غيره، فيُذبح ويُنذرَ لغير الله، ولا تجوز الاستغاثة بالأموات والأولياء والصالحين؛ لأنَّ هذا لا يكون فيه إخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والله -جلَّ وعلا- لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، وصوابًا علىٰ سُنَّة رسوله ﷺ.

وأما ما كان فيه شِرْكٌ فإنَّ الله لا يقبله، ولا يقبل من المشرك عبادة ولا عملًا، فيحبط عمل المشرك، ولا تبقىٰ لا عبادة ولا أجرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والخصلة الثانية: متمثلة في قوله ﷺ: «**النصيحة للمسلمين**»: وتعني: عدم الغشِّ، والناصح ضد الغاشّ، فالمسلم لا يغش المسلمين في جميع تصرفاته معهم، وإنما تكون تصرُّفاته معهم علىٰ النصيحة وعدم الغشِّ في جميع الأمور، فلا يخدعهم ولا يغشُّهم في البيع والمعاملات، ولا في المشورة إذا استشاروه، ولا يرضىٰ لهم الخطأ وإنما يريد لهم الصواب؛ لأنه ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يُحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه**»[1]. فيكون مع المسلمين ناصحًا لهم في كلِّ الأمور، ولا يكِنُّ لهم الغدر والخيانة والغش والخديعة، فكما أنه لا يرضىٰ لنفسه بذلك، فإنه يجب ألَّا يرضاه لإخوانه المسلمين.

(١) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والخصلة الثالثة: متمثِّلة في قوله ﷺ : «**ولزوم جماعتهم**»: وهذه خصلة عظيمة، ولذلك فإنه يجب لزوم جماعة المسلمين وعدم مخالفتهم والشُّذوذ عنهم، ولو برأي أو قول أو فعل، وكذلك لا يجوز الخروج علىٰ إمام المسلمين؛ لأن فيه خروجًا علىٰ جماعة المسلمين؛ ولأنه لا تكون جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، وعليه يجب عدم الذهاب مع الأحزاب والجماعات والمذاهب المختلفة، واتباع الأقوال الشاذة؛ بل يجب البقاء مع المسلمين وعلىٰ ما هم عليه في القول والعمل؛ لاسيما عند الفتن والاختلاف.

فإن النبي ﷺ لما أخبر عن الفتن التي تحدث، قال له حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : «فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم**». قال: فإن لم يكن له جماعةٌ، ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**»(١) .

فعلىٰ المسلم: أن يتجنَّبَ الاختلاف والشِّقاق، ومخالفة المسلمين، ويلزم الجماعة؛ لأن هذا أنجىٰ وأسلم له، وأبعد له عن الفتن، وهذا نحتاجه في هذه الأيام وما بعدها، لكثرة الأهواء والآراء والدَّعوات المُضلِّلة، ولتسلُّط الأعداء وإثارة الشُّبهات والأحقاد، فعلىٰ المرء أن يلزم جماعة المسلمين وألَّا يفترق ويخالف جماعتهم.

وقوله ﷺ : «**فإنَّ دعوتَهم تُحيط مَنْ وراءَهم**»: المراد بالدَّعوة هنا: الدَّعوة إلىٰ الإسلام، وأنه إذا اجتمع المسلمون، فإنَّ دعوتهم إلىٰ الإسلام «**تُحيط مَنْ وراءهم**» بمعنىٰ: أنها تصل إلىٰ مَنْ سواهم من الخَلْق، وأنهم إذا اختلفوا فإنهم سيشتغلون بأنفسهم وستنقطع الدَّعوة التي أُمروا بها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

فنحن قد كُلِّفنا بدعوة البشرية، وهي مسئولية حمَّلنا الله إيَّاها؛ لأن الله اختار الرسول ﷺ من العرب، وأنزل القرآن بلغتهم، وأمرهم أن يدعوا الناس، فقال ﷻ :

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]. والبيِّنات جاءت من عند الله تعالىٰ، فيجب التمسُّك بها والاجتماع عليها لتكون هي مصدر قولنا وفعلنا.

وأما الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فقد توعَّدهم الله بأن لهم عذابًا عظيمًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: أهل الكتاب، وسبب تفرقُّهم، وتركهم للبينات أنهم اتبعوا أهوائهم.

فالواجب هو اتِّباع الهدىٰ، وعدم اتِّباع الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. ولهذا ينبغي التمسُّك بالهدىٰ وهو الكتاب والسُّنة، ففيهما البيِّنات التي أنزلها الله علينا، فلا عُذر لنا والكتاب والسنة بين أيدينا، فلا ينبغي أن نختلف ونتبع أهواءنا وأقوالَ الناس والقادة والأئمَّة من أهل الضلال، ونترك حبل الله المتين الذي أُمرنا بالتمسُّك به؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[أصل علوم الدِّين ثلاث]

١١٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلاثٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ، فَهُوَ فَضْلٌ». رواه الدارمي وأبو داود(١).

الشَّرح

قوله ﷺ: «**العلمُ ثلاثٌ**»: أي: أصل علوم الدِّين ومسائل الشرع التي تَهُمُّ المسلم في دينه ودُنياه.

وقوله: «**أيةٌ محكمة**»: أي: من القرآن الكريم؛ والمُحكَم هو غير المنسوخ وغير المُتشابه، فالآية المحكمة هي غير المنسوخة، ولا المتشابهة، وهي الدليل الصريح التي يجب الأخذُ بها، وأمّا الاستدلال بالمتشابه، فهي طريقة أهل الزَّيغ، ومن المعلوم أن الأخذ بالمنسوخ لا يجوز؛ لأنه لا يُعمل به، وإنما يعمل بالناسخ، ومَنْ عمل بالمنسوخ اعتُبر ضالًّا، والله -جلَّ وعلا- ينسخ ما يشاء لحِكْمة، فينبغي الأخذ بالناسخ وترك المنسوخ، والعمل بالمنسوخ ضلال، وهو عمل بغير دليل.

وقوله: «**سُنَّة قائمة**»: أي: من سُنن الرسول ﷺ، والسُّنة تُطلق ويراد بها الطريقة التي عليها الرَّسولُ ﷺ، وتطلق علىٰ ما ثبت عن الرَّسول ﷺ من قولٍ، أو فِعْلٍ، أو تقرير، وهي الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، فيجب العمل بها بعد كتاب الله -جلَّ وعلا-.

وقوله: «**قائمة**»: يعني: ثابتة، إسنادًا أو حكمًا بألَّا تكون منسوخة، وهي الدائمة المستمرة المتصل بها العمل.

وقوله: «**فريضة عادلة**»: أي: في المواريث؛ لأن الله ﷻ قسَّم المواريث في كتابه

(١) أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، ولم نقف عليه عند الدارمي.

الكريم، وفي سُنَّة نبيِّه ﷺ وأعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يجوز التلاعب بالمواريث وحرمان الوارث وإعطاء غيره؛ لأن الله تعالىٰ لما ذكر المواريث قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فسمَّاها حدودًا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤]. المواريث من حدود الله عَزَّوَجَلَّ فلا يجوز تعدِّيها، ولا التلاعب بها، وإنما يُعمل بها فيُعطىٰ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير.

وفي هذا الحثُّ علىٰ تعلُّم أحكام المواريث، وقد حثَّ ﷺ علىٰ تعلُّمه، وأخبر أنه أوَّل علم يُرفع من الأُمة حتىٰ يتنازع الاثنان في فريضة فلا يجدان مَنْ يحكم بينهما.

فتعلُّم المواريث يُؤدِّي إلىٰ وصول الحقوق إلىٰ أصحابها، وهو علمٌ عظيم؛ ولكنه يُنسىٰ كما في الحديث: «**تعلَّموا الفرائض، وعلِّموها، فإنه نصفُ العلم، وهو ينسىٰ، وهو أول شيء يُنزع من أُمَّتي**»[(١)]. فهو علمٌ فيه صُعوبة ولابدَّ من المِران والصبر عليه؛ لئلا تضيع الحقوق والمواريث.

وقوله: «**وما سوىٰ ذلك فهو فَضْلٌ**»: أي: وما سوىٰ هذه العلوم الثلاث فهو زيادة، وهي زيادة خير، وعلوم مكمِّلة لهذه الثلاث.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[تحريم تفسير القرآن برأي]

١١٤- وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رواه الترمذي[١].

١١٥- وَفِي رِوَايَة: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رواه الترمذي[٢].

الشَّـرْح

في هذين الحديثين الوعيد الشديد علىٰ مَنْ فسَّر القرآن برأيه دون رجوع إلىٰ مصادر التفسير الصحيحة، ولهذا شدَّد ﷺ علىٰ مَنْ يفسِّر القرآن بغير علم، وذكر أنه استوجب دخول النار، فقال: «**فليتبوَّأ مقعده من النار**». وجاء في رواية: أنه قال: «**مَنْ قال: في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[٣]. والحديث ساقه ابن كثير في أول «تفسيره» وجوَّد إسناده[٤].

ففي الحديثين الوعيد الشديد علىٰ مَنْ يفسِّر القرآن بغير عِلْم أو برأيه؛ لأن القرآن يفسِّر بأربعة أشياءَ -ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في أول «تفسيره»-:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضًا.

الثاني: تفسير القرآن بالسُّنة النبوية؛ لأنَّ الرسول ﷺ مُبيِّن للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

الثالث: تفسير الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ لأنهم تلقَّوا عن الرسول ﷺ تفسير القرآن.

---

(١) برقم (٢٩٥١).

(٢) برقم (٢٩٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: «تفسيره» (١/ ٦).

الرابع: تفسير التابعين؛ لأنهم أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله ﷺ.

وهناك طريقة خامسة لتفسير القرآن الكريم، وذلك باللغة العربية التي نزل بها، فأول ما يُبدأ به تفسير القرآن، هو تفسير بعضه ببعض، فإن لم يوجد فمن السُّنة، وإن لم يوجد في السنة فإنه يُفسَّر بتفسير الصحابة، فإن لم يوجد فبتفسير التابعين، فإن لم يوجد فإنه يرجع في ذلك إلىٰ اللغة العربية التي نزل بها.

فهذه هي مصادر التفسير، وليس هناك مصدر آخر غير هذه المصادر، وأما تفسير القرآن بالرأي، ففيه الوعيد الشديد.

ومن هنا نأخذ بأن الذين يفسِّرون القرآن الآن بآرائهم وبالفَرْضيات الحديثة، وبالنظريات أو ما يُسمَّىٰ بالإعجاز العلمي، إنما هم داخلون فيمَن قال في القرآن برأيه، فلا ينبغي أن تُجعل هذه الأمور تفسيرًا لكلام الله تعالىٰ؛ لأنها عمل بشريّ يخطئ ويُصيب، وهذه النظريات تتغيَّر فقد تأتي نظريات أخرىٰ تغيِّرها فلا تُجعل تفسيرًا لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

[خطورة الإفتاء بغير علم]

١١٦- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَفْتَىٰ بِغَيْرِ عِلْم كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَىٰ أَخِيهِ بِأَمْرٍ، يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ خَانَهُ». رواه أبو داود[(١)].

الشَّرح

قوله ﷺ: «مَنْ أُفتي بغير علم»: هو الجاهل الذي يسأل مَنْ يؤمِّل فيه العلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فالمستفتي عمل بما أُمر به إذا تحرَّىٰ أعلمَ مَنْ يَجد وأتقاهم، وأمَّا إذا لم يكن قد تحرَّىٰ، وإنما بحث عمَّن يُرخِّص له ويبحث له عن المخارج، فهذا ممَّن لم يسأل أهل الذِّكر، وإنما سأل أصحاب الهوىٰ والجَهْل، فصار بذلك من أصحاب الهوىٰ والجهل بخلاف الذي تحرَّىٰ أهل العلم هم أفضل مَنْ يجدهم ليسألهم، وتكون المسئولية حينئذٍ علىٰ المفتي إذا أفتاه بغير علم أو بهوًىٰ.

ولهذا قال ﷺ: «كان إثْمُه علىٰ مَنْ أفتاه»: فالمستفتي لم يُقصِّر بعد أن بحث في الناس واختار مَنْ يرىٰ أنه الأحسن، فهو بَذَل وُسْعَه في تحرِّي المفتي الذي يبيِّن له الحقَّ، فيجب علىٰ المفتي حينئذٍ أن يُفتيه بعلم، وإذا لم يكن عنده علم في المسألة، فإنه يجب عليه أن يتوقَّف ويقول: الله أعلم، أو اذهب إلىٰ غيري، بخلاف ما لو تسرَّع وأفتىٰ بغير عِلْم، فإن الإثم يكون حينئذٍ عليه.

ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يُجيب في المسائل التي يُسأل عنها، ولم يكن نزل عليه الوحي بعدُ، وإنما كان ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي، والعلم من الله -جلَّ وعلا-، فكيف بغيره؟!

---

(١) برقم (٣٦٥٧).

وقد جاء إلىٰ الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة- رجلٌ من بعيد، وسأل عن أربعين مسألة، فأفتاه في أربع مسائل، وقال في ستٍّ وثلاثين: لا أدري، فقال الرَّجل: جئتك من بعيد أسألك وتقول: لا أدري؟! فقال له: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا، فقال: لا أدري!

ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا ترك العالم لا أدري أُصيبت مقاتله[1].

فعلىٰ المرء أن يتوقَّف عن المسألة التي لا يعلمها، ولو كان من أكثر أهل بلده علمًا، أو يُحيلَ السائلَ إلىٰ مَنْ هو أعلم منه، فإنه لو فعل ذلك دلَّ هذا علىٰ فَضْله لا نَقْصِه، وقد كان العلماء -وإلىٰ وقت قريب- إذا لم يكن عندهم جواب، قالوا: لا ندري، ولا يعتبرون هذا نقصًا، وإنما يعتبرونه من خوف الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذا الحديث بيان شدَّة خطر الفتوىٰ، وأنه يجب علىٰ المفتي أن يتثبَّت، ولا يُفتي إلا بما ظهر له من الحكم الشرعي، فإن كان عنده علمٌ، قال به، وإلا اعتذر عن الإجابة خوف الوقوع في الإثم، وهذا ما كان يفعله سَلفُنا الصالح بخلاف ما نشاهده في وقتنا الحاضر الذي كثُر فيه الجهل، وكثُر المفتون والمفتونون الذين يفتنون الناس، وكثُر المُتعالِمون لقلَّة الورع والخوف من الله تَعَالَىٰ، فعلىٰ مَنْ سُئل وليس عنده معرفة بالجواب، أن يقول: لا أدري؛ فهذا هو المَخرج له أمام الله تَعَالَىٰ.

وقوله: «**ومَنْ أشار علىٰ أخيه بأمرٍ يعلم أنَّ الرُّشد في غيره فقد خانه**»: المشورة نوع من الاستفتاء إلَّا أن المشورة في الاستفتاء تكون في مسائل الشرع، وأما المشورة المذكورة هنا فتكون في أمور التجربة والأمور غير الشرعية.

فالواجب على مَنِ استُشير: أن يدلَّ مَنِ استشاره علىٰ ما يراه خيرًا له، فإن دلَّه علىٰ غير ما يراه خيرًا فقد خانه؛ لأن المستشير كان قد ائتمنه علىٰ أن يدلَّه علىٰ ما يراه، فإذا دلَّه علىٰ غير ما يراه كانت هذه خيانة من المستشار، فالواجب علىٰ المستشار أن يُبدي المشورة الصحيحة.

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٢٧٥).

١١٧- وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الأُغْلُوطَاتِ». رواه أبو داود، أيضًا[١].

الشَّرْح

قوله: «**الأُغلوطات**»: جمع أُغلوطة، وهي: المسائل التي قُصد بها غلط العلماء والمسئولين؛ ليَزِلُّوا فيحصل بذلك شرٌّ وفتنة؛ وهذا لا يجوز، وقد نهىٰ النبيُّ ﷺ عن كثرة السؤال، وقال: «**إنما أُهلك الذين مِن قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم**»[٢]. فلا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا بقدر ما يحتاج، وأن يترك الأسئلة التي لا يكون بحاجة إليها، ومن باب أَوْلىٰ الأسئلة التي لا يقصد بها الاستفادة، وإنما يقصد تغليط العالِم، أو تغليط المعلِّم، وهذا أمرٌ لا يجوز.

ولا شكَّ أن العالِم مهما بلغ من العلم فربما يغلط؛ لأنه لا يعلم كلَّ شيء، وقد يُفاجأ بسؤال وليس عنده له جواب، فإن أجاب بخطأ أُشْكِل، وإن قال: لا أدري، قد لا يحتمل بعض الناس قوله: لا أدري.

فالواجب على السائلين: أن يتأدَّبوا في السؤال، فيسألوا بقدر ما يحتاجون، وأن يقصدوا بسؤالهم التعلُّم، لا إظهار فهمهم، أو تغليط المسئول، فإنَّ هذا قد نهىٰ عنه الرسول ﷺ.

---

(١) برقم (٣٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[فضيلة طلب العلم]

١١٨- وعن كثير بن قيسٍ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاء -فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ- فَجَاءَ رَجلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاء، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَة الرَّسُول ﷺ؛ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ، أَنَّكَ تُحدِّثُه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا جِئْتك لِحَاجَة، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا؛ يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْم، وَإِنَّ الْعَالِمَ؛ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوات، وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رواه أحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه(١).

الشَّرح

هذا حديثٌ مشهورة قد شرحه العلَّامة الإمام ابن رجب الحنبلي في رسالة مستقلَّة، اسمها: «شرح حديث أبي الدرداء»، وأبو الدرداء من أجِلَّةِ صحابة رسول الله ﷺ وعلمائهم، وقد ذهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الشام؛ لنشر العلم، وتعليم الناس.

قوله: «إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ؛ لحديث بلغني عنك أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ». فيه فضل الرِّحلة في طلب العلم، ولقاء العلماء مهما كانوا بعيدين، وأنَّ السَّفر وتحمُّل المشاقِّ؛ لأجل طلب العلم ليس بكثير علىٰ هذا المطلب العظيم.

وهذا الرجل الذي سأل أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد سافر من المدينة إلىٰ الشام، ومِنَ الصحابة مَن سافر من المدينة إلىٰ مصر لطلب حديث واحد، فقد كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧١٥)، والدارمي (١/ ١١٠) (٣٤٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

يرحلون لطلب العلم، ففي هذا فضل الرِّحلة لطلب العلم.

قوله ﷺ: «**مَنْ سلك طريقًا، يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة**»: أي: إن مَشْيَ طالب العلم وسفرَه يؤدِّي إلىٰ الحق؛ لأنه يطلب العلم، وسلوك الطريق يشمل الطريق الحسِّي للسفر، ويشمل أيضًا الطريق المعنوي لحفظ الأدلَّة والتفقُّه فيها والجلوس بين يدي العلماء، فكلُّ هذا من باب سلوك الطريق لطلب العلم، وإن كان في البلد الواحد، فالطريق يشمل الطريق الحسِّي، وهو السفر، ويشمل الطريق المعنوي الذي هو طلب التحصيل والتعب في فَهْم العلم وتلقِّيه والسهر عليه وغير ذلك من المشاقِّ، ومَنْ عمل ذلك، فإن الله -جلَّ وعلا- يُسهِّل طريقه إلىٰ الجنة؛ لأن الوصول إلىٰ الجنَّةِ إنما يحصل بالعلم النافع والعمل الصالح.

وفي الحديث: دليلٌ علىٰ أنَّ العلم يُؤخذ بالتَّلقِّي؛ لا مِنَ الكُتب، ولا من نَقْل فلان أو فلان، فبما أن الأصل موجود فإنه ينبغي الذهاب إليه لتلقِّي العلم عنه.

وقوله: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**»: أي: إنَّ الملائكة لتتواضع لطالب العلم توقيرًا لعِلْمه، وتُجِلُّه وتقدِّره، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. أي: تواضع لهم وقدِّرهم، ولهذا ينبغي تقدير طالب العلم، وأهل العلم الشرعي، وعدم ازدرائهم، أو اتهامهم بالغفلة؛ لأنهم تركوا ما يحتاجونه من أمور الصناعات والحِرَف والمهارات.

فهؤلاء يعظِّمون أمر الدُّنيا علىٰ الآخرة، وهناك فريق آخر من المتصوِّفة الذين يُزهِّدون الناس في طلب العلم، ويقولون: المطلوب هو العمل والعبادة والذِّكر، وهؤلاء أشدُّ خطرًا من الصَّنف الأوَّل، ويتحصَّل من هذا فريقان:

فريق المُنحلِّين والزنادقة، وفريق أصحاب الضَّلال من المتصوِّفة.

وقوله: «**وإن العالِمَ؛ ليستغفر له مَنْ في السموات والأرض، والحيتان في جوف الماء**». يستغفرون له؛ لأنه إذا نَشَرَ العِلْمَ أصلح الله به الأرضَ ودرَّت الخيراتُ

والبركات والأمطار فتشبع البهائم والحيتان في البحر، والمخلوقات جميعًا من الطير وغيرها، فكلُّ هذا يحصل ببركة نَشْرِ العلم والدِّين في الأرض، فيأتي لهذه الحيوانات رزقها فتستغفر لهؤلاء الذين كانوا سببًا في حصول الخير لها.

وقوله: «**وإن فَضْلَ العالِمِ علىٰ العابد كفَضْل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب**»: هذا فيه فضل الاشتغال بالعلم علىٰ الاشتغال بالعبادة.

وفي هذا أيضًا ردٌّ علىٰ المتصوِّفة القائلين: إن الاشتغال بالعبادة أفضل من الاشتغال في تحصيل العلم؛ ولكن يتَّضح فضْل العلم علىٰ العبادة من حيث إنَّ نفع العلم يتعدَّىٰ إلىٰ كافةِ الخَلْق، فالعالِم مثل القمر ليلة البدر الذي يُضيء الكون فيُساعد المسافرين، ويطرد الظُّلمة عن الناس.

وأما الكوكب فإنه يُضيء لنفسه فعمله قاصر علىٰ نفسه، وكذلك العابد الذي نفعُ عبادته قاصرٌ عليه، بخلاف العالِم الذي نفعُه يكون له ولغيره ولهذا شُبِّه بالقمر، وهذا وجه المشابهة في تمثيل الرسول ﷺ للعالِم بالقمر ليلة البدر التي هي ليلة التمام علىٰ الكوكب الذي إنما ضوؤه حَولَه فقط، ولا يتعدَّاه.

وقوله: «**وإن العلماء وَرثةُ الأنبياء**»: هذا شرفٌ لهم؛ لأن العلماء ورثوا الرسول ﷺ، والرسول ﷺ لم يورِّث الدُّنيا ولا الأموال؛ لأن هذا عَرَضٌ فانٍ وزائل، وإنما ورَّث الأنبياء العلم، الذي يبقىٰ ويدوم، ويدلُّ علىٰ الجنة وعلىٰ السعادة، وهذا هو الميراث الصحيح، فالعالم وإن كان فقيرًا فهو عنده خيرٌ كثير أفضل من التاجر الذي يملك المليارات وليس عنده عِلْم، ولا مقارنة بينهما؛ لأن التاجر الذي عنده الأموال سيتركها، أو ربما تَتْلَف ثم إنه سيُحاسب عليها يوم القيامة.

وأما العالِم، وإن لم يكن عنده شيء من متاع الدُّنيا الزائل إلا أنه عنده خير الدُّنيا والآخرة وهو العلم الذي نَفَعَه ونفع غيره، والرسول ﷺ لم يكن يدَّخر شيئًا من الدُّنيا لنفسه، وإنما كان يعيش عيشة الفقراء، وربما يربط الحَجَر علىٰ بطنه من الجوع وإذا جاء شيء من الأموال أنفقه في سبيل الله.

وقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديّ بثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعيالِه(١)، ولو شاء لملك الدُّنيا بأَسْرها، ولكنه -عليه الصلاة والسلام- إنما أراد الآخرة، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**وإنَّ الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا**»: قوله: «**دينارًا**». يعني: من الذَّهب، و«**درهمًا**»: من الفضة، فلم يورِّثوا فضَّةً ولا ذهبًا.

وقوله: «**وإنما ورَّثوا العلم، فمَنْ أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ**»: يعني: مَنْ أخذ من ميراث النبوَّة فإنما أخذ الكثير الذي لا يعلم كثرته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورُوي أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ علىٰ الناس، وهم يتبايعون في سوق المدينة، فقال: ما أعجزَكُم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذلك ميراثُ رسول الله ﷺ يقسَّم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سِراعًا إلىٰ المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجدَ، فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئًا يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلىٰ، رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويحكم!! فذاك ميراث محمد ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١١٤) (١٣٢٩).

[الحِكْمة ضالّة المؤمن]

١١٩- وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ؛ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». رواه الترمذي وَقَالَ: غَرِيبٌ، وابن ماجه[١].

الشَّرْح

قوله ﷺ: **«الكلمة الحكمة»**: أي: ذات الحِكْمة المشتملة عليها، وهي الفِقْه في الدِّين، فينبغي أخذُ العلم أينما وُجد، ولو كان مَنْ يؤخذ عنه قليل الشأن، والمكانة عند الناس.

وقوله: **«ضالَّة المؤمن»**: الضالَّة: هي المال الضائع، والمراد مَطلوبُه، **«فهو أحقُّ بها»**. أي: بقبولها؛ يعني: أن المؤمن يطلب الحِكْمة، فإذا وجدها **«فهو أحقُّ بها»**: أي: بالعمل بها واتِّباعها، وقيل: المعنىٰ: أن الحكمة ربما صدرت ممن ليس بأهلٍ لها، ثم وقعت إلىٰ أهلها فهو أحق بها من قائلها من غير التفاتٍ إلىٰ قلَّة شأن مَنْ وجدها عنده؛ والرسول ﷺ قَبِلَ من اليهود عندما قال له أحدهم: نِعْم الأُمَّة أُمَّتُك لولا أنهم يَعْدِلون! قال: **«كيف يعدلون؟!»**، قال: يقولون: ما شاء الله وشئت. قال: **«إنَّه ليقول قولًا، قولوا: ما شاء الله، ثم شئت»**.

وقال أيضًا: نِعْم الأُمَّة أُمَّتُك لولا أنهم يُشركون. قال: ما يقولون؟ قال: يقولون: بحقِّ فلان، وحياة فلانٍ، قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ كان حالفًا فلا يَحلِفْ إلَّا بالله»**[٢]. فقد أخذ ﷺ الحقَّ وإن كان الذي جاء به يهوديٌّ! فاللائق بحالِ المؤمنِ أن يكون مطلوبُه الحقَّ أينما وحيثما وجده، وأن يكون نظره إلىٰ القول لا إلىٰ القائل.

---

(١) الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٠٣) (١٠٤٦٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[صفة الفقيه الناجح]

١٢٠- وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إِنَّ الْفَقِيهَ مَنْ لَمْ يُقنِّط النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي الله، وَلَمْ يُؤمِّنْهُم مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يدع الْقُرْآن رَغْبة عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّه لا خَيْرَ فِي عِبَادةٍ لا عِلْمَ فِيهَا، وَلا عِلْمٍ لا فَهْمَ فِيهِ، وَلا قِرَاءةٍ لا تَدبُّرَ فِيهَا». رواه الدارمي[١].

الشَّرح

قوله: «إنَّ الفقيهَ مَنْ لم يُقنِّطِ الناسَ»: إن الفقيه كلَّ الفقيهَ مَنْ لم يُدخل اليأس إلىٰ نفوس الناس من رحمة الله، وهو أيضًا مَنْ «لم يُرخِّص لهم في معاصي الله»؛ بحيث لا يُسهِّل للناس المنكرات، ويفتح لهم باب الرَّجاء علىٰ الرغم من كثرة معاصيهم واستغراقهم فيها، فالفقيه هو الذي يسلك الطريق الوسط في فتاويه؛ بحيث لا يُدخل اليأس من رحمة الله إلىٰ قلوب الناس ونفوسهم، ولا يُسهِّل للناس ارتكاب المعاصي ويفتح لهم باب الرَّجاء، ويُمثِّل الطرف الأول الخوارج الذين كفَّروا المسلمين وقتلوهم واستحلُّوا دماءهم، ويُمثِّل الطرف الثاني المرجئة الذين يقولون: الإيمان في القلب، وافعل ما شئت من المعاصي والسيئات.

ففي هذا الحديث: الردُّ علىٰ المتساهلين، والردُّ كذلك علىٰ المتشدِّدين، وأن المطلوب الوسط والاعتدال.

وقوله: «**ولم يؤمِّنهم من عذاب الله**» كالمرجئة الذين يقولون: يكفي الإيمان بالقلب، ولو فعل العبد ما فعل، وقال ما قال من الكُفْر والشِّرْك، فما دام القلب مؤمنًا، فالعبد من أهل الجنة!

وقوله: «**ولم يَدَع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره**»: هذا هو الفقيه الذي يعتمد في أقواله

---

(١) في «سننه» (١/ ١٠١) (٢٩٧).

علىٰ القرآن الكريم، ولا يعتمد علىٰ الآراء، وأقوال الناس، وعلىٰ قواعد المنطق وعلم الكلام، وإنما يعتمد علىٰ كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**إنه لا خير في عبادةٍ لا عِلَم فيها**»؛ لأن العبادة من غير علم ضلالٌ؛ وكذلك لا خيرَ في عِلْم لا عبادة معه، وهي طريقة المغضوب عليهم.

وقوله: «**ولا علم لا فَهْم فيه، ولا قراءة لا تدبرٌّ فيها**»؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. فينبغي تفهُّم معاني القرآن، وطَلَب تفسيره، فلا تنفع القراءة المجرَّدة عن الفَهْم، والتفكُّر والتدبر؛ لأن القصدَ العملُ بالقرآن، وهذا لا يكون إلا بفَهْم معانيه.

١٢١- وعن الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ؛ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ». رواه الدارمي (١).

الشَّرح

في هذا الأثر فَضْل طلب العلم، وأنَّ الإنسان إذا مات وهو يطلب العلم فإنه يلحق بالنبيِّين، إلا أنه لا يكون في درجتهم؛ لأنَّ النبيين لا يلحقهم أحد في درجتهم وإنما يكون في الدَّرجة التي تليهم.

وفي هذا فضل طلب العلم، والاستمرار عليه إلىٰ الموت، وعدم الاكتفاء بما تمَّ تحصيله، وإنما المرغوب فيه هو الاستمرار فيه حتىٰ يأتيه الموت؛ لأن العلم ليس له نهاية ولا حدّ، قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ومن قال: أنا عالم؛ فهو جاهل، وطلب العلم ينبغي ألا ينقطع؛ لأنه عبادة.

---

(١) في «سننه» (١/ ١١٢) (٣٤٥).

[باب قَبْضُ العلم]

١٢٢- عن أبي الدَّرداء رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ». رَوَاه الترمذِي[1].

الشَّرْح

لا شك أنَّ قيام الدِّين والحياة والعمل الصالح إنما هو بالعلم النافع، فالعلم النافع والعمل الصالح قرينان، فإذا ذهب أحدُهما لم ينفع الآخَرُ، فإذا ذهب العلمُ لم ينفع العمل؛ لأنه يكون علىٰ جهل وعلىٰ غير هدًىٰ وأصبح من البِدَع والمحدثات والضلال، وإذا ذهب العملُ وبقي العلمُ، فإنه يصبح لا فائدة من هذا العلم؛ لأن ثمرة العلم العملُ، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[التوبة: ٣٣].

فالهدىٰ هو العلم النافع، ودين الحقِّ: هو العمل الصالح، فالرسول ﷺ جاء بالأمرين مقترنين، لا يغني أحدهما عن الآخر، والنبيُّ ﷺ أخبرَ في هذا الحديث عن المستقبل، وهذا مما أطلعه الله عليه ليُخبر به الناسَ، وإلَّا فإنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله -جلَّ وعلا-، ولكن الله يُطلع رسله علىٰ أشياء من الغيب؛ لأجل تنبيه الناس، وللدلالة علىٰ صِدْق رسالتهم.

فهذا علمٌ من أعلام نبوته ﷺ؛ حيث أخبر بأنَّ العلم سيُقبض في آخر الزمان، وليس معنىٰ هذا أن يُرفع العلم نفسُه؛ بل إن كتاب الله تعالىٰ يبقىٰ والسنة كذلك تبقىٰ، والكتب تبقىٰ أيضًا بين أيدي الناس، ولكن يُقبض العلم بموت العلماء؛ لأن العلم لابد له من حَمَلة يُبيِّنونه ويوضِّحونه للناس، فإذا قُبض العلماء الذين يُبيِّنون للناس

(١) برقم (٢٦٥٣).

ويعلِّمونهم ويفقِّهونهم، فحينئذٍ يُقبض العلم بقبْضِ أهله، فهذا خبرٌ معناه: التحذير من أن يتساهل الناس في طلب العلم، وإنما ينبغي لهم الحرص عليه لأجل أن يبقىٰ ببقاء العلماء ويستمر، وأمَّا إذا أعرضوا عنه، وتساهلوا فيه فإنه حينئذٍ يُقبض.

[النهي عن تلاوة القرآن دون تدارسه والعمل به]

١٢٣- وَعَن زِيَاد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَالَ: ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ!! إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟». رواه أحمد، وابن ماجه[١].

الشرح

هذا الحديثُ يُبيِّن أيضًا كيف يُقبض العلم، وأنه يُقبض أولًا بقَبْض العلماء، وثانيًا بتَرْك العمل، فإذا تَرك الناسُ العملَ قُبض العلم؛ لأن العلم إنما يكبرُ ويَزيد ويُبارك فيه مع العمل به، وليس بمجرَّد حفظه دون العمل به؛ ولأنه إذا ذهب أحدهما ذهب الآخر، وهذا ما وضَّحه النبيُّ ﷺ لزيادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث، فإنَّ زيادًا قال للنبيِّ ﷺ: **«كيف يذهبُ العلمُ، ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا ويقرؤه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟!»**.

فقد ظنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قراءة القرآن وتدارسَه وحفظه يُبقي العلمَ، ولم يكن يعلم أنَّ العلم لا يبقىٰ إذا لم يكن يُرافقه العمل، فتذهب بركته ونوره وزيادته بترك العمل به.

ثم ضرب ﷺ مثلًا ببني إسرائيل الذين عندهم عِلْم من التوراة والإنجيل، فيتعلَّمون ويعلِّمون منهما ولكنهم لا يعملون بهما، فرحل عنهم العلمُ؛ لأن العلم لا يقتصر بقاؤه علىٰ وجوده في الذاكرة، وإنما بقاؤه يكون من خلال العمل به، ولذلك هو نزل، وهو وسيلة والعمل به غاية، وهو المطلوب فإذا ذهبت الغاية لم تنفع الوسيلة.

وقوله ﷺ: **«ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا زياد»**: الأصل في الثَّكَل أنه فُقْدان الحبيب، وأكثر ما

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨).

يُستعمل في فُقدان المرأة زوجها أو ابنها، فالأصل في معنىٰ «**ثكلتك أمك**»: فقدتك، ولكنها تُقال ولا يُراد معناها الحقيقي، وذلك عند التنبيه إلىٰ أمر كان ينبغي أن يُنتَبه له ويُعرف، ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يريد معناها الأصلي، وإنما هو لفظ صار يجري علىٰ اللسان من غير قصدٍ لمعناه، ويتبيَّن من هذا الحديث أنَّ العِلْم يُفقد بأحد أمرين أو بهما معًا:

الأول: فَقْد العلماء الذي يُبيِّنونه ويُوضِّحونه ويفسِّرونه للناس، ويبقىٰ الجُهَّال الذين لا يعرفون معاني العلم، فيتكلَّمون بجهل ولا فائدة منه، وهم أشبه بالقُرّاء كما جاء في قول ابن مسعود: «إذا كثُر قراؤكم، وقلَّ فقهاؤكم»[(١)].

الثاني: فَقْدُ العمل به، فلا يبقىٰ للعلم فائدة حينئذٍ، وإنما يكون لمجرَّد الاستعراض والتباهي به؛ ولأجل الرِّياء والسُّمعة.

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٧٥) (١٨٥).

[الحثُّ على طلب العِلْم قبل قَبْضه]

١٢٤- وَعَنِ ابن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وقَبْضُهُ ذهابُ أَهله، عَلَيْكُمْ بِالعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ، أو يُفْتَقَرُ إِلَىٰ مَا عِنْده وَسَتَجِدُون أَقْوَامًا يَزْعمُون أَنَّهُمْ يَدْعُون إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالبِدَعَ، وَالتَّنَطُّعَ، وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ». رواه الدارمي بنحوه[١].

الشَّرح

قوله: «**عليكم بالعمل قَبل أن يُقبض**»: أي: تعلَّموا من العلماء، إذا ما وُجدوا بينكم، فاحمِلوا العلم عنهم؛ لأنَّ العلم إنما يُؤخذ من العلماء ومن أهله الحاملين له، ولا يؤخذ من الكتب أو من الجهَّال والمتعالمين.

وقد حثَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ الاقتداء بالأقدمين، فقال: «وعليكم بالعتيق». يعني: بالقديم؛ لأنه كلما ارتفع الزمان، وقَرُب من زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أصحابه ومن التابعين، فإنه يكون أقرب إلىٰ الصِّحة والثُّبوت وعدم وجود الدَّخيل فيه، فعِلمُ السَّلف لا شكَّ أنه هو العلم الصافي، وأمَّا علم الخَلَف فقد دَخَله ما دَخَله، فمنه ما هو صحيح ومنه ما هو غير ذلك؛ لأنه بعد القرون الثلاثة المفضَّلة دخلت الأهواء عند بعض المسلمين، وانتشرت الفِرَق بخلاف وقت القرون المفضَّلِة التي كان العلم فيها صافيًا لا دَخِيل فيه؛ لأنهم كانوا حرَّاسًا وأُمناء عليه.

فكلَّما تقادم القولُ كان أقربَ إلىٰ الصواب، هذا معنىٰ كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحَثَّ **أولًا**: علىٰ طلب العلم من أهله.

وثانيًا: علىٰ أَخْذ العلم القديم؛ لأنه أقربُ إلىٰ الصوابَ وإلىٰ عهد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) في «سننه» (١/ ٦٦) (١٤٣).

وللإمام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة جيدة في بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف؛ لأنه وُجد من أهل الضلال مَنْ يفضِّل علم الخلف علىٰ علم السَّلف مدَّعين أنَّ علم الخلف أكثر فهمًا، وأنَّ السلف مجرَّد عُبّاد؛ لأن الجهاد كان يُشغلهم عن العلم، وغير ذلك من الأمور التي تُزهِّد في علم السلف الذين يتَّهمونهم بأنهم لم يكونوا يستعملون العقل بخلاف الخلف الذين أخضعوا علومهم للعقل والفِكْر، وغير ذلك من الشُّبهات التي أثاروها.

وقد ردَّ عليهم ابن رجب في رسالته هذه فأجاد وأفاد، وبيَّن فَضْل عِلْم السَّلف علىٰ علم الخلف، وفنَّد مزاعم مَنْ يقول: إن علم السلف أسلم وعلم الخلف أعلم وأحكم، وقد كذبوا في هذا؛ لأن السلامة لا تكون إلا مع العلم والحِكْمة.

وقوله: «**وإيَّاكم والبِدَع والتنطُّعَ والتعمُّقَ**» وفي هذا نهيٌ عن اتِّباع الأمور المحدَثة وعن كثرة التشقيقات والجدليات والافتراضات وكثرة الكلام؛ لأن العلم ليس بكثرة الكلام، وإنما العلم بالتأصيل، ولذلك كان عِلمُ السَّلف أقل كلامًا، وأكثر فائدة، وأقلّ لفظًا وأكثر معنًىٰ.

ومما ذكره الحافظ ابن رجب أن السَّلف كانوا أقلَّ كلامًا؛ ولكنهم كانوا أغزر علمًا وفائدة، والخلفُ علىٰ العكس فكانوا أكثر كلامًا وأقلَّ فائدة.

ومما يُفهم أيضًا من كلام ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: دعوتُه إلىٰ تحصيل العلم من أصوله؛ لأنه سيُحتاج إليه، وسيَحتاج الناسُ إلىٰ العلماء، فيكون عند مَنْ حصَّله أهليَّة ما يَعرِضُ من المشكلات، فمَنْ لم يكن عنده أهليَّة وجاءته مشكلة أو معْضلة تحيَّر وإن ادَّعىٰ العلم والمعرفة، بخلاف أهل العلم الصحيح الذي يتصدُّون للمُلمات الصعبة، فالعلم ليس بالدَّعوىٰ، وإنما هو حقيقة، ولسان حال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: عليكم بالاستعداد من خلال التسلُّح بالعلم؛ لأنه إذا ما حصلت مشكلة يكون حَلُّها سهلًا؛ إما مشكلة عامّة، وإما مشكلة فردية.

١٢٥- وفي الصحيحين[1]، عن ابنِ عمرو، مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

الشَّرْح

بيَّن النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بأيّ شيء يُمكن أن يُقبض العلم، ولا يعني قَبضُ العلم رَفعُه كلُّه بحيث لا يبقىٰ في الأرض العلم، وإنما يبقىٰ موجودًا في الكتب وصدور الحفّاظ، وإنما المراد بقَبْضِ العلم هنا: قَبضُ أهله وهم العلماء فيتَّخذ الناس رؤوسًا جهّالًا يحكمون بجهالاتهم فيَضلُّون ويُضلُّون، فإذا ذهب العلماء بعد قَبْض أرواحهم حلَّ محلَّهم المُتعالِمُون الجهّال، فتُعرض عليهم المشكلات والمسائل فيفتون بغير عِلْم، وهذا ما سبق في كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حثّه للاستعداد بالتسلُّح بالعلم.

وقوله ﷺ: «فضلُّوا». لأنهم أَفتوا بغير علم «وأضلُّوا» غيرَهم، فتحصل منهم جريمتان في أنفسهم وفي غيرهم، فلا تجوز الفتوىٰ بغير عِلْم، ولا التخرُّص أو الاعتماد علىٰ الظنِّ، والله -جلَّ وعلا- أنزل الكتاب والسُّنة وسيأتي زمانٌ يُفقد فيه الذين يَفْتُون علىٰ ضوئهما، ولا يبقىٰ إلَّا القرّاء والرُّؤوس الجهّال في القضاء والمناصب التي يعتلونها والتي يُظنُّ بسببها أنهم من أهل العلم، إلَّا أنهم يفتون بغير عِلْم، ولهذا يُروىٰ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا»[2]. يعني: تعلَّموا قبل أن تتولَّوا المناصب والمراتب.

---

(١) البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢٨٥) (٢٦١١٦).

١٢٦- وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ، لا يَبْقَىٰ مِنْ الإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَىٰ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الهُدَىٰ، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ». رواه البيهقي في «شعبِ الإيمانِ»(١).

الشَّرح

قوله ﷺ: «**يُوشك أن يأتي علىٰ الناس زمان**»: يوشك: من أفعال الشروع، يعني: يَقرُب أن يأتي علىٰ الناس وقت «**لا يبقىٰ من الإسلام إلا اسمه**». وهذا واقع في زماننا؛ لأن الذين ينتسبون للإسلام كثير؛ ولكن الإسلام الصحيح غريب كما قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**»(٢).

فالذين يدَّعون الإسلام كثير، ولكنهم ليس عندهم من الإسلام معرفة ولا بصيرة إلّا مجرّد الانتساب، فكثير منهم يعبدون غير الله عَزَّوَجَلَّ، فيَدْعون الأولياء والصالحين، ويبنون المشاهد علىٰ القبور، حتىٰ جعلوا أوثانًا تُعبد من دون الله، ومنهم مَنْ يعبد الله بالبدع والمحدثات، ويترك السُّنن، فتراهم يُقيمون الموالد والاحتفالات ويُسمُّونها بالمناسبات الدِّينية.

ومن هؤلاء مَنْ يأكل الرِّبا، ويتعاملون بالقمار والميسر ولا يُبالون بالحلال والحرام، وإنما يُجارون الكفَّار ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله وهم يدَّعون الإسلام، فيتعاملون بغير معاملة الإسلام.

ومنهم مَنْ هو ليس علىٰ الإسلام أصلًا؛ بل هو مشرك وخارج عن الدِّين بشركه، ومنهم من هو مسلم؛ ولكنه ضعيف الإيمان وعمله غير صحيح يقوم علىٰ البدع والمحدثات، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(٣). والأدهىٰ

(١) «شعب الإيمان» (٢/ ٣١١) (١٩٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِنْ ذلك -بعد الشِّرك- الذين يصلُّون ويقولون: إنَّ الدِّين ليس بالصلاة، والحقيقة أن تَرْك الصلاة كُفر مُخرجٌ من الملة.

ثم إننا لو دقَّقنا النظر في كثيرٍ من الناس في عالمنا الإسلامي إلا مَنْ رحم الله لوجدناها من هذه الأصناف، فلم يَبْقَ إذن من الإسلام إلا اسْمُه.

وقوله: «**ومِنَ القرآن إلَّا رسْمُه**» علىٰ الرَّغم من وجود القرآن في المصاحف، ولم يُغيَّر منه شيء، فهو باقٍ كما أُنزل علىٰ محمد ﷺ، فرسمُه موجود، ولكن معرفته والعمل به مفقود، وليس المراد من وجود القرآن حفظُه أو تلاوته أو تجويده، وإنما المراد تدبُّره والعمل بما فيه، فإذا ذهب التدُّبر والعمل به، لم يَبْقَ إلا وجود المصاحف، وهذا لا يُجدي شيئًا، كوجود السلاح مع الإنسان الذي لا يُحسن استعماله، فإذا غدا عليه عدوٌّ لا يستخدمه، وهذا لا يُفيد شيئًا، وهذا يُشبه وجود القرآن عند مَنْ لا يعملون بما فيه، ولا يفقهون معانيه.

وقوله: «**مساجدهم عامرة، وهي خراب من الهُدىٰ**» وهذه صفة أخرىٰ من صفات هؤلاء الناس، فهم يبنون المساجد ويزخرفونها، ولكنها خالية من ذِكْر الله، ولا يُدرَّس فيها العلم؛ بل ليس فيها صلاة؛ لأن بعض المساجد مغلقة ولا يصلَّىٰ فيها، فالمساجد خَرِبَت من الهدىٰ، ولكنها عامرة بالبنيان، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[التوبة: ١٨]. هذه هي عمارة المساجد.

وقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور: ٣٦، ٣٧].

هكذا تكون المساجد عامرة، وإن كان عمارها المادي من أي شيء؛ لأنها إن كانت عامرة بالهدىٰ والنور وذِكر الله فهي معمورة، فقد كان مسجد الرسول ﷺ قائمًا علىٰ جذوع النخل، وعلىٰ الجريد، وكان المطر إذا نزل ينزل إلىٰ داخل المسجد،

فيسجد الرسول ﷺ وأصحابه علىٰ الطِّين، ولم يكن للمسجد أبواب ولا مصابيح، وكانت الكلاب تدخل فيه.

وكان -مع ذلك كلِّه- منارة الدُّنيا، وهو الذي شَعَّ منه النُّورُ في العالم، وهو الذي خرج منه المجاهدون والأبطال، وخرج منه العلماء والأحبار، فالعِبْرة ليست في نوع البُنيان وضخامته، وإنما العِبْرة بما يحصل في هذه المساجد من العبادة والتعليم.

وقوله: «**علماؤهم شرُّ مَنْ تحت أديم السَّماء**»؛ لأنهم لا يقولون كلمة الحقِّ، ويتابعون هوىٰ الناس، فيفتونهم بما يصلح لهم ولا يُغضِبون المسئولين، ويتلمَّسون لهم الرُّخصَ، بحُجَّة التوسعة لهم وللناس، فلا يفتونهم بالحقِّ والعلم الصحيح، فهم شرُّ مَنْ تحت أديم السماء، وإن كانوا علماء.

وقد شبَّه الله مثل هؤلاء بالحمير والكلاب، قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. هؤلاء هم شر مَن تحت أديم السماء.

وقوله: «**مِنْ عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود**»؛ لأنهم يفتنون الناس بأعمالهم وأقوالهم فيصرفونهم عن دينهم، يفتوهم بأن الدُّعاء لغير الله هو الدِّين وهو الذي عليه المسلمون، وينسون قول الرسول ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١). وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنِّي أنهاكم عن ذلك**»(٢). وعلماء الضلال أشدُّ خطرًا علىٰ المسلمين؛ لأن الناس يقتدون بهم، وقد سمعنا مَنْ يقول: لو كان دعاء الحسن والحسين والبدوي شركًا لما سكت العلماء علىٰ ذلك، فصار العوام وكثير من الناس في ذمَّة هؤلاء العلماء الضالِّين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، و مسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

[النهيُ عن سبِّ الدَّهْر]

باب التَّشديد في طلب العلم للمِراء والجدال

١٢٧- عَنْ كَعْب بن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». رواه الترمذي(١).

الشَّرْح

قوله: «**باب: التشديد في طلب العلم للمراء والجدال**»: التشديد يعني: التحذير من طلب العلم لا لأجل العمل، وإنما لأجل «المراء»، وهو الشَّك، فإنَّ كل واحد من المتحاجِّين يَشُكُّ فيما يقوله الآخر ويُشكِّكُه، لِمَا في ذلك من حُبِّ الظهور، «والجدال» أي: الدُّخول في المناظرات والمناكفات لإظهار العلم أمام الناس.

فمَنْ ساءت نيَّتُه في طلب العلم صار من أهل النار، ومن ذلك الذين يتعلَّمون العلم من أجل أن يُجاروا العلماء.

فقوله: «**مَنْ طَلَبَ العلمَ**» أي: ليس لوجه الله، وإنما «**ليُجاري به العلماء**» أي: يجري معهم في المناظرة والجدال؛ ليظهر عِلْمه في الناس رياءً وسمعةً «**أو ليُماري به السُّفهاء**» أي: ليُجادل به الجهَّال، أو لأجل أن «**يصرف في وجوه الناس إليه**» ليُعظِّموه ويقدِّروه ويُجلُّوه ليقولوا: هو عالِم؛ فإذا كان هذا هو قصد طالبِ العلم، فإنه من أهل النار، ولهذا قال ﷺ: «**أدخله الله النار**»؛ لأن العلم لم ينزَّل لذلك، وإنما نزِّل للعمل الصالح والإخلاص لوجه الله والتواضع ونفع الناس.

---

(١) برقم (٢٦٥٤).

[الجدَلُ سبب الضَّلال]

١٢٨- عَنْ أَبِي أُمَامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مرفوعًا-: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ:** ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]». **رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه**[(١)].

الشَّرح

في هذا الحديث بيان أنَّ الناس إذا تركوا العمل بالعلم، ولم يعملوا بالسُّنة، فإنَّهم يُبتَلَون بالضدِّ، وهو الجَدَل الذي هو بَدَل العلم النافع، فمَن تَرك سبيل الهُدىٰ وركب سُنن الضلالة، ولم تَمشِ أحواله إلَّا بالجدل، أي: بالخصومة بالباطل؛ ليُروِّج للمذاهب الكاسدة والعقائد الفاسدة لا المناظرة لإظهار الحقِّ واستعلام ما ليس معلومًا عنده، أو تعليم غيره ما عنده ابتلاه الله بالجَدَل، ومَنْ ترك السُّنة ابتُلي بالبدعة والمحدثات عقوبة له.

فالواجب علىٰ المسلمين عمومًا وطلبة العلم خصوصًا العمل بالعلم والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والحذَرَ من البِدَع والمحدثات، وإلَّا فإنَّ الله سيُعاقبهم، فيُبدلهم الجَدَل بدل العلم، والجَدَل لا فائدة فيه، فليس من سِمَاته إلا المغالطات والمُهاترات ومحبة الغَلَبة والظُّهور علىٰ الخصم، فهذه عقوبة، وإذا تركوا السُّنة ابتُلوا بإحياء البِدَع والمُحدَثات كما هو واقع ومشاهد.

ولمَّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

قال المشركون: أَكُلُّ مَنْ عُبد دون الله في جهنم مع مَنْ عَبدَه؟ فنحن نعبد الملائكة

---

(١) الإمام أحمد (٢٢١٦٤)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨).

واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارىٰ تعبُد المسيح عيسىٰ ابن مريم!! فأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾[1]. [الزخرف: ٥٨]. هم يعرفون أن قولهم هذا باطل، وإنما قصدهم الجدال، ودفع الحقِّ فقط، فهم يعرفون أن عيسىٰ ابن مريم رسول الله، وأنه ينهىٰ عن عبادته، ولا يرضىٰ بالشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. أي: أصحاب خصومة يريدون التغلُّب بالباطل، فهذا دليل علىٰ أنَّ مَنْ ترك الحق فإنه يُبتلىٰ بالجَدَل، فهؤلاء لمَّا تركوا ما جاء به الرسول ﷺ من إخلاص التوحيد ابتلاهم الله بالجَدَل.

ولكن الله تعالىٰ قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ومِنْ أوْلىٰ هؤلاء عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد سبقت له الحسنىٰ؛ لأنه رسول الله، فالله -جلَّ وعلا-، ردَّ عليهم بهذا الردِّ.

(١) انظر: «تفسير» ابن جرير الطبري (٩/ ٩٠).

[أبغض الرِّجال إلى الله]

١٢٩- وعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا، قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ». متفق عليه[1].

الشَّرح

في هذا الحديث النهيُ عن الجَدَل والخصومات، وأنه ينبغي علىٰ المسلم إرادة الحقِّ، لا التغلُّب بحُجَّته، وإن كانت باطلة كما هو حال أهل الضلال.

قوله ﷺ: «**الأَلَدُّ**». أي: شديد الخصومة بالباطل.

وقوله: «**الخَصِمُ**». أي: الحاذق بالخصومة؛ والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حقٍّ أو إثبات باطل.

والله -جلَّ وعلا- يُبغض الألدَّ الخصم؛ لأنه ليس قصده الحقَّ، وإنما حبُّ ظهور الحُجَّة بالخصومة ولو بالباطل؛ ولأنَّ كثرة المخاصمة تُفضي غالبًا إلىٰ ما يُذَمُّ صاحبُه؛ لأنَّ أكثر المخاصمة تكون في باطل من أحد الطرفين، ولهذا جاء النهي عنها.

---

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

[النهيُ عن طلب العلم للمراء ونحوه]

١٣٠- وَعَن أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْد اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَال: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ؛ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الكَلِمَةِ-: لِيُبَاهِي بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسَ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الأُمَرَاءَ». رواه الدارمي[١].

الشَّرْح

قوله: «ليُباهي به العلماءَ، أو ليُماري به السُّفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه». سبق الكلام عليها في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أول الباب.

وقوله: «أو ليأخذ به مِن الأمراء». أي: يطلب العلم الشرعي ليحصل به من فُتات الدُّنيا، أو لأجل أن يقدِّره الأمراء ويعطوه المالَ، فإذا كان هذا قَصدَه فهو في النار؛ لأن العلم عبادة، والعبادة إنما ينبغي أن يُطلب بها ثواب الآخرة، لا طَمعَ الدُّنيا.

---

(١) في «سننه» (١/ ١١٥) (٣٦٧).

[صفة العلماء المتّقين]

١٢١- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال -لِقَوْمٍ سَمِعَهُم يَتَمَارون في الدِّينِ-: «أَمَا عَلِمْتُم أنَّ لله عِبَادًا أَسْكَتَتْهُم خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلا بُكْمٍ؟ وَإِنَّهُم لَهُم الْعُلَمَاءُ وَالْفُصَحَاءُ، وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلاءُ، الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ الله، غَيْرَ أَنَّهُم إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ الله طَاشَتْ عُقُولُهُم، وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُم، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُم، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَىٰ اللهِ بِالأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ، يُعِدُّونَ أَنْفُسَهُم مَعَ الْمُفَرِّطِينَ، وَأَنَّهُم لأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِينَ وَالْخَطَّائِينَ، وَإِنَّهُم لأَبْرَارٌ بُرَآءُ، أَلا إِنَّهُم يَسْتَكْثِرُون لَهُ الكَثِيرَ، وَلا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالقَلِيلِ، وَلا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِم حَيْثُ مَا لَقِيتَهُم مُهْتَمُّون مُشْفِقُونَ، وَجِلُون خَائِفُون». رواه أبو نعيم(١).

الشَّرح

هذا كلام عظيم من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَصِفُ فيه العلماءَ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون.

قوله: «**أسكَتَتْهُم خشية الله من غير صَمَمٍ ولا بُكْم**»؛ لأن العلم قسمان:

الأول: علمٌ علىٰ اللسان فقط، وهكذا يكون مع المنافق ومع مَنْ يريد الدُّنيا أو مَنْ يريد الجدال والخصومة، وهذا علمٌ لا ينفع بل يَضُرُّ، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**إنَّ أخوفَ ما أخافَ علىٰ أمَّتي كلُّ منافقٍ عليمِ اللسانِ**»(٢).

والثاني: علم القلب، وهو العِلْم النافع، وهو الذي ترافِقُه الخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. فإذا أُعطِيَ الإنسانُ علمَ اللسانِ، وعلمَ القلب، والخشية كان عالمًا، وأمَّا إذا أُعطِيَ علمَ اللسانِ،

---

(١) في «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٥) (١٣١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولم يُعطَ علم الخشيةِ كان خاسرًا، ولن ينفعه علمُه، وإنما يكون حجّةً عليه يوم القيامة.

وقوله: «**يعِدُّون أنفسَهم مع المفرِّطين**»: أي: لا يستكثرون أعمالهم ولو كانت كثيرة، وإنما يستقلُّونها؛ لأنَّ حقَّ الله أعظم، ولا مقارنة بين أعمال العباد وبين حقِّ الله تعالىٰ عليهم، فنِعَمه تعالىٰ كثيرة ولن يؤدِّي حقَّها العبادُ مهما كانت أعمالهم كبيرة، وهو في جانب حقِّ الله قليل؛ ولذلك فإن من صفة هؤلاء العلماء الأتقياء أنهم لا يفتخرون بأعمالهم علىٰ الناس ولا بعِلْمهم؛ بل يعتبرون أنفسهم من أقلِّ الناس عملًا، وأدناهم منزلة، فلا يترفَّعون لهم، وإنما يتواضعون لله عَزَّوَجَلَّ؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سمعت هذه الآيات يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أهو الرجل يزني، ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «**لا يا ابنة أبي بكر -أو يا ابنة الصديق- ولكنَّه الرَّجلُ يصوم ويصلِّي ويتصدَّق ويخاف ألَّا يُقبل منه**»(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٢٢٤).

١٣٢- قَالَ الحَسَنُ -وَسَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ-: «هَؤُلَاء قَوْمٌ، مَلُّوا بِالعِبَادَةِ، وَخَفَّ عَلَيْهِم القَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُم فَتَكَلَّمُوا»[1].

الشَّرْح

قوله: «**ملُّوا العبادة**» ولذلك اشتغلوا بالجدل والمناقشات، فلمَّا تركوا العبادة انصرفوا إلىٰ الجَدَل.

قوله: «**خفَّ عليهم القولُ**»: أي: يستمرُّون في حلقات الجدال، ولا يَمَلُّون منه، حتىٰ أصبح أهون عليهم من أيِّ شيء آخر، بخلاف العبادة التي يَمَلُّون منها.

وقوله: «**وقلَّ ورعُهم فتكلَّموا**»: بسبب اشتغالهم بالجدل والكلام لم يَبق عندهم ورع، ولو كان هناك ورع لعلموا أنَّ الله سيُسجِّل عليهم كلامهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فلو تذكَّروا هذا لقلَّلوا من الكلام إلا في طاعته عَزَّوَجَلَّ.

ويدخل في هذا الأمر الذين يُصْدِرون الأحكام الشرعية ويُفْتون الناس دون علم، أو تثبُّت لقلَّة ورعهم، إذ لو كان عندهم ورع لمَا تساهلوا في الفتوىٰ والتحليل والتحريم، الذي هو من أشدِّ ما يترتب علىٰ قلَّة الورع.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).

[التجوُّز في القول وتَركِ التكلُّف والتنطُّعِ]

١٣٣- وَعن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ». رواه الترمذي[(١)].

الشَّرْح

قوله: «التجوُّز في القول». يعني: الاختصار، والمراد الكلام بقَدْر الحاجة وعدم الزيادة في الكلام بشيء لا يحتاج إليه؛ لأن هذا يُثقل السامع ويتسبَّب له بالملل وربما يُنسي المستمعين معنىٰ الكلام الذي يقصده المتكلِّمُ، فالإطالة في الكلام تسبِّب في إضاعة المعنىٰ، بخلاف قلَّة الكلام والاختصار التي يتَّضح فيها المعنىٰ، ولهذا كان كلام النبي ﷺ مختصرًا ووجيزًا ومعدود الكلمات، ولم يكن ﷺ يتكلم لأكثر من الحاجة، ولهذا كانت خُطبُه وأحاديثُه ﷺ تُحفظ؛ لأنها من جوامع الكَلم كما قال ﷺ: «أُوتيت جَوامَع الكَلِم»[(٢)].

وقوله: «وترك التكلف والتنطع» التكلف: هو إظهار البلاغة والفصاحة، والتنطُّع: هو التَّعمُّق والغُلُّو في الكلام والتوسُّع فيه، وهذا حاصل عند بعض المتحدثين والخُطَباء في وقتنا الحاضر، مع أن الأصل في المتكلمين والخطباء أن يؤدُّوا الكلام بأسلوب واضح وعبارات واضحة والابتعاد عن العبارات الغريبة والأساليب المعقَّدة، لإرادة إظهار الشخصية والفصاحة، فينبغي اختيار الألفاظ الواضحة التي لا لَبْسَ فيها، وعدم التَّعمُّق بالألفاظ الغامضة والغريبة؛ بحيث يصعب علىٰ السامع فَهمُها، وهكذا كان النبيُّ ﷺ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩٧)، وبنحوه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩٧)، وبنحوه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله ﷺ: «**الحَياءُ والعِيُّ**»: الحياء: خُلقٌ يمنع الإنسان مما يُستحيا من قوله أو ظهوره، ومما لا يليق، هذا هو الحياء المحمود، وهو من الإيمان كما قال ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»(١). والمطلوب من الحياء الذي يكفُّ صاحبَه عما لا يليق، وهو الذي يكون من الإيمان.

وأما الحياءُ الذي يمنع صاحبه من التعلُّم والسؤال عما يحتاج إليه، ومن التعليم والدَّعوة إلىٰ الله ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو حياءٌ مذموم، وهو خجل لا حياء، وهو غير مطلوب، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فالحياء الذي يمنع من الحقِّ هو حياء مذموم وليس هو الممدوح.

وقول: «**العِيّ**»: يعني: الكلام، لا العجز عن الكلام، فيكون هذا شاهدًا للباب، فينبغي الاقتصار علىٰ ما يُحتاج إليه من الكلام، وعدم الزِّيادة فيه شيئًا لا يُحتاج إليه، وهذا من الإيمان أيضًا، وإنَّ صاحبه يكون متَّصفًا بالإيمان، فإن كان يريد المدح والثناء فهو من النِّفاق، لكن إذا كان يريد بيان الحقِّ لا المدح والثناء فهو من الإيمان؛ فقلَّة الكلام والاقتصار علىٰ ما يُحتاج إليه إنما هو من الإيمان، بخلاف كثرة الكلام التي هي من النِّفاق؛ لأن الغالب علىٰ صاحبه حُبُّ الظُّهور والمدح.

وقوله: «**والبَذاء والبيان**»: البذاء: هو مقابل الحياء، وهو من البذاءة التي هي الإساءَة والفُحْش، وهو من خصال المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٨٥].

و«**البيان**»: هو كثر الكلام والتَّعمُّق في النُّطق والتَّفاصُح، وإظهار التقدُّم فيه علىٰ الناس، وكأنَّه نوع من العُجب والكِبر؛ ولكن سيأتي أن مِنَ البيان ما هو ممدوح، وهو البيان الذي يُظهر الحقَّ، ويوضِّحه للناس، بخلاف البيان الذي يحمل صاحبه علىٰ حُبِّ المراء الذي هو من النِّفاق.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقوله: «**البذاء**»: يُقابل: قوله: «**الحياء**». وقوله: «**البيان**»: يُقابل «**العيّ**». فالمراد بالبيان هنا: كثرة الكلام دون فائدة.

[بيان فضيلة حُسنُ الخلق]

١٣٤- وَعَن أَبِي ثَعْلبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي: مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا؛ الثَّرْثَارُون الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(١).

١٣٥- وللترمذي نَحْوه، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

الشَّرْح

في أول الحديث: الحثُّ علىٰ الخُلقِ، وقوله ﷺ: «**أحاسِنكُم**»: جمع حَسَن؛ أي: حَسَن الخُلُق هو الذي يُحبُّه الرسول ﷺ، ويكون منزله يوم القيامة قريبًا من منزل الرسول ﷺ، وحُسن الخُلق ميزة عظيمة امتنَّ الله بها علىٰ مَنْ يشاء من عباده؛ ولهذا مدح الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد كان ﷺ حسن الخُلقِ وأكملَ الناسِ خُلقًا، وهو يُحبُّ محاسِنَ الأخلاق.

ففي هذا الحثُّ علىٰ حُسن الخُلق، وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالىٰ وأوليائه، وهو نعمة من الله يُعطيها لمن يشاء، ولهذا ينبغي للعبد أن يُحسِّن أخلاقه ويربي نفسه علىٰ ذلك ويعودها علىٰ حُسن الخُلق، وإن كان أصل حُسن الخُلق من الله تعالىٰ، وعلىٰ العبد أن يتسبَّب في هذا فيتواضع ويبذل المعروف وأن يخالط الناس بالجميل والبِشْر.

وقوله: «**وأبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّي مساوءَكُم أخلاقًا**»: أي: إن أصحاب الأخلاق السيئة هم أبغضهم إليه ﷺ في الدُّنيا وأبعدهم عنه يوم القيامة، وهم

---

(١) «شعب الإيمان» (٤/ ٢٥٠) (٤٩٦٩).

(٢) برقم (٢٠١٨).

«**الثَّرْثارون**»: وهم الذين يُكثرون الكلامَ تكلُّفًا وخروجًا عن الحقِّ، «**والمتشدِّقون**»: وهم المتوسِّعون في الكلام من غير احترازٍ واحتياط.

ومما يُروىٰ عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله:

وَزِنِ الكلامَ إذا نَطَقْت ولا تكُنْ ... ثَرْثارةً في كلِّ نادٍ تَخْطُبُ

واحفَظْ لسانكَ واحتَرِزْ من لَفظِه ... فالمرءُ يسلمُ باللِّسانِ ويَعطُبُ

والمتشدِّق في الأصل: هو الذي يملأ شِدقَه وفمَه تعاظُمًا وإعجابًا بنفسه، وكذلك «**المتفيهقون**»: هم الذين يتوسَّعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم تكبُّرًا، وهي صفات ذميمة، والشاهد في الحديث آخره في قوله ﷺ: «**الثرثارون المتشدِّقون المتفيهقون**».

[ذم المدّاحين غيرهم بما ليس فيهم]

١٣٦- وَعَن سَعْد بن أَبِي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رواه أبو داود، والترمذي[١].

الشَّرح

في هذا الحديث ذمٌّ للذين يمدحون الناس بما ليس فيهم من أجل الحصول علىٰ عطائهم، فيأكلون بلسانه، فيستعمل لسانه لأجل الأكل، فهو يمدح الناس ويُكثر الثناء عليهم لأجل هذا لا سيما الأمراء والملوك، فهذه صفة ذميمة؛ لأن طلب الرزق لا يكون بهذه الطريقة، وإنما يكون بالطريقة المشروعة وليس بالنِّفاق والتَّملُّق وكثرة المدائح.

وقوله ﷺ: **«كما تأكل البَقُر بأَلسنتها»**: هذا تمثيل يُقصد منه الذَّم، ووجه الشَّبه بينهما أن هؤلاء القوم يتخذون ألسنتهم ذريعةً إلىٰ مأكلهم كما تأخذ البقر بألسنتها؛ لأنهم لا يهتدون مِنَ المأكل كما أنَّ البقرة لا تتمكَّن من الاحتشاش إلا بلسانها، والآخرُ أنهم لا يميِّزون بين الحقِّ والباطل والحرام والحلال، كما لا تميِّز البقرةُ في رَعْيها بين رَطِب ويابس وحلو ومُرٍّ؛ بل تلفُّ الكلَّ، وفي هذا تمثيل ذمٌّ لمَنْ جعل لسانه سببًا لأكله وتكسُّبه كما تفعل البقرة باحتشاشها الأكل بلسانها، وخصَّ البقرة بالذِّكر؛ لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها وهي تجمع بلسانها.

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٥٩٧)، وليس هذا الحديث عند أبي داود، ولا الترمذي، ولعل المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلىٰ حديث عبد الله بن عمرو التالي.

١٣٧- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ، كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَة بِلِسَانِهَا». رواه الترمذي، وأبو داود[(١)].

الشَّرْح

وهذا الحديث مثل الذي قبله في ذمِّ المتكلِّف في الكلام، دون تمييز بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام.

وقوله: «**يُبغض البليغَ من الرِّجال**»: البليغ، هو: الذي يُنمِّق الكلام، والمبالغ في فصاحته وبلاغته بالمدح والثناء طمعًا في الحصول علىٰ المكاسب والتأكُّل بذلك، فهذا مبغوضٌ ومذموم، بخلاف البلاغة الخَلْقية التي هي غير مذمومة.

وكما في الحديث السابق، فقد شبَّه ﷺ هذا الصِّنف من الناس الذين يتشدَّقون ويتكلَّفون بالكلام والفصاحة بالحيوان، والحقُّ أن الإنسان كرَّمه الله؛ ولكن هذا الصِّنف من الناس لم يكرِّم نفسه فصار مثل البقرة البهيمة التي «تتخلَّل» أي: تلُفُّ الكلأ بلسانها لفًّا، ووجه الشَّبه في ذلك إدارة لسانه حول أسنانه، وفمه حال التكلُّم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل!

---

(١) أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣).

١٣٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الكَلَامِ؛ لِيُسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ، أَوْ النَّاسِ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رواه أبو داود[١].

الشَّرْح

قوله ﷺ: **«مَنْ تعلَّم صرْفَ الكلام»**: يعني: تحسين الكلام وتنميقَه، وما يتكلَّفه الإنسان من الزِّيادة فيه وراء الحاجة، ولهذا سُمِّي الفضْل، أو الزائد من النَّقدين صَرْفًا.

وقوله: **«ليُسبيَ قلوب الرِّجَال أو الناس»**: أي: ليستميلهم، وفي هذا وعيد شديد؛ حيث إن الله يوم القيامة لا يقبل منه **«صرفًا»**، والصَّرف هو الفريضة أو التوبة، **«ولا عَدْلًا»**: أي: ولا نافلة؛ حيث لا يقبل الله منه نافلةً، ولا فريضة، وهذا وعيد شديد بحقِّ مَنْ يتعلَّم البلاغة والخطابة والشعر من أجل أن يتأكَّل بلسانه.

وأما مَنْ تعلَّم البلاغة من أجل أن يُحسن الخطاب فيما ينفع ويُفيد، واستمالة قلوب الناس إلىٰ الخير فهذا أمرٌ طيب؛ لأن حُسن الكلام يستميل الناس، فإن كانت الاستمالة لأجل الدِّين فهو أمرٌ مرغوب فيه، بخلاف استمالتهم؛ لأجل الدُّنيا الذي جاء فيه الوعيد الشديد.

---

(١) برقم (٥٠٠٦).

[صفة كلام الرسول ﷺ]

١٣٩- وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا، قَالَت: «كَانَ كَلَامُ رَسُول اللهِ ﷺ فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»[(١)].

وَقَالَت: «كَانَ يُحِدِّثُنَا حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ العَادَّ؛ لَأَحْصَاه»[(٢)].

وَقَالَت: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيث كَسَرْدِكُمْ»[(٣)]. روىٰ أبو داود بعضه.

الشَّرْح

قولها: «**فَصْلًا يفهمُه كلُّ مَنْ يَسْمَعُه**». أي: كان كلامه ﷺ بيِّنًا واضحًا؛ لكونه مأمورًا بالبلاغ المبين، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]. أي: بين الحقِّ والباطل، فهو واضح ليس فيه غموضٌ ولا التباسٌ، هكذا كان كلام الرَّسُول ﷺ، فلم يكن يتكلَّف الألفاظ الغريبة، وإنما يختار الألفاظ التي يفهمها السامعون من العوامّ والمتعلّمين، وهذا هو المقصود إفهامُ السامعين، باختيار الألفاظ الواضحة البيِّنة في خطبة الجُمعة والمحاضرات ومحادثة الناس، مع الابتعاد عن الألفاظ التي لا يفهمها إلَّا القليل من الناس.

ففي هذا الحديث: الحثُّ علىٰ اختيار الألفاظ والأساليب التي يفهمها المخاطَبون، ولهذا قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتُحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله»[(٤)].

فينبغي للمتحدث والخطيب أن يختار الألفاظ الواضحة والبيِّنة التي لا لَبْسَ فيها؛ ليأخذ عنه المستمع ويحفظ، وأن يختار من الأدلَّة المحكَمة الواضحة، وعدم الإتيان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠٧٧)، وأبو داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧).

بالأدلَّة المتشابهة بحيث تلتبس وتشتبه علىٰ الناس، وأن يراعي مستوىٰ الحاضرين إن كانوا عوامًا فيُخاطبهم بما يفهمون، وإن كانوا متعلِّمين فيُخاطبهم خطابَ العلماء، وإن كانوا مختلطين من العلماء والعوام فيأتي بالألفاظ والأساليب التي تَصلُح للجميع.

وقولها: «**كان يُحدِّثنا حديثًا لو عَدَّه العادُّ لأحصاهُ**»: أي: لو أراد المستمع عدَّ كلماته أو حروفه؛ لأمكن ذلك بسهولة، فقد كان ﷺ يُقلِّل الكلام مع جزالته، وهذا بخلاف ما هو عليه بعض الخطباء في وقتنا الحاضر الذين يبالغون في إطالة خُطبهم، والتي غالبًا لا يستفيد منها الحاضرون، بل علىٰ العكس يتذمَّرون منها ويصفونها بالمُمِلَّة.

وقولها: «**لم يكن يسرد الحديث كسردكم**»: أي: لم يكن ﷺ يُتابع الحديث استعجالًا، وإنما كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح علىٰ سبيل التأنِّي؛ لئلا يلتبسَ علىٰ المستمع وقد كان من صفات خطابه ﷺ الترسُّل في الكلام، فلا يُسرع بحيث يَفوتُ علىٰ السامع، مع اختيار الألفاظ الفَصْل الواضحة التي لا تحتاج لأن يُسأل عن معناها، مع التمهُّل في إلقاء الخطاب لوصول الفائدة إلىٰ المستمعين.

ولذلك فإنَّ الخُطبَ المرويَّة عن الرسول ﷺ، إذا قرأها القارئ، لوجدها لا تتجاوز النصف صفحة أو أقلَّ، ولكنها لو شُرحت لبلغت المجلَّدات؛ لأنها من جوامع الكَلِم، فليس الشأن في كثرة الكلام وإنما في الإفادة التي تتأتَّىٰ من هذه الخُطَب ولو كانت قليلة، وقد عوَّد الخُطباء في وقتنا الحاضر الناسَ علىٰ التَّطويل في الخطابة، وهذا علىٰ خلاف ما نراه من خُطَب القدماء -وهي مدوَّنة- التي لو رجعنا إليها لوجدنا أن الطويل منها لا تبلغ النصف صفحة، ومثال ذلك: خُطب المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[الترغيب في قلَّة الكلام]

١٤٠- وَعَن أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَىٰ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا، وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[(١)].

الشَّرْح

وفي هذا الحديث: الترغيب في قلَّة الكلام، فالذي لا يتعلَّق قلبُه في الدُّنيا بجمع المال، وإنما بالعمل الصالح، فإنه لا يأخذ من الدُّنيا إلا بقدر ما يُعينه علىٰ العيش؛ لأنه ليس الزُّهد في تَرْك الدُّنيا وإنما في تَرْك ما لا يحتاج إليه، فمَنِ اجتمعت فيه الصفتان: الزُّهد في الدُّنيا مع قلَّة الكلام فارغبوا فيه وفي مجالسته؛ لأنَّه «يُلقَّىٰ الحكمة» من قِبَل الله ﷻ.

فقوله ﷺ: «**يُعطىٰ زهدًا**»: أي: مِن الله -جلَّ وعلا- «**في الدُّنيا**»: أي: استصغارًا؛ لشأنها وأهلها.

قوله: «**وقِلَّة منطِقٍ**»: أي: قليل من الكلام في غير إطالةٍ إلَّا بقدْر الحاجة.

وقوله: «**فاقتربوا منه فإنه يُلقَّىٰ الحكمة**»: أي: فارغبوا فيه والزَموه؛ لأنه لم يُحرم الإصابة في القول، ولا رؤية الأشياء في غير موضعها، وإنما يضع الأشياء كما هي فإنه ينظر بنور الله، ومَنْ كان هذا وَصفُه أصاب في منطقه؛ والحِكْمة هي: الفقه في أمور الدِّين والدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وتُطلق الحِكْمة، ويُراد بها وضعُ الشيء في موضعه، وتُطلق ويُرادُ بها: الفقه في الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. قيل: الحكمة هي: السُّنة. وقيل: الحكمة هي: الفِقْه في الدِّين. ولا تعارض بين المعنيين؛ لأنَّ السنة هي الفقه في الدِّين.

(١) «شُعب الإيمان» (٤/ ٢٥٤) (٤٩٨٥).

١٤١- وعن بُريدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَال: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ، يَقُول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا»(١).

الشَّرح

قوله ﷺ: «**إن من البيان سِحرًا**»: البيان، هو: البلاغة والفصاحة في القول، والسحر في الأصل: الصَّرف، وسمّي السِّحر سحرًا؛ لأنه يصرف قلوب الحاضرين، ويجذب الأسماع ويُغيِّر الأشياء، فالبليغ يستطيع أن يصوِّر الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا ببلاغته، وكذلك السِّحر يُغيِّر الحقائق، والبلاغة نوع من السِّحر من خلال تغيير الحقائق بتمويه اللفظ عن تدبُّر المعنىٰ؛ ولذلك سُمِّي سحرًا، وهو سحر كلامي يسحر الناس ويستميلهم، ولهذا يقول الشاعر:

في زُخرف القولِ تزيينٌ لباطله … والحقُّ قد يَعْتَريه سُوءُ تَعبير

تقولُ هذا مُجَاجُ النَّحلِ تَمدَحُهُ … وإنْ تشاء قلتَ ذا قَيءُ الزَّنابير

مدحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوزتَ وَصفَهُمَا … حُسنُ البَيَانِ يُرِي الظَّلمَاءَ كالنُّورِ

فالبليغ يستطيع أن يُغيِّر الأشياء عن حقائقها ببلاغته، هذا معنىٰ «**إن من البيان لسحرًا**».

وقد قال بعض العلماء: إنَّ هذا من باب الذَّمِّ للبلاغة، ويكون المقصود من هذا: منع الناس من الإعجاب والاغترار بأصحاب البلاغة.

ففي هذا الحديث: الحثُّ علىٰ أن يكون الاهتمام والإعجاب والاستقباح إلىٰ جانب المعنىٰ، والبعض الآخر يقول: هذا من المدح للبلاغة، والصواب: أن البلاغة لا تُمدح ولا تُذمُّ لذاتها، وإنما تُمدح أو تُذمُّ لِمَا تُستعمل فيه، فإن استُعملت لبيان الحقِّ فهذا محمود، وإن استعملت لنُصرة الباطل فهذا مذموم، ولذلك كان من الخطباء والشعراء من اتَّخذهم الرَّسول ﷺ، فقد اتَّخذ من الخُطَباء مَنْ يَخطب عند الوفود،

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠١٢).

واتَّخذ من الشُّعراء كحسَّان بن ثابت وكعب بن مالك، وكعب بن زُهير، وعبد الله بن رواحة، فقد اتَّخذ من شعرهم نُصرةً للدَّعوة.

وقوله: «**وإنَّ من العلم جهْلًا**»: لكونه مذمومًا والجهلُ به خيرٌ منه؛ والمراد من العلوم: ما لا يحتاج إليه فيشتغل به عن تعلُّم ما يحتاجه في دينه، ويكون فيما إذا دخل العالِم فيما لم يبلغْهُ علمُه فإنه ينقلب إلىٰ جهل، فعلىٰ العالِم أن يتوقَّف عند عِلْمه، ولا يتكلَّف ما لا يعلمه، فإن تكلَّف ما لا يعلمه صار جهلًا.

وقوله: «**وإن من الشِّعر حِكمًا**»: الشِّعر معروف أنه من أنواع الكلام علىٰ اعتبار أن الكلام ينقسم إلىٰ قسمين: نثر وشعر، والشعر إن استُعمل في نصرة الحقِّ فهو محمود، كالدَّعوة إلىٰ الله والرَّد علىٰ الباطل، كشعر حسَّان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما الذي يستعمل شعره في الباطل والمجون والغزل والعِشْق، أو لمدح الخَمْر والمعاصي، فهو مذموم، فالشِّعر منه ما هو ممدوح وفيه حِكْمة، ولذلك نجد بعض الشعراء ينطق بالحِكْمة في شعره كالمتنبي، وكعب بن زهير، وزُهير بن أبي سُلْمىٰ، فالشعر كغيره من الكلام محمود ومذموم، والشعر هو ديوان العرب تُؤخذ اللغة منه، وخصوصًا شعر الجاهلية وصدر الإسلام، فتُؤخذ الشواهد منه علىٰ أنه حُجَّة في اللغة العربية، وتُؤخذ منه الحِكَم والأمثال والمواعظ، فلا يُزهد فيه كلِّه ولا يُحمد كلُّه.

وقوله: «**وإن منَ القول عِيالًا**»: العايل: هو الذي يمشي علىٰ غير طريق كالضالِّ والضائع، وهو خطاب مَنْ لا يُصغي لك، وعَرْضُك حديثك علىٰ مَنْ لا يُريده وليس من شأنه، فينبغي عدم خطاب مَنْ لا يصغي إليك؛ لأنه من العِيَال؛ أي: من الضَّياع.

١٤٢- وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال يومًا -وقام رجلٌ فأكثر القول-، فقال عمرو: لو قصدَ في قوله؛ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «لَقَدْ رَأَيْتُ -أَوْ أُمِرْتُ- أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ». رواهما أبو داود[(١)].

الشرح

في هذا الحديث أنه تكلَّم رجلٌ عند عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان أميرًا علىٰ مصر في زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأكثر الرَّجل الذي تكلَّم القولَ، فانتقده عمرٌو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: لو قَصَدَ في قوله؛ وذكرت الحديث عن رسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: «**لقد رأيت -أو أُمرتُ- أن أتجوَّز في القول**»: أي: علمت -أو أمرتُ- شكٌّ من الراوي «**أن أتجوَّز في القول**»: أي: أختصر فيه، وأُخفِّف عن السامع، وهذا من صفة كلام الرسول ﷺ كما سبق بيان ذلك.

وقوله: «**فإن التجوُّز فيه خيرٌ**»: وهو الاقتصار علىٰ قدر الكفاية؛ لأنه يحصل فيه المقصود دون تكلُّف، ودون إتعاب للسماع.

وقوله ﷺ: «**فيه خيرٌ**»: دليل علىٰ أنَّ عدم التجوُّز فيه شرٌّ، وأن أمرَه يئول إلىٰ أمور مذمومة، وفيه خلطٌ للمعنىٰ المراد، فهذا الاختصار من أعظم آداب الكلام، فعلىٰ المرء ألَّا يتكلم إلا بقدر الحاجة، ولا يتكلَّم إلا إذا كان للكلام مناسبة، وإلا يكون «**مِنَ القول عيالًا**». كما سبق في الحديث السابق، فيضع الكلام، ولا يُستفاد منه.

وأكثر مَنْ يُطالب بذلك: الذين يتحدَّثون علىٰ المنابر وفي الندوات، وفي الدروس؛ فينبغي اقتصارهم في الكلام بقدر ما يفيد السامعين ويتناسب مع مستواهم.

انتهىٰ شرحنا علىٰ كتاب «أصول الإيمان»، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) برقم (٥٠٠٨).

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

محتويات الكتاب

شرح مجموعة رسائل

للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب
ت ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالى

تفسير كلمة التوحيد

الأصل الجامع لعبادة الله وحده

ستة أصول عظيمة مفيدة

القواعد الأربع

نواقض الإسلام

معنى الطاغوت ورؤوس أنواعه

ستة مواضع من السيرة

بعض فوائد سورة الفاتحة

شرح

فضيلة الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

الطبعة الأولى

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٦/٣٥٧٧
الترقيم الدولي: 9- 338- 429- 977- 978

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٤٤٧١٥٥٠٦ /٠٠٢٠٢ ٠١٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar_altakoa@hotmail.com
dar_altakoa@yahoo.com

الرسالة الأولى

تفسير كلمة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئِلَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَن مَعنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)، فَأَجَابَ بِقَولِهِ: اعلَم -رَحِمَكَ اللَّه تَعَالَىٰ- أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ هِيَ الفَارِقَةُ بَينَ الكُفرِ وَالإِسلَامِ.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وأصحابه، وبعد:

كلمة (لا إله إلا الله): كلمة عظيمة خفيفة علىٰ اللسان وهي عظيمة فِي الْميزان؛ لأنها فِي الحقيقة هي مضمون الإسلام، ولكن هذه الكلمة ليست مُجرد لفظ بل لَها معنىٰ ولها مقتضىٰ، ولها أركان ولها شروط لابد من معرفتها، ولو كان القصد مُجرد التلفظ بِهَا صار كُل مَنْ يقولها مسلمًا؛ لأنه سهل أن يقول: (لا إله إلا الله) ويصير مسلمًا ولو لَمْ يعمل شيئًا، فهذه كلمة عظيمة ولكن لَها معنىٰ، ولها مقتضىٰ، ولها أركان، ولها شروط لابد من تحقيقها، ولهذا فإنها لا تنفع إلا مع وجود هذه الْمذكورات.

وهذه الكلمة لَها أسماء، منها أنَّها كلمة الإخلاص؛ لأنها تنفي الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتُثبتُ العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، لذلك سُمِّيت كلمة الإخلاص، أي: إخلاص التوحيد، وإخلاص العبادة، وتَجنب الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. وتُسمَّىٰ كلمةَ التقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾[الفتح: ٢٦]، وكلمة التقوىٰ، هي: (لا إله إلا الله)؛ لأنها تقي مَنْ قالها مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ تقيه من النار؛ ولأنها تقتضي أعمال البِرِّ؛ لأن التقوىٰ هي أعمال البِرِّ والطاعات،

هذه الكلمة تقتضي كل أعمال البِرِّ والطاعة، فهي كلمة التقوىٰ.

وأيضًا هي العُرْوة الوثقىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]. (يكفر بالطاغوت، ويُؤمن بالله) هذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله)، أنه يكفر بالطاغوت هذا هو معنىٰ (لا إله)، يؤمن بالله هذا هو معنىٰ (إلا الله) فمعنىٰ يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله هو مقتضىٰ (لا إله إلا الله) ولذلك سُمِّيت العروة الوثقىٰ.

وأيضًا هي كما قال الشيخ: الفارقة بين الكُفْر والإسلام، فمَنْ قالها عالمًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها صار مسلمًا، ومَنْ أبىٰ أن يقولها، أو قالها ولكن لَمْ يعلم معناها، أو قالها ولَم يعمل بمقتضاها، لَمْ يكن مسلمًا حَتَّىٰ يعرف معناها ويعمل بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا.

هذه أسماء لـ(لا إله إلا الله): كلمة الإخلاص، كلمة التقوىٰ، العُرْوة الوثقىٰ، الكلمة الفاصلة بين الكُفْر والإسلام؛ لأن كثيرًا من الناس لا يهتمون بمقتضىٰ هذه الكلمة، مع أنَّهم يكثرون من النطق بِهَا وذِكْر الله بِهَا كالصوفية، فلهم أوراد صباحية ومسائية فيها (لا إله إلا الله) آلاف المرات، ولكنهم يدعون غير الله، فهي لا تفيدهم شيئًا؛ لأنَّهم لَمْ يعملوا بمقتضاها، فهم يقولونها، ويقرءونها فِي أورادهم ويكررونها، ولكن يدعون الْموتىٰ، ويستغيثون بالمقبورين، ويطيعون مشايخ الطرق الذين يشرِّعون لَهم عبادات لَمْ يشرعها الله ولا رسوله، فلا يتلقَّون التشريع عن الرسول ﷺ ، وإنَّما يتلقَّونه عن مشايخهم، فهؤلاء يكثرون النطق بـ (لا إله إلا الله) صباحًا ومساءً، ولا يُغني عنهم نطقهم بِهَا شيئًا، ولا يفيدهم شيئًا.

ومن الصوفية مَنْ لا ينطق بِهَا كاملة، وهؤلاء بزعمهم أنَّهم صاروا خواصُّ الخواص، لا يقولون: لا إله إلا الله، بل يقولون: الله الله، هذا ذِكْرهم، يرددون: الله الله الله، مع أنه لابد أن تأتي بجملة مفيدة، أما الله الله، فهو اسم مُجرد فهو لا يفيد شيئًا، وبعضهم لا يقول لفظ الجلالة بل يقول: هو هو هو، ضمير غائب، وهذا لا يفيد شيئًا؛

لأن هذا تلاعب بهذه الكلمة، فيجب التنبُّه لهذه الأمور؛ لأن الشيطان لما علم أن هذه الكلمة هي كلمة الإسلام، وكان عند الناس رغبة فِي النطق بِهَا والذِّكْر بِهَا، صرفهم عنها بهذه الحِيل، وأتىٰ لَهم بهذه الوساوس، وقال لَهم: قولوا: الله الله، أو قولوا: هو هو، وبعضهم لا يتلفظ لا بالله ولا بهو، وإنَّما يقولها بقلبه فقط، كلُّ هذا تلاعب من الشيطان، فيجب التنبُّه لهذا.

ومن الناس مَنْ يغفله الشيطان عن قول: (لا إله إلا الله)، فلا يقولها إلا نادرًا، ولا يذكر الله بِهَا إلا قليلًا ولا يكررها مع أنَّها ثقيلة فِي الميزان، كما جاء فِي (كتاب التوحيد): أنَّها لو وُضعت فِي كِفَّة، ووضعت السماوات ومَنْ فيها غير الله والأرض ومن فيها فِي كفة لمالت بهن (لا إله إلا الله)، فهي تثقل بمَنْ فِي السماوات ومَنْ فيها غير الله والأرض وبمَنْ فيها، فهي كلمة عظيمة، ولكن قلَّ مَنْ يتنبَّه لَها ويستحضرها، ويُعوِّد لسانه علىٰ النطق بِهَا وتكرارها، إلا مَنْ وفَّقه الله ﷻ.

❊❊❊

وَهِيَ كلِمَةُ التَّقوَىٰ، وَهِيَ العُروَةُ الوُثقَىٰ، وَهِيَ الَّتِي جَعلَهَا إبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ.

الشَّرح

وهذه الكلمة (لا إله إلا الله) هي الَّتِي عناها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] هذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله)، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ هذا معنىٰ النفي (لا إله)، ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا معنىٰ الإثبات (إلا الله) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعل هذه الكلمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ فِي ذريته، فلا يزال فيهم مَنْ يقول: (لا إله إلا الله) لَمْ يتركوها كلَّهم، ولَم يشركوا كلَّهم، بل فيهم مَنْ قالها واستقام عليها.

ولو كان عددًا قليلًا أو أفرادًا، فلما بُعث مُحَمَّد ﷺ، بُعث بهذه الكلمة، قال ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حَتَّىٰ يقولوا: (لا إله إلا الله)، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم علىٰ الله**»[1].

فالرسول بُعث بـ (لا إله إلا الله) وهي الكلمة التي جعلها جَدُّه إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- باقية فِي عقبه، وكان محمد ﷺ من عِقب إبراهيم، وبعثه الله بها يدعو الناس إليها ويُقاتلهم عليها، فهي كلمة عظيمة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ أي: يرجعون إليها، وببعثة محمد ﷺ رجع إليها الكثير من ذرية إبراهيم، فالرسول ﷺ بُعث بهذه الكلمة والدعوة إليها وتحقيقها والعمل بها، بل عن كل الرسل بُعثوا بها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

هذا معنىٰ (لا إله إلا الله)، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذا معنىٰ النفي والإثبات، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك فِي «الْمُوطأ» (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبِي هريرة.

[الأنبياء: ٢٥]، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأنبياء والرسل ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ②﴾ [النحل: ٢].

كلُّ الرسل بُعثوا بـ (لا إله إلا الله)، ولكن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعلها كلمة باقية فِي عقبه إِلَىٰ أن تقوم الساعة، ولا يزال فِي ذرية إبراهيم مَنْ يتوارث هذه الكلمة علمًا وعملًا وتحقيقًا، وإن أعرض عنها الأكثرون.

وَلَيسَ المُراد قَولَهَا بِاللِّسَانِ مَعَ الجَهلِ بِمَعنَاهَا.

الشَّرح

ليس الْمَقصود قول: (لا إله إلا الله) باللسان فقط من غير فَهْمٍ لمعناها، لابُدَّ أن تتعلم ما معنىٰ (لا إله إلا الله)؟ أما إذا قلتها وأنت لا تعرف معناها، فإنك لا تعتقد ما دلَّت عليه، فكيف تعتقد شيئًا تَجهله، فلابد أن تعرف معناها حَتَّىٰ تعتقده، تعتقد بقلبك ما يلفظ به بلسانك، فلازم أن تتعلم معنىٰ (لا إله إلا الله)، أما مُجرد نطق اللسان من غير فَهْم لمعناها فهذا لا يفيد شيئًا.

أيضًا لا يكفي الاعتقاد بالقلب ونطق اللسان، بل لابد من العمل بمقتضاها، وذلك بإخلاص العبادة لله، وتَرْك عبادة مَن سواه ﷻ، (فلا إله إلا الله) كلمة نطق وعِلْم وعمل، ليست كلمة لفظ فقط.

أما الْمُرجئة فهم يقولون: يكفي التلفظ بـ (لا إله إلا الله)، أو يكفي التلفظ بِهَا مع اعتقاد معناها، والعمل ليس بلازم، مَنْ قالها ولو لَمْ يعمل شيئًا من لوازمها هو من أهل الْجَنة، ولو لَمْ يصلِّ، ولَم يزكِّ، ولَم يحجَّ، ولَم يَصُم، ولو فعل الفواحش والكبائر والزنا والسرقة وشُرْب الخمر، وفعل ما يريد من الْمَعاصي، وتَرْك الطاعات كلها؛ لأنه تكفيه (لا إله إلا الله) عندهم، هذا مذهب الْمُرجئة، الذين يَخرجون العمل من حقيقة الإيمان، ويعتبرون العمل إن جاء فبها ونعمت، وإن لَمْ يَجِئْ، فإنها تكفي (لا إله إلا الله) عندهم، ويستدلون بأحاديث تفيد أن مَنْ قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة، ولكن الرسول ﷺ ما اقتصر علىٰ هذه الأحاديث، فالرسول ﷺ له أحاديث أخرىٰ تقيد هذه الأحاديث، ولابد أن تجمع بين كلام الرسول ﷺ بعضه إِلَىٰ بعض، لا أنه تأخذ منه طرفًا وتترك طرفًا؛ لأن كلام الرسول ﷺ يُفسِّر بعضه بعضًا، ويُبيِّن بعضه بعضًا، أما الذي يأخذ طرفًا ويترك طرفًا فإنه من أهل الزيغ الذين يتبعون ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، الرسول ﷺ قال: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله وكفر بِمَا عُبد من دون الله**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٢٢) من حديث طارق بن أَشْيَم.

وهذا حديث صحيح، فلماذا غفلتم عنه؟ وقال ﷺ: «**فإن الله حرَّم علىٰ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وَجْه الله**»(١).

أما الذي يقول: لا إله إلا الله، ولا يكفر بما يُعبد من دون الله، ويدعو الأولياء والصالحين، فإن هذا لا تنفعه (لا إله إلا الله) لأن كلام الرسول ﷺ يُفسر بعضه بعضًا، ويُقيِّد بعضه بعضًا، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، والله ﷻ يقول: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٧] يأخذون الذي يصلح لهم، ويتركون الذي لا يصلح لهم.

ويقولون: استدللنا بالقرآن، نقول: ما استدللتم بالقرآن، القرآن إن قال كذا فقد قال كذا، فلماذا تأخذون بعضًا وتتركون بعضًا ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: ٧].

الْمحكم والْمُتشابه، فيردُّون المتشابه إِلَىٰ الْمحكم، ويُفسِّرونه به ويقيدونه به، ويفصِّلونه، أما إنهم يأخذون الْمُتشابه ويتركون الْمحكم، فهذه طريقة أهل الزيغ، فالذين يأخذون بحديث أن: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٢)، ويقتصرون علىٰ هذا، ولا يوردون الأحاديث الواضحة الَّتِي فيها القيود، وفيها التفصيل، فهؤلاء أهل زيغ، فيجب علىٰ طالب العلم أن يعرف هذه القاعدة العظيمة؛ لأنها هي جُمَاع الدِّين وهي أساس الْمِلَّة، ليس الْمقصود أنك تأخذ آية أو حديثًا وتترك غيره، بل المقصود أنك تأخذ القرآن كله، وتأخذ السُّنة كلها، وكذلك كلام أهل العلم، العالِم إذا قال كلامًا لا تأخذه وحده حَتَّىٰ تردَّه إِلَىٰ كلامه الكامل، وتتبع كلامه فِي مؤلفاته؛ لأنه يقيد بعضه بعضًا؛ لأَنَّهم علىٰ سُنن كتاب الله وسُنَّة رسوله، فترد الْمُطلق إِلَىٰ الْمُقيد من كلامهم، فطالب العِلْم يَجب عليه أن يأخذ هذه القاعدة معه دائمًا، ويَحذر من طريقة أهل الزَّيغ الذين يأخذون الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤) و(٦٨٦)، ومسلم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٣٢٤)، والبيهقي فِي «الأسماء والصفات» (٣٠٣)، والطبراني فِي «مسند الشاميين» (٢٤٤٩)، والبزار فِي «مسنده» (٢٨٥٤) عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يصلح لَهم، ويتركون الذي لا يصلح لَهم من الكتاب، ومن السنة، ومن كلام أهل العلم، ويبترون النُّقول، ويتركون باقي الكلام، أو يتركون الكلام الثاني الذي يُوضِّحه، ويأخذون الكلام المشتبه ويتركون الكلام البيِّن، كثير من الذين يدَّعون العلم غفلوا عن هذا الشيء؛ إما عن قصد التضليل، وإما عن جهل، فيجب معرفة هذه الأمور، وأن تكون أصولًا وقواعد عند طالب العلم.

فَإِنَّ المُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا وَهُم تَحتَ الكُفَّارِ ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

الشَّرح

الْمُنافقون الذين هم ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفْر؛ لأنه لما هاجر النَّبِي ﷺ إِلَىٰ الْمَدينة وصار حوله الْمَهاجرون والأنصار وقوىٰ الإسلام، وانتصر الدِّين فِي (بدر) تلك الواقعة العظيمة الَّتِي طار خبرها فِي المشارق والمغارب؛ لأن النَّبِي انتصر علىٰ صناديد قريش، وقريش كانت تاج العرب، وكان الناس ينظرون إليها، فلما انتصر عليها ﷺ فِي بدر، وقتل رءوسها، عند ذلك قال الْمُنافقون: نَحن وقعنا فِي الْمَدينة بين الْمُهاجرين والأنصار ومعهم الرسول، وماذا نعمل؟ لجؤوا إِلَىٰ حيلة، وهي أَنَّهم يُظْهرون الإسلام من أجل أن يعيشوا مع المسلمين، ويُحافظوا علىٰ دمائهم وأموالهم، والرسول ﷺ ليس له إلا الظاهر، لا يدري عن القلوب إلا الله ﷻ، فمَنْ أظهر الإسلام قبلناه منه حَتَّىٰ يظهر منه ما يخالف ظاهره.

وقالوا: (لا إله إلا الله) وشهدوا للرسول بالرسالة ظاهرًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [الْمُنافقون: ١، ٢].

جُنَّة: يعني: سُتْرة يستترون بِهَا، فالْمُنافقون دخلوا فِي الإسلام -لما رأوا قوة المسلمين- ظاهرًا، وبقوا علىٰ الكُفر باطنًا -والعياذ بالله- ولذلك جعلهم الله فِي الدرك الأسفل من النار تَحت الْمُشركين، عبدة الأوثان، تَحت الْملاحدة، لعظيم جُرْمهم وخداعهم ومكرهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩].

فالْمُنافق يقول: لا إله إلا الله، وهو فِي الدرك الأسفل من النار، فكيف تقولون: إن (لا إله إلا الله) يكفي مُجرد التلفظ بِهَا، وهؤلاء الْمُنافقون فِي الدرك الأسفل من النار، وهم يقولون: (لا إله إلا الله)؟ فدلَّ أن مُجرد النطق بِهَا لا يكفي إلا باعتقاد القلب وعمل الجوارح.

مَعَ كونِهِم يُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ.

الشَّرْح

الْمُنافقون يصلون ويتصدقون ويخرجون للجهاد مع الرسول ﷺ فِي الظاهر، ولكنهم منافقون فِي قلوبهم، وهم يقولون: (لا إله إلا الله) ولَم تنفعهم.

وَلَكِنَّ المُرَادَ قَولُهَا مَعَ مَعرِفَتِهَا بِالقَلبِ، وَمَحَبَّتِهَا وَمَحَبَّةِ أَهلِهَا وَبُغضِ مَن خَالَفَهَا وَمُعَادَاتِهِ.

الشَّرْح

الْمُراد من (لا إله إلا الله): قولها باللسان مع اعتقاد القلب بِهَا، والعمل بمقتضاها، وموالاة أهلها ومعاداة مَنْ خالفها، وهذا هو الحبُّ فِي الله، والبُغْض فِي الله، هذه كلها من مقتضىٰ (لا إله إلا الله)، ولهذا قالوا: (لا إله إلا الله) لَها سبعة شروط، نَظمها بعض العلماء بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك   مع محبة وانقياد والقبول لَها

زاد الشيخ سعد بن عتيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرطًا ثامنًا، فقال:

وزيد ثامنها الكُفْران منك بِمَا   سوى الإله من الأشياء قد أُلِها

وركنا (لا إله إلا الله) هما: النفي والإثبات، فلا يكفي النفي، ولا يكفي الإثبات، بل لابد من الاثنين.

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخلِصًا»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «خَالِصًا مِن قَلبِهِ»(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ: «صَادِقًا مِن قَلبِهِ»(٣)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللَّهِ»(٤).

الشَّرح

«مَنْ قال: **لا إله إلا الله مخلصًا**»: هذا قيد، لَم يقتصر علىٰ قوله: «مَنْ قال لا إله إلا الله» بل قال: «**مخلصًا من قلبه**»(٥)، لا يكفي أنه يقول: (لا إله إلا الله) حتىٰ يكون ذلك خالصًا من قلبه؛ لئلا يكون من الْمُنافقين الذين يقولونها بألسنتهم ولكن لا يقولونها بقلوبهم.

و«**مَنْ قال: لا إله إلا الله، وكفر بِمَا عُبد من دون الله**»(٦). هذا قيد عظيم وهو قوله: (وكفر بِمَا عُبد من دون الله)؛ لأن كثيرًا يقولون: (لا إله إلا الله) ولا يتركون عبادة القبور، ودعاء الأموات، والاستغاثة بِهم، وطلب الحاجات من غير الله، هؤلاء لا تنفعهم (لا إله إلا الله)؛ لأنَّهم لَمْ يكفروا بِمَا يُعبد من دون الله.

---

(١) صحيح الجامع (٥٦٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٩٥٩٧)، والطحاوي فِي شرح «مشكل الآثار» (٤٠٠٣) من حديث أَبِي موسىٰ الأشعري.

(٦) سبق تخريجه.

إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ جَهَالَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ.

الشَّرح

أكثر الناس يَجهلون هذه الشهادة يحسبونها مُجرد لفظ يُقال باللسان، وكثير من العلماء لا يفهمون معنىٰ (لا إله إلا الله) وهم علماء فِي الفِقْه، علماء فِي النحو، علماء فِي الْحَديث، ولكن أكثرهم ليس له عناية بالتوحيد، أو يتعلم عقيدة الأشاعرة وعلماء الكلام، الَّتِي تقتصر علىٰ توحيد الربوبية.

ويقولون: (لا إله إلا الله) ويُفسِّرونها: لا خالق إلا الله، لا يقدر علىٰ الاختراع إلا الله، هذا تفسيرهم لَها، فهم لا يتعدَّون توحيد الربوبية، ويفسرون (لا إله إلا الله) بِمَا لا يزيد عن توحيد الربوبية، ولا يتعرضون لتوحيد الأُلوهية الذي هو مطلوب لـ (لا إله إلا الله)، اقرءوا عقائد المتكلمين تجدون أنَّهم يُركِّزون علىٰ إثبات وجود الله، كأن الله فيه شكٌّ، والاعتراف بأنه هو الخالق الرازق الْمُحيي والْمُميت إِلَىٰ آخره، ولا يذكرون العبادة، ولا يذكرون الألوهية أبدًا، هذا لا يزيد علىٰ دين الْمُشركين الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]. يثبتون الربَّ ولكن يعبدون غيره، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ما يقولون: إنهم يخلقون ويرزقون، ولكن يقولون: إنهم شفعاء وسطاء لنا عند الله، فالأمر خطير جدًّا، فهناك لبسٌ كثير فِي هذا الأمر، وضلَّ كثير من الناس بِهذا اللَّبس، الذي يخلص التوحيد ويبين معنىٰ (لا إله إلا الله) يقولون: هذا يُكفر المسلمين، نَحن نبرأ إِلَىٰ الله من الذي يُكفِّر المسلمين، نَحن ما نكفر إلا مَنْ كفره الله ورسوله، فالذي لا يَحقق (لا إله إلا الله) قد كفره الله ورسوله.

فَاعلَم أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ نَفيٌ وَإِثبَاتٌ.

نَفيُ الإِلَهِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللَّهِ ﷻ مِنَ المُرسَلِينَ حَتَّىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنَ المَلَائِكَةِ حَتَّىٰ جِبرِيلَ، فَضلًا عَن غَيرِهِمَا مِنَ الأَنبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَإِثبَاتُهَا للَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الشَّرح

هذه الكلمة لَهَا ركنان: هما نفيٌ وإثبات، فلا يكفي النفي، ولا يكفي الإثبات، بل لابد من الاثنين مقترنين.

كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ما قال: (يكفر بالطاغوت) فقط، بل قال: (ويؤمن بالله)، ولا قال: مَنْ (يؤمن بالله) ولَم يذكر الكُفْر بالطاغوت، لابد من الاثنين.

(نفي الإلهية عن كُلِّ ما يُعبد من دون الله) من الْمُخلوقات، ولو كان من أصلح الصالحين، فأصلح البشر هو مُحَمَّد ﷺ، وأصلح الْمَلائكة هو جبريل، ومع هذا لو أن أحدًا يعبد جبريل أو يعبد محمدًا، فإنه يكون مشركًا خالدًا فِي النار؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يُشرَكَ معه أحد، لا من الْمَلائكة، ولا من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأشجار والأحجار، ولهذا يقول: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]؛ (أحدًا) هذا عامٌّ، ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]. (شيئًا): أيّ شيء، هذا نفيٌ عامٌّ، والْمنفي نكرة، والنكرة فِي سياق النفي تعمُّ كل شيء.

إِذَا فَهِمتَ ذَلِكَ فَتَأَمَّلِ الأُلوهِية الَّتِي أَثبَتَهَا اللّه تَعَالَىٰ لِنَفسِهِ، وَنَفَاهَا عَن مُحَمَّدٍ ﷺ وَجِبرِيلَ، وَغَيرِهِمَا أَن يَكُونَ لَهُم مِنهَا مِثقَالُ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ.

الشَّرح

الأُلوهية معناها: العبادة ومن هنا غلط كثيرون فِي تفسير (لا إله إلا الله) وفسَّروها بغير تفسيرها ومن ذلك:

١- تفسير أهل وحدة الوجود لكلمة التوحيد:

فأهل وحدة الوجود: ابن عربي وأتباعه، يقولون: (لا إله إلا الله) لا معبود إلا الله، أو لا إله موجود إلا الله، معنىٰ هذا: أن كل الْمعبودات كلَّها هي الله؛ لأن عندهم أن الوجود لا ينقسم بين خالق ومخلوق، هو كله هو الله، هذا معنىٰ أنَّهم -أهل وحدة الوجود- يَجعلون الوجود يتحد ولا ينقسم، كله هو الله، مهما عبد الإنسان من شيء فإنه قد عبد الله، الذي عبد البقر، والذي عبد الصنم، والذي عبد الحجر، والذي عبد البشر، والذي عبد الْملائكة، كلهم يعبدون الله؛ لأن الله هو الوجود الْمطلق.

والذي يقول: إن الوجود ينقسم إِلَىٰ قسمين: إِلَىٰ خالق ومخلوق، يقولون عنه: إن هذا مشرك، فلا يكون موحِّدًا عندهم إلا مَنْ قال: إن الوجود شيء واحد هو الله، فمهما عبدت من هذا الكون من أشجار أو أحجار أو أصنام أو طواغيت فإنك تعبد الله؛ لأن هذا هو الله وبِهذه الْمُناسبة فإنه يغلط بعض العوامِّ، يقول: ولا معبود سواك، ولكن لو قال: لا معبود بحقٍّ سواك وهذا يُوافق قول أهل وحدة الوجود، فلو زاد كلمة (بحقٍّ) صحَّ؛ لأن ما سواه معبود بالباطل، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

٢- تفسير علماء الكلام لكلمة التوحيد:

علماء الكلام يقولون: (لا إله إلا الله): لا قادر علىٰ الاختراع والخَلْق والتدبير والإيجاد إلا الله.

وهذا غير صحيح، هذا يوافق دين الْمُشركين، فالْمُشركون يقولون: لا يقدر علىٰ الخَلْق إلا الله، لا يُحيي إلا الله، لا يُميت إلا الله، لا يرزق إلا الله -وهذا توحيد الربوبية.

٣- تفسير (لا إله إلا الله) عند الْجهمية والْمُعتزلة:

ومَنْ سار علىٰ نَهْجهم هو نفيٌ لأسماء والصفات؛ لأن مَنْ أثبت الأسماء والصفات عندهم يكون مشركًا، والتوحيد عندهم هو نفيُ الأسماء والصفات.

٤- تفسير الحزبين والإخوانيين اليوم يقولون:

(لا إله إلا الله) أي: لا حاكمية إلا لله، والحاكمية كما يسمُّونها جزء من معنىٰ (لا إله إلا الله)؛ لأن معناها شامل لكلِّ أنواع العبادات.

فنقول لَهم: وأين بقية العبادات، أين الركوع والسجود والذبح والنَّذْر، وبقية العبادات؟!

هل العبادة هي الحاكمية فقط إذا كان معناها عندكم الحاكمية فقط؟

وأين ما تنفيه من أنواع الشرك؟ يا سبحان الله! ينبغي التنبُّه لهذه الأمور؛ لأن هذه كلمة عظيمةٌ، هي الْمُنْجية من النار لمَنْ حقَّقها، وكلُّ الدِّين ينبني عليها من أوله إِلَىٰ آخره، ودعوة الرسل والكتب الْمنزلة كلُّها مبنية علىٰ هذه الكلمة.

٥- تفسير أهل السنة والْجماعة:

أن (لا إله إلا الله) معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله؛ لأن الْمَعبودات كثيرة. ولكن الْمعبُود بحقٍّ هو الله وحده، وما سواه فعبادته باطلة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

فَاعلَم أَنَّ هَذهِ الأُلوهيَّةَ هِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا العَامَّةُ فِي زَمَانِنَا السِّرَّ وَالوِلَايَةَ.

الشَّرح

أي: يعتقدونها فِي الأولياء، ويقولون: إن هذا الولي فيه سِرٌّ وفيه ولاية، فيتقربون إليه بالذبح والنَّذْر، والدعاء والاستغاثة؛ لأنه فيه سِرٌّ، وفيه ولاية.

وَالإِلَهُ مَعنَاهُ: الوَليُّ الَّذِي فِيهِ السِّرُّ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الفَقِيرَ وَالشَّيخَ!!

الشَّرح

الصوفية يُسمُّون العابد: الشيخ، يعني: شيخ الطريقة الذي يأخذون عنه دينهم؛ والذي يأخذ عن شيخ الطريقة، يُسمُّونه: الْمُريد، ويكون مع شيخه كالميِّت بين يدي الغاسل، ليس له أن يعترض بشيء.

وَتَسمِيَةُ العَامَّةِ: السَّيِّدَ... وَأَشبَاهَ هَذَا.

الشَّرح

وهم يُسمُّون شيخهم: السيد، ويُسمُّونه الشيخ، فلابد أن تبايعه وتُسلم له أمرك، فلا تعترض ولا تخالف فِي شيء، وإلَّا فإنك لا تكون مريدًا معه.

وَذَلِكَ أَنَّهُم يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّه جَعَلَ لِخَوَاصِّ الخَلقِ عِندَهُ مَنزِلَةً يَرضَىٰ أَن يَلتَجِئَ الإِنسَانُ إِلَيهِم، وَيَرجُوهُم وَيَستَغِيثَ بِهِم، وَيَجعَلَهُم وَاسِطَةً بينَهُ وَبَينَ اللَّهِ.

الشَّرْح

يقولون: إن الله جعل من الخَلْق خواصَّ يَجوز الالتجاء إليهم، ودعاؤهم والاستغاثة بِهم علىٰ أنَّهم شفعاء عنده، ويُقرِّبون إليه هذا الذي هم عليه، لا يقولون: إنهم شركاء لله.

بل يقولون: شفعاء عنده ويقربون إليه؛ لأن الله اختارهم لصلاحهم وتقواهم، فصاروا وسائط بين العباد، وبين الله -تعالىٰ الله عمَّا يقولون-؛ ولذلك يتقربون إليهم بالعبادات أحياءً وأمواتًا.

ويقولون: إن الْمتقرب إليهم مثل المتقرب إِلَىٰ الله، مَنْ يتقرب للشيخ يتقرب لله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. لعب الشيطان بِهم إِلَىٰ هذا الْحَد.

فَالَّذِينَ يَزعُمُ أَهلُ الشِّركِ فِي زَمَانِنَا أَنَّهُم وَسَائطُهُم هُمُ الَّذِينَ يُسَمِّيهِمُ الأَوَّلُونَ: الآلِهَةَ، وَالوَاسِطَةُ هِيَ: الإِلَهُ.

الشَّرْح

الْمُشركون الأولون يعبدونهم ويُسمُّونهم آلهة، ولذلك لما قال لَهم رسول الله ﷺ قولوا: «لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ إِلَىٰ قول: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥، ٦]، سمُّوها آلهة، ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. الأَوَّلون سمُّوهم آلهة، والْمُتأخرون الذين يدعون الإسلام سمُّوهم وسائط وشفعاء فقط، ولَم يسموهم آلهة، والْمعنىٰ واحد وإن اختلف اللفظ؛ لأن العِبْرة بالحقائق، وليس العِبْرة بالألفاظ والمصطلحات.

فَقَولُ الرَّجُلِ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه» إِبطَال لِلوَسَائِطِ.

الشَّـرْح

(لا إله إلا الله) تُبطل كل ما يُعبد من دون الله؛ سواءً سُمِّي واسطة، أو شفيعًا، أو سُمِّي آلهة، فـ(لا إله إلا الله) تُبطل كل ما يُعبد من دون الله بأيِّ اسم سُمِّي.

✿✿✿

وَإِذَا أَردتَ أَن تعرِفَ هَذَا مَعرِفَةً تَامَّةً؛ فَذَلِكَ بِأَمرَينِ:

الأَوَّلُ: أَن تَعرِفَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللَّه ﷺ وَقَتَلَهُم وَأَبَاحَ أَموَالَهُم وَاستَحَلَّ نِسَاءَهُم، كَانُوا مُقِرِّينَ للَّه سُبحَانَهُ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيةِ، وَهُوَ أَنَّهُ لا يَخلُقُ وَلا يَرزُق، وَلا يُحيِي وَلا يُمِيتُ، وَلا يُدَبِّرُ الأُمُورَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

الشَّـرْح

عُبَّاد القبور الآن يقولون: ما دام أنه اعترف أن الله هو الخالق الرازق الْمُحي والْمُميت الْمُدبر، فإنه مسلم، إذن ما معنىٰ (لا إله إلا الله)؟ ليس لها معنىٰ عندهم؛ لأن الْمُشركين يقولون هذا الذي يقوله هؤلاء.

✿✿✿

وَهَذِهِ مَسأَلَةٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ مُهِمَّةٌ، وَهِيَ: أَن تَعرِفَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللّه ﷺ شَاهِدُونَ بِهَذَا كلِّهِ، وَمُقِرُّونَ بِهِ، وَمَعَ هَذَا لَم يدخِلهُم ذَلِكَ فِي الإِسلَام، وَلَم يُحَرِّم دِمَاءَهُم وَلَا أَموالَهُم، وَكانُوا أَيضًا يَتَصَدَّقُونَ، وَيَحجُّونَ، وَيَعتَمِرُونَ وَيَتَعَبَّدُونَ، وَيَترُكونَ أَشيَاءَ مِنَ المُحَرَّمَاتِ خَوفًا مِنَ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الشَّرح

هي مسألة عظيمة ومهمة جدًّا، وقلَّ مَنْ يعتني بها؛ لأن هؤلاء يقولون: مَنْ أقر بتوحيد الربوبية صار مسلمًا.

وكان الْمُشركون فِي الجاهلية يقرُّون بتوحيد الرُّبوبية، وعندهم عبادات كالصدقة والحجِّ، فهم يحجُّون ويعتمرون ويقولون: لا يخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت، إلا الله، يعترفون بتوحيد الرُّبوبية، ويتعبدون ببعض العبادات، ولكن لما كانوا لا يخلصون العبادة لله وَحْدَه، بل يعبدون الله ويعبدون مع غيره صاروا مشركين.

وَلَكِنَّ الأَمرَ الثَّانِي: هُوَ الَّذِي كَفَّرَهُم وَأَحَلَّ دِمَاءَهُم وَأَموَالَهُم، وَهُوَ أَنَّهُم لَم يَشهَدُوا للّهِ بِتَوحِيدِ الأُلوهِيةِ، وَتَوحِيدِ الرّبُوبِيةِ.

الشَّرح

لأن هذا هو الْمَطلوب وهو توحيد الألوهية، أي: إفراد الله بالعبادة، وليس المطلوب إفراد الله بتوحيد الربوبية فقط، لابد من الأمرين، لابد من توحيد الربوبية، وهو مستلزم لتوحيد الألوهية، ولابد من توحيد الأُلوهية، وهو مُتضمِّنٌ لتوحيد الربوبية، لا ينفكُّ بعضهما عن بعض.

وَهُوَ: أَلَّا يُدْعَىٰ وَلَا يُرجَىٰ إِلَّا اللّٰهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ.

الشَّرْح

أي: وتوحيد الأُلوهية يتضمَّن جميع العبادات، فلا يُصْرف لغير الله عَزَّوَجَلَّ منها شيء؛ لأنه هو الْمُستحقُّ لها، فمَنْ صرف منها شيئًا لغير الله، فإنه مشرك ولو كان يقول: لا إله إلا الله، بل لو كان يعبد الله بأنواع من العبادات، ما دام لَم يخلص لله فيها كلها، فليس بمسلم.

وَلَا يُستَغَاثَ بِغَيرِهِ وَلَا يذبَحَ لِغَيرِهِ، وَلَا يُنذَرَ لِغَيرِهِ، لا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبيٍّ مرسَلٍ؛ فَمَنِ استغَاثَ بِغَيرِهِ فَقَد كَفَرَ، وَمَن ذَبَحَ لِغَيرِهِ فَقَد كَفَرَ، وَمَن نَذَرَ لِغَيرِهِ فَقَد كَفَرَ، وأَشبَاهُ ذَلِكَ.

الشَّرْح

أي: مَنْ فَعَل ذلك فإنه يكفر ولو كان يقول: لا إله إلا الله؛ لأنه لم يُحقِّقها فهو متناقض، كيف يقول: (لا إله إلا الله) ويذبح لغيره، كيف يقول: (لا إله إلا الله) ويستغيث بغير الله من الأموات والغائبين والجِنِّ والشياطين، كيف يقول: (لا إله إلا الله) وينذر لغير الله؟! هذا تناقض.

وَتَمَامُ هَذَا: أَن تَعرِفَ أَنَّ الْمُشرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللّه ﷺ كَانُوا يَدعُونَ الصَّالِحِينَ مِثلَ: المَلَائِكَة وَعِيسَىٰ وَأُمّهِ وَعُزَيرٍ، وَغَيرِهِم مِنَ الأَولِيَاءِ، فَكَفَرُوا بِهَذَا مَعَ إِقرَارِهِم بِأَنَّ اللّه سُبحَانَهُ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ.

الشَّرح

الْمُشركون الأوَّلون ليسوا كلَّهم يعبدون الأصنام، فهم متفرقون فِي عبادتهم، فمنهم مَنْ يعبد الأصنام، ومنهم مَنْ يعبد الْمَلائكة، ومنهم مَنْ يعبد الأنبياء، ومنهم مَنْ يعبد الصالحين، والرسول ﷺ قاتلهم كلَّهم ولَم يُفرِّق بينهم.

ولَم يقل: ما أُقاتل إلا الذي يعبد الأصنام. ويترك الذين يعبدون عُزيرًا ويعبدون الْمَسيح، ويعبدون الصالحين، ما فرَّق بينهم الرسول ﷺ، وهؤلاء القبوريون اليوم يقولون: الشِّرْك عبادة الأصنام، وعبادة الأولياء تقرُّب إِلَىٰ الله وتوسل إِلَىٰ الله، ليست بشرك؛ لأن الشرك عبادة الأصنام فقط، يا سبحان الله!

الرسول قاتل الْجَميع: الذين يعبدون الأصنام، والذين يعبدون الْمَلائكة، والذين يعبدون الْمَسيح، والذين يعبدون عُزيرًا، والذين يعبدون الأولياء والصالحين، لَمْ يُفرِّق بينهم؛ لأنه ليس بينهم فَرْق فِي الحقيقة.

إِذَا عَرَفتَ هَذَا؛ عَرَفت مَعنَىٰ «لا إِلَهَ إِلا اللَه»، وَعَرَفتَ أَنَّ مَن نَخَّىٰ نَبِيًّا أَو مَلَكًا أَو نَدَبَهُ أَوِ استَغَاثَ بِهِ فَقَد خَرَجَ مِنَ الإِسلَامِ، وَهَذَا هُوَ الكُفرُ الَّذِي قَاتَلَهُم عَلَيهِ رَسُولُ اللَه ﷺ.

فَإِن قَالَ قَائِلٍ مِنَ المُشرِكِينَ: نَحنُ نَعرِفُ أَنَّ اللَه هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، لَكِن هَؤلَاءِ الصَّالِحُونَ مقرَّبُونَ، وَنَحنُ نَدعُوهُم وَنَنذِرُ لَهُم وَنَدخُلُ عَلَيهِم وَنَستَغِيثُ بِهِم، وَنُرِيدُ بِذَلِكَ الوَجَاهَةَ وَالشَّفَاعَةَ، وَإِلَّا فنَحنُ نَفهَمُ أَنَّ اللَه هُوَ الخَالِقُ الرَّازِق المُدَبِّرُ.

فَقُل: كَلَامُكَ هَذَا مَذهَبُ أَبِي جَهلٍ وَأَمثَالِهِ.

الشَّرح

الشيخ يُخاطب العلماء والعوامَّ، ومعنىٰ نخاه: فِي العامية، أي: استنجد به.

يُقال لمَنْ ينفي أن دعاء الصالحين شِرْك، ويقول: الْمراد به: التوسُّل بِهم إِلَىٰ الله، يُقال له: كلامك هذا هو مذهب أبِي جهل وأبِي لهب وأمثالهم؛ لأَنَّهم يقولون: لا يخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يُدبِّر إلا الله، ونَحن نتخذ هذه الآلهة لتقرِّبنا إِلَىٰ الله زُلْفىٰ، كما قال الله عنهم: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

فَإِنَّهُم يَدعُونَ عِيسَىٰ وَعُزَيرًا وَالمَلَائِكَةَ وَالأَولِيَاءَ، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ كمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].

الشَّرح

الْمُشركون الأولون يُريدون مِمَّن يعبدونهم مع الله التوسط لَهم فقط.

لا يقولون: إنهم يخلقون ويرزقون، وإنَّما يقولون: إن هؤلاء شفعاء لنا عند الله، يقولون: إن هذا تعظيم لله.

فَإِذَا تَأَمَّلتَ هَذَا تَأَمُّلًا جيدًا، وَعَرفتَ أَنَّ الكُفَّارَ يَشهَدُونَ للّهِ بتَوحِيدِ الرُّبُوبِيةِ، وَهُوَ تَفَرُّدُهُ بِالخَلقِ وَالرِّزقِ وَالتَّدبِيرِ، وَهُم يَنخُونَ عِيسَىٰ وَالمَلَائِكَةَ وَالأَولِيَاءَ يَقصِدُونَ أَنَّهُم يُقرِّبُونَهم إِلَىٰ اللّهِ زُلفَىٰ، وَيَشفَعُونَ لَهُم عِندَه، وَعَرَفتَ أَنَّ مِنَ الكُفارِ -خصُوصًا النَّصَارَىٰ مِنهُم- مَن يَعبُدُ اللّه اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَيَزهَد فِي الدّنيَا، وَيتَصَدَّقُ بمَا دَخَلَ عَلَيهِ منهَا، معتَزِلًا فِي صَومَعَةٍ عَنِ النَّاسِ.

الشَّرح

الرُّهبان من النصارىٰ يتعبدون الليل والنهار ويبكون، ولكن يقولون: الْمَسيح ابن الله، أو إن الله هو الْمَسيح ابن مريم، أو ثالث ثلاثة، وهم يبكون ويتعبدون، ولا ينفعهم هذا؛ لأنَّهم ما أخلصوا العباد لله عَزَّوَجَلَّ، فمثلهم عبَّاد القبور اليوم.

وَهُوَ مَعَ هَذَا كَافِرٌ، عَدُوٌّ للّه، مُخَلَّد في النَّارِ بِسَبَبِ اعتِقَادِهِ فِي عِيسَىٰ، أَو غَيرِهِ مِنَ الأَولِيَاءِ، يَدعُوهُ أَو يَذبَحُ لَهُ أَو يَنذِر لَهُ، تبَيَّنَ لَكَ كَيفَ صِفَةُ الإِسلَامِ الَّذِي دَعَا إِلَيهِ نَبِيُّكَ مُحَمَّد ﷺ، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنا بِمَعزِلٍ، وَتَبَيَّنَ لَكَ مَعنَىٰ قَولِهِ ﷺ: «بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ».

الشَّرح

الإسلام الصحيح غريب اليوم، أما الإسلام الْمُدَّعىٰ، فالمسلمون اليوم يزيدون علىٰ المليار، ولكن الإسلام الصحيح غريب، إذ لو كان هذا الْمليار إسلامهم صحيح لَمْ يقف أمامهم أحد من العالَم؟!! فاليهود الذين هم إخوان القردة والخنازير الذين ضُربت عليهم الذلة والْمسكنة، الآن هم مسيطرون علىٰ بلاد المسلمين، والمسلمون الذين كانوا مع النَّبِي ﷺ فِي (بدر) كان عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر، وماذا صنعوا؟ فالصحابة بالنسبة لأهل الأرض كم هم؟ ومع هذا هم فتحوا الأمصار، وأسقطوا كِسْرىٰ وقيصر، وسادوا العالَم كلَّه؛ لأنَّهم مسلمون الإسلام الصحيح، ما هو إسلام ادِّعائي.

فَاللّهَ اللّهَ يَا إِخوَانِي، تَمَسَّكُوا بِأَصلِ دِينِكُم، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَأُسِّهِ وَرَأسِهِ؛ شَهَادَةِ «أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه».

وَاعرِفوا مَعنَاهَا، وَأَحِبُّوهَا وَأَحِبُّوا أَهلَهَا، وَاجعَلُوهُم إِخوَانَكُم وَلَو كَانُوا بَعِيدِينَ.

وَاكفُرُوا بِالطَّوَاغِيتِ، وَعَادُوهُم وَأَبغِضُوهُم، وَأَبغِضُوا مَن أَحَبَّهُم أَو جَادَلَ عَنهُم، أَو لَم يُكَفِّرهُم.

أَو قَالَ: مَا عَلَيَّ مِنهُم، أَو قَال: مَا كَلَّفَنِي اللّه بِهِم، فَقَد كَذَبَ هَذَا عَلَىٰ اللّه وَافتَرَىٰ، فَقَد كَلَّفَهُ اللّه تَعَالَىٰ بِهِم، وَافتَرَضَ عَلَيهِ الكُفرَ بِهِم وَالبَرَاءَةَ مِنهُم، وَلَو كَانُوا إِخوَانَهُم وَأَولَادَهُم.

فَاللّهَ اللّهَ يَا إِخوَانِي، تَمَسَّكُوا بِذَلِكَ لَعَلَّكُم تَلقَونَ رَبَّكم وَأَنتُم لَا تُشرِكُونَ بِهِ شَيئًا.

اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسلِمِينَ وَأَلحِقنَا بِالصَّالِحِينَ.

وَلْنَختِمِ الكَلَامَ بِآيَةٍ ذَكَرَهَا اللّهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ تُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ كُفرَ المُشرِكِينَ مِن أَهلِ زَمَانِنَا أَعظَمُ مِن كُفرِ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللّه ﷺ.

الشَّرح

كُفْر أهل زماننا أعظم من كُفْر الْمُشركين الأوَّلين، أعظم من كُفْر أبِي جهل، وأبِي لهب! لأن الْمُشركين الأوَّلين فِي الرخاء ويخلصون فِي الشِّدة؛ لأنَّهم يعلمون أنه لا يخلِّص من الشدة إلا الله، أما مشركو زماننا فهم فِي الشدة أكثر شِرْكًا منهم فِي الرخاء، إذا وقعوا فِي الشدة يُنادون معبوداتهم، كلٌّ ينادي معبوده؛ ليخلصه من الغرق فِي البحر، يخلصه من كذا، كلما زاد الخطر زاد الشِّرْك عندهم، فهم أشدُّ من الْمُشركين الأوَّلين - والعياذ بالله.

قَالَ اللّٰه تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧].

فَقَد ذَكَرَ اللّٰه عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُم إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ تَرَكُوا السَّادَةَ وَالمَشَايِخَ فَلَم يَدعُوا أَحَدًا مِنهُم، وَلَم يَستَغِيثُوا بِهِ، بَل يُخلِصُونَ للّٰه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَيَستَغِيثُونَ بِهِ وَحْدَهُ، فَإِذَا جَاءَ الرَّخَاءُ أَشرَكُوا.

وَأَنتَ تَرَىٰ المُشرِكِينَ مِن أَهلِ زَمَانِنَا، وَلَعَلَّ بَعضَهُم يَدَّعِي أَنَّهُ مِن أَهلِ العِلمِ، وَفِيهِ زُهد وَاجتِهَاده وَعِبَادَةٌ، إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ قَامَ يَستَغِيثُ بِغَيرِ اللّٰه؛ مِثلَ: مَعرُوفٍ أَو عَبدِ القَادِرِ الجِيلَانِيِّ، وَأَجَلِّ مِن هَؤلاءِ، مِثلَ: زَيدِ بنِ الخَطَّابِ وَالزُّبَيرِ، وَأَجَلِّ مِن هَؤلاءِ؟ مِثلَ: رَسُولِ اللّٰه ﷺ، فَاللّٰه المُستَعَان.

وَأَعظَمُ مِن ذَلِكَ وَأَطَمُّ أَنَّهُم يَستَغِيثُونَ بِالطَّوَاغِيتِ وَالكَفَرَةِ وَالمَرَدَةِ، مِثلَ: شَمسَانَ، وَإِدرِيسَ -وَيُقَالُ لَهُ: الأَشقَرُ-، وَيُوسُفَ وَأَمثَالِهِم، وَاللّٰه ﷻ أَعلَمُ.

وَالحَمدُ للّٰه أَوَّلًا وَآخِرًا، وَصَلَّىٰ اللّٰه وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ... آمِينَ.

الشَّرْح

معروف هو معروف الكَرْخي من الأولياء والْمَعروفين فِي العراق، يعبده القبوريون، و(عبد القادر الجيلاني) إمام من أئمة الحنابلة القدماء، فهو إمام جليل، ولكن لما مات اعتقدوا أنه ينفع ويضرُّ، فبنوا علىٰ قبره، والصوفية اتخذوه إمامًا للمتصوفة، وهم أصحاب طريقة يسمُّونهم القادرية، وهو بريءٌ منهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو معروف بالصلاح والاستقامة والعلم والتُّقىٰ، كان من أكابر أصحاب مذهب الإمام أحمد، وله فيه مُؤلَّف معروف اسمه: الغُنْية.

(وزيد بن الْخطاب) صحابيٌّ جليل، وهو أخو عمر بن الْخَطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وقُتل فِي اليمامة وقُبِّر فيها وكان عليه قُبَّة، فلما جاء الشيخ مُحَمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هدم هذه القُبْة ولَم تقم إِلَىٰ الآن، والْحَمد لله، ولن تقوم -إن شاء الله-.

(والزبير بن العوام) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَواريُّ رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأولياء والصحابة يعبدهم القبوريون، ولكنهم لَمْ يكتفوا بعبادتهم، بل عبدوا الطواغيت والكَفَرة والْمُرَدَة من السَّحرة والكَهَنة، والإباحيين والحُلُوليين، الذين يقولون: مَنْ ترك الأوامر والنواهي فهو مُقرَّب من الله، وليس بحاجة للأوامر والنواهي، وإنَّما هي للعوامِّ فقط، أما هو فوصل إِلَىٰ الله ولا يحتاج إِلَىٰ شيء.

(وشمسان وإدريس ويوسف) هؤلاء طواغيت كانوا فِي (الرياض)، قبل ظهور دعوة الشيخ، فلما جاء الشيخ، وقام بالجهاد فِي سبيل الله، واستولىٰ المسلمون علىٰ (الرياض) أزالوا هذه الوثنيات منها ومن غيرها، والْحَمد لله.

الأسئلة

❑ سؤال: فضيلة الشيخ، ما صحة قول: لا معبود بحقٍّ فِي الوجود إلا الله؟

الجواب: يكفي: لا معبود بحقٍّ، عن قوله: فِي الوجود.

❑ سؤال: فضيلة الشيخ، نسمع كثيرًا ما يسمَّى بالإعجاز العلمي فِي القرآن فهل يَجوز إلحاقُه بمعجزات القرآن، وتنزيل آيات القرآن على تلك المسائل؟

الجواب: نَحن تكلمنا علىٰ هذا أكثر من مرة ونبهنا عليه، قلنا: لا يَجوز تفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ إلا بأُصول التفسير المعروفة: بأن يُفسر القرآن بالقرآن، ويُفسر بالسُّنة، ويُفسر بتفسير الصحابة، وتفسير التابعين، ولا يُزاد علىٰ هذا، فلا يُفسر بالنظريات الْحَديثة؛ لأنها تُخطئ وتُصيب، وهي كلام بَشَرٍ وعمل بَشَر، فلا نجعلها تفسيرًا لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نقول: هذا هو مراد الله بهذه الآية، هذا قول علىٰ الله بلا علمٍ -تعالىٰ الله عن ذلك.

وكم من نظرية كانت مسلَّمة فِي يوم، وبعد مدة يسيرة صارت خاطئة وكاذبة، وجاءت نظرية غيرها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]. فلا يَجوز أن نفسِّر القرآن بهذه الأشياء، ولا أن نقول: هذا من الإعجاز العلمي.

❑ سؤال: فضيلة الشيخ، مَنْ يُخطِّئ الرسول ﷺ هل يكفر أم ينظر فِي أمره؟

الجواب: من يخطئ الرسول ﷺ، فهو كافر؛ لأنه جاحد لنُبوته.

❑ سؤال: مَنْ يُحب زوجته الكتابية، هل هذا مخالف للولاء والبراء؟

الجواب: الله -جل وعلا- يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الْمائدة: ٥١] أي: لا تحبوهم وتوالوهم وتناصروهم، وأما الزواج منهم فهو تعامل دنيويٌّ، ليس هو تعاملًا دينيًّا، مثل ما تبيع معهم وتشتري، والْمحبة بين الزوجين محبة طبيعية ما هي محبة دينية، هو لا يحبها لأجل دِينها، ولكنه يحبها من أجل الزوجية.

□ سؤال: فضيلة الشيخ، ما أسباب تعلُّق هؤلاء الناس بالقبور والأضرحة وطلب الإعانات وشفاء الْمَرضى، ما السبب فِي ذلك يا شيخ؟

الجواب: السبب فِي هذا:

أولًا: التقليد الأعمىٰ؛ لأنَّهم يَجدون من يفعلون هذا الأفعال، فيُقلِّدونهم.

وثانيًا: سكوت العلماء عن النهي عن ذلك، وهذا كتمان للعلم، وتقصير فِي الدعوة إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهم مسئولون عن ذلك.

ثالثًا: دُعاةُ السُّوء، ودُعاة الضَّلال الذين يروجون هذه الشِّركيات والبدعيات، ويُحسِّنونها للناس فِي كلامهم، ومؤلَّفاتهم. فمجموع هذا الأمور يَحصل به هذا الخلل العظيم فِي العقيدة.

□ سؤال: ما حكم الاحتفال بالمولد النبوي، نرجو التوضيح، والإجابة الصحيحة حول ذلك.

الجواب: هذه المسألة تكلَّم فيها العلماء قديمًا وحديثًا، ونهوا عنها وحذروا منها؛ لأنها بدعة، فالاحتفال بمناسبة المولد النبوي بدعة ما أنزل الله بِهَا من سلطان؛ لأنه ليس فِي كتاب الله، ولا فِي سُنَّة رسول الله ﷺ، ولا فِي عمل القرون الْمُفضَّلة دليل علىٰ الاحتفال بالمولد النبوي، وما كان كذلك فهو بدعة، وإنَّما حدث الاحتفال بالمولد النبوي بعد القرون الْمُفضلة، بعد المئة الرابعة من الْهجرة لما انتهت القرون الَّتِي أثنىٰ عليها رسول الله ﷺ، وأخبر أنَّها يأتي بعدها أُناس يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، ومن ذلك أنَّهم أحدثوا هذه البدعة فِي دين الله عَزَّوَجَلَّ.

□ سؤال: ما حكم الصلاة فِي مسجد دخل فِي بنائه أموال مأخوذة من أُناس بغير طيبة أنفسهم، وما هو الحل لهذه الْمُشكلة مأجورين؟

الجواب: لا يَجوز بناء الْمَساجد بالْمَال الحرام، ولا يَجوز استخدام الْمَال الحرام للمسلمين لا أكلًا، ولا شربًا، ولا لباسًا، ولا سكنىٰ، ومن باب أولىٰ الْمَساجد الَّتِي هي بيوت الله، فإن الله ﷻ طيِّب ولا يقبل إلا طيبًا، والْمَال الْمُغصوب حرام؛ لقوله ﷺ: «لا

يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه»[(١)]، وفِي قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]. وإذا بُني مسجد من الْمَال الْمغصوب، فإن الحل فِي ذلك فِي نظري أن ينظر مقدار الْمَال الْمَغصوب فيُرد علىٰ صاحبه.

❑ سؤال: هل يَجوز الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة؟

الجواب: الأحاديث الضعيفة تختلف إذا كانت ضعيفة شديدة الضعف، فإنها لا يُستشهد بها، أما إذا كان ضعفها ليس شديدًا، أو كان لها ما يشهد لها من الأحاديث الأخرىٰ، فإنها يُستشهد بها فِي فضائل الأعمال، ولا يؤسس بها أحكام شرعية، وإنما يُستشهد بها فِي الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢)، والدارقطني (٣/ ٢٦)، والبيهقي فِي «السنن الكبرىٰ» (٦/ ١٠٠) من حديث أبِي حَرَّة الرقاشي عن عمِّه.

نموذج من ضَرْب الأمثلة على بُطْلان الشرك من القرآن الكريم من كلام الشارح فِي بعض دروسه

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

ضرب الله -جلَّ وعلا- مثلًا للموحِّد والْمُشرك، فقال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]، الْمُشرك له عدة آلهة، يعبد أصنامًا كثيرة ولا يدري ماذا يُرضي منها، مثل الْمملوك الذي له أسياد كثيرون يملكونه، كلُّ واحد يُريده علىٰ ما يوافق هواه، وكلُّ واحد له رغبة تخالف رغبة الآخر، فيُصبح هذا الْمملوك الْمسكين مزعزعًا بين هؤلاء الشركاء، لا يدري مَنْ يُرضي منهم.

وأما الْمُوحِّد فهو مثل الذي يَملكه رجل واحد يعرف مطلوبه ويعرف هواه، فهو فِي راحة معه، ليس هو معه فِي نزاع ولا فِي شقاق ولا فِي تعب، هو رجل مملوك لرجل واحد.

كذلك الْمُوحِّد هو عبد لربٍّ واحد، وهو الله ﷻ، يقوم بطاعته ويجتنب معصيته

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ يعني: خالصًا لرجل، ويَملكه رجل واحد، هل الْمملوك الذي يملكه عدة شُركاء مثل الْمملوك الذي يملكه رجل واحد؟! لا... هذا مَثَل للمشرك...

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الاستفهام للإنكار، لا يستوي هذا وهذا، وهذا أيضًا مَثَلٌ ضربه الله للشِّرك والتوحيد.

وضرب الله مثلاً للشِّرك وبُطْلانه فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]. الْمُوحِّد فِي رفعة مكانته وسُموِّ منزلته مثل الذي فِي السماء مرتفع الْمكانة سامي الْمكانة عند الله ﷻ، وأما الْمُشرك فإنه مثله مثل الذي يسقط من العلوِّ، لما أشرك بالله سقط من الارتفاع الذي فيه أهل التوحيد، والسموِّ الذي فيه أهل التوحيد، والْمكانة الْمرتفعة العالية الَّتِي فيها أهل التوحيد، الْمُشرك لما أشرك بالله سقط من مرتفَع بعيد الارتفاع.

ماذا تكون حاله فِي حالة السقوط والعياذ بالله؟! إما أن تعترضه جوارح الطير فتمزق لحمه وتأكله فِي الهواء، وإما أن يسلم من الجوارح لكن الرِّيح تحمله وترمي به فِي مكان بعيد عن الإنس، وتُلقيه فِي مكان خالٍ موحش ما فيه شراب، ولا فيه شيء.

كذلك الْمُشرك هو عُرْضة لهذه الأشياء، وهذه الأهواء، وهذه الْمناهج، وهذه الْمَذاهب الَّتِي تقطعه وتشتِّته وتُهلكه فِي النهاية.

فهذا مَثَلٌ للمؤمن ومَثَلٌ للموحِّد، الْمؤمن فِي علوٍّ وارتفاع وسموٍّ عند الله -جل وعلا- لتوحيده وإخلاصه، والْمُشرك ساقط من العلو ساقط من التوحيد، مُعرَّض لكل هلاك ولكل ضلال، وهذه حال الْمُشركين -والعياذ بالله-، معرَّضين لكلِّ بلاء ولكلِّ هلاك ولكل هوًىٰ ولكلِّ شيطان يتنازعهم كلَّ بلاء، هل يستوي هذا وهذا؟

ثُمَّ فِي آخر السورة ضرب الله مثلًا لبُطْلان الشرك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]؛ جميع الأصنام وجميع المعبودات من دون الله، كلُّها لا تستطيع أن تخلق الذباب،

فكيف تُعبد من دون الله، وهي لا تستطيع أن تخلق الذباب الذي هو أصغر شيء وأحقر شيء؟ ما طُلب منهم أن يَخلقوا بلدًا، أو يَخلقوا جبلًا أو يَخلقوا إبلًا أو بقرًا أو آدميين، بل ذباب أقلُّ شيء!! هذا تعجيز من الله -جل وعلا- لآلهة الْمُشركين، فإذا كانت لا تستطيع أن تخلق الذباب فكيف تُعبد مع الخالق الذي هو خالق كل شيء ﷻ؟!! الله خالق كلَّ شيء، الخلَّاق العليم الذي لا يعجزه شيء، كيف يُقاس هذا بِهذا؟

فهذا مَثَلٌ واضح لبُطْلان الشرك، وأنه لا مستند له، ولا أصل له ولا فرع، ﴿لَن يَخْلُقُواْ﴾ ولاحظوا كلمة ﴿لَن يَخْلُقُواْ﴾ هذا للمستقبل إِلَىٰ يوم القيامة، فالتعجيز مستمرٌّ إِلَىٰ يوم القيامة، أيُّ مُشْرك يدعو غير الله يُقال له: هل الذي تعبده يَخلق ذُبابة؟

كلُّ هذه الَّتِي يعبدون من الْمعبودات والأصنام والتماثيل والأولياء والصالحين والقبور والأشجار والأحجار، كلُّهم موجَّه إليهم هذا الْمثل.

فما دام أنَّهم لا يقدرون علىٰ خَلْق الذباب فكيف يصلحون للعبادة؟!!

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠].

ما يستطيع الْمُشركون أن يقولوا إن معبوداتهم خلقت ولو ذبابة، ولا يستطيعون هذا فِي الْمستقبل، حَتَّىٰ فِي زمان تقدُّم الصناعة الآن وتفنن الصناعة، ما يستطيع صُنَّاع العالَم ومهرة العالَم وأطباء العالَم أن يَخلقوا ذبابًا، يصنعون طيارة، يُركِّبون بعضها فِي بعض، طائرة تَحمل الرُّكاب، هذه صناعة ممكنة يتعلَّمها الإنسان ويعرفها، والله هو الذي سخَّرها لنا، وهو الذي ألهمنا أن نستعملها وأن نستخدمها رحمةً بنا، يمكن أن يصنع البشر طيارة ويصنعوا باخرة، لكن الْخلق لا يَخلق ذبابة! لأن هذا من خصائص الله ﷻ.

فالعبادة إنَّمَا يستحقُّها الخالق ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، ثُمَّ قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ [الحج: ٧٣]؛ الذباب الذي هو أضعف شيء لو يأخذ من هذا الصنم الذي يُعبد، لو يأخذ منه شيئًا مِمَّا يُوضع عليه من الطِّيب أو

من الذهب؛ لأنَّهم يضعون علىٰ هذه الْمعبودات أشياء من الْحُلي ومن الذهب، ومن الطِّيب والبخور، لو جاء الذباب وأخذ مِمَّا عليها شيئًا يسيرًا، هل تستطيع هذه الأصنام أن تسترد ما أخذه الذباب؟!! لا تستطيع أن تنتصر لنفسها من الذباب: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣] الذي هو المشرك ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الْمعبود من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ذباب أعجَز الْجميع. فهذا من أعظم الأمثلة علىٰ بُطْلان الشِّرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

يمكن أن يقولوا: نَحن ما نقول: إن معبوداتنا تخلق مع الله، الله هو الخالق وَحْده ونَحن نعترف بذلك، هو الخالق الرازق الْمُحيي الْمُميت الْمُدبر، نَحن نعتقد هذا، لكن هؤلاء عباد صالحون ونريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله، نتخذهم وسائل، فنحن نعبدهم من أجل أن يُقرِّبونا إِلَىٰ الله زُلْفىٰ، وإلا نَحن نعلم أنَّهم ما يَخلقون ولا يرزقون، لكن لأنَّهم عباد صالحون لَهم منزلة عند الله نريد منهم أن يقربونا ويشفعوا لنا إِلَىٰ الله، أن يتوسطوا لنا عند الله. ويذبحون لَهم وينذرون لَهم ويطوفون بقبورهم ويعكفون عندهم، ويصرفون لَهم العبادات، وهم يعترفون أنَّهم ما يخلقون ولا يرزقون ولا يُدبِّرون من الأمر شيئًا، وإنَّما يريدون منهم الوساطة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

الله عَزَّوَجَلَّ أبطل هذا بالمثل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم:٢٨]، فإذا كنتم لا ترضون أن يُشاركم أحدُ عبيدكم، فكيف ترضون لله أن يشاركه عبدٌ من عبيده؟! فكيف تصفون الله بِمَا تُنزِّهون منه أنفسكم؟!!

وكانوا يقولون فِي تلْبِيَّتهم: (لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك) فضرب الله لَهم هذا الْمثل.

وبالله التوفيق، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الرسالة الثانية

الأصل الجامع لعبادة الله وحده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللّهُ وَسَلَّمَ وَبارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

قَالَ الشَّيخُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ- رَحِمَهُ اللّٰهُ تعالَى-:

فَإِن قِيلَ: فَمَا الجَامِعُ لِعِبَادَةِ اللّهِ وَحدَهُ؟

قُلتُ: طَاعَتُهُ بِامتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، وبعد فإن الله ﷻ، خلق الجن والإنس لعبادته.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] بل إنه سبحانه خلق الملائكة أيضًا لعبادته.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، والعبادة مأخوذة من التعبُّد وهو التذلُّل.

يُقال: طريق مُعبَّد، إذ ذلَّلته الأقدام، هذا من ناحية اللُّغة.

وأما في الشرع: فعرَّفها العلماء تعاريف كثيرة.

التعريف الأول: أنَّها غاية الحبِّ مع غاية الذلِّ.

كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «النونية»**:

وعبـــادة الـــرحمن غايـــة حبِّـــه مـــع ذُلِّ عابـــده همـــا قطبـــان
وعليهمـــا فلـــك العبـــادة دائـــر مـــا دار حَـــتَّى قامـــت القُطْبـــان
ومـــداره بـــالأمر أمـــر رســـوله لا بـــالهوى والنفـــس والـــشيطان

فلابُدَّ من الجميع بين الأمرين، غاية الْحُبِّ مع غاية الذلِّ، فمَنْ أحب شيئًا ولَم يذلَّ له، لَمْ يكن ذلك عبادة له.

كما يُحب الإنسان زوجته، ويُحب أولاده، لكنه لا يذلُّ لَهم، فحبُّ الزوج لزوجته وحبه لأولاده، وحبُّ الولد لأبويه وأقاربه، لا يسمَّىٰ عبادة؛ لأنه ليس معه ذلٌّ، وكذلك مَنْ ذلَّ لشيء ولَم يحبَّه فليس ذلك عبادة له، كمَنْ ذل لجبَّار من الجبابرة، أو لظالم من الظَّلمة، لكنه لا يُحبه، فهذا ليس بعبادة، إنَّمَا العبادة ما جمعت بين الأمرين: غاية الْحُبِّ مع غاية الذُّلِّ، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، ولابد أن تدور عليهما أفلاك العبادة بجميع أنواعها، ولهذا قال:

وعليهمـــا فلـــك العبـــادة دائـــر مـــا دار حَـــتَّى قامـــت القطبـــان

يعني: علىٰ الأصلين: الحُبِّ والذُّلّ.

فإنسان يقتصر علىٰ الْحُبِّ والذلِّ من غير أن يفعل ما أمر الله به، وأن يترك ما نهىٰ الله عنه، لا يعتبر عابدًا لله، فغاية الْحُبِّ مع غاية الذُّلّ يقتضيان امتثال أوامر الله ﷻ، واجتناب نواهيه، وبِهذا تتحقق العبادة.

وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية بتعريف شامل دقيق، فقال: العبادة: اسم جامع لكلِّ ما يُحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كلُّ ذلك عبادة، وله رسالة فِي هذا جيدة، اسمها العبودية، ذكر فيها هذا التعريف، وذكر أنواع العبادة الَّتِي أمر الله تعالىٰ بِهَا فِي كتابه، أو أمر بِهَا رسوله ﷺ فِي سُنته.

والشيخ هنا يقول: (فإن قيل) يعني: لو سئلتَ (ما الجامع لعبادة الله؟) أي: ما هو التعريف الْجَامع لعبادة الله باختصار، فإنك تقول: (طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه).

فَإِن قِيلَ: فَمَا أَنوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي لا تَصلُحُ إِلَّا للّهِ تَعَالَىٰ.

الشَّرْح

العبادة أنواع كثيرة كما قال شيخ الإسلام: العبادة اسم جامع لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فتكون ظاهرة علىٰ الجوارح؛ كالصلاة والصيام والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام وغير ذلك، وهذه عبادات ظاهرة، والعبادات الباطنة تكون فِي القلوب، من الخوف والخشية والرغبة والرَّهْبة والْمحبة والتوكُّل والإنابة، هذه كلها عبادات قلبية، لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومنها ما هو علىٰ اللسان مثل: ذِكْر الله، والتسبيح والتهليل والتحميد، والدعوة إِلَىٰ الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع.

❀❀❀

قُلتُ: مِن أَنواعِهَا: الدُّعَاءُ.

الشَّـرح

أنواع العبادة كثيرة أعظمها الدُّعاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

أمر الله بدعائه وسمَّىٰ ذلك عبادة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي، وقال النَّبي ﷺ: «الدُّعاء هو العبادة»(١).

فالدُّعاء هو أعظم أنواع العبادة، فمَنْ دعا غير الله من الْمُوتَىٰ والْمقبورين والجِنِّ والشياطين، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤] مخلصين له فِي الدُّعاء، فسمَّىٰ الدعاء دِينًا كما سمَّاه فِي الآية الأخرىٰ عبادة، إذن فالدعاء دِين، والدعاء عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مما يدلُّ علىٰ عِظَم الدعاء، وأنه لا يَجوز أن يدعو غير الله تَعَالَىٰ، فإنه هو القادر علىٰ كلِّ شيء، وهو الذي إذا دعوته فإنه يقدر علىٰ إجابتك، ويقدر علىٰ إعطائك ما تريد، أما غير الله فإنه عاجز.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]؛ لأنَّهم أموات، أو جمادات لا تسمع الدعاء ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] ما يقدرون علىٰ الإجابة؛ لأنَّهم فقراء، لا يملكون شيئًا، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، فكيف يدعون مع

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، والترمذي (٢٣٧٢)، وابن حبان (٨٩٠).

الله ﷻ؟! بل كيف يُترك دعاء الله ويصرف الدُّعاء لغير الله من هؤلاء الأموات، والأشجار والأحجار والغائبين؟! أين عقول بني آدم تدعو أُناسًا لا يسمعون، ولو أنَّهم سمعوا لَمْ يقدروا على الإجابة؛ لأنَّهم لا يملكون شيئًا؟!

وَالاستِعَانَةُ.

الشَّرْح

الاستعانة: طلب العون علىٰ أمر من الأمور، وطلب العون علىٰ قسمين:

القسم الأول: أن تطلب العون مِمَّن يقدر علىٰ إعانتك، وهذا يَجوز أن تستعين بالْمخلوق فيما يقدر عليه، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [الْمائدة: ٢]، فالتعاون بين الناس فيما يقدرون عليه وينفعهم أمر طيب، إذا كان الإنسان حيًّا حاضرًا علىٰ أن يُعينك فهذا لا بأس به، كأن تطلب مَنْ يساعدك بالْمَال، أو يُعينك علىٰ حَمْل شيء، أو يُعينك علىٰ بناء حائط، أو يُعينك علىٰ حصاد زرع، وهذه أمور يقدر عليها الناس، لا بأس بالاستعانة بالْمخلوقين فيها، ولا يُعدُّ هذا شِرْكًا «والله فِي عون العبد ما كان العبد فِي عون أخيه»[(١)].

القسم الثاني: الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعانة فِي حصول الرزق، أو الاستعانة بحصول الولد والذرية، أو الاستعانة فِي شفاء الْمرضىٰ، أو غير ذلك، فهذا لا يطلب إلا من الله، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: لا نعبد سواك؛ لأن تقديم الْمعمول يفيد الحَصْر، ثُمَّ قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ الاستعانة نوع من أنواع العبادة وهي طلب العون من الله تعالىٰ.

وعطفها عليها من باب عطف الخاصِّ علىٰ العام اهتمامًا به، فالاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، كشفاء الْمرضىٰ وإنزال المطر، وإيجاد الرزق، وغير ذلك من الأمور الَّتِي لا يقدر عليها إلا الله، فهذه لا تطلب إلا من الله، لا تطلب من الأموات، ولا من القبور، ولا من الأضرحة، ولا من الأصنام، ولا من الأحجار والأشجار، فمَنْ طلبها من غير الله فإنه يكون مشركًا الشِّرك الأكبر، الْمخرج من الملَّة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٢٢٧)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥) وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبِي هريرة.

وَالاستِغَاثَةُ.

الشَّـرْح

الاستغاثة: نوع من الاستعانة لكنها أخصُّ، فالاستعانة عامة والاستغاثة خاصة؛ لأنها لا تكون إلا فِي أمور الشدة، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

هذا فِي وقعة (بدر) لما اشتد الأمر بالمسلمين، استغاثوا بربِّهم، لكنها أخصُّ من الاستعانة؛ لأنها لا تكون إلا فِي حال الشِّدة، فيجب إخلاص الاستغاثة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَجوز الاستغاثة بالأموات، كثير مِمَّن يدَّعون الإسلام، إذا وقعوا فِي شِدَّة يستغيثون بأمواتهم وأوليائهم، ويصرخون بأسمائهم فِي البَرِّ والبحر، وهذا من غِلْظة شِرْكهم، فصاروا أغلظ شركًا من الأوَّلين؛ لأن المشركين الأولين يشركون فِي حالة الرخاء، لكنهم فِي حال الشدة يخلصون الدُّعاء والاستغاثة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما مشركو هذا الزمان فإنهم علىٰ العكس، إذا وقعوا فِي شِدَّة استغاثوا بغير الله، ونادوا بأسماء معبوداتهم كما هو معلوم عنهم.

وَذَبحُ القُربَانِ.

الشَّرح

الذبح على قسمين:

القسم الأول: الذبح لأكل اللحم، هذا مباح وليس هو عبادة، وإنَّما هو ذَبْح للأكل، فهو مباح، إلا أنه لابد أن يذكر عليه اسم الله عند الذبح، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

القسم الثاني: الذَّبح علىٰ وَجه التقرُّب لله -جل وعلا-، فهذا نوع من أنواع العبادة، كذَبْح الأضاحي، وذَبْح الهَدْي، وذبح العقيقة للمولود، هذه ذبائح عبادة، لا يَجوز التقرُّب بِهَا إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فمَنْ ذبح لغير الله علىٰ وَجْه التقرُّب فإنه يكون مُشْركًا الشرك الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢] النُّسُك: الذبح وقرنه مع الصلاة.

وقال تَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] قرن النَّحْر مع الصلاة، فكما أنه لا تَجوز الصلاة لغير الله، فكذلك الذبح والنَّحر علىٰ وَجْه التقرُّب لا يكون إلا لله، فمَنْ ذبح يتقرب إِلَىٰ ميت، أو إِلَىٰ قبر، أو إِلَىٰ ضريح كما عليه عُبَّاد القبور اليوم، فإنه يكون مشركًا الشِّرْك الأكبر.

وفِي الْحَديث عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله مَنْ ذبح لغير الله، لعن الله مَنْ لعن والديه، لعن الله مَنْ آوىٰ مُحْدَثًا، لعن الله مَنْ غيَّر منار الأرض**»(١). فمن هذه الأمور الْملعون مَنْ فعلها: الذبح لغير الله، مَنْ ذبح لغير الله كأن يذبح للقبور يتقرَّب إليهم؛ ليقضوا له حوائجه، أو يذبح للجن من أجل ألَّا يضرُّوه، كما يفعله بعض الناس إذا نزل منزلًا جديدًا يذبح للجنِّ من أجل أنَّهم لا يضرونه فِي هذا الْمنزل، يذبح عند الباب ويرشُّ من دمه علىٰ الجدران، يتقرب إِلَىٰ الجن، أو إذا أقام مشروعًا من المشاريع

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد (٨٥٥).

كالمصانع يذبح عند أول حركة الآليات لأجل أن المصانع تسلم، وكذلك إذا قدم ملك من الملوك، أو رئيس من الرؤساء يذبحون عند وصوله، والسلام عليه تعظيمًا له، ذَبْح تحية، أما لو كانوا يذبحون له وليمة، فلا بأس، هذا من الْمباحات، لكن يذبحون تعظيمًا له، إذا نزل من الطائرة، أو نزل من السيارة يذبحون تَحت السيارة وتَحت الطائرة، تعظيمًا لهذا الوافد، هذا من الشِّرك؛ لأنه من باب التحية والتعظيم.

وَالنَّذرُ.

الشَّرح

النذر: هو التزام عبادة لَمْ يلزم بِهَا الشرع وهو نوع من أنواع العبادة، قال تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]، فأثنىٰ عليهم أنَّهم يُوفون بالنذر، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠] قرنه مع النفقة والصدقة، والنفقةُ والصدقة عبادة، فيكون النذر عبادة، قال سبحانه: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: ٢٩] قرنه مع الطواف، والطواف عبادة لله عَزَّوَجَلَّ فالوفاء بالنذر عبادة، هذا فِي نذر الطاعة، إذا نذر أن يتصدَّق، إذا نذر أن يُصلِّي، إذا نذر أن يصوم، إذا نذر أن يحجَّ، إذا نذر أن يعتمر، قال ﷺ: **«مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه»**[1]، أما نذر الْمعصية فإنه يُحرم الوفاء به، قال ﷺ: **«ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**.

ومن نذر الْمعصية: النذرُ للقبور، فمَنْ نذر لقبر، أو نذر لميِّت فإنه يكون مشركًا شِرْكًا أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) وأحمد (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة.

وَالخَوفُ.

الشَّـرح

الخوف: من أعمال القلوب، فهو عبادة قلبية، والمراد: خوف العبادة، وهو الخوف الذي يكون معه تعظيم ومحبة للمخوف، يحبُّه ويخافه، هذا خوف العبادة ويُسمَّىٰ خوف السِّرِّ، وهو لا يَجوز إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فالذي يخاف من مخلوق خوف العبادة فإنه أشرك، وإذا عمل له نوعًا من أنواع العبادة؛ لأنه يخافه، مثل الذي يخاف من الجن فيذبح لَهم، أو الذي يَخاف من الميِّت فيذبح له، هذا خوف عبادة، فإنه يكون مشركًا الشِّرْك الأكبر، أما الخوف الطبيعي كأن تخاف من العدوِّ، وتخاف من السِّباع، وتخاف من الثعابين، فهذا خوف طبيعيٌّ، ليس هو بعبادة.

وَالرجَاءُ.

الشَّـرح

من أنواع العبادة: الرجاء: وهو تأميل الخير فيما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يَجوز أن ترجو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما الرجاء فِي الأمور العادية، كأن ترجو من شخص أن يعطيك مالًا، أو يساعدك فيما يقدر عليه، فهذا ليس من العبادة.

يقول: يا أخي أرجوك أن تعطيني كذا وكذا، مِمَّا يقدر عليه، لكن لا ترجو مخلوقًا فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يرجون الأموات والغائبين والجِنَّ، هذا رجاء العبادة فلا يَجوز وهو شِرْك أكبر.

وَالتَّوَكُّلُ.

الشَّرح

من أنواع العبادة: التوكل: وهو تفويض الأمور إِلَىٰ الله ﷻ والاعتماد عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [الْمَائدة: ٢٣]. وقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]قرنه مع العبادة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ هذا حَصْر؛ لأن تقديم الْجار والْمَجرور علىٰ الفعل يفيد الحَصْر، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا علىٰ غيره ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لا علىٰ غيره، فالتوكُّل عبادة لا يَجوز إلا لله.

أما التوكيل فيما يقدر عليه الْمخلوق، كأن توكِّل أحدًا يشتري لك حاجة، وتوكِّل أحدًا يعمل لك عملًا، هذا جائز، الرسول ﷺ وَكَّل مَنْ يشتري له، وكان يُوكِّل العمال ينوبون عنه فِي بعض الأمور، قال تعالىٰ عن أصحاب الكهف أنَّهم قالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: ١٩] هذا توكيل، فالتوكيل جائز، أما التوكُّل فإنه يكون خاصًّا بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَالإِنَابَةُ.

الشَّرح

والإنابة: الرجوع، والإنابة والتوبة، بمعنىٰ واحد، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

وَالمَحَبَّةُ.

الشَّرح

الْمحبة: لَها مقام عظيم فِي العبادة، وهي محبة الله ﷻ؛ لأن الْمحبة علىٰ قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة: وهي الَّتِي يكون معها ذلٌّ وخضوع للمحبوب، وهذه لا تكون إلا لله ﷻ؛ لأنها محبة عبادة.

أما القسم الثاني: وهو الْمحبة الطبيعية كأن تُحب الْمَال، وتُحب زوجتك، وتُحب أولادك، وتُحب والديك، وتُحب مَنْ أحسن إليك، هذه محبة طبيعية لا تُعدُّ من العبادة؛ لأنها ليس معها ذُلٌّ، وليس معها خضوع، وإنَّما هي مودة مجردة، إلا إذا قدَّم محبة هذه الأشياء علىٰ محبة الله تعالىٰ فإنه يكون عليه وعيد شديد، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالله لا يُقدَّم علىٰ محبته محبة شيء من الأموال والأولاد والبلاد وغير ذلك، فإن تعارضت محبة الله مع محبة غير من الأموال والأولاد فإنه يقدم محبة الله.

وَالخَشيَةُ.

الشَّرح

الخشية: هي نوع من الخوف، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[البقرة: ١٥٠]، فلا تقدم خشية الْمخلوق علىٰ خشية الله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾[الأحزاب: ٣٩].

وَالرَّغْبَةُ.

الشَّرْح

فالرغبة: تكون إِلَىٰ الله -جل وعلا- وهي الطمع فيما عنده قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٩] وهي الرغبة فيما عند الله، والتعلُّق بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا رغب فيما عند الله حمله ذلك علىٰ طاعة الله، وتقديم رضا الله تَعَالَىٰ.

وَالرَّهبَةُ.

الشَّرْح

والرهبة: كذلك هي نوع من الخوف، قال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠] يَجب أن ترهب الله وتخاف من الله وتَخشىٰ الله، ولا ترهب الْمخلوقين وتجعلهم فِي منزلة الله أو يساوون الله عَزَّوَجَلَّ، لا ترهب منهم فتتركَ طاعة الله من أجلهم.

وَالتَّأَلُّهُ.

الشَّرْح

والتألُّه: التعبد، ويُطلق التأله ويُراد به الْمحبة من الوَلَه، وهو الْمحبة، هذا حقٌّ لله تَعَالَىٰ، فالألوهية حقٌّ لله -جل وعلا-، لا يَجوز أن يتخذ معه إلَهًا آخر يُؤَلَّه ويُحب ويعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ، فالألوهية حقٌّ له، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤﴾ [الزخرف: ٨٤] يعني: يألهه ويعبده، ويُحبه أهل السماء وأهل الأرض.

وَالرُّكُوعُ، وَالسُّجُودُ.

الشَّرْح

الركوع: عبادة لا يكون إلا لله، لا يركع الإنسان لأحد، ولا يخضع لأحد، ولا ينحني لأحد تعظيمًا له، فالانحناء علىٰ وَجْه الذُّلِّ والتعظيم لمَنْ أنحني له ركوعٌ لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَسجد إلا لله، لا يسجد للصنم، ولا للقبر ولا للضريح، ولا لعظيم من العُظَماء، لا يَجوز السجود إلا لله تَعَالَىٰ، كان الفُرْس والروم يُعظِّمون ملوكهم فيسجدون لَهم، ولما رآهم معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقدم علىٰ النَّبِي ﷺ أراد أن يسجد له، فمنعه -عليه الصلاة والسلام- من ذلك، وقال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعِظَم حقِّه عليها**»(١). فالسجود لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

وَالخُشُوعُ.

الشَّرْح

الخشوع: من أعمال القلوب، والخشوع هو الرِّقَّة التي تكون فِي القلب، وهذا لا يكون إلا الله تَعَالَىٰ، فلا تخشع لمخلوق، وإنما تخشع للخالق تعظيمًا له تَعَالَىٰ، ترقُّ له وتفتقر إليه، وتبكي من خوفه وخشيته تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧﴾ [الْمُؤمنون: ٥٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٥) من حديث معاذ.

وَالتَّذَلُّلُ.

الشَّـرْح

التذلُّل: هو الخضوع -وهو كما سبق- ركن من أركان العبادة، فالعبادة تدور علىٰ الْحُبِّ والذُّلِّ، والْخوف والرجاء، فلا يكون الذلُّ إلا لله ﷻ، لا تُذلَّ لمخلوق مِثْلك.

✿✿✿

وَالتَّعظِيمُ الَّذِي هُوَ مِن خَصَائِصِ الإِلَهِيَّةِ.

الشَّـرْح

وهو التعظيم الذي يكون معه خضوعٌ للمعظَّم، وصَرْف شيء من أنواع العبادة لهذا المعظم، وصَرْف هذا النوع من التعظيم لغير الله شِرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

✿✿✿

وَدَلِيلُ الدُّعَاءِ.

الشَّـرْح

لمَّا ذكر أهم أنواع العبادة أراد أن يستدلَّ لكلِّ نوع من هذه الأنواع؛ لأن الكلام بدون دليل لا يقبل لاسيما الكلام فِي هذا الأمر العظيم المهمِّ وهو الكلام فِي العبادات؛ لأن العبادات توقيفية، لا يفعل منها شيءٌ إلا بدليل.

✿✿✿

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

الشَّرْح

هكذا يَجب أن تكون المساجد لله عَزَّوَجَلَّ، لا تُبنىٰ للرياء والسُّمعة، أو تُبنىٰ علىٰ الأضرحة والقبور، وإنَّما تُبنىٰ لعبادة الله وحده لا شريك له، فهي بيوت الله، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨] هذا محَلُّ الشاهد؛ حيث نهىٰ أن يُدْعىٰ معه غيره.

٭٭٭

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

الشَّرْح

أي: هو الذي يُدْعىٰ حقًّا، وأما غيره من الأصنام والأحجار والقبور والأضرحة فدعاؤها باطل؛ لأنها لا تسمع ولا تقدر علىٰ إجابة مَنْ دعاها، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد: ١٤] لو جئت إِلَىٰ ماء فِي قَعْر بئر وليس معك دَلْو ولا حبل، وجعلت تشير إِلَىٰ الْمَاء ليرتفع إِلَىٰ فمك فإنه لا يصل إليك، وهذا مِثْل مَن يدعو غير الله عَزَّوَجَلَّ، فإن حصول نفعه له من الْمُستحيل كاستحالة وصول الْمَاء إِلَىٰ مَنْ يبسط يده إلىٰ الْمَاء؛ ليرتفع إِلَىٰ فمه دون أن يكون معه سبب يرفعه.

٭٭٭

وَدَلِيلُ الاستِعَانَةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

الشَّرح

الدليل علىٰ أن الاستعانة نوع من أنواع العبادة، هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فقدَّمَ الْمعمول فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ العامل وهو ﴿نَسْتَعِينُ﴾ وهذا يفيد الحَصْر أي: لا نستعين بغيرك فِي الأمور الَّتِي لا يقدر عليها إلا أنت، لا نستعين بصنم ولا بوَثنٍ، ولسا بقبر ولا بحَجَر، ولا بشجر.

وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

الشَّرح

يذكر الله المؤمنين بِمَا حصل لَهم فِي (بدر)، حين اشتَّد بِهم الأمر فاستغاثوا به، فأغاثهم، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: ٩]، فأغاثهم الله ﷻ بالملائكة تُثبتهم وتُعينهم علىٰ القتال، وتُوقع الرعب فِي قلوب الأعداء ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[الأنفال: ١٢]، فالملائكة نزلت فِي ساحة القتال فِي (بدر) مع الْمؤمنين تثبتهم وتُقوي قلوبهم، وتُطمئنهم وتُوقع الرعب فِي قلوب أعدائهم، وتُعين الْمُؤمنين علىٰ القتال، فالذين يقتلون الكُفَّار هم الْمؤمنون، لكن الملائكة تمدُّهم وتُعينهم وتُقويهم وتُثبتهم.

وَدَلِيلُ الذَّبحِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

الشَّـرح

قرن النُّسْك وهو الذبح مع الصلاة، والصلاة عبادة، فالنُّسْك عبادة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢] ما أحيا عليه وما أموت عليه كله لله ﷻ، ثُمَّ قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ نفىٰ الشرك فِي الذبح وفِي الصلاة، ونفىٰ الشرك فِي الحياة والموت، ثُمَّ قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: يقول الرسول ﷺ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني الله ﷻ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام ١٦٣]. أي: أول الْمنقادين الْممتثلين لهذا الأمر.

وَدَلِيلُ النَّذرِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

الشَّـرح

فدلَّ علىٰ أن النذر عبادة يَجب إخلاصها لله، فمَنْ نذر لغير الله كالموتىٰ والقبور والأضرحة فهو مُشْرك، وهذا يقع كثيرًا من الذين ينذرون للقبور وينذرون للأموات يتقرَّبون إليهم بذلك، وهذا نَذْر معصية ونَذْر شِرْك، لا يَجوز الوفاء به، أما مَنْ نذر لله فإنه يَجب عليه الوفاء؛ لأنه عبادة.

وَدَلِيلُ الخَوفِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

الشَّرْح

لما توعد الْمُشركون رسول الله ﷺ وأصحابه بعد وقعة (أُحُدٍ)، وقالوا: إنا سنرجع إليكم ونستأصلكم، فالمؤمنون ما زادوا علىٰ أن قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: نَحن نعتمد علىٰ الله ولا يهمُّنا تهديدكم أو وعيدكم، فنحن نعتمد علىٰ الله ﷻ، ثُمَّ قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] هذا التخويف إنَّمَا هو من الشيطان، ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ يعني: يخوفكم بأوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] هذا هو محَلُّ الشاهد، دلَّ علىٰ أن الخوف نوع من أنوع العبادة يَجب أن يُفرَد الله به.

٭٭٭٭

وَدَلِيلُ الرَّجاءِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠].

الشَّرْح

قال الْمُفسرون: معناها -والله أعلم-: يرجو أن يرىٰ ربَّه ﷻ يوم القيامة فِي الْجنة، ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، فجعل الرجاء من العبادة وأمر ألَّا يشرك به معه غيره.

٭٭٭٭

وَدَلِيلُ التَّوَكلِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المَائدة:٢٣].

الشَّرْح

التوكُّل: من أعظم أنواع العبادة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣]. فمَنْ توكَّل علىٰ الله كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] يعني: كافيه، ومَنْ يتوكَّل علىٰ مخلوق فإن الله يَكِلُه إِلَىٰ ذلك الْمخلوق الضعيف. وفِي هذه الآية الَّتِي ساقها الْمُصنفِّ جعل الله التوكُّل شرطًا فِي صِحَّة الإيمان. فمَنْ لَمْ يتوكل علىٰ الله فليس بمؤمن.

❁❁❁

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤].

الشَّرْح

الإنابة: الرجوع، وأنيبوا: يعني: ارجعوا إليه بالطاعة وتَرْك الْمعصية، فالإنابة نوع من أنواع العبادة.

❁❁❁

وَدَلِيلُ المَحَبَّةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الشَّرْح

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ لأَنَّهم أحبوا الله وَحْده، ولَم يحبوا معه غيره، أما الْمُشركون فإنهم أحبوا مع الله غيره ولذلك صاروا مشركين.

❁❁❁

وَدَلِيلُ الخَشيَةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة:٤٤].

الشَّرح

فدلَّ علىٰ أن الخشية نوع من أنواع العبادة، وأن مَنْ خشي غير الله فترك ما أوجبه الله عليه فقد أشرك به.

وَدَلِيل الرَّغبَة وَالرَّهبَة: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

الشَّرح

لما ذكر الله فِي سورة (الأنبياء) مواقف الأنبياء فِي العبادة، ومواقفهم عند الابتلاء والامتحان، قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا فيما عند الله، ﴿وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي: خوفًا من عقابه، فدلَّ علىٰ أن الرغبة والرهبة نوعان من أنواع العبادة يَجب إخلاصهما لله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠] قدَّم الجار والْمَجرور؛ ليفيد الحصر، أي: لا نرغب إِلَىٰ غيره ﷻ.

وفِي الآية ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يقولون: لا نعبده خوفًا من ناره، ولا طمعًا فِي جنته وإنَّما نعبده؛ لأننا نحبه وهذا مخالف لما عليه الأنبياء.

وَدَلِيلُ التَّأَلُّهِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

الشَّرْح

إلهكم: يعني: معبودكم المستحق للعبادة، إله واحد وهو الله تعالى لا يستحقُّ العبادة غيره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج ٦٢]. وكل مَنْ عبد غير الله فقد اتخذه إلهًا، لكنه إله باطل، والإله الحقُّ هو الله تعالى، فالألُوهية حقٌّ لله عز وجل، لا يَجوز أن نتألَّه لغيره.

وَدَلِيلُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧].

الشَّرْح

حيث أمر الله بالركوع والسجود؛ والركوع: هو الخضوع بالرأس والانحناء، والسجود: وَضْع الجبهة علىٰ الأرض علىٰ وَجْه التعظيم، هذا لا يكون إلا لله تعالى، لا يَجوز لأحد أن يركع لأحد، ولا أن يسجد لأحد، فإن ركع لغير الله أو سجد لغير الله فهو مشرك.

وَدَلِيلُ الْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:١٩٩]، وَنحوُهَا، فَمَن صَرَف شَيئًا مِن هَذهِ الأَنوَاعِ لِغَيرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَقَد أَشرَكَ بِاللَّهِ غَيرَهُ.

الشَّرْح

الخشوع: هو الانخفاض وعدم الترفُّع، وهو نوع من أنواع العبادة، وهذه الآية فيها الثناء علىٰ مؤمني أهل الكتاب الْمتَّصفين بهذه الصفة، فهم لا يَخشعون لغيره ﷻ.

لأن هذه كلَّها من أنواع العبادة، فمَنْ صرف منها نوعًا فإنه يكون مشركًا بالله فِي عبادته، الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة، وكثير من الناس يدَّعون الإسلام ويصرفون أنواعًا كثيرة من هذه الأنواع لغير الله عَزَّوَجَلَّ -نسأل الله العافية-، ويعتبرون هذا ليس من العبادة وإنَّما هؤلاء شُفعاء ووسائط تُقرِّبهم إِلَىٰ الله، يُزيِّن لَهم شياطين الجن والإنس هذا العمل، ويُسمُّون الشرك بغير اسمه، يُسمُّونه طلبًا للشفاعة، يُسمُّونه توسُّلًا إِلَىٰ الله ﷻ، إِلَىٰ غير ذلك من الأسماء. الَّتِي أضلُّوا بِهَا كثيرًا من الرِّعَاع، لاسيما وأنهم يرغِّبون بأنه مَن فَعَل هذا حصل له كذا، وأن مَنْ لَمْ يفعله يَحصل عليه كذا، ويُرهِّبونهم، فالناس الذين ليس فيهم إيمان قويٌّ يتأثرون بِهذا الوعيد أو بهذه الوعود والترهيبات، فيمارسون هذه الأنواع؛ إما خوفًا وإما رجاءً، تأثرًا بِمَا يسمعون وما يقرءون من الدعاية لعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُسمُّونها شِرْكًا بل يقولون إنها من صميم التوحيد، والذي يُنكرها يصفونه بأنه خارجيٌّ، وهو الذي لا يعرف قَدْر الصالحين، ولا يتأمَّلُون القرآن والسُّنة؛ لأن الله أعمىٰ بصائرهم فلم يلتفتوا إِلَىٰ دلائل القرآن والسُّنة، وإنَّما يلتفتون إِلَىٰ أقوال شيوخهم ومعظَّميهم ويقولون: هم أعلم منا بالقرآن، وأعلم منا بالسُّنة، هذا من ناحية.

والناحية الثانية: إنهم يقولون: أن مَنْ قال: لا إله إلا الله فإنه مسلم مؤمن ولو عمل ما عمل من الأمور، لو يدعو الأموات ويستغيث بِهم ويذبح لَهم، ما دام أنه يقول: لا إله إلا الله فهو مسلم.

وهو إنَّمَا يقول: (لا إله إلا الله) لفظًا ويناقضها معنىٰ، وهذا لا يفيده شيئًا، هو قالها بلسانه لكن خالفها باعتقاده وخالفها بأفعاله، فلا تفيده (لا إله إلا الله) شيئًا؛ لأنه أبطلها وناقضها.

فَإِن قِيلَ: فَمَا أَجَلُّ أَمرٍ أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ؟

قِيلَ: تَوحِيدُهُ بِالعِبَادَةِ، وَقَد تَقَدَّم بَيَانُهُ.

وَأَعظَمُ نَهيٍ نَهَىٰ اللّٰهُ عَنهُ: الشِّركُ بِهِ، وَهُوَ: أَن يَدعُوَ مَعَ اللّٰه غَيرَهُ، أَو يَقصِدَهُ بِغَيرِ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ.

الشَّرح

أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشِّرْك، فالتوحيد هو أعظم الْمأمورات، والشرك الْمنهيات أعظم من شُرْب الخمر، وأعظم من قَتْل النفس بغير حقٍّ، والتوحيد هو أعظم ما أمر الله به، أعظم من الصلاة وأعظم من الزكاة، وأعظم من جميع أنواع العبادة، ولذلك أول ما بدأ به الرسول بالدعوة إِلَىٰ التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا نطق بالشهادتين فإنك تأمره بالصلاة، وتأمره بالزكاة، وتأمره بالحَجِّ، أما مادام أنه لَمْ ينطق بالشهادتين لا تقل له صَلِّ؛ لأنه لو صلَّىٰ فلا فائدة فِي ذلك، ولا تقبل صلاته، ولهذا قال النَّبِي ﷺ لمعاذٍ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فِي اليوم والليلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة**»[(١)]. يعني: الزكاة، فلم يأمرهم بالصلاة ولا بالزكاة قبل أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأعظم ما أمر الله به التوحيد؛ لأنه الأصل والأساس والقاعدة لهذا الدِّين.

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

فَمَن صَرَفَ شَيئًا مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللّه تَعَالَىٰ فَقَد اتَّخَذَهُ رَبًّا وَإِلَهًا، وَأَشرَكَ مَعَ اللّه غَيرَهُ، أَو يَقصِدُهُ بِغَيرِ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ، وَقَد تَقَدَّمَ مِنَ الآيَاتِ مَا يَدُلّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّركُ الَّذِي نَهَىٰ اللّه عَنهُ، وَأَنكَرَه عَلَىٰ المُشرِكينَ.

وَقَد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وَاللّه أَعلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللّهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

الشَّرح

هذا واضح، وهذا يدل علىٰ أن الشِّرك هو أعظم الذنوب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فإذا كان الشرك لا يقبل الْمغفرة وغيره يقبل المغفرة، فهذا دليل علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب، الزنا والسرقة وشُرْب الخمر وأكل الرِّبا هذه قابلة للمغفرة فهي تحت الْمشيئة، إن شاء الله غفر لأصحابها، وإن شاء عذَّبهم، ولكن لا يُخلدون فِي النار، وإنما يُعذَّبون بقَدْر ذنوبهم، ثم يخرجون من النار؛ لأنَّهم من أهل التوحيد وأهل الإيمان، أما الشرك فإنه لا يغفر، وصاحبه لا يَخرج من النار أبدًا، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الْمائدة: ٧٢].

وصلىٰ الله علىٰ نبينا مُحمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

الرسالة الثالثة

ستة أصول عظيمة مفيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِينَ، وَصَلّىٰ اللّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

قَالَ الشَّيخُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ- رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-:

مِن أَعجَبِ العُجَابِ، وَأَكبَرِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ قُدرَةِ المَلِكِ الغَلَّابِ: سِتَّةُ أُصُولٍ بَيَّنَهَا اللّه تَعَالَىٰ بيَانًا وَاضِحًا لِلعَوَامِّ فَوقَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّونَ، ثُمَّ بَعدَ هَذَا غَلِطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِن أَذكِيَاءِ العَالَمِ وَعُقَلَاءِ بَني آدَمَ إِلَّا أَقَلَّ القَلِيلِ.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

لا شك أن الله سبحانه أنزل القرآن تبيانًا لكل شيء، وأن الرسول ﷺ بَيَّن هذا القرآن بيانًا شافيًا، وأعظم ما بينه الله ورسوله في هذا القرآن قضية التوحيد والشرك؛ لأن التوحيد هو أصل الإسلام وأصل الدين، وهو الذي تُبْنىٰ عليه جميع الأعمال، والشرك يبطل هذا الأصل، ويفسده، ولا يكون له وجود؛ لأنهما أمران متضادان ومتناقضان لا يجتمعان أبدًا، فلذلك الله سبحانه بَيَّن هذا الأصل في كتابه في جميع القرآن، فلا تكاد تخلو سورة من ذِكْر التوحيد وذكر الشرك، والناس يقرءون هذا القرآن ويرددونه.

ولكن قلَّ مَنْ يتنبه لهذا البيان، ولذلك تجد كثيرًا من الناس يقرءون القرآن ويقعون في الشرك ويخلون بالتوحيد، مع أن هذا الأمر واضح في كتاب الله وفي سُنَّة

رسول الله ﷺ؛ لأنهم يمشون علىٰ العوائد وما وجدوا عليه آباءهم ومشايخهم، فالأهل عندهم ما وجدوا آباءهم ومشايخهم وأهل بلدهم، ولا يفكرون في يوم من الأيام أن يتأملوا ويتدبروا القرآن، ويعرضوا عليه ما كان عليه الناس، هل هو صحيح أو غير صحيح؟

بل أخذهم التقليد الأعمىٰ لآبائهم وأجدادهم، واعتبروا أن القرآن إنما يُقرأ للبركة وحصول الأجر بالتلاوة، وليس المقصود أن يُقرأ للتدبر والعمل بما فيه.

قلَّ من الناس مَنْ يقرأ القرآن لهذا الغرض، إنما يقرءون للتبرك به، أو التلذذ بصوت القارئ، والترنم به، أو لقراءته علىٰ المرضىٰ للعلاج.

أما أن يُقرأ للعمل به والتدبر والصدور عما فيه وعرض ما عليه الناس علىٰ هذا القرآن، فهذا لا يوجد إلا من قليل من الناس، لا نقول: إنه معدوم، لكنه في أقل القليل، ولذلك تجد القرآن في وادٍ، وأعمال بعض الناس في وادٍ آخر، لا يفكرون في التغيير أبدًا، ولو حاول مجددٌ أو داعٍ إلىٰ الله أن يُغيِّر ما هم عليه، لقاموا في وجهه واتهموه بالضلال، واتهموه بالخروج علىٰ الدين، وأنه أتىٰ بدين جديد وأنه... وأنه...

كما حصل لهذا الشيخ نفسه لما حاول رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُردَّ الناس إلىٰ القرآن وما دل عليه القرآن، ويُغيِّر ما هم عليه من العادات والتقاليد الباطلة، ثاروا في وجهه وبدَّعوه وفسَّقوه، بل وكفروه واتهموه باتهامات، لكن في الحقيقة هذا لا يضر وليس بغريب، فإن الأنبياء قيل فيهم ما هو أشد من ذلك، لما أرادوا أن يُغيِّروا ما عليه الأمم من عبادة غير الله قيل في حقِّ الأنبياء ما قيل، فكيف بالدُّعاة والعلماء؟! فلا غرابة في هذا، وهذا لا ينقص من أجر العالِم والدَّاعية، بل هذا يزيد في حسناته عند الله تَعَالَىٰ.

وإنما يرجع بالنقص علىٰ مَنْ قاله ومَنْ تفوَّه به وكتبه، فإن هذا يرجع عليه، أما العلماء المخلصون والدُّعاة إلىٰ الله، فلا يضرهم ما قيل فيهم بل يزيد في درجاتهم وحسناتهم، ولهم قدوة بالأنبياء وما قيل في حقهم ما اتهموا به، والله تعالىٰ يقول لنبيه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[فصلت: ٤٣].

فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الكلمات يُبيِّن شيئًا من هذا الأمر العجيب: أن الناس يقرءون القرآن، ويكثرون من قراءته ويختمونه ويحفظونه ويرتلونه، ويركزون اهتمامهم بألفاظ القرآن وتجويده وأحكام المَدِّ، وأحكام الإدغام، والغُنَّة، والإقلاب، والإظهار، والإخفاء، ويعتنون بهذا عناية فائقة، وهذا شيء طيب.

ولكن الأهم والمقصود ليس هذا، المقصود تدبر المعاني، والتفقُّه في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وعرض أعمالنا وأعمال الناس علىٰ كتاب الله: هل هي موافقة لكتاب الله أو مخالفة؟

هذا هو المطلوب: أن نصحح أوضاعنا، وأن نُنبِّه علىٰ أخطاء الناس، لا بقصد التشهير وقصد النيل من الناس، بل بقصد الإصلاح والنصيحة.

الأَصلُ الأَوَّلُ: إِخلَاصُ الدِّينِ للّه تَعَالَىٰ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ.

الشَّرْح

الأصل الأول من هذه الأصول الستة: (إخلاص الدين لله وحده لا شريك له) هذا أصل الأصول وقاعدة الدين، وهذا هو المعترك بين الأنبياء وبين الأمم، فالأنبياء يريدون أن يُصححوا هذا الأصل الذي خلق الله الخَلْق من أجله وربط سعادتهم به.

فليس المهم أن الإنسان يصوم ويصلي يكثر من العبادات، المهم الإخلاص، فقليل مع الإخلاص خير من كثير مع عدم الإخلاص، فلو أن الإنسان يصلي الليل والنهار، ويتصدَّق بالأموال، ويعمل الأعمال لكن بدون إخلاص فلا فائدة في عمله؛ لأنه لا بد من الإخلاص.

والإخلاص معناه: ترك الشِّرْك وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، ولا أحد يستحق العبادة مهما بلغ من الكمال ومن الفضل إلا الله، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء والرسل، ولا الأولياء والصالحون، هذا هو الأصل، ولا يتحقق هذا الأصل إلا بترك الشرك، أما مَنْ يخلط بين العبادة لله وبين الشرك بغيره، فهذا عمله حابط.

وأما الذي يخلص عمله لله عَزَّوَجَلَّ فهذا هو السعيد، ولو كان عمله قليلًا، فقليل من العمل مع الإخلاص، فيه الخير، وفيه النجاة؛ وحديث البطاقة لا يخفىٰ: «رجل يُبعث يوم القيامة تُعرض عليه أعماله مكتوبة في سجلات، كل سجل منها مدُّ البصر، مملوءة بالسيئات، تُوضع هذه السجلات في كفة، وتُوضع هذه البطاقة التي فيها «لا إله إلا الله» قالها هذا الرجل من قلبه بإخلاص ويقين وإيمان في كفة؛ فرجحت هذه الكلمة بجميع السجلات، وطاشت بجميع السجلات»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، برقم (٤٣٠٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في: «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٣٥) و«صحيح سنن ابن ماجه»، برقم (٣٤٦٨).

هذا هو الإخلاص فهو ما قالها مجرد لفظ، وإنما قالها عارفًا بمعناها، معتقدًا بما دلت عليه، لكنه مات قبل أن يتمكن من العمل، فكيف بالذي عنده أعمال كثيرة صالحة وخالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ؟!!

هذا فيه دلالة علىٰ أن الإخلاص -وإن كان قليلًا- قد ينجي الله به صاحبه، ويُكفِّر عنه جميع الذنوب والسيئات، وأنه إذا فُقِدَ الإخلاص فلا فائدة من كثرة الأعمال.

وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّه.

الشَّـرْح

ضد التوحيد: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فالتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، والشرك: هو صَرْف شيء من أنواع العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة... إلىٰ آخر أنواع العبادات، هذا هو الشرك، والشرك المقصود هنا: هو الشرك في الألوهية، أما الشرك في الربوبية، فهذا غير موجود في الغالب.

فالأمم كلها مقرَّة بتوحيد الربوبية اضطرارًا، لم يجحده إلا مَنْ تظاهر بالإنكار، مع أنه يعترف به في الباطن؛ لأن الإقرار به ضروري، فالجميع يعرف أن هذا الخلق وهذا الكون لا بُدَّ له من خالق، وهذا الخَلْق الذي يسير لا بد له من مدبر، ليس موجودًا بمجرد الصدقة أو موجودًا من نفسه ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فالإقرار بتوحيد الربوبية ضروري وفطري لكنه لا يكفي، لم يكف المشركين إقرارُهم به كما في القرآن، فالقرآن صريح في هذا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٧] ماذا يجيبون؟ يجيبون: ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله هو الذي خلقنا، هذا توحيد الربوبية، فالمطلوب هو توحيد الألوهية، هذا الذي حصل فيه النزاع والخلاف والخصام بين الرسل والأمم، وبين الدُّعاة إلىٰ الله وبين الناس، هذا الذي فيه الخصومة، فيه القتال، وفيه ما يتعلَّق بذلك من الولاء والبراء وغير ذلك.

وَكونُ أَكثَرِ القُرآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الأَصلِ مِن وُجُوهٍ شَتَّىٰ بِكَلَامٍ يَفهَمُهُ أَبلَدُ العَامَّةِ.

الشَّرح

الله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦] هل هذا كلام غامض ؟ العوام يفهمونه ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ يفهمون من هذه الآية الأمر بالعبادة والنهي عن الشرك، ولو أنهم لم يتعلموا، يعرفون هذا من لغاتهم، هذه آية واحدة، والقرآن مملوء من مثل هذا.

هذه الآيات يمرون عليها ويقرءونها، لكن لا يفكرون فيها، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وهم يقولون: يا علي، يا حسين، يا بدوي، يا تيجاني، يا عبد القادر، يصرخون ويصيحون وينادون بأعلىٰ أصواتهم: يا فلان يا فلان، وفلان هذا ميت!!!

وهذا الذي ينادي الميت ويصرخ ربما أنه يحفظ القرآن بالقراءات السبع أو العشر، ويجوده تجويدًا منقطع النظر، «**يقيمه إقامة السهم**»(١) -كما قال النبي ﷺ- لكنه يعتني بحروفه ويضيع حدوده.

يقول الإمام ابن القيم: «القرآن كله في التوحيد؛ لأنه إما أمر بعبادة الله وترك الشِّرْك، وإما بيان لجزاء أهل التوحيد، وجزاء أهل الشرك، وإما في أحكام الحلال والحرام، وهذه من حقوق التوحيد، وإما قصص عن الرسل وأممهم وما حصل بينهم من الخصومات، وهذا جزاء التوحيد والشرك».

فالقرآن كله توحيد، من أوله إلىٰ آخره، ومع هذا يقرءون هذا القرآن وهم مقيمون علىٰ الشرك الأكبر، ويقولون: لا إله إلا الله، ولا يعملون بها، هم في وادٍ، والقرآن ولا إله إلا الله في وادٍ آخرَ، إنما هي ألفاظ علىٰ اللسان فقط.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة، برقم (٨٣١)، والطبراني (٦/ ٢٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥٤٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، برقم (٧٤١).

لو تسأل واحدًا منهم: ما معنىٰ لا إله إلا الله ؟ لقال لك: لا أدري، أنا لم أتعلم.

فنقول له: إذن أنت تقول: لا إله إلا الله ولا تعلم ما معناها، هل هذا يليق بالمسلم؟!

تقول كلامًا لا تعرف معناه ولا تهتم به، أو تقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، مثلما يقول المنافق في القبر إذا سئل: يقول: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»[1] مجرد محاكاة.

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] شبَّهـهم الله بالبهائم التي تسمع صوت الراعي وتسمع الحُداء، وتمشي علىٰ صوت الراعي وهي لا تفهم معناه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب: الكسوف، باب: صلاة النساء مع الرجال في الكسوف، برقم (١٠٥٣)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (٩٠٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَىٰ أَكثَرِ الأمّةِ مَا صَارَ، أَظهَر لَهُمُ الشَّيطَانُ الإخلَاصَ فِي صُورَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِينَ، وَالتَّقصِيرِ فِي حُقُوقِهِم.

الشَّـرح

إذا قيل لهم: لا تدعوا المخلوقين، ولا تستغيثوا بهم، ادعوا الله واستغيثوا بالله، واسألوا الله، وتوجهوا إلىٰ الله، لا تتوجهوا إلىٰ القبور والأموات.

يقولون: أنت تنتقص الأولياء، هؤلاء الأولياء قدرهم عندنا أن نُجلّهم ونحترمهم ونهتف بأسمائهم، هذا قدرهم فأنت تنقصهم ولا تعترف بفضلهم، هكذا يقولون لدُعاة التوحيد.

فنقول لهم: نحن نحب الصالحين، ونحب أولياء الله، ونواليهم ونُجلُّهم ونحترمهم، ولكن لا نعطيهم شيئًا من حق الربِّ ﷻ ولا نعطيهم شيئًا من العبادة ؛ لأنها ليست حقًّا لهم، وهم لا يرضون بهذا ولا يرضون بأنهم يُدعَون مع الله و يُستغاث بهم في الشدائد.

❁❁❁

وَأَظهَرَ لَهُمُ الشِّركَ بِاللّه فِي صورَةِ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَأَتبَاعِهِم.

الشَّـرح

هم يقولون: إن استغاثتهم بالصالحين واستنجادهم بهم اعتراف بفضلهم وإجلال لهم، هذا ما زيَّن لهم الشيطان، والمراد بالشيطان: شيطان الجن وشيطان الإنس، علماء الضلال شياطين الإنس يتكلمون ويكتبون ويؤلفون في الدعوة إلىٰ الشرك، ويزعمون أن هذا من تعظيم الصالحين، ومن الاعتراف بفضلهم، ومن موالاتهم، وأن عدم دعائهم وعدم الاستغاثة بهم من الجفاء في حقهم، ومن بُغْضهم إلىٰ آخر ما يقولون، هذا موجود في كتبهم.

❁❁❁

الأَصلُ الثَّانِي: أَمَرَ اللَّه بِالاجتِمَاعِ فِي الدِّينِ، وَنَهَىٰ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا تفهَمُهُ العَوَامُّ.

الشَّرْح

هذا الأصل موجود في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران ١٠٣]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فلا يجوز للمسلمين أن يتفرقوا في دينهم، بل يجب أن يكونوا أُمَّة واحدة علىٰ التوحيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

لا يجوز لأُمَّة محمد أن تتفرق في عقيدتها، وفي عبادتها، وفي أحكام دينها، هذا يقول: حلال، وهذا يقول: حرام بغير دليل، لا يجوز هذا. لا شك أن الاختلاف من طبيعة البشر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

لكن الاختلاف يحسم بالرجوع إلىٰ الكتاب والسنة، فإذا اختلفت أنا وأنت فإنه يجب علينا أن نرجع إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

أما ما يقال: كلٌّ يبقىٰ علىٰ مذهبه، وكلٌّ يبقىٰ علىٰ عقيدته، والناس أحرار في آرائهم، ويطالبون بحرية العقيدة، وحرية الكلمة، هذا هو الباطل الذي نهىٰ الله عنه، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فيجب أن نجتمع في عَرْض اختلافنا علىٰ كتاب الله حتىٰ في مسائل الفقه، إذا اختلفنا في شيء نعرضه علىٰ الأدلة، فمَنْ شهد له الدليل صرنا معه، ومَنْ أخطأ الدليل، فإننا لا نأخذ بالخطإ.

إن الله -جلَّ وعلا- لم يتركنا نختلف ونتفرق بدون أن يضع لنا ميزانًا بين الصحيح من الخطإ، بل وضع لنا القرآن والسنة ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ يعني: السُّنة: والرسول ﷺ يقول: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسُنتي**»[1].

فكأن الرسول ﷺ موجود بيننا بوجود السُّنة مدونة ومصححة وموضحة، وهذا من فضل الله ﷻعلىٰ هذه الأُمة، أنه لم يتركها في متاهة، بل تركها وعندها ما يدلها علىٰ الله ﷻ ويدلها علىٰ الصواب، أما الذي لا يريد الحق، ويريد أن كل واحد يبقىٰ علىٰ مذهبه وعلىٰ نِحْلته.

ويقول: نجتمع فيما اتفقنا عليه، ويَعْذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه. هذا لا شك أنه كلام باطل.

فالواجب أن نجتمع علىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله، وما اختلفنا فيه نردُّه إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله، لا يعذر بعضنا بعضًا ونبقىٰ علىٰ الاختلاف، بل نردُّه إلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله، وما وافق الحق أخذنا به، وما وافق الخطأ نرجع عنه، هذا هو الواجب علينا، فلا تبقىٰ الأُمة مختلفة، وربما يذكر الذين يدعون إلىٰ البقاء علىٰ الاختلاف حديث: «**اختلاف أُمتي رحمة**»[2]. وهذا الحديثُ يروىٰ ولكنه ليس صحيحًا.

الاختلاف ليس رحمة، الاختلاف عذاب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فالاختلاف يشتت القلوب ويُفرِّق الأُمة، ولا يمكن للناس إذا صاروا مختلفين أن يتناصروا ويتعاونوا أبدًا، بل يكون بينهم عداوة وعصبية لِفَرقهم وأحزابهم، ولا يتعاونون أبدًا.

إنما يتعاونون إذا اجتمعوا واعتصموا بحبل الله جميعًا، وهذا هو الذي أوصىٰ به

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢)، والدارقطني (٤/ ٢٤٥)، من حديث أبي هريرة، وقال الألباني في «منزلة السنة في الإسلام»: رواه مالك بلاغًا والحاكم موصلًا بإسناد حسن.

(٢) قال الألباني: موضوع، انظر: «ضعيف الجامع» رقم (٢٣٠).

النبي ﷺ، فقال: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تُناصحوا مَنْ وَلَّاه الله أمركم**»(١). هذه الثلاث يرضاها الله لنا.

والشاهد منها قوله: «**وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا**» وليس معنىٰ هذا أنه لا يوجد اختلاف ولا يوجد تفرق.

طبيعة البشر وجود الاختلاف، ولكن معنىٰ هذا: أنه إذا حصل اختلاف، أو تفرق يحسم بالرجوع إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وينتهي النزاع وينتهي الاختلاف، هذا هو الحق.

وليس تحكيم القرآن أو تحكيم السُّنة مقتصرًا علىٰ مسألة النزاع في الخصومات بين الناس في الأموال؛ حيث يسمون الحكم بما أنزل الله، أنه الحكم بين الناس في أموالهم ونزاعاتهم في أمور الدنيا فقط.

لا؛ بل هو الحكم بينهم في كل اختلاف وكل نزاع، والنزاع في العقيدة أشد من النزاع في الأموال، والنزاع في أمور العبادات وأمور الحلال والحرام أشد من النزاع في الخصومات في الأموال، إنما الخصومات في الأموال جزء، أو جزئية من الاختلاف الذي يجب حسمه بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كان يحصل بينهم اختلاف لكن سرعان ما يرجعون إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فينتهي اختلافهم.

فقد حصل بينهم اختلاف بعد وفاة النبي ﷺ حول من الذي يتولىٰ الأمر من بعده؟ وسرعان ما حسموا النزاع ورجعوا وولَّوا أبا بكر الصديق، وانقادوا له وأطاعوا له، وزال الاختلاف، وانحسمت الفُرْقة التي حصلت فيمن يتولىٰ الأمر بعد الرسول ﷺ، فهم يحصل بينهم اختلافات لكن يرجعون إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ثم يذهب الاختلاف فيما بينهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن حبان (٨/ ١٨٢/ إحسان)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإن الرجوع إلىٰ كتاب الله يُزيل الأحقاد ويُزيل الأضغان، فلا أحد يعترض علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فإنك عندما تقول لإنسان: تعالَ إلىٰ قول الإمام الفلاني، أو العالم الفلاني لا يقتنع.

لكن لو قلت له: تعالَ إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سُنَّة رسوله ﷺ، فإن كان فيه إيمان فهو يقتنع ويرجع، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] هذا قول المؤمنين؛ أما المنافقون إن كان الحق لهم جاءوا مذعنين، وإن كان الحق عليهم تولَّوا وأعرضوا كما ذكر الله عنهم.

فلا يسع المؤمنين أن يبقوا علىٰ اختلافهم في جميع الاختلافات، لا في الأصول ولا في الفروع، كلها تحسم بالكتاب والسنة، وإذا لم يتبين الدليل مع أحد المجتهدين، وصار لا مرجح لقول أحدهم علىٰ الآخر، ففي هذه الحالة لا ينكر مَنْ أخذ بقول إمام معين، ومن ثَمَّ قال العلماء، «**لا إنكار في مسائل الاجتهاد**»؛ أي: المسائل التي لم يظهر الدليل فيها مع أحد الطرفين.

وَنَهَانَا أَن نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاختَلَفُوا قَبلَنَا فَهَلَكُوا.

الشَّرْح

لما بقوا علىٰ اختلافهم، هلكوا وتناحروا فيما بينهم وتقاتلوا، هذا شأن أهل الاختلاف، أما شأن أهل الاجتماع فهو القوة وزوال الحقد من قلوبهم.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولا يُرضي الناس ولا يُنهي النزاع إلا الرجوع إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ أَمَرَ المُسلِمِينَ بِالاجتِمَاعِ فِي الدِّينِ، وَنَهَاهُم عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ.

الشَّرْح

قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]؛ أي: لا يصير كل واحد له دين؛ لأن الدِّين واحد ليس فيه تفرُّق.

ﮓ۞۞۞ﮔ

وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا وَرَدَت بِهِ السُّنَّةُ مِنَ العَجَبِ العُجَابِ فِي ذَلِكَ.

الشَّرْح

نعم، ثبت عن الرسول ﷺ من الأحاديث ما يحثُّ علىٰ الاجتماع وينهىٰ عن التفرق والاختلاف.

مثل حديث: «**فإنه مَنْ يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسُنْة الخلفاء الراشدين**». الحديث[(١)].

ﮓ۞۞۞ﮔ

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة برقم (٤٦٠٧) واللفظ له، والترمذي كتاب العلم، باب: الأخذ بالسنة واجتناب البدع برقم (٢٦٧٦)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٢٧٣٥).

ثُمَّ صَارَ الأَمرُ إِلَىٰ أَنَّ الافتِرَاقَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُروعِهِ هُوَ العِلمُ وَالفِقهُ فِي الدِّينِ.

الشَّـرح

صار الأمر مع الأسف عند المتأخرين: أن الاختلاف في الأصول والفروع هو الفِقْه، مع أن الواجب العكس: أن الاجتماع هو الفقه في دين الله.

هم يقولون: إن التفرُّق وإعطاء الحرية للناس وعدم الحَجْر عليهم هذا هو الفِقْه.

ونحن نقول: الفِقْه هو: الاجتماع علىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

وبعضهم يقول: هذا من سعة الإسلام أنه إذا حرم علينا أحد شيئًا نجد مَنْ يفتي بحلِّه، اتخذوا الناس هم المشرعين، فعلىٰ رأي هؤلاء إذا قال فلان: هذا حلال، صار حلالًا لنا ولو كان حرامًا في كتاب الله وسُنَّة رسوله.

فنقول: نرجع إلىٰ كتاب الله، فمَنْ شهد له بالحق أخذنا به، ومَنْ شهد عليه بالخطإ تركناه، هذا هو الواجب.

وَصَارَ الأَمْر بِالاجْتِمَاعِ لا يَقُولُهُ إِلَّا زِنْدِيقٌ أَو مَجنُون!!»:

الشَّرْح

الذي يأمر بالاجتماع وترك الخلاف يقولون عنه: هذا خارج على الأُمة، هذا زنديق؛ لأنه يلغي أقوال العلماء، فنحن لا نلغي أقوال العلماء، إنما نعرضها على كتاب الله، نحن لم نكلف باتباع الناس، إنما أُمرنا باتباع القرآن والسنة، هذا هو الحق، ما أُمرنا باتباع فلان وفلان، والله تعالىٰ لم يَكِلنا إلىٰ آرائنا واجتهاداتنا، بل أنزل علينا كتابه وأرسل إلينا رسوله، وإذا رجعنا إلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، زال الشقاق وزال الاختلاف واجتمعت الكلمة.

أتدرون أنه إلىٰ عهد قريب كان في المسجد الحرام أربعة محاريب، كل أصحاب مذهب يصلون جماعة وحدهم مع أهل مذهبهم بجوار الكعبة، حتىٰ قيَّض الله مَنْ جمعهم علىٰ إمام واحد وزال -ولله الحمد- هذا المظهر السيئ.

هذا كله من اتباع المذاهب و اتباع الآراء، حتىٰ الصلاة فرقوها، وصار الحنفي لا يصلي وراء الحنبلي، والحنبلي لا يصلي وراء الشافعي، ولا يصلون في وقت واحد، هذا يصلي في أول الوقت وهذا في آخره؛ لأن فلانًا يرىٰ تأخير الصلاة، وفلانًا يرىٰ تقديمها، يريدون أن يرضوا جميع الناس.

وهذا وجدناه في بعض البلاد الأخرىٰ باقيًا إلىٰ الآن، حتىٰ الجمعة لا يصلونها في وقت واحد، بعضهم لا يصليها إلا عند العصر؛ لأن فلانًا قال كذا وكذا، وإذا أراد أحدهم أن يصلي مبكرًا ذهب يصلي مع فلان، وإذا أراد أحدهم أن يتأخر صلىٰ مع فلان، ولكن عندنا -ولله الحمد- في هذه البلاد في ظل هذه الدعوة المباركة عادوا في المسجد الحرام إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح يصلون جميعًا في وقت واحد وخلف إمام واحد.

الأَصلُ الثَّالِثُ: أَنَّ مِن تَمَامِ الاجتِمَاعِ السَّمعَ وَالطَّاعَةَ لِمَن تَأَمَّرَ عَلَينَا وَلَو كَانَ عَبدًا حَبَشِيًّا.

الشَّرح

الأصل الثالث: طاعة ولي الأمر المسلم؛ لأنه لا يتم هذا الاجتماع إلا بطاعة ولي الأمر، فلا اجتماع إلا بإمام، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، فولي الأمر المسلم جعله الله رحمةً للمسلمين لإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونُصْرة المظلوم من الظالم، وحفظ الأمن.

هذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ والصحابة لما تُوفي الرسول ﷺ لم يدفنوه حتىٰ بايعوا إمامهم؛ لأنهم يخشون من الاختلاف ومن الفتنة؛ لأنهم يعرفون أنه لا يصلح أن يعيشوا ولا ليلةً واحدةً بدون إمام؛ لأن هذا من ضروريات الدِّين.

ولا يمكن أن يكون هذا بالسمع والطاعة لولي الأمر، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] بعد طاعة الله وطاعة رسوله لا بد من طاعة أولي الأمر، وقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾؛ أي: من المسلمين، دل علىٰ أنه يشترط في ولي الأمر أن يكون مسلمًا.

فَبَيَّنَ النَّبِيُ ﷺ هَذَا بَيَانًا شَائِعًا ذَائِعًا بِكِلِ وَجْهٍ مِن أَنوَاعِ البَيَانِ شَرعًا وَقَدَرًا.

الشَّرح

حيث قال ﷺ: «**أُوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنه مَنْ يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاء الرَّاشِدين المهْديين**»[١].

هذا الأصل الثالث: السمع والطاعة: «**اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّر عليكم عبدٌ**»[٢] فلا يمكن أن تحصل جماعة للمسلمين إلا بولي أمر مسلم ولو لم يكن ذا نسب عربي بل لو كان مملوكًا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ثُمَّ صَارَ هَذَا الأَصلُ لَا يُعرَفُ عِندَ أَكثَرِ مَن يَدَّعِي العِلمَ فَكَيفَ العَمَل بِهِ؟!

الشَّـرْح

صار هذا الأصل لا يعرف عند كثير ممن يدعي العلم، فيجهلون مسألة السمع والطاعة وما لها من فضل وما لها من أهمية، فكيف بالعوام وهم أشد جهلًا في هذا ؟

فصار الشجاع - الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر عندهم والذي لا تأخذه في الله لومة لائم، عندهم-: هو الذي يخرج علىٰ إمام المسلمين، ويخلع يد الطاعة، وينادي بالثورة علىٰ الحكام المسلمين بمجرد حصول خطإٍ منهم، أو معصية لا تصل إلىٰ حد الكفر.

وصار حديث المجالس والندوات والمحاضرات في تتبع عثرات الوُلاة وتفخيمها والنفخ فيها، حتىٰ يئول الأمر إلىٰ تفرق الكلمة، وتنفير الرعية من طاعة ولي الأمر حتىٰ يختل الأمن وتسفك الدماء، ويئول الأمر إلىٰ فساد أشد من الفساد الذي يحصل من الصبر علىٰ طاعة ولي الأمر الفاسق والظالم الذي عندهم لم يصدر منه كُفْرٌ بَوَاح عندهم عليه من الله سلطان.

الأَصلُ الرَّابعُ: بَيَانُ العِلمِ وَالعُلَمَاءِ، وَالفِقهِ وَالفُقَهَاءِ.

الشَّـرح

هذا أصل عظيم: وهو بيان المراد بالعلم؟ وهو أن العلم هو العلم الشرعي المبنيُّ علىٰ كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، هذا هو العلم النافع، أما علوم الدنيا من الحِرف والصناعات والطب وغير ذلك، هذه لا يطلق عليها العلم بدون قيد.

فإن قيل: العلم، والذي فيه الفضل، فإن المراد به العلم الشرعي، أما عِلْم الحِرف والصناعات والمهن، فهذه علوم مباحة ولا يُطلق عليها اسم العلم بدون قيد.

إنما يقال: علم الهندسة، وعلم الطب، لكن للأسف أصبح الآن في عُرْف الناس إذا قيل: العلم، فإنه يراد به العلم الحديث، ويقولون إذا سمعوا شيئًا من القرآن: هذا يشهد له العلم الحديث، وإذا جاء حديث قالوا: هذا يشهد له العلم.

صار العلم الآن يطلق علىٰ علم الحِرف والصناعات والطب وغير ذلك، مع أنه قد يكون جهلًا؛ لأنه قد يعتريه شيء من الخطإ الكثير؛ لأنه مجهود بشري، خلاف العلم الشرعي فإنه من الله، فهو ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وهم علماء الشَّرْع الذين يعرفون الله عَزَّوَجَلَّ، أما علماء الهندسة والصناعة والاختراع والطب، فهؤلاء قد يكونون يجهلون حق الله -جلَّ وعلا- ولا يعرفون الله، وإن عرفوه فمعرفتهم قاصرة، لكن الذين يعرفون الله هم علماء الشرع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ لأنهم يعرفون الله بأسمائه وصفاته، ويعرفون حقه ﷻ وهذا لا يحصل بعلم الطب وعلم الهندسة، وإنما قد يحصل به توحيد الربوبية فقط، أما توحيد الألوهية فهذا إنما يحصل بعلم الشَّرْع.

وَبَيَانُ مَن تَشَبَّهَ بِهِم وَلَيسَ مِنهُم.

الشَّرح

المقصود بيان مَنْ تشبه بأهل العلم وليس هو من أهل العلم، إنما يحاكي أهل العلم ويتشبه بهم وهو لا يملك رصيدًا من العلم، وهذا ضرره عظيم علىٰ نفسه وعلىٰ الأُمة؛ لأنه يقول علىٰ الله بغير علم، ويُضل الناس بغير علم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وقد قيل: «**يفسد الدنيا أربعة: نصف فقيه، ونصف نَحْوي، ونصف طبيب، ونصف متكلم، هذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد الأديان**».

وَقَد بَيَّنَ اللّه تَعَالَىٰ هَذَا الأَصلَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ (البَقَرَةِ) مِن قَولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠]. إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الآيَة [البقرة:٤٧].

الشَّرح

الله -جلَّ وعلا- في سورة «البقرة» أنزل آيات كثيرة في بني إسرائيل لتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وأمرهم باتباع محمد ﷺ الذي يعرفون نبوته ورسالته في كتبهم، وبشرت به أنبياؤهم، بدأها من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] وختمها بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ١٢٣]، ثم ذَكَر إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

كل هذه الآيات ما بين الآية الأولىٰ والآية الأخيرة، آيات كثيرة كلها في بني إسرائيل لتذكيرهم بنعمة الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأن الواجب عليهم أن يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ.

وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب، فإسرائيل هو يعقوب؛ لأنهم من ذريته وهم اثنا عشر سبطًا، كل ابن من أبنائه صار له ذرية، وكل ذرية يسمُّون السِّبط بمثابة القبائل في العرب، قال تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا صَرَّحَت بِهِ السُّنَّةُ فِي هَذَا الكَلَامِ الكَثِيرِ البَيِّنِ الوَاضِحِ لِلعَامِّيِّ البَلِيدِ

الشَّرح

نعم جاءت الأحاديث التي فيها من الحثِّ علىٰ تعلم العلم والترغيب فيه، وبيان ما هو العلم النافع وما هو العلم الذي لا ينفع الشيء الكثير، وإذا راجعت كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر أو غيره، عرفت هذا.

ثُمَّ صَارَ هَذَا أَغرَبَ الأَشيَاءِ، وَصَارَ العِلمُ وَالفِقهُ هُوَ البِدَع وَالضَّلَالَاتُ

الشَّرح

صار العلم والفِقْه عند بعض المتأخرين هو البدع والضلالات؛ لأنهم تركوا العلم الصحيح المبنيَّ علىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وصار العلم عندهم: قال فلان وقال فلان، وحكايات.

كقولهم: إن القبر الفلاني ينفع من كذا، وإن البقعة الفلانية رأىٰ فيها فلان في المنام كذا، هذا علم هؤلاء، أو يبحثون عن الأحاديث الموضوعة والمقبورة التي قبَّرها أهل العلم، وبينوا أنها مكذوبة، فتجد المخرفين يجعلونها صحيحة ويُزيِّنون لها أسانيد، ويرممونها ويقولون: هذه أحاديث صحيحة، ويتركون الأحاديث الصحيحة الواردة في البخاري ومسلم والسنن الأربع والمسانيد المعتبرة، يتركونها؛ لأنها ليست في صالحهم.

وَخِيَارُ مَا عِندَهُم لَبْسُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ.

الشَّرْح

يجب أن يُميز الحق من الباطل ويفصل بينهما، أما إذا خُلط بينهما فهذا هو التلبيس والغِشُّ والتدليس علىٰ الناس.

✡✡✡✡

وَصَارَ العِلمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللّه تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلقِ وَمَدَحَهُ لا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زِندِيق أَو مَجنُون.

الشَّرْح

لأنه يخالف ما هم عليه، فالعلم الذي أثنىٰ الله عليه وعلىٰ أهله ومدحه صار عندهم جهلًا، ومَنْ تفوه به -أي: تكلم به- فهو مجنون؛ لأنهم يقولون: إن العلم الذي فرضه الله يغير ما عليه الناس!! ويغير دين آبائنا وأجدادنا!!

✡✡✡✡

وَصَارَ مَن أَنكَرَهُ وَعَادَاهُ وَصَنَّفَ فِي التَّحذِيرِ مِنهُ وَالنَّهيِ عَنهُ هُوَ الفَقِيهُ العَالِمُ.

الشَّرْح

مَنْ صنف في التحذير من العلم النافع، ومدح العلم المذموم ونشره في الناس يقولون عنه: هذا هو الفقيه، هذا هو العالم، أما مَنْ نشر العلم الصحيح يقولون عنه: هذا لا يصلح، وهذا جاهل، وهذا يريد أن يفرق الناس، إنما نريد التجميع لا نريد التفريق؛ أي: التجميع ولو علىٰ الباطل، ولا نريد التفريق الذي فيه تمييز الحقِّ من الباطل، وتمييز الطيب من الخبيث، وهذا محال، فإنه لا يحصل الاجتماع علىٰ الباطل، إنما يحصل الاجتماع علىٰ الحقِّ، والشاعر يقول:

إذا ما الجرح رَمَّ على فسادٍ تبيَّن فيه إهمال الطبيبِ

الأَصلُ الخَامِسُ: بَيَانُ اللّه سُبحَانَهُ لأَوليَاءِ اللّه، وَتَفرِيقُهُ بَينَهُم وَبَينَ المُتَشَبِّهِينَ بِهِم مِن أَعدَاءِ اللّه المُنَافِقِينَ وَالفُجَّارِ.

الشَّرح

نعم، هذا أصل عظيم، وهو التفريق بين أولياء الله وأولياء الشيطان؛ لأن أهل الباطل صاروا يسمُّون أولياء الشيطان أولياء الله، حتىٰ إن هذا الأمر التبس علىٰ الناس؛ ولذلك صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا نافعًا مفيدًا سماه: «**الفُرْقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**»، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ثم بيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

هؤلاء هم أولياء الله، جمعوا بين الإيمان وبين التقوىٰ، وبين العلم النافع والعمل الصالح، هؤلاء هم أولياء الله، ليس أولياء الله مَنْ خرج علىٰ شرع الله وغيَّر دين الله، ودعا إلىٰ عبادة القبور والأضرحة، هذا وليُّ الشيطان، وليس الوليُّ هو الساحر والكاهن والخُرافي الذي يُظهر للناس مخاريق سحرية، ويقول: هذه كرامات **!!** وهي في الحقيقة مخاريق شيطانية.

وَيَكفِي فِي هَذَا آيَةٌ مِن سُورَةِ (آلِ عِمرَانَ) وَهِيَ قَولُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيَة [آل عمران:٣١].

الشرح

محبة الله هي أعظم أنواع العبادة، وعلامة محبة الله: اتباع الرسول ﷺ، فالذي لا يتبع الرسول ليس وليًّا لله، ولا يحب الله، وهؤلاء المخرفون يقولون: لا يكون وليًّا لله إلا إذا خرج عن طاعة الرسول ﷺ، فهم عندهم الولاية في الخروج من سُنَّة الرسول ﷺ والاعتماد علىٰ الخرافات والبدع، هذه هي الولاية عندهم !!

هم يقولون: نحن نعبد الله لأننا نحبه، لا نعبده خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، وإنما نعبده لأننا نحبه.

فيقال لهم: تحبونه علىٰ طريقة مَنْ؟ هل تحبونه علىٰ طريقة الرسول ﷺ، أو علىٰ طريقة غيره؟ إنه لا يحب الله إلا من اتبع الرسول ﷺ، هذا هو الفاصل بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

وَآيَةٌ فِي سُورَةِ (المَائِدَةِ)، وَهِيَ قَولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآيَة [المائدة: ٥٤].

الشرح

هذه صفات أولياء الله، أنهم يحبون الله ويحبهم الله، ويكونون ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] يعني: يحبون المؤمنين، وفيهم ولاء للمؤمنين، وفيهم بُغْض وبراءة من المشركين ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه أربع صفات هي صفات أولياء الله، وأما الذين يأمرون بعبادة غير الله يدعون مَنْ في القبور والأموات والأضرحة، ويسمون خوارق الشيطان كراماتٍ من الله، فهذه صفات أعداء الله.

وَآيَةٌ فِي سُورَةِ (يُونُسَ)، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢،٦٣].

الشَّرْح

فأنت تأخذ من هذه الآيات الثلاث صفة أولياء الله، الأولىٰ في سورة «آل عمران»، والآية الثانية في سورة «المائدة»، والثالثة في سورة «يونس»، فيها صفات أولياء الله، من اتصف بها فهو وليٌّ لله، ومن اتصف بضدِّها فهو وليٌّ للشيطان.

ثُمَّ صَارَ الأَمرُ عِندَ أَكثَرِ مَن يَدَّعِي العِلمَ، وَأَنَّهُ مِن هُدَاةِ الخَلقِ وَحُفَّاظِ الشَّرعِ إِلَىٰ أَنَّ الأَولِيَاءَ لَا بُدَّ فِيهِم مِن تَركِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وَمَن تَبِعَهُم فَلَيسَ مِنهُم.

الشَّرح

إذا خرج عن الشرع، يقال عندهم: هذا عارف وصل إلىٰ الله ليس بحاجة إلىٰ اتباع الرسول، يأخذ من الله مباشرة.

يقولون: أنتم تأخذون دينكم عن ميت عن ميت -يعني: بالأسانيد-، ونحن نأخذ ديننا عن الحي الذي لا يموت، يزعمون أنهم يأخذون عن الله مباشرة.

ومَنْ يأخذ عن الرسل فليس من الأولياء عندهم، فلا يكون وليًّا عندهم إلَّا مَنْ خرج عن طاعة الرسول ﷺ.

ولا يصير الولي الآن في عُرف كثير من المتأخرين إلا من بُني علىٰ قبره قُبَّةٌ أو مسجدٌ، أما المدفون الذي دفناه علىٰ السنة الذي لم يوضع علىٰ قبره شيء، فهو عندهم ليس بوليٍّ ولو كان من أفضل الناس.

ثم أيضًا عندهم الولي له زيٌّ خاص، بأن يلبس عمامةً ويلبس ثوبًا خاصًّا.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس لأولياء الله علامة يتميزون بها، بل يكونون كسائر الناس ما يُعرفون، والرسول ﷺ يقول: «**رُبَّ أشعثٍ أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**»[1]. هذه صفات أولياء الله أنهم لا يظهرون أنفسهم، بل يحرصون علىٰ الاختفاء؛ لأجل الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

إذن من **صفات أولياء الله**: التواضع، والاختفاء وعدم الظهور.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الضعفاء والخاملين، برقم (٢٦٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأَصلُ السَّادِسُ: رَدُّ الشُّبهَةِ الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيطَانُ فِي تَركِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الآرَاءِ وَالأَهوَاءِ المُتَفَرِّقَةِ المُختَلِفَةِ، وَهِيَ أَنَّ القُرآنَ وَالسُّنَّةَ لَا يَعرِفُهُمَا إِلَّا المُجتَهِدُ المُطلَقُ.

الشَّرح

هذا هو الأصل الأخير وهو مُهِمٌّ جدًّا، وهو أنهم يقولون: إنا لا نعرف معاني الكتاب والسنة، ولا يمكن أن نعرفها، لا يعرفها إلا العلماء الكبار.

فيقال لهم: القرآن فيه أشياء واضحة يعرفها العامي ويعرفها المتعلم، تقوم بها الحُجَّة على الخَلْق، وفيه أشياء لا يعرفها إلا العلماء، وفيه أشياء لا يعلمها إلا الله ﷻ.

نعم يوجد في القرآن والسنة أمور لا يعرفها إلا المجتهد المطلق، لكن توجد أشياء كثيرة يعرفها العوام، ويعرفها المتعلِّم الذي حاز على قَدرٍ يسير من العلم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومثل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

ومثل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

هذه أمور واضحة يعرفها العامي إذا سمعها.

وَالمُجتَهِدُ هُوَ المَوصُوفُ بِكَذَا وَكَذَا أَوصَافًا لَعَلَّهَا لَا تُوجَدُ تَامَّةً فِي أَبِي بَكرٍ وَعمَرَ.

الشَّرح

يضعون شروطًا للمجتهد المطلق قد لا توجد تامة فيمَنْ هم من أفضل الناس مثل: أبي بكر وعمر، وهذه الشروط وضعوها من عند أنفسهم.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢] هذا عامٌّ للمسلمين.

كلٌّ يعرف من القرآن ما يسر الله له، فالعامي يحصل علىٰ ما يستطيع، والمتعلم يحصل علىٰ ما يستطيع، والراسخ في العلم يحصل علىٰ ما يستطيع: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧] كل وادٍ يأخذ من السيل قدره، كذلك العلم أنزله الله، وكل قلب يأخذ منه بقدر، قلب العامي وقلب المتعلم وقلب العالِم وقلب الراسخ في العلم، كل واحد يأخذ بقدره، وبقدر ما أعطاه الله من الفَهْم، أما أنه لا يفهم شيئًا من القرآن إلا المجتهد المطلق، فهذا كلام غير صحيح.

ويقولون: محاولة فَهْم القرآن من التكليف بما لا يُستطاع، والشروط التي ذكرها العلماء وقالوا لا بد أن تتوفر في المفتي يريدون بها: المجتهد المطلق. ولا يريدون أنها لا بد أن تتوفر في كل مَنْ يريد أن يتدبر القرآن ويستفيد منه، ثم هي شروط لاستنباط الأحكام الغامضة الخفية، وليست شرطًا في فهم الأمور الواضحة مثل: التوحيد والشرك، والواجبات الظاهرة والمحرمات الظاهرة.

وَمَن طَلَبَ الهُدَىٰ مِنهُمَا فَهُوَ: إِمَّا زِندِيق، وَإِمَّا مَجنُون، لأَجلِ صُعُوبَةِ فَهمِهِمَا، فَسُبحَانَ اللّه وَبِحَمدِهِ كَم بَيَّنَ اللّه سُبحَانَهُ شرعًا وَقَدَرًا، خَلقًا وَأَمرًا فِي رَدِّ هَذهِ الشُّبهَةِ المَلعُونَةِ مِن وُجُوهٍ شَتَّىٰ بَلَغَت إِلَىٰ حَدِّ الضرُوريَّاتِ العَامَّةِ، وَلَكِن أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُون: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ ﴾ [يس:٧-١١].

الشَّرْح

هذه الآيات في المعرضين عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفي آخرها الذي مَنَّ الله عليه وهو ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: ١١] فهذا مثل للفريقين.

آخِرُه وَالحَمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللّه عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم تَسلِيمًا كَثِيرًا إِلَىٰ يومِ الدِّينِ.

الشَّرْح

ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصلاة والسلام علىٰ رسوله وهذا من محاسن التأليف والتعليم وذلك بالثناء علىٰ الله أولًا وآخرًا.

والصلاة والسلام علىٰ رسوله مُعلِّم الخير والداعي إلىٰ الله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهَدْيه وسار علىٰ نهجه وتمسك بسُنَّتِهِ إلىٰ يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

❑ أثابكم الله فضيلة الشيخ، ما رأيكم فيمن يقول: إن المقصود بأُولي الأمر الذين ذُكروا في الآية هم العلماء وليسوا الأمراء؟

■ هذا غلطٌ؛ لأن الآية شاملةٌ تشمل العلماء والأمراء، هذا هو الصحيح، أنها في الأمراء وفي العلماء، كلهم يقال لهم: أولي الأمر.

❑ أحسن الله إليكم، هل الذين يذهبون للكُهَّان والعرَّافين يكفرون كفرًا أكبر، ويعاملون معامَلة المُرتدين؟

■ نحن نقول ما قاله الرسول ﷺ: «**مَنْ أتىٰ عرافًا أو كاهنًا فصدَّقه فيما يقول فقد كفر بِمَا أُنزل علىٰ محمد**»[1].

❑ أثابكم الله، سؤالٌ يقول: ما ردكم على هذا التعبير الذي يدرَّس في المدارس: «أن المادة لا تُفنى ولا تستحدث من العدم، مع أن الله بديع السموات والأرض»؟

■ هذا كلام أهل الطبيعة، الذين يقولون بالطبيعة ولا يقرُّون بالخالق، والحق أن كل شيءٍ يوجد من عدمٍ ويفنىٰ بعد وجوده إلَّا الله ﷻ، فإنه لا بداية له ولا نهاية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧].

❑ فضيلة الشيخ، هناك بعض الإخوة ينتسبون إلى جماعة التبليغ، ويدعوننا كثيرًا للخروج معهم، ويستدلون على كونهم على الحق بكثرة مَنْ يهتدون على أيديهم من الكفار وغيرهم في أنحاء العالم، فكيف نردُّ عليهم؟

■ نرد عليهم، بأن نقول: من الذي اهتدىٰ علىٰ أيديهم في التوحيد؟ هل واحدٌ من الكفار أو من المبتدعة أو من القبوريين اهتدىٰ علىٰ يد جماعة التبليغ وترك الشِّرْك، وتاب إلىٰ الله من الشرك، وعرف التوحيد أو لا؟ إنَّما هم يتوِّبون النَّاس من الذنوب،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٥)، وأبو داود (٣٩٠٤)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (٩٠٣٥)، والدارمي (١١٣٦).

لكن الشرك لا يتعرضون له قطُّ ولا يُحذِّرون منه، ولذلك تكثر في بلادهم عبادة الأضرحة والقبور ولا يتعرضون لها، فما معنىٰ هذا؟! وأي دعوةٍ هذه؟! ثم إنهم يتوِّبون النَّاس من المعاصي ويُدخلونهم في البدع التي يسيرون عليها في منهجهم المعروف.

❏ أثابكم الله، ما حكم صلاة التسبيح؟

■ لم تثبت عن النَّبي ﷺ، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»، وما دامت لم تثبت، فلا يجوز العمل بِهَا، وأيضًا فيها غرابةٌ من ناحية صفتها، فالنبي ﷺ نهىٰ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، وهي فيها قراءةٌ للقرآن في الركوع والسجود، وفيها صفاتٌ مخالفةٌ للصلوات المشروعة، مما يدل علىٰ أنها ليس لها أصلٌ.

فالذي يريد الخير فهو موجود في الصلوات المشروعة، صلِّ يا أخي صلاة الضحىٰ، صلِّ صلاة الليل، والوتر، والرواتب مع الفرائض، الباب مفتوحٌ.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

الرسالة الرابعة

القواعد الأربع

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسأَلُ اللّهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَأَن يَجعَلَكَ مُبَارَكًا أَينَمَا كنتَ، وَأَن يَجعَلَكَ مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ؛ فَإِنَّ هَؤلاءِ الثَّلَاثَ عُنوَانُ السَّعَادَةِ.

الشَّرح

هذه «القواعد الأربع» الَّتِي ألّفها شيخُ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهي رسالة مستقلّة، ولكنها تُطبَع مع «ثلاثة الأصول» من أجل الحاجة إليها؛ لتكون فِي متناوَل أيدي طلبة العلم.

و**(القواعد)**: جمع قاعدة، والقاعدة هي: الأصل الذي يتفرّع عنه مسائلُ كثيرة- أو فروعٌ كثيرة-.

ومضمون هذه القواعد الأربع التِي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معرفة التوحيد ومعرفة الشِّرْك.

وما هي القاعدة فِي التوحيد؟، وما هي القاعدة فِي الشرك؟؛ لأنّ كثيرًا من الناس يتخبّطون فِي هذين الأمرين، يتخبّطون فِي معنىٰ التوحيد ما هو؟، ويتخبّطون فِي معنىٰ الشِّرْك، كلٌّ يفسّرهما علىٰ حسَب هواه.

ولكن الواجب: أنّنا نرجع فِي تقعيدنا إِلَىٰ الكتاب والسُّنّة؛ ليكون هذا التقعيد تقعيدًا صحيحًا سليمًا، مأخوذًا من كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، لاسيّما فِي هذين الأمرين العظيمين -التوحيد والشرك-.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمْ يذكر هذه القواعد من عنده، أو مِنْ فِكْره كما يفعل ذلك كثيرٌ من الْمتخبِّطين، وإنَّما أخذ هذه القواعد من كتاب الله، ومن سُنّة رسول الله ﷺ وسيرته.

فإذا عرفت هذه القواعد وفهمتها، سهُل عليك بعد ذلك معرفة التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كُتُبه، ومعرفة الشرك الذي حذّر الله منه وبيّن خطره وضرره فِي الدنيا والآخرة.

وهذا أمرٌ مهمّ جدًّا، وهو ألزم عليك من معرفة أحكام الصلاة والزكاة والعبادات، وسائر الأمور الدينيّة؛ لأن هذا هو الأمر الأوّلي والأساس؛ لأنّ الصلاة والزكاة والحجَّ، وغيرها من العبادات لا تصحّ إذا لَمْ تُبنَ علىٰ أصل العقيدة الصحيحة، وهي التوحيد الخالص لله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قدّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه القواعد الأربع بمقدِّمة عظيمة فيها الدُّعاء لطلبة العلم، والتنبيه علىٰ ما سيقوله؛ حيث قال: «أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يتولّاك فِي الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مبارَكًا أينما كنت، وأن يَجعلك مِمَّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنّ هذه الثلاث هي عنوان السعادة».

هذه مقدّمة عظيمة، فيها دعاءٌ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكلّ طالبِ عِلْم يتعلّم عقيدته، يريد بذلك الحقَّ، ويريد بذلك تجنُّب الضلال، والشرك، فإنه حَرِيٌّ بأن يتولَّاه الله فِي الدنيا والآخرة.

وإذا تولّاه الله فِي الدنيا والآخرة فإنه لا سبيل إِلَىٰ المكاره أن تصل إليه، لا فِي دينه ولا فِي دنياه، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فإذا تولّاك الله أخرجك من الظّلمات - ظلمات الشرك والكُفْر والشُّكوك والإلحاد- إِلَىٰ نور الإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [مُحَمَّد: ١١].

فإذا تولّاك الله برعايته وبتوفيقه وهدايته فِي الدنيا وفِي الآخرة؛ فإنّك تسعد سعادة، لا شقاء بعدها أبدًا، فِي الدنيا يتولّاك بالهِدَاية والتوفيق والسَّير علىٰ المنهج السليم، وفِي الآخرة يتولّاك بأن يُدخلك جنّته خالدًا مخلَّدًا فيها، لا خوف ولا مرض ولا شقاء ولا كبَر ولا مكارِه، هذه وَلاية الله لعبده المؤمن فِي الدنيا والآخرة.

قال: «وأن يجعلك مباركًا أينما كنت»: إذا جعلك الله مباركًا أينما كنت فهذا هو غاية الْمطالب، يَجعل الله البركة فِي عُمرك، ويَجعل البركة فِي رزقك، ويَجعل البركة فِي عِلْمك، ويَجعل البركة فِي عملك، ويَجعل البركة فِي ذريّتك، أينما كنت تصاحبك البركة، أينما توجّهت، وهذا خيرٌ عظيم، وفضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «وأن يَجعلك مِمَّن إذا أُعطيَ شكر» خلاف الذي إذا أُعطي كَفَرَ النعمة وبطرها، فإنّ كثيرًا من الناس إذا أُعطوا النعمة كفَروها وأنكروها، وصرفوها فِي غير طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فصارت سببًا لشقاوتهم، أمّا مَن يشكُر فإنّ الله يزيده: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

والله -جلَّ وعلا- يزيد الشّاكرين من فَضْله وإحسانه، فإذا أردت المزيد من النِّعم فاشكر الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أردت زوال النعم فاكفُرها.

قال: «وإذا ابتُلي صبر»: الله -جل وعلا- يُبتلي العباد، يُبتليهم بالمصائب، يُبتليهم بالمكاره، يُبتليهم بالأعداء من الكفّار والْمُنافقين، فيحتاجون إلىٰ الصبر وعدم اليأس وعدمِ القنوط من رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يثبُتون علىٰ دينهم، ولا يتزحزحون مع الفِتَن، أو يستسلمون للفتن، بل يثبُتون علىٰ دينهم، ويصبرون علىٰ ما يقاسون من الأتعاب فِي سبيلها، بِخلاف الذي إذا ابتُلي جزع وتسخّط وقنِط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا يُزاد ابتلاء إلىٰ ابتلاء، ومصائب إلىٰ مصائب، قال ﷺ: **«إنّ الله إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمَنْ رضي فله الرضا، ومَنْ سخط فعليه السخط»**[(١)]، **«وأعظم الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»**[(٢)]، ابتُلي الرسل، وابتُلي الصدِّيقون، وابتُلي الشهداء، وابتُلي عباد الله الْمُؤمنون، لكنهم

(١) أخرجه الترمذي فِي الزهد، باب: ما جاء فِي الصبر علىٰ البلاء (٤/ ٦٠١)، وابن ماجه فِي الفتن، باب: الصبر علىٰ البلاء رقم (٤٠٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: «هذا حديثٌ غريبٌ». وأخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قطعةٌ من حديث أخرجْه الترمذي فِي الزهد، باب: ما جاء فِي الصبر علىٰ البلاء (٤/ ٦٠١، ٦٠٢)، وابن ماجه فِي الفتن، باب: الصبر علىٰ البلاء، رقم: (٤٠٢٣)، وابن حبّان فِي صحيحه (٧/ ١٣١-الإحسان)، والحاكم (١/ ٤١)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

صبروا، أما الْمُنافق فقد قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يعني: طرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]، فالدنيا ليست دائمًا نعيمًا وترَفًا ومَلذّات وسُرورًا ونصرًا، ليست دائمًا هكذا، الله يداوِلها بين العباد، الصحابة أفضل الأُمة ماذا جرىٰ عليهم من الابتلاء والامتحان؟، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلْيُوَطِّنِ العبدُ نفسه أنه إذا ابتُلي فإنّ هذا ليس خاصًّا به، فهذا سَبَقَ لأولياء الله، فيوطِّن نفسه ويصبِر وينتظر الفَرَج من الله تعالىٰ، والعاقبة للمتّقين.

قال: «وإذا أذنب استغفر» أمّا الذي إذا أذنب لا يستغفر ويستزيد من الذنوب، فهذا شقيٌّ -والعياذ بالله-، لكن العبد الْمؤمن كلّما صدر منه ذنب بادر بالتوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، والْجَهالة ليس معناها عدم العلم؛ لأن الجاهل لا يؤاخَذ، لكن الْجهالة هنا هي ضدّ الْحِلْم، فكلّ مَنْ عصىٰ الله فهو جاهل بمعنىٰ ناقص الْحِلْم وناقص العقليّة وناقص الإنسانيّة، وقد يكون عالِمًا لكنه جاهل من ناحية أخرىٰ من ناحية أنه ليس عنده حِلم ولا ثبات فِي الأمور: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يعني: كلّما أذنبوا استغفروا، ما هناك أحد معصوم من الذنوب، ولكن -الْحَمد لله- أنّ الله فتح باب التوبة، فعلىٰ العبد إذا أذنب أن يُبادِر بالتوبة، لكن إذا لَم يتب ولَم يستغفر فهذه علامةُ الشقاء.

وقد يقنط من رحمة الله ويأتيه الشيطان ويقول له: ليس لك توبة.

هذه الأمور الثلاث: إذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر هي عُنْوَان السعادة، مَنْ وُفِّق لَها نال السعادة، ومَنْ حُرِم منها -أو من بعضها- فإنّه شقيّ.

اعلَم -أَرشَدَكَ اللّهُ لِطَاعَتِهِ-:

أَنَّ الحَنِيفِيةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ: أَن تَعبُدَ اللّهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الشَّرح

«اعلم أرشدك الله»: هذا دُعاء من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهكذا ينبغي للمُعلِّم أن يدعو للمتعلِّم.

وطاعة الله معناه: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

«أن الحنيفيّة ملة إبراهيم»: الله -جل وعلا- أمر نبيّنا باتّباع ملّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

الحنيفيّة: مِلّة الحنيف وهو إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والحنيف هو: المقبل علىٰ الله الْمُعْرِض عمّا سواه، هذا هو الحنيف: الْمُقبل علىٰ الله بقلبه وأعماله ونيّاته ومقاصِده كلّها لله، الْمُعرِض عمّا سواه، والله أمرنا باتّباع ملّة إبراهيم: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

ومِلَّة إبراهيم: «أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين»: هذه الحنيفيّة، ما قال: (أن تعبد الله) فقط، بل قال: «مخلصًا له الدِّين» يعني: وتجتنب الشرك؛ لأنّ العبادة إذا خالطها الشرك بَطُلَتْ، فلا تكون عبادة إلّا إذا كانت سالمةً من الشرك الأكبر والأصغر.

«كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: ٥]»: حنفاء جمع: حنيف، وهو: الْمُخلص لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه العبادة أمر الله بها جميع الْخَلق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنىٰ يعبدون: يُفْرِدوني بالعبادة، فالحِكْمة من خَلْق الخَلْق: أنهم يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ مخلصين له الدِّين، منهم مَنِ امتثل، ومنهم مَنْ لَم يمتثل، لكن الحِكْمة من خَلْقهم هي هذه، فالذي يعبُد غيرَ الله مخالِف للحِكْمة من خَلْق الخَلْق، ومخالف للأمر والشرع.

وإبراهيم هو: أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده، فكلّهم من ذريّته، ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكلُّهم من (بني إسرائيل) -حفيد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ-، إلا محمدًا ﷺ فإنه من ذرّية إسماعيل، فكلّ الأنبياء من أبناء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، تكريمًا له. وجعله الله إمامًا للناس -يعني: قدوة- ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] يعني: قدوة، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] يعني: إمامًا يُقتدىٰ به. وبذلك أمر الله جميع الْخَلق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإبراهيم دعا الناس إِلَىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ كغيره من النبيّين، كلّ الأنبياء دعُوا الناس إِلَىٰ عبادة الله وترْك عبادة ما سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأما الشرائع الَّتِي هي الأوامر والنواهي والحلال والحرام فهذه تَختلف باختلاف الأمم حسب الحاجات، يشرع الله شريعة، ثُمَّ ينسخها بشريعة أخرىٰ إِلَىٰ أنْ جاءت شريعة الإسلام فنسخت جميع الشرائع وبَقِيَتْ هي إِلَىٰ أنْ تقوم السّاعة، أما أصل دين الأنبياء -وهو التوحيد- فهو لَمْ يُنسخ ولن يُنسخ، دينهم واحد وهو دين الإسلام بمعنىٰ: الإخلاص لله بالتوحيد.

أما الشرائع فقد تَختلف، تُنسخ، لكن التوحيد والعقيدة من آدم إِلَىٰ آخر الأنبياء، كلُّهم يدعون إِلَىٰ التوحيد وإلىٰ عبادة الله، وعبادة الله: طاعته فِي كلّ وقت بِمَا أمر به من الشرائع، فإذا نُسخت صار العمل بالناسخ هو العبادة، والعمل بالمنسوخ ليس عبادة لله.

فَإِذَا عَرفتَ أَنَّ اللهَ خَلقَكَ لِعِبَادَتِهِ فَاعلَم أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ. كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لا تُسَمَّىٰ صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَت؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

الشَّرح

«فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته»: يعني: إذا عرفت من هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]وأنت من الإنس، داخلٌ فِي هذه الآية، وعرفت أن الله ما خلقك عبثًا، أو ما خلقك لتأكل وتشرب فقط، تعيش فِي هذه الدنيا وتَسْرَحْ وتَمْرَحْ، لَم يَخلقك لهذا، خلقك الله لعبادته، وإنما سخّر لك هذه الْموجودات من أجل أن تستعين بها علىٰ عبادته؛ لأنّك لا تستطيع أن تعيش إلا بهذه الأشياء، ولا تتوصّل إلىٰ عبادة الله إلا بهذه الأشياء، سخّرها الله لك لأجل أنْ تعبده، ليس من أجل أن تفرح بها وتسرح وتَمْرَحْ وتفسُق وتفجُر، تأكل وتشرب ما اشتهيت، هذا شأن البهائم، أمّا الآدميّون فالله -جل وعلا- خلقهم لغايةٍ عظيمة وحِكْمة عظيمة وهي العبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، الله ما خلقك لتكتسب له، أن تحترف وتجمع له مالًا، كما يفعل بنو آدم بعضهم لبعض يَجعلون عُمّالًا يَجمعون لهم الْمَكاسب، لا، الله غنيٌّ عن هذا، والله غنيٌّ عن العالَمين، ولهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٧]الله -جل وعلا- يُطعِم ولا يُطعَم، غنيٌّ عن الطعام، وغنيٌّ -جل وعلا- بذاته، وليس هو فِي حاجة إلىٰ عبادتك، لو كفرت ما نقصتَ مُلْك الله، ولكن أنت الذي بحاجة إليه، أنت الذي بحاجة إلَىٰ العبادة، فمن رحمته: أنه أمرك بعبادته من أجل مصلحتك؛ لأنّك إذا عبدته، فإنه ﷻ يُكرِمُك بالجزاء والثواب، فالعبادة سببٌ لإكرام الله لك فِي الدنيا والآخرة، فمَنْ الذي يستفيد من العبادة؟، المستفيد من العبادة هو العابِد نفسه، أما الله -جل وعلا- فإنّه غنيّ عن خَلْقه.

قال: «فاعلم: أن العبادة لا تُسمّىٰ عبادة إلّا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّىٰ صلاةً إلا مع الطهارة».

إذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فإن العبادة لا تكون صحيحة يرضاها الله ﷻ إلا إذا

توفّر فيها شرطان، إذا اختلّ شرطٌ من الشرطين بَطُلَت:

الشرط الأوّل: أنْ تكون خالِصة لوَجْه الله، ليس فيها شِرْك. فإنْ خالطها شِرْكٌ بَطُلَت، مثْل الطهارة إذا خالطها حَدَثٌ بَطُلَت، كذلك إذا عبدت الله، ثُمَّ أشركت به بَطُلَت عبادتك. هذا الشرط الأوّل.

الشرط الثاني: الْمُتابَعة للرسول ﷺ، فأيّ عبادة لَمْ يأتِ بِهَا الرسول فإنّها باطلة ومرفوضة؛ لأنّها بدعة وخُرافة، ولهذا يقول ﷺ: «**مَنْ عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ**»[1]، وفِي رواية: «**مَنْ أحدَث فِي أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ**»[2]، فلابدّ أنْ تكون العبادة موافقة لِمَا جاء به الرّسول ﷺ، لا باستحسانات الناس ونيّاتاهم ومقاصدهم ما دام أنَّها لَمْ يدلّ عليها دليل من الشرع، فهي بدعة، ولا تنفع صاحبها بل تضرّه؛ لأنها معصية، وإنْ زعم أنه تقرّب بِهَا إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فلابد فِي العبادة من هذين الشرطين: الإخلاص، والْمُتابعة للرّسول ﷺ حَتَّىٰ تكون عبادة صحيحة نافعة لصاحبها، فإنْ دخلها شِرْكٌ بَطُلَتْ، وإذا صارت مبتدَعة ليس عليها دليل فهي باطلة أيضًا، بدون هذين الشرطين لا فائدة من العبادة؛ لأنّها علىٰ غير ما شرَّع الله سُبْحَانَهُ، والله لا يقبل إلا ما شَرَّع فِي كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ.

فلا هناك أحد من الْخَلق يَجب اتّباعه إلاّ الرسول ﷺ، أما ما عدا الرسول فإنه يُتْبَع ويُطاع إذا اتّبع الرسول، أما إذا خالف الرّسول فلا طاعة، يقول الله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم: الأمراء والعلماء، فإذا أطاعوا الله وجبتْ طاعتهم واتّباعهم، أما إذا خالفوا أمر الله فإنها لا تَجوز طاعتهم، ولا اتّباعُهم فيما خالفوا فيه؛ لأنّه ليس هناك أحدٌ يُطاع استقلالًا من الْخَلق إلا رسول الله ﷺ، وما عداه فإنّه يُطاع ويُتّبَع إذا أطاع الرّسول ﷺ واتّبَع الرسول، هذه هي العبادة الصحيحة.

---

(١) أخرجه مسلم رقم: (١٧١٨) فِي الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة وردّ محدّثات الأمور، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٢٦٩٧) فِي الصلح، باب: إذا اصطلحوا علىٰ صُلْح جَوْر فالصلح مردود، ومسلم رقم: (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفسَدَهَا وَأَحبَطَ العَمَلَ وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيكَ هُوَ مَعرِفَةُ ذَلِكَ، لَعَلَّ اللّهَ أَن يُخَلِّصَكَ من هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ الشِّركُ بِاللهِ؛ الذِي قَالَ اللّه تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللّه تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ:

الشَّرح

«فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار صاحبه من الخالدين فِي النار...» أي: مادام أنك عرفتَ التوحيد وهو: إفراد الله بالعبادة، يَجب أن تعرف ما هو الشرك؛ لأنّ الذي لا يعرف الشيء يقع فيه، فلابدّ أن تعرف أنواع الشرك من أجل أن تتجنبها؛ لأنّ الله حذّر من الشرك، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذا الشرك الذي هذا خطرُه، وهو أنه يَحْرِمُ من الْجنّة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الْمائدة: ٧٢]، ويَحْرِمُ من الْمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

إذن: هذا خطرٌ عظيم، يَجب عليك أن تعرفه قبل أيّ خطر؛ لأنّ الشرك ضلّت فيه أفهام وعُقول؛ لنعرف ما هو الشرك من الكتاب والسنة، الله ما حذّر من شيء إلا ويُبيِّنُه، وما أمَر بشيء إلا ويُبيّنه للناس، فهو لن يُحرِّم الشرك ويتركه مجمَلًا، بل بيّنه فِي القرآن العظيم وبيّنه الرسول ﷺ فِي السنّة بيانًا شافيًا، فإذا أردنا أن نعرف ما هو الشرك نرجع إِلَىٰ الكتاب والسنة حَتَّىٰ نعرف الشرك، ولا نرجع إِلَىٰ قول فلان. وهذا سيأتي.

القَاعِدةُ الأُولَىٰ: أَن تَعلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ هوَ الخَالِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَم يُدخِلهُم فِي الإِسلَامِ.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

الشَّرح

القاعدة الأولى: أن تعرف أن الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرِّين بتوحيد الرّبوبيّة، ومع ذلك إقرارهم بتوحيد الربوبية لَمْ يُدخلهم فِي الإسلام، ولَم يحرِّم دماءهم ولا أموالهم.

فدلّ علىٰ أنّ التوحيد ليس هو الإقرار بالربوبيّة فقط، وأنّ الشرك ليس هو الشرك فِي الربوبيّة فقط، بل ليس هناك أحدٌ أشرك فِي الربوبيّة إلا شواذّ من الخَلْق، وإلاّ فكلُّ الأمم تُقرّ بتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية هو: الإقرار بأنّ الله هو الخالق الرازق الْمُحيي الْمُميت الْمُدبّر، أو بعبارة أخصر: توحيد الربوبية هو: إفراد الله تعالىٰ بأفعاله ﷻ.

فلا أحد من الخَلْق ادّعىٰ أنّ هناك أحدًا يَخلُق مع الله تعالىٰ، أو يرزق مع الله، أو يحيي، أو يُميت، بل الْمُشركون مقرّون بأنّ الله هو الخالق الرازق الْمُحيي الْمُميت الْمُدبّر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [الْمُؤمنون: ٨٦، ٨٧]، اقرءوا الآيات من آخر سورة (الْمُؤمنون) تَجدون أنّ الْمُشركين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبيّة، وكذلك فِي سورة (يونس): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم مقرّون بِهذا.

فليس التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبيّة، كما يقول ذلك علماءُ الكلام والنُّظار فِي عقائدهم، فإنّهم يقرّرون بأنّ التوحيد هو الإقرار بأن هو الخالق الرازق، الْمُحيي

الْمُميت، فيقولون: (واحد فِي ذاته لا قسيم له، واحد فِي صفاته لا شبيه له، واحدٌ فِي أفعاله لا شريك له) وهذا هو توحيد الربوبيّة، ارجعوا إِلَىٰ أيّ كتاب من كتب علماء الكلام تَجدوهم لا يخرجون عن توحيد الربوبيّة، وهذا ليس هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل، والإقرار بِهذا وحده لا ينفع صاحبه؛ لأنّ هذا أقرّ به الْمُشركون وصناديد الكَفَرة، ولَم يُخرجهم من الكُفْر، ولَم يُدخلهم فِي الإسلام، فهذا غلطٌ عظيم، فمَنِ اعتقد هذا الاعتقاد ما زاد علىٰ اعتقاد أَبِي جهل وأَبِي لهب، فالذي عليه الآن بعض الْمثقّفين هو تقرير توحيد الربوبية فقط، ولا يتطرّقون إِلَىٰ توحيد الألوهيّة، وهذا غلطٌ عظيم فِي مسمّىٰ التوحيد.

وأما الشرك فيقولون: (هو أن تعتقد أنّ أحدًا يخلُق مع الله أو يرزق مع الله)، نقول: هذا ما قاله أبو جهل وأبو لهب، ما قالوا: إن أحدًا يخلُق مع الله، ويرزُق مع الله بل هم مقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، الْمُحيي الْمُميت.

❊❊❊

القَاعِدةُ الثَّانيةُ: أَنَّهُم يَقُولُونَ: مَا دَعَونَاهُم وَتَوَجَّهنَا إِلَيهِم إِلَّا لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ القُربة: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

الشَّـرح

القاعدة الثانية: أن الْمُشركين الذين سمّاهم الله مشركين وحكم عليهم بالْخُلود فِي النار، لَمْ يشركوا فِي الربوبيّة وإنَّما أشركوا فِي الألوهية، فهم لا يقولون إنّ آلهتهم تَخلق وترزُق مع الله، وأنهم ينفعون أو يضرّون أو يدبّرون مع الله، وإنَّما اتخذوهم شفعاء، كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ هم معترفون بِهذا إنهم لا ينفعون ولا يضرّون، وإنَّما اتّخذوهم شفعاء، يعيني: وُسطاء عند الله فِي قضاء حوائجهم، يذبحون لَهم، وينذرون لَهم، لا لأنّهم يخلقون أو يرزقون أو ينفعون أو يضرّون فِي اعتقادهم، وإنَّما لأنَّهم يتوسّطون لَهم عند الله، ويشفعون عند الله، هذه عقيدة الْمُشركين.

وأنت لما تناقش الآن قبوريًّا من القبوريّين يقول هذه الْمقالة سواءً بسواء، يقول: أنا أدري أنّ هذا الوليّ، أو هذا الرجل الصالح لا يضرُّ ولا ينفع، ولكن هو رجلٌ صالح وأُريد منه الشفاعة لي عند الله.

والشفاعة فيها حقّ وفيها باطل، الشفاعة الَّتِي هي حقّ وصحيحة هي ما توفّر فيها شرْطان:

الشرط الأوّل: أن تكون بإذن الله.

والشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أي: من عُصاة الْمُوحدين.

فإنِ اختلّ شرطٌ من الشرطين فالشفاعة باطلة، قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهم عُصاة

الْمُوحّدين، أما الكفّار والْمُشركون فما تنفعهم شفاعة الشافعين: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [غافر: ١٨].

فهؤلاء ما سمعوا بالشفاعة ولا عرفوا معناها، وراحوا يطلبونها من هؤلاء بدون إذن الله عَزَّوَجَلَّ، بل طلبوها لمَنْ هو مشركٌ بالله، لا تنفعه شفاعة الشافعين، فهؤلاء يَجهلون معنىٰ الشفاعة الْحقّة والشفاعة الباطلة.

❁❁❁

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنفِيةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثبَتَة.

فَالشَّفَاعَةُ المَنفِيةُ: مَا كَانَت تُطلَبُ مِن غَيرِ اللّهِ فِيمَا لا يَقدِرُ عَلَيهِ إلّا اللّهُ.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الشَّرح

الشفاعة لَها شروط ولها قُيود، ليست مطلَقة.

فالشفاعة شفاعتان: شفاعة نفاها الله -جل وعلا-، وهي الشفاعة بغير إذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يشفع أحد عند الله إلّا بإذنه، وأفضل الخَلْق وخاتم النبيّين مُحَمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يشفع لأهل الْموقف يوم القيامة يخرّ ساجدًا بين يدي ربّه ويدعوه ويحمدُه ويُثني عليه، ولا يزال ساجدًا حَتَّىٰ يُقال له: «**ارفع رأسك، وقُلْ تُسمَعْ، واشفع تُشَفَّعْ**»(١)، فلا يشفع إلا بعد الإذن.

---

(١) قطعةٌ من حديث طويل أخرجه البخاري رقم: (٧٥١٠)، فِي التوحيد، باب: كلام الربّ عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم رقم: (١٩٣) فِي الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها؛ من حديث أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالشفَاعَةُ المُثبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطلَبُ مِنَ اللّه، وَالشَّافِعُ مُكرَم بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشفُوعُ لَهُ هُوَ مَن رَضِيَ اللّهُ قَولَهُ وَعَمَلَهُ بَعدَ الإِذنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشَّرح

والشفاعة الْمُثبتة هي الَّتِي تكون لأهل التوحيد، فالمشرك لا تنفعه شفاعة، والذي يقدِّم القرابين للقبور والنذور للقبور هذا مُشْرك، لا تنفعه الشفاعة.

وخلاصة القول: أن الشفاعة الْمنفية هي الَّتِي تطلب بغير إذن الله، أو تطلب لمشرك.

الشفاعة الْمُثبتة هي الَّتِي تكون بعد إذن الله، ولأهل التوحيد.

۞۞۞

القَاعدةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَىٰ أُناسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِم: مِنهُم مَن يَعبُدُ المَلَائِكَةَ، وَمنهُم مَن يَعبُدُ الأَنبِيَاءَ وَالصالِحِينَ، وَمنهُم مَن يَعبُدُ الأَشجَارَ وَالأَحجَارَ، وَمنهُم مَن يَعبُد الشَّمسَ وَالقَمَرَ، وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللّه ﷺ ولَم يُفَرِّق بَينَهُم.

الشَّـرح

القاعدة الثالثة: أنّ النَّبي ﷺ بُعث إِلَىٰ أُناسٍ من الْمُشركين، منهم مَنْ يعبُد الْملائكة، ومنهم مَنْ يعبد الشمس والقمر، ومنهم مَنْ يعبد الأصنام والأحجار والأشجار، ومنهم مَنْ يعبد الأولياء والصالحين.

وهذا من قُبْح الشرك أنّ أصحابه لا يَجتمعون علىٰ شيء واحد، بخلاف الْمُوحّدين فإنّ معبودهم واحد تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠] فمن سلبيّات الشرك وأباطيله: أنّ أهله متفرّقون فِي عباداتهم، لا يَجمعهم ضابط؛ لأنّهم لا يسيرون علىٰ أصل، وإنّما يسيرون علىٰ أهوائهم ودعايات الْمُضللين، فتكثُر تفرّقاتهم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]، فالذي يعبد الله وحده مثل الْمملوك الذي يعبده شخص واحد يرتاح معه، يعرف مقاصده ويعرف مطالبه ويرتاح معه، لكن المشرك مثل الذي له عدّة مالكين، ما يدري مَنْ يُرضي منهم، كلّ واحد له هوًىٰ، وكلّ واحد له طلب، وكلٌّ واحد له رغبة، كلٌّ واحد يريده أن يأتي عنده، ولهذا قال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يعني: يملكه عدّة أشخاص، لا يدري مَن يُرضي منهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مالكه شخص واحد، هذا يرتاح معه، هذا مَثَلٌ ضربه الله للمشرك وللموحّد.

فالمشركون متفرّقون فِي عباداتهم، والنبيُّ ﷺ قاتلهم ولَم يفرِّق بينهم، قاتل الوثنيين، وقاتل اليهود والنصارىٰ، وقاتل الْمجوس، قاتل جميع الْمُشركين، وقاتل الذين يعبدون الْملائكة، والذين يعبدون الأولياء الصالحين، لَمْ يفرِّق بينهم.

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون: الذي يعبد الصنم ليس مثل الذي يعبد رجلًا صالحًا

ومَلَكًا من الْمَلائكة؛ لأنّ هؤلاء يعبدون أحجارًا وأشجارًا، ويعبدون جمادات، أما الذي يعبد رجلًا صالحًا ووليًّا من أولياء الله ليس مثل الذي يعبد الأصنام.

ويريدون بذلك أن الذي يعبد القبور الآن يَختلف حُكْمه عن الذي يعبد الأصنام، فلا يكفر، ولا يعتبر عمله هذا شِرْكًا، ولا يَجوز قتاله.

فنقول: الرسول لَمْ يفرّق بينهم، بل اعتبرهم مشركين كلّهم، واستحلّ دماءهم وأموالهم، ولَم يفرِّق بينهم، والذين يعبدون الْمسيح، والْمسيح رسول الله، ومع هذا قاتلهم. واليهود يعبدون عُزيرًا، وهو من أنبيائهم، أو من صالحيهم، قاتلهم رسول الله ﷺ، لَمْ يفرِّق بينهم.

فالشِّرْك لا تفريق فيه بين مَنْ يعبُد رجلًا صالحًا، أو يعبُد صنمًا، أو حجرًا أو شجرًا؛ لأن الشرك هو: عبادة غير الله كائنًا مَنْ كان، ولهذا يقول: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وكلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ فِي سياق النهي تعمّ كلّ شيء، تعمّ كلَّ مَنْ أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ من الْمَلائكة والرسل والصالحين والأولياء، والأحجار والأشجار.

❁❁❁

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

الشَّرح

قوله: «والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾» أي: الدليل علىٰ قتال الْمُشركين من غير تفريق بينهم حسب معبوداتهم؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، وهذا عامّ لكلِّ الْمُشركين، لَمْ يستثن أحدًا، ثُمّ قال: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ والفتنة: الشرك، أي: لا يوجد شِرْك، وهذا عامّ، أيَّ شِرْك، سواءً الشرك فِي الأولياء والصالحين، أو بالأحجار، أو بالأشجار، أو بالشمس، أو بالقمر.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾: تكون العبادة كُلُّها لله، ليس فيها شَرِكَةٌ لأحد كائنًا مَنْ كان، فلا فَرْق بين الشرك بالأولياء والصالحين، أو بالأحجار، أو بالأشجار، أو بالشياطين أو غيرهم.

وَدَلِيلُ الشَّمسِ وَالقَمَرِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧].

الشَّرح

دلّ علىٰ أنّ هناك مَن يسجُد للشمس والقمر، ولهذا نهىٰ الرسول ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها[١] سدًّا للذريعة؛ لأنّ هناك مَن يسجُد للشمس عند طلوعها ويسجد لَها عند غروبها، فنُهينا أنْ نصليَ فِي هذين الوقتين، وإنْ كانت الصلاة لله، لكن لَمّا كان فِي الصلاة فِي هذا الوقت مشابهة لِفِعْل الْمُشركين مُنِعَ من ذلك سدًّا للذريعة الَّتِي تُفضي إِلَىٰ الشِّرك، والرسول ﷺ جاء بالنهي عن الشرك وسدّ ذرائعه الْمُفضية إليه[٢].

٭٭٭٭

وَدَلِيلُ المَلَائِكَةِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠].

الشَّرح

قوله: «ودليل الملائكة...» إلخ دلّ علىٰ أنّ هناك مَنْ عَبد الْمَلائكة والنبيّين، وأن ذلك شِرْك.

٭٭٭٭

---

(١) كما فِي حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يتحرّىٰ أحدُكم، فيصلِّي عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها**».
أخرجه البخاري رقم (٥٨٥) فِي الْمَواقيت، باب: لا يتحرّىٰ الصلاة قبل غروب الشمس، ومسلم رقم (٨٢٨) فِي الْمَساجد، باب: الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها.
(٢) انظر: «فتح الْمَجيد» لشرح كتاب التوحيد: (٢/ ٨٣٥-٨٣٩).

ودَلِيلُ الأنبِيَاءِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].

الشَّرْح

وعبّاد القبور اليوم يقولون: الذي يعبد الْمَلائكة والنبيّين والصالحين ليس بكافر.

وقوله: «ودليل الأنبياء...» إلخ هذا فيه دليل علىٰ أن عبادة الأنبياء شِرْك مثل عبادة الأصنام.

ففيه ردٌّ علىٰ مَنْ فرَّق فِي ذلك من عبّاد القبور.

فهذا فيه ردّ علىٰ هؤلاء الذين يقولون: إن الشرك عبادة الأصنام، ولا يسوَّىٰ عندهم بين مَن عَبَدَ الأصنام وبين مَن عَبَدَ وليًّا، أو رجلًا صالحًا، وينكرون التسوية بين هؤلاء، ويزعمون أنّ الشرك مقصورٌ علىٰ عبادة الأصنام فقط، وهذا من الْمغالَطة الواضحة من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنّ الله -جل وعلا- فِي القرآن أنكر علىٰ الجميع، وأمر بقتال الجميع.

الناحية الثانية: أنّ النَّبي ﷺ لَمْ يفرِّق بين عابِدِ صنمٍ وعابِدِ ملَك، أو رجل صالح.

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧].

الشَّرْح

«ودليل الصالحين» يعني: أنّ هناك مَن عبد الصالحين من البشر: قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[الإسراء: ٥٧].

قيل: نزلت هذه الآية فيمَنْ يعبد الْمَسيح وأمّه وعُزيرًا، فأخبر -سبحانه- أنّ الْمَسيح وأمه مريم، وعُزيرًا كلهم عبادٌ لله، يتقرّبون إِلَىٰ الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم عبادٌ محتاجون إِلَىٰ الله، مفتقرون إليه، يدعونه ويتوسّلون إليه بالطّاعة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، يعني: القُرْب منه -سبحانه- بطاعته وعبادته، فدلّ علىٰ أنّهم لا يصلُحون للعبادة؛ لأنّهم بشرٌ محتاجون فقراء، يدعون الله، ويرجون رحمته، ويَخافون عذابه، ومَن كان كذلك لا يصلُح أن يُعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ.

والقول الثاني: أنّها نزلت فِي أُناسٍ من الْمُشركين كانوا يعبدون نفَرًا من الجن، فأسلم الجنُّ ولَم يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم بإسلامهم، وصاروا يتقرّبون إِلَىٰ الله بالطاعة والضَّراعة ويرجون رحمته ويَخافون عذابه، فهم عبادٌ محتاجون فقراء، لا يصلُحون للعبادة.

وأيًّا كان الْمراد بالآية الكريمة فإنّها تدلّ علىٰ أنه لا يَجوز عبادة الصالحين، سواءً كانوا من الأنبياء والصدِّيقين، أو من الأولياء والصالحين، فلا تَجوز عبادتهم؛ لأنّ الكُلَّ عبادٌ لله، فقراء إليه، فكيف يُعبدون مع الله جَلَّ جَلَالُهُ ؟!!

والوسيلة معناها: الطاعة والقُرْب، فهي فِي اللغة: الشيء الذي يوصِّل إِلَىٰ الْمَقصود. فالذي يوصِّل إِلَىٰ رضا الله وجنته هو الوسيلة إِلَىٰ الله، هذه هي الوسيلة الْمَشروعة فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[المائدة:٣٥].

أما الْمُحرِّفون الْمخرِّفون فيقولون: الوسيلة: أنْ تَجعل بينك وبين الله واسطة من الأولياء والصالحين والأموات، تجعلهم واسطة بينك وبين الله؛ ليقرِّبوك إِلَىٰ الله

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فمعنىٰ الوسيلة عند هؤلاء الْمخرّفين: أن تَجعل بينك وبين الله واسطة تُعرِّف الله بك وتنقُل له حاجاتك وتُخبره عنك، كأنّ الله -جلَّ وعلا- لا يعلم، أو كأن الله -جلَّ وعلا- بخيل، لا يُعطي إلّا بعد ما يلحّ عليه بالوسائط -تعالىٰ الله عمّا يقولون-.

ولهذا يشبّهون علىٰ النّاس ويقولون: الله -جل وعلا- يقول: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧]، فدلّ علىٰ أنّ اتّخاذ الوسائط من الْخلق إِلَىٰ الله أمرٌ مشروع؛ لأنّ الله أثنىٰ علىٰ أهله، وفِي الآية الأخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [الْمَائدة: ٣٥].

قالوا: إن الله أمرنا أن نتّخذ الوسيلة إليه، والوسيلة معناها: الواسطة، هكذا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه، فالوسيلة الْمَشروعة فِي القرآن وفِي السنة هي: الطاعة الَّتِي تقرِّب إِلَىٰ الله، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته ﷻ. هذه هي الوسيلة الْمَشروعة، أما التوسُّل بالمخلوقين إِلَىٰ الله فهو وسيلةٌ ممنوعة، ووسيلة شركيّة، وهي الَّتِي اتّخذها الْمُشركون من قبل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هذا هو شِرْك الأوّلين والآخرين سواء بسواء، وإنْ سمّوه وسيلة فهو الشرك بعينه، وليس هو الوسيلة الَّتِي شرعها الله ﷻ؛ لأنّ الله لَمْ يَجعل الشِّرْك وسيلة إليه أبدًا، وإنّما الشرك مُبْعِدٌ عن الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [الْمَائدة: ٧٢]، فكيف يُجعل الشرك وسيلة إِلَىٰ الله -تعالىٰ الله عمّا يقولون؟!

الشّاهد من الآية: أنّ فيها دليلًا علىٰ أنّ هناك من الْمُشركين مَن يعبد الصالحين؛ لأنّ الله بيّن ذلك، وبيّن أن هؤلاء الذين تعبدونهم هم عبادٌ فقراء ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: يتقرّبون إليه بالطّاعة، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يتسابقون إِلَىٰ الله -جل وعلا- بالعبادة لفقرهم إِلَىٰ الله وحاجتهم، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ ومَن كان كذلك، فإنّه لا يصلُح أنْ يكون إلهًا يُدعىٰ ويُعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وَدَلِيلُ الأحجَار وَالأشجَارِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

الشَّرح

قوله: «ودليل الأحجار والأشجار...» إلخ فِي هذه الآية دليل أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار من الْمُشركين.

فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: أخبروني، من باب استفهام الإنكار والتوبيخ.

﴿ٱللَّٰتَ﴾ -بتخفيف التاء-: اسمُ صنمٍ فِي الطائف، وهو عبارة عن صخرة منقوشة، عليها بيتٌ مبنيٌّ، وعليه ستائر، يُضاهي الكعبة، وحوله ساحة، وعنده سَدَنَة، كانوا يعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهي لثقيف وما وَالَاهم من القبائل، يفاخِرون بِهَا.

وقُرِئ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللاتّ﴾ -بتشديد التاء- اسم فاعل من (لَتَّ يلُتُّ)، وهو: رجلٌ صالح كان يلُتُّ السَّويق ويُطعمه للحُجّاج، فلمّا مات بنوا علىٰ قبره بيتًا، وأرْخوا عليه الستائر، فصاروا يعبدونه من دون الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو اللاّت.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: شجرات من السَّلَم فِي وادي نخلة بين مكّة والطائف، حَوْلَها بناء وستائر، وعندها سَدَنة، وفيها شياطين يُكلّمون الناس، ويظنّ الْجَهّال أنّ هذا الذي يُكلّمهم هو نفس هذه الشجرات، أو هذا البيت الذي بنوه مع أنّ الذي تُكلِّمهم هي الشياطين؛ لتضلّهم عن سبيل الله، وكان هذا الصنم لقريش وأهل مكّة، ومَن حولهم.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صخرة كبيرة فِي مكان يقع قريبًا من جبل قُديد، بين مكّة والْمَدينة، وكانتْ لخُزاعة والأوس والخزْرج، وكانوا يحرمون من عندها بالحجِّ، ويعبدونها من دون الله.

فهذه الأصنام الثلاثة هي أكبر أصنام العرب.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هل أغنتكم

شيئًا؟، هل نفعتكم؟، هل نصرتكم؟، هل كانت تَخلق وترزق، وتُحيي وتُميت؟، ماذا وجدتم فيها؟، هذا من باب الإنكار وتنبيه العقول إِلَىٰ أنْ ترجع إِلَىٰ رُشْدها، فهذه إنَّمَا هي صخرات وشجرات، ليس فيها نفع ولا ضُرٌّ، مخلوقة.

ولَمّا جاء الله بالإسلام وفتح رسول الله ﷺ مكّة الْمشرّفة أرسل الْمغيرة بن شُعبة وأبا سفيان بن حرْب إِلَىٰ (اللّات) فِي الطائف، فهدماها بأمر رسول الله ﷺ، وأرسل خالد بن الوليد إِلَىٰ العزّىٰ فهدمها وقطع الأشجار، وقتل الجِنيّة الَّتِي كانت فيها تخاطِب الناس وتضلّهم، ومحاها عن آخرها -والْحَمد لله-، وأرسل عليّ بن أَبِي طالب إِلَىٰ (مَناة) فهدمها ومحاها[1]، وما أنقذت نفسها، فكيف تُنقذ أهلها وعُبّادها ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ أين ذهبت؟، هل نفعتكم؟، هل منعتْ نفسها من جنود الله وجيوش الْمُوحّدين؟!

فهذا فيه دليل علىٰ أنّ هناك مَن يعبد الأشجار والأحجار، بل إنّ هذه الأصنام الثلاثة كانت هي أكبر أصنامهم ومع هذا محاها الله من الوُجود، وما دافعت عنهم ولا نفعت أهلها، فقد غزاهم رسول الله ﷺ وقاتلهم ولَم تمنعهم أصنامهم، فهذا فيه ما استدلّ له الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار.

يا سبحان الله!! بشر عقلاء يعبدون الأشجار والأحجار الجامدة الَّتِي ليس فيها عقول وليس فيها حركة ولا حياة، أين عقول البشر؟!!، تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٤١٣-٤١٥).

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ حُنَينٍ وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وَللمُشرِكِينَ سِدرَة يَعْكُفُونَ عِندَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ؛ فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ، فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ، كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ[1]. الحَدِيثَ.

الشَّرح

عن أبِي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكان مِمَّن أسلم عام الفتح علىٰ الْمشهور سنة ثمانٍ من الْهجرة، يقال لَها: (ذاتُ أنواط)، والأنواط جمع نوط وهو: التعليق، أي: ذاتُ تعاليق، يعلِّقون بِهَا أسلحتهم للتبرّك بِهَا، فقال بعضُ الصحابة الذين أسلموا قريبًا ولَم يعرفوا التوحيد تمامًا:

«اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لَهم ذاتُ أنواط» وهذه بليّة التقليد والتشبُّه، وهي من أعظم البلايا، فعند ذلك تعجّب النبي ﷺ ، وقال: «الله أكبر!، الله أكبر!، الله أكبر!»، وكان ﷺ إذا أعجبه شيء أو استنكر شيئًا فإنّه يكبِّر أو يقول: «سبحان الله» ويكرِّر ذلك.

«إنها السُّنَن»: أي: الطُّرُق التي يسلُكها الناس ويقتدي بعضهم ببعض، فالسبب الذي حملكم علىٰ هذا هو اتّباع سُنن الأولين والتشبُّه بالْمُشركين.

«قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[الأعراف: ١٣٨] »: موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمّا تجاوز البحر ببني إسرائيل وأغرق الله عدوّهم وهم ينظرون، مرّوا علىٰ أُناسٍ يعكُفون علىٰ أصنام لَهم من الْمُشركين، فقال هؤلاء لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أنكر عليهم، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعني: باطل، ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ لأنه شِرْك، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[الأعراف: ١٣٨-١٤٠] ، أنكر عليهم -عليه الصلاة والسلام- كما أنّ نبينّا

---

(١) صحيح الترمذي (٢١٨٠).

محمدًا ﷺ أنكر علىٰ هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء لَمْ يشركوا، فبنو إسرائيل لَمّا قالوا هذه الْمقالة لَمْ يُشركوا؛ لأنّهم لَمْ يفعلوا، وكذلك هؤلاء الصحابة لو اتّخذوا ذات أنواط لأشركوا ولكنّ الله حماهم، لَمّا نهاهم نبيّهم انتهوا، وقالوا هذه الْمقالة عن جهل، ما قالوها عن تعمُّد، فلمّا علِموا أنَّها شِرْك انتهوا ولَم ينفّذوا، ولو نفّذوا لأشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ.

فالشّاهد من الآية: أنّ هناك مَن يعبد الأشجار؛ لأنّ هؤلاء الْمُشركين اتّخذوا ذات أنواط، وحاول هؤلاء الصحابة الذين لَمْ يتمكّن العِلْم من قلوبهم حاولوا أن يتشبّهوا بِهم لولا أنّ الله حماهم برسوله ﷺ.

الشاهد: أنّ هناك مَن يتبرّك بالأشجار ويعكُف عندها، والعكوف معناه: البقاء عندها مدّة تقرُّبًا إليها. فالعُكوف هو: البقاء فِي الْمَكان.

فدلّ هذا على مسائل عظيمة:

الْمَسألة الأولى: خطر الجهل بالتوحيد، فإن مَنْ كان يَجهلُ التوحيد حَرِيٌّ أنْ يقع فِي الشرك وهو لا يدري، ومن هنا يَجب تعلّم التوحيد، وتعلُّم ما يضادّه من الشرك حَتَّىٰ يكون الإنسان علىٰ بصيرة؛ لئلا يُؤتىٰ من جهله، لاسيّما إذا رأىٰ مَنْ يفعل ذلك فيحسبه حقًّا بسبب جَهْله، ففيه: خطرُ الجهل، لاسيّما فِي أمور العقيدة.

الْمَسألة الثانية: فِي الْحَديث خطرُ التشبُّه بالْمشركين، وأنّه قد يؤدِّي إِلَىٰ الشرك، قال ﷺ: «**مَنْ تشبّه بقوم فهو منهم**»[1]، فلا يَجوز التشبُّه بالْمُشركين.

الْمَسألة الثالثة: أنّ التبرُّك بالأحجار والأشجار والأبنية شِرْكٌ وإنْ سُمِّي بغير اسمه؛ لأنه طلب البركة من غير الله من الأحجار والأشجار والقُبور والأضرحة، وهذا شِرْك وإنْ سمّوه بغير اسم الشرك.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم: (٤٠٣١) فِي اللباس، باب فِي لبس الشهرة، وأحمد (٢/ ٥٠) من حديث عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
قال شيخُ الإسلام ابن تيميّة: «هذا إسناد جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٦-٢٣٩).
وقال الحافظ العراقي فِي «تخريج الإحياء»: (٢/ ٦٥): سنده صحيح.
وقال الحافظ ابن حجر فِي «فتح الباري»: (٦/ ٩٨): سندُه حسن.

القَاعِدَةُ الرَّابِعةُ: أَنَّ مُشرِكِي زَمَانِنَا أَغلَظُ شِركًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَيُخلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشرِكُو زَمَانِنَا شِركُهُم دَائِم فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ!!

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

الشرح

القاعدة الرابعة -وهي الأخيرة-: أنّ مشركي زماننا أعظمُ شركًا من الأوّلين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ.

والسبب في ذلك واضح: أنّ الله -جل وعلا- أخبر أن الْمُشركين الأولين يُخلصون لله إذا اشتدّ بِهم الأمر، فلا يدعون غير الله عَزَّوَجَلَّ لعِلْمهم أنّه لا يُنقذ من الشدائد إلّا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وفِي الآية الأخرىٰ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] يعني: مخلصين له الدعاء، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفِي الآية الأخرىٰ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فالأوّلون يُشركون فِي الرخاء، يدعون الأصنام والأحجار والأشجار.

أما إذا وقعوا فِي شِدّة وأشرفوا علىٰ الهلاك فإنهم لا يدعون صنمًا، ولا شجرًا، ولا حجرًا ولا أيَّ مخلوق، وإنّما يدعون الله وحده ﷻ، فإذا كان لا يخلِّص من الشدائد إلاّ الله -جل وعلا- فكيف يُدعىٰ غيرُه فِي الرخاء؟!

أما مشركو هذا الزمان يعني: الْمُتأخرين الذين حَدَثَ فيهم الشرك من هذه الأُمّة الْمحمديّة فإنّ شركهم دائمٌ فِي الرخاء والشدّة، لا يُخلصون لله ولا فِي حالة الشدّة، بل كلما اشتدّ بِهم الأمر اشتدّ شِرْكهم، ونداؤهم للحسن والحسين وعبد القادر الرِّفاعي، وغير ذلك، هذا شيء معروف، ويُذكر عنهم العجائب فِي البحار، أنّهم إذا اشتدّ بِهم

الأمر صاروا يهتفون بأسماء الأولياء والصالحين، ويستغيثون بِهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنّ دُعاة الباطل والضلال يقولون لَهم: نَحن ننقذكم من البحار، فإذا أصابكم شيء اهتفوا بأسمائنا ونحنُ ننقذكم.

كما يُروىٰ هذا عن مشايخ الطُّرق الصوفية، واقرءوا -إنْ شئتم- «طبقات الشعراني»، ففيها ما تقشعرّ منه الجلود مما يُسمّيه كرامات الأولياء، وأنهم يُنْقِذُون من البحار، وأنه يمدّ يده إلىٰ البحر، ويَحمل الْمركَب كلَّه ويُخرجه إلَىٰ البرِّ ولا تَتَندَّىٰ أكمامه، إلىٰ غير ذلك من تُرَّهَاتهم وخُرافاتهم، فشِرْكهم دائم فِي الرخاء والشدّة، فهم أغلظ من الْمُشركين الأوّلين.

وأيضًا -كما قال الشيخ فِي «كشف الشبهات»[(١)]-: وجه آخر: (أنّ الأوّلين يعبدون أُناسًا صالحين من الْمَلائكة والأنبياء والأولياء، أما هؤلاء فيعبدون أُناسًا من أفجر الناس، وهم يعترفون بذلك، فالذين يسمّونهم الأقطاب والأغواث لا يصلّون، ولا يصومون، ولا يتنزهّون عن الزنا واللواط والفاحشة؛ لأنهم بزعمهم ليس عليهم تكاليف، فليس عليهم حرام ولا حلال، إنما هذا للعوامِّ فقط. وهم يعترفون أنّ سادتهم لا يصلّون ولا يصومون، وأنهم لا يتورّعون عن فاحشة، ومع هذا يعبدونهم، بل يعبدون أُناسًا من أفجر الناس: كالحلّاج، وابن عربي، والرّفاعي، والبدوي، وغيرهم).

وقد ساق الشيخ الدليل علىٰ أنّ الْمُشركين الْمُتأخّرين أعظم وأغلظُ شركًا من الأوّلين؛ لأنّ الأوّلين يُخلصون فِي الشِّدّة ويُشركون فِي الرخاء، فاستدلَّ بقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[العنكبوت: ٦٥].

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

(١) انظر: كشف الشبهات: (ص١٦٩-١٧٠) ضمن مؤلّفات الإمام الْمجدّد/ قسم العقيدة.

الرسالة الخامسة

نواقض الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحِمه الله تعالَى-:

اعْلَمْ أَنَّ نَوَاقِضَ الإِسْلَامِ عَشَرَةُ نَوَاقِض.

الشَّرْح

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (اعلم) يعني: تعلَّم وافْهَم، وهذه الكلمة يُؤتىٰ بِهَا للأهمية، والتنبيه علىٰ أهمية ما بعدها.

(أن نواقض الإسلام عشرة): النواقض: جمع ناقض، وهي الْمُبطلات، مثل نواقض الوضوء، أي: مبطلاته، تُسمَّىٰ بالنواقض، وتُسمَّىٰ بأسباب الرِّدة أو أنواع الردة، ومعرفتها مهمة جدًّا للمسلم من أجل أن يتجنبها ويحذر منها؛ لأن الْمسلم إذا لَمْ يعرفها فإنه يُخشىٰ أن يقع فِي شيء مِنهَا، وهي من الْخطورة والأهمية بمكان؛ لأنها نواقض الإسلام ومبطلاته، ومعرفة أسباب الرِّدة عن الإسلام مهِمة جدًّا.

والرِّدة عن الإسلام: معناها: الرجوع عن الإسلام، من: ارتد، إذا رجع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[المائدة: ٢١]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة: ٢١٧]، وهذا تحذير شديد من الله للمؤمنين: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ﴾ أيها الْمؤمنون، ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ولَم يتب

قبل الموت ويرجع إلَىٰ الإسلام، فقد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت، ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [مُحَمَّد: ٢٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ يرجع عن دينه، ففي هذه الآيات التحذير من الرِّدة والوعيدُ عليها، وأما الأحاديث فقد قال ﷺ: «**لا يَحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدىٰ ثلاث: الثَّيبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لِدينه -هذا هو الشاهد: المفارق للجماعة**»(١)، وقال ﷺ: «**مَن بدَّلَ دينَه فاقتلوه**»(٢)، فإن كان الْمرتدون جماعة لَهم شكوة فإنهم يُقاتلون، كما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الْمرتدين، حَتَّىٰ أخضعهم للإسلام، وقُتل مَنْ قُتل منهم علىٰ رِدَّته، وتاب مَنْ تاب منهم، فقاتلهم رضي الله عنه محققًا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المَائدة: ٥٤].

قال العلماء: هذه الآية نزلت فِي أبِي بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا الْمرتدين؛ لأنه يُخبر تعالىٰ عن المُستقبل ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ هذا فِي المُستقبل، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ﴾ جاء الله بأبي بكر الصديق وصحابة رسول الله ﷺ فقاتلوا الْمرتدين.

وإن كان الْمرتدُّ شخصًا واحدًا فإنه يُؤخذ ويُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ، وليس هو مثل الكافر الأصلي؛ لأن المُرتد عرف الحقَّ، ودخل فِي دين الله باختياره وطوعه، واعترف أن الإسلام هو الحقُّ، فإذا ارتدَّ فهذا تلاعب منه بالدِّين؛ لأنه عرف الحقَّ ودخل فيه، فإذا ارتدَّ فإنه يُقتل حماية للعقيدة، وهذا من حِفْظ الضروريات الخمس أولها الدِّين، فلا يُترك الدين أُلعوبة لمَنْ يسلِم ثُمَّ يرتدُّ، بل يُقتل حماية للعقيدة من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٧٥)، وأبو داود (٢/ ٤٤٠)، والترمذي (٦/ ٢٤٣)، وأحمد (١/ ٢٨٢).

التلاعب، ومن الْمرتدين مَنْ يُقتل بدون استتابة، وهو مَنْ تغلَّظت رِدَّته، فإنه يُقتل ولا يُستتاب حماية للدِّين، وحماية لأول الضروريات الخمس الَّتِي جاء الإسلام بحِفْظها.

ودراسة هذه النواقض مهمَّة جدًّا، والعلماء صنَّفوا فيها مصنفات، وجعلوا لَها مكانًا خاصًّا فِي كتب الفِقْه، وهو (حكم المُرتد)، فِي كلِّ كتاب من كتب الفقه يجعلون كتابًا يسمُّونه: (كتاب حكم الْمرتدِّ) أو (باب حكم الْمرتدِّ) فِي الْمطولات وفِي المُختصرات.

قالوا: والمُرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه؛ إما لاعتقاد بقلبه، أو شكٌّ يَحصل له فِي أمور الدِّين، أو فعل كأن يَسجد لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، هذا فِعْلٌ مَنْ فَعَلَه فقد ارتدَّ، أو قول بأن يتكلم بسبِّ الله تعالىٰ أو سبِّ الرسول ﷺ، أو سبِّ دين الإسلام ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] فالرِّدَّة تكون بالقول، وتكون بالفِعْل، وتكون بالاعتقاد، وتكون بالشكِّ فِي شيء من أمور الدِّين، كمَنْ شكَّ فِي وجوب الصلاة، أو شكَّ فِي وجوب الزكاة، أو شكَّ فِي التوحيد، فإنه يُكفر، والشكُّ هو التردُّد بين أمرين.

وأنواع الرِّدة كثيرة، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر فِي هذه الرسالة أهمها وأعظمها، وإلا فالنواقض كثيرة، وستجدونها فِي كتب الفِقْه فِي باب حكم الْمرتدِّ، وللشيخ عبد الله بن مُحَمَّد -رحمهم الله- رسالة اسمها: (الكلمات النافعة فِي المُكفرات الواقعة) وهي مطبوعة فِي (الدُّرر السنية) وغيرها؛ والآن لما فَشَا الجهل واشتدت غُرْبة الدِّين، ظهر ناسٌ من الذين يتَّسمون بالعلم.

ويقولون: لا تكفِّروا الناس، يكفي اسم الإسلام، يكفي أنه يقول: أنا مسلم، ولو فعل ما فعل، لو ذبح لغير الله، لو سبَّ الله ورسوله، لو فعل ما فعل ما دام أنه يقول: أنا مسلم فلا تُكفِّره، وعلىٰ هذا يدخل فِي التسمِّي بالإسلام الباطنية والقرامطة، ويدخل فيه القبوريون، ويدخل فيه الروافض، ويدخل فيه القاديانية، ويدخل فيه كلُّ مَنْ يدَّعي الإسلام.

يقولون: لا تُكفِّروا أحدًا، ولو فعل ما فعل، أو اعتقد ما اعتقد، لا تُفرِّقوا بين المسلمين، سبحان الله، نَحن لا نُفرِّق بين المسلمين، ولكن هؤلاء ليسوا مسلمين؛ لأنَّهم لما ارتكبوا نواقض الإسلام خرجوا من الإسلام، فكلمة لا تُفرِّقوا بين المسلمين، كلمة حقٍّ والمُراد بِهَا باطل؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما ارتدَّ مَنِ ارتدَّ من العرب بعد وفاة النَّبِي ﷺ قاتلوهم، ما قالوا: لا تُفرِّقوا بين المسلمين؛ لأنَّهم ليسوا مسلمين ما داموا علىٰ الرِّدة، وهذا أشدُّ من أنك تحكم لكافر بالإسلام، وسيأتيكم أن من الرِّدة، مَنْ لَمْ يكفر الكافر، أو شكَّ فِي كُفْره، فهذه الْمسألة وهي مَنْ لَمْ يكفِّر الكافر أو شكَّ فِي كُفْره فهو كافر مِثْله، وهؤلاء يقولون: لا تكفِّروا أحدًا ولو فعل ما فعل، ما دام أنه يقول: لا إله إلا الله، أنتم واجهوا الْملاحدة واتركوا هؤلاء الذين يدَّعون الإسلام.

نقول لَهم: ولا ادعوا أن الذين هم عليه إسلام، أما هؤلاء فيخدعون الناس ويدعون أن الكُفْر هو الإسلام، فهؤلاء أشدُّ من الْملاحدة، فالرِّدَّة أشدُّ من الإلحاد -والعياذ بالله-، فيجب أن نعرف موقفنا من هذه الأمور ونُميِّزها ونتبينها؛ لأننا الآن فِي تعمية، فهناك ناسٌ يؤلِّفون ويكتبون وينتقدون ويَحاضرون، ويقولون: لا تُكفِّروا المسلمين.

ونقول: نَحن نُكفِّر مَنْ خرج عن الإسلام، أما المسلم فلا يَجوز تكفيره.

الأَوَّلُ: الشِّرْكُ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

الشَّرْح

أعظم أنواع الرِّدَّة: الشرك فِي عبادة الله، بأن يعبد مع الله غيره، كأن يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو يَسجد لغير الله، أو يستغيث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا أعظم أنواع الرِّدَّة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، فالشرك هو أخطر أنواع الرِّدة، وهو أن يعبد غير الله بأيِّ نوع من أنواع العبادات، بالدُّعاء، بالذَّبْح، بالنذر، بالاستغاثة، بالاستعانة فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، يدعو الْموتىٰ، يستغيث بالقبور، يستنجد بالأموات، هذا هو أخطر أنواع الرِّدَّة وأعظمها، وهذا عليه كثير مِمَّن يدَّعون الإسلام، يبنون الأضرحة ويطوفون بِهَا، ويذبحون لَها، وينذرون لَها، ويتقرَّبون إليها؛ يقولون لأنها تُقرِّبهم إِلَىٰ الله، هم يتقربون لَها، وهي بزَعْمهم تُقرِّبهم إِلَىٰ الله ﷻ، لماذا لَمْ يتقربوا إِلَىٰ الله من الأصل ويتركوا هذه المتاهات؟! ليتقربوا إِلَىٰ الله فإنه قريب مجيب، لماذا تتقربون للمخلوقين وتقولون: المخلوقون يُقرِّبوننا إِلَىٰ الله، هل الله ﷻ بعيد، هل الله أغلق أبوابه، هل الله لا يعلم ولا يسمع خَلْقه، ولا يرىٰ ما يفعلون؟!! الله -جلَّ وعلا- قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] إنه قريب مجيب، لماذا تذهب وتدعو غير الله؟!!

وتقول: هذا يُقرِّبني إِلَىٰ الله ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يعني: كأن الله لا يعلم ولا يدري، هكذا زيَّن شياطين الجن والإنس لهؤلاء وهم يدعون الإسلام ويشهدون أن لا إله إلا الله، ويصلُّون ويصومون، ولكن يَخلطون أعمالهم بالشِّرْك الأكبر، فيخرجون من دين الإسلام، وهم يصلُّون ويصومون ويحجُّون، والذي يراهم يظنُّ أنَّهم مسلمون، فينبغي معرفة هذا، فالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أخطر الذنوب،

وأعظم الذنوب ومع خطره وشرِّه وقع فيه كثير مِمَّن يدعون الإسلام، ولا يسمُّونه باسم الشرك، يسمونه التوسُّل، أو يسمُّونه طلب الشفاعة، أو يُسمُّونه بأسماء غير الشرك، ولكن الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، الشرك هو الشرك، وهذا أخطر الأنواع، وأكثر الأنواع وقوعًا مع أنه ظاهر فِي كتاب الله، وفِي سُنَّة رسول الله ﷺ ظاهر الْمناداة والتحذير منه والتوعُّد عليه، ظاهر لا تخلو سورة من القرآن من التحذير من الشرك، ومع هذا يقرءون القرآن ولا يتجنبون الشِّرْك، وربما يأتي واحد ويقول: هؤلاء جهَّال معذورون بالجهل، فنقول إِلَىٰ متىٰ الجَهْل، والقرآن يُتلىٰ وهم يحفظون القرآن ويقرءونه، لقد قامت عليهم الحُجَّة ببلوغ القرآن ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، كلُّ مَنْ بلغه القرآن فقد قامت عليه الحُجَّة ولا عُذْر له.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

الشَّرح

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، هذا يدلُّ علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب بحيث إن الله لا يغفر لصاحبه إلا إذا تاب منه، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨]. ما دون الشرك، كالزِّنا وشُرْب الخمر والسرقة وأكل الرِّبا، هذه كلُّها دون الشرك، وهي داخلة تَحت المشيئة، وأصحابها أصحاب كبائر وهم فُسَّاق، ولكنهم لَمْ يقعوا فِي الشرك، وإنَّما وقعوا فِي الكبائر، فهي تنقص إيمانهم، ويُحكم عليهم بالفِسْق، ولو ماتوا ولَم يتوبوا، فإنهم تَحت الْمشيئة؛ إن شاء الله غفر لَهم بِمَا معهم من التوحيد، وإن شاء عذَّبهم بذنوبهم، ثُمَّ مآلهم إِلَىٰ الجنة بالتوحيد الذي معهم، هذا مآل أصحاب الكبائر الَّتِي دون الشِّرك، وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دلَّ علىٰ أن جميع الذنوب كلِّها دون الشرك، وأن الشرك هو أعظمها وأخطرُها، فدلَّ علىٰ خطورة الشرك، وأنه أعظم الذنوب.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

الشَّرْح

هذه عاقبته فِي الآخرة، أنه حرَّم عليه الجنة -يعني: منعه من دخولها منعًا باتًّا مطلقًا-، لا مَطْمع له فيها، أين يذهب، إذا لَمْ يكن من أهل الْجنة فأين يذهب، يصير عَدَمًا؟ لا، مأواه النار خالدًا مخلدًا فيها، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة ٧٢] يعني: المُشركين؛ لأن الشرك ظُلْم وهو أعظم الظلم، ما لَهم من أنصار: ما أحد يستطيع أن يخرجهم من النار، أو يشفع لَهم عند الله، كما يُشفع لأصحاب الكبائر ويخرجون من النار بالشفاعة، هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المُشركين، ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، المُشرك لا تُقبل فيه شفاعة -والعياذ بالله- ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ مأواه: يعني: مقرُّهُ، وبئست المَأوىٰ، ليس له مأوىٰ غيرها أبد الآباد، فَذَنْبٌ هذا خطره وهذه عاقبته، هل يَجوز تجاهله وعدم معرفته وعدم التحذير منه؟!

ويُقال: اتركوا الناس، اتركوا القُبوريين، وعُبَّاد الأضرحة، واتركوا كلَّ مَنْ عنده رِدَّة اتركوه، ما دام أنه يدَّعي الإسلام فهو مسلم، وواجهوا الْملاحدة.

نقول: هؤلاء أشدُّ من الْملاحدة وأخطر من الْملاحدة.

***

وَمِنْهُ: الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللهِ، كَمَنْ يَذْبَحُ لِلْجِنِّ أَوْ لِلْقَبْرِ.

الشَّرْح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذا المثال؛ لأنه واقع، ويتساهل الناس فيه، ويذبحون لغير الله، يذبحون للجنِّ اتقاءً لشرِّهم، ويذبحون لَهم من أجل العلاج والشفاء، يتساهل الناس فِي هذا، وهو كثير الوقوع مع أنه شِرْك أكبر يُخرج من المِلَّة، وما هو سَهْل، يقول له الشيطان: اذبح خروفًا، اذبح دجاجة هذا سهل، ولكن لا ينظر إِلَىٰ الشرك، فالذي ذبح ذبابًا، دخل النار، ليس النظر إِلَىٰ المذبوح، وإنَّما النظر إِلَىٰ العقيدة، النظر إِلَىٰ نية القلب، النظر إِلَىٰ عدم المبالاة بالشرك، ليس النظر إِلَىٰ قيمة المذبوح، فالذي ذبح ذبابًا دخل النار، الناس يتساهلون فِي هذا، من أجل أن يقضي حاجته، أو يعلمه الشيء الغائب، أو يخبره عن المَال الْمفقود، أو غير ذلك من الأمور الَّتِي يسأله عنها، فيخرج من دينه -والعياذ بالله-، ويرتدُّ فِي شيء يظنه أنه سهل، فالأمر خطير جدًّا.

الثَّانِي: مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ؛ كَفَرَ إِجْمَاعًا.

الشَّرح

هذا نوع من الناقض الأول وهو الذي يَجعل بينه وبين الله وسائط، ولكن الشيخ أفرده وجعله نوعًا مستقلًّا لكَثْرة وقوعه؛ لأن هذا يقع مِمَّن يدَّعون الإسلام، وهذا كثير عند القُبوريين، يتقرَّبون إِلَىٰ الوليّ؛ ليشفع لَهم عند الله، أو يوصل حوائجهم إِلَىٰ الله -بزعمهم-، هذا من اتخاذ الوسائل من دون الله عَزَّوَجَلَّ، يذبح لَهم وينذر لَهم، ويستغيث بِهم.

ويقول: هذا ليس بشِرْك، هذا إنَّمَا هو توسط، طلب واسطة وشفاعة توصلني إِلَىٰ الله، هذا رجل صالح له مكانة عند الله، فأنا أتقرَّب إليه من أجل أن يُقرِّبني إِلَىٰ الله، هذه حجته، وهي حُجَّة المُشركين الأولين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣].

يقولون: ما جعلناهم شُركاء لله، ولكن جعلناهم وسائط يُقرِّبوننا، والله سَمَّاه شِرْكًا ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾[يونس: ١٨]، فسمَّاه شِرْكًا، مع أنَّهم يسمُّونه تشفُّعًا، وهذا هو الواقع، أن كثيرًا مِمَّن يدعون الإسلام وما يفعلونه مع القبور الآن، يتخذونها وسائط بينهم وبين الله، فهذه الْمسألة خفيت علىٰ كثير حَتَّىٰ علىٰ طلبة العلم، وهناك علماء يدافعون عن هؤلاء.

ويقولون: هذا ليس بشِرْك، الشرك عبادة الأصنام، وهؤلاء ما يعبدون أصنامًا، يا سبحان الله، عبادة الأصنام نوع من أنواع الشِّرْك، الشرك هو عبادة غير الله؛ سواءٌ كان صنمًا أو شجرًا أو حجرًا أو قبرًا أو وليًّا، أو مَلَكًا من المَلائكة، أو وليًا من الأولياء، أو صالحًا من الصالحين، هذا هو الشِّرْك، وليس الشرك عبادة الأصنام فقط.

الثَّالِث: مَنْ لَمْ يُكَفِّرْ المُشْرِكِينَ، أَوْ شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ، أَوْ صَحَّحَ مَذْهَبَهُمْ؛ كَفَرَ.

الشَّرح

وهذه المسألة خطيرة جدًّا، يقع فيها كثير من المنتسبين للإسلام، مَنْ لَمْ يكفِّر المُشركين.

يقول: أنا والْحَمد لله ما عندي شِرْك، ولا أشركت بالله، ولكن الناس لا أُكَفِّرهم، نقول له: أنت ما عرفت الدِّين، يَجب أن تكفر مَنْ كفَّره الله، ومَنْ أشرك بالله عز وجل، وتتبرأ منه كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، وقال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

(أو صحَّح مذهبهم) وهذه أشدُّ، إذا صحَّح مذهبهم، أو قال: فِي الذي يعملونه نظر، هذا إنَّمَا هو اتخاذ وسائل، أو يقول: هؤلاء جُهَّال وقعوا فِي هذا الأمر عن جهل ويدافع عنهم، فهذا أشدُّ كفرًا منهم؛ لأنه صحَّح الكُفْر، وصحَّح الشرك، أو شكَّ.

فنقول له: كونك مسلمًا وتابعًا للرسول ﷺ، والرسول جاء بتكفير المُشركين وقتالهم واستباحة أموالهم ودمائهم، وقال: «**أُمرت أن أُقاتل الناس ليقولوا: لا إله إلا الله**»(١)، «**بُعثت بالسيف حتىٰ يُعبد الله**»(٢)، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فتنة: يعني: شرك، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك فِي «الْموطأ» (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبِي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٥١١٥)، وابن أبِي شيبة (٥/ ٣١٣)، والبيهقي فِي «شعب الإيمان» (١١٩٩)، وابن حجر فِي «تغليق التعليق» (٣/ ٤٤٥).

الرَّابِعُ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ غَيْرَ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَكْمَلُ مِنْ هَدْيِهِ، أَوْ أَنَّ حُكْمَ غَيْرِهِ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِهِ، كَالَّذِي يُفَضِّلُ حُكْمَ الطَّوَاغِيتِ عَلَىٰ حُكْمِهِ؛ فَهُوَ كَافِرٌ.

الشرح

من أنواع الرِّدَّة: الحُكْم بغير ما أنزل الله، إذا اعتقد أن هذا أمر مباح، وأنه يَجوز أن يحكم بالشريعة، ويَجوز أن يحكم بالقوانين ويقول: المقصود: حلُّ النزاعات، وهذا يَحصل بالقوانين، ويحصل بالشريعة، فالأمر متساوٍ، نقول سبحان الله!! تَجعل حكم الطاغوت مثل حكم الله!! تحكيم شَرْع الله هذا عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ليس القصد منه فقط حلُّ النزاع، القصد منه: العبادة بتحكيم شَرْع الله تَعَالَىٰ، وتحكيم غيره شِرْك، وشِرْك فِي الطاعة وشِرْك فِي الحكم، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إِلَىٰ قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] فسمَّاه شركًا، فالذي يسوِّي بين حكم الله وحكم الطاغوت، والطاغوت المُراد به: كلُّ حُكْم غير حكم الله، سواءٌ عوائد البادية أو أنظمة الكفار، أو قوانين الفرنس أو الإنجليز، أو عادات القبائل، كلُّ هذا طاغوت، وكذا تحكيم الكُهَّان.

فالذي يقول: إنهما سواء كافر، وأشدُّ منه مَنْ يقول: إن الحكم بغير ما أنزل الله أحسن من الحكم بِمَا أنزل الله، هذا أشدُّ، فالذي يقول: الناس ما يصلح لَهم اليوم إلا هذه الأنظمة، ما يصلح لَهم الشرع، الشرع ما يُطابق لهذا الزمان، ولا يساير الحضارة، ما يصلح إلا تحكيم القوانين، ومسايرة العالَم، تكون محاكمنا مثل محاكم العالَم، هذا أحسن من حكم الله، هذا أشدُّ كُفْرًا مَنِ الذي يقول: إن حكم الله وحكم غيره متساويان.

أما إذا حكم بغير ما أنزل الله لهوًىٰ فِي نفسه، أو جهل بِمَا أنزل الله، وهو يعتقد أن حكم الله هو الحقُّ، وهو الواجب، فهذا فَعَلَ كبيرة من كبائر الذنوب وذلك كُفْرٌ دون كُفْرٍ.

الخَامِسُ: مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَلَوْ عَمِلَ بِهِ؛ كَفَرَ.

الشَّرْح

الخامس من نواقض الإسلام: مَنْ أبغض شيئًا مِمَّا جاء به الرسول ﷺ، فبُغْض ما جاء به الرسول رِدَّة، ولو عمل به، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [مُحَمَّد: ٩]، الكراهة هي البُغْض هذا رِدَّة ولو عمل به، فإنه يكفر، بُغْضه فِي القلب كُفْر، ولو كان يعمل به فِي الظاهر، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

***

السَّادِسُ: مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ ثَوَابَ اللهِ أَوْ عِقَابِهِ؛ كَفَرَ.

الشَّرْح

السادس من أنواع الرِّدَّة: الاستهزاء بِمَا أنزل الله، أو بشيء مِمَّا جاء به الرسول، ولو كان من السُّنن والمُستحبات، كالسِّواك وقصِّ الشارب وأخذ شَعْر الإبط وتقليم الأظافر، إذا استهزأ به صار كافرًا، الدليل علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فالذي يستهزئ بشيء مِمَّا جاء به الرسول فَرْضًا أو واجبًا أو سنةً فإنه يكون مرتدًّا عن دين الإسلام.

فما بالكم بالذي يقول: إعفاء اللحية وحَفُّ الشارب وأخذ الآباط وغسل البَرَاجم هذه قشور، هذا هو الاستهزاء بِدِين الله عَزَّوَجَلَّ، إذا قالوا هذا الشيء ولو كانوا هم يعملونه فإنهم يرتدُّون عن الدِّين؛ لأن هذا تنقُّص لما جاء به الرسول ﷺ، فالواجب تعظيم سُنَّة الرسول ﷺ، واحترامها، وحتىٰ لو أن الإنسان وقع فِي شيء من المُخالفة لهوًىٰ فِي نفسه، فإنه يحترم سُنَّة الرسول ﷺ، ويحترم السُّنن، ويحترم الأحاديث، ولا يقول: هذه قشور.

وَالدَّلِيلُ: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

الشَّرح

سبب نزول الآية: أن جماعة كانوا مع الرسول ﷺ فِي غزوة (تبوك)، وهم مسلمون، ثُمَّ فِي مجلس صاروا يقولون: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء، أكذب ألسنة، وأرغب بطونًا، وأجبن عند اللقاء، -يعنون: رسول الله ﷺ وأصحابه-، وكان معهم شاب من الصاحبة فاغتاظ من هذا الكلام، وذهب يُبلِّغ الرسول ﷺ بِمَا قاله القوم، فوجد الوحي قد سبق، فجاء القوم يعتذرون لما علموا أن الرسول اطلع علىٰ ما دار فِي مجلسهم، وقال واحد منهم وتعلَّق بنسعة ناقة النَّبِي ﷺ وهو راكب، وقال: يا رسول الله، إننا نتحدَّث حديث الرَّكْب، نقطع به عنا السفر، ما قصدنا الاستهزاء، وإنَّما قصدنا الْمزح، والرسول ﷺ لا يلتفت إليه، وإنَّما يقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ لاحظ قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّهم قبل هذه الْمقالة كانوا مؤمنين، فلما قالوها ارتدُّوا عن الإسلام.

وهم يقولون: هذا مَزْح؛ لأن أمور الدِّين لا يُمزح فيها، فقد كفَّرهم الله بعد إيمانهم، -نسأل الله العافية.

فهذا دليل علىٰ أن مَنْ سبَّ الله أو رسوله، أو كتابه، أو شيئًا من القرآن، أو شيئًا من سُنَّة الرسول ﷺ، أنه يرتدُّ عن الإسلام، وإن كان يمزح، وأين الذين يقولون: إنه لا يرتدُّ إلا إذا نوىٰ من قلبه؟! فلو سبَّ الله والرسول أو القرآن، ما نحكم عليه إلا إذا كان اعتقده، ما نحكم عليهم بمجرد التكلُّم أو التلفظ أو الفِعْل، من أين أتوا بِهذا الكلام وهذا القيد؟!! الله حكم عليهم بالرِّدَّة.

وهم يقولون: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، هم مؤمنون بالله ورسوله مُوحِّدون، ولكن لما قالوا هذه الْمقالة، الله -جل وعلا- قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ ولَم يقل:

إن كنتم تعتقدون هذا -نسأل الله العافية-، فيجب علينا أن نُنزِّل الأمور منازلها ولا نتدخل فيها بزيادات أو نقص أو تقييدات من عند أنفسنا، الله ما سأل عن عقيدتهم، ما ذكر أنَّهم يعتقدون، بل حكم عليهم بالرِّدَّة بعد الإيمان، ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ رتَّب هذا علىٰ القول، رتَّب هذا علىٰ الاستهزاء، ولَم يُقيِّده بهذه القيود، الإنسان إذا تكلَّم بكلمة الكُفْر وهو غير مُكْره يُحكم عليه بالرِّدَّة، أما إن كان مكرهًا فهذا لا يرتدُّ.

السَّابِعُ: السِّحْرُ: وَمِنْهُ: الصَّرْفُ وَالعَطْفُ، فَمَنْ فَعَلَهُ أَوْ رَضِيَ بِهِ؛ كَفَرَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الشَّـرْح

النوع السابع من أنواع الرِّدَّة: السحر: والسِّحْر عمل يعمله الساحر، وهو علىٰ نوعين: سِحْر حقيقي، وسِحْر تخييلي.

النوع الأول: سِحْر حقيقي: هو عبارة عن عُقد، ينفث فيها الساحر، ورُقَىٰ وكلام يُتَمْتم به، ويستعين بالشياطين فِي كلامه، وعزائم يُعلِّقونها، وكتابات طلاسم يكتبونها بأسماء الشياطين، هذا هو السِّحْر الحقيقي، هذا يُؤثر فِي المَسحور؛ إما بقتله، وإما بإمراضه، وإما بالإخلال بعقله.

والنوع الثاني: تخييلي: بأن يعمل أشياء يُخيل إِلَىٰ الناس أنَّها صحيحة، وهي غير صحيحة، يُخيل للناس أنه يقلب الحجر إِلَىٰ حيوان، أو أنه يقتل شخصًا ويحييه، ويقطع رأسه ثُمَّ يردُّه، أو أنه يجرُّ السيارة بشَعْره أو بأسنانه، أو أن السيارة تمشي عليه ولا تضرُّه، أو أنه يدخل فِي النار، أو يأكل النار، أو يطعن نفسه بالحديد، أو يطعن عينه بأسياخ الْحديد، أو يأكل الزجاج، كلُّ هذه من أنواع الشعوذة، وهي لا حقيقة لَها، مثل سِحْر سَحَرة فرعون، قال تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]، وقال تعالىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦] هذا سِحْر تخييلي، وهذا يسمُّونه القمرة، الَّتِي يعملها الساحر علىٰ أعين الناس، ثُمَّ إذا انتهت القمرة، عادت الأشياء إِلَىٰ حقيقتها، والسِّحْر كُفْرٌ والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢]، السِّحْر تعلُّمه وتعليمه كُفْرٌ بالله ﷻ، وهو نوع من أنواع الرِّدَّة، فالساحر مرتدٌّ، إذا كان مؤمنًا، ثُمَّ سَحَر فإنه يرتدُّ عن دين الإسلام، ويُقتل ولا يُستتاب عند العلماء؛ لأنه حَتَّىٰ ولو تاب فِي الظاهر فهو يخادع الناس، ولا يزول عِلْم السِّحْر من قلبه ولو تاب.

والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. الله -جل وعلا- أنزل ملكين من السماء يُعلِّمان السِّحْر، ابتلاءً للناس، وامتحانًا للناس، فإذا جاءهم مَنْ يريد تعلُّم السحر نصحاه، وقالا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ يعني: لا تتعلَّم السِّحْر، فدلَّ علىٰ أن تعلُّم السِّحْر كُفْر.

الثَّامِنُ: مُظَاهَرَةُ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

الشَّرح

الثامن من أنواع الرِّدة: مظاهرة الْمُشركين علىٰ المسلمين، أي: معاونتهم، فالْمُظاهرة معناها: الْمعاونة، بأن تُعين الكُفَّار علىٰ قتال المسلمين، وأذية المسلمين.

وكذلك مَنْ أحبَّ الكُفَّار فإنه يكفر، وهذا هو التولِّي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] يتولَّاهم بالْمُناصرة والْمُظاهرة، أو يتولَّاهم بالْمحبة، فإنه يكفر؛ لأنه أحب الكُفْر، وأحب الكُفَّار فيكفر بذلك، إذا أحبهم معناه: أنه لَمْ يُنكر الكُفر، ومَنْ لَمْ ينكر الكُفْر فهو كافر.

وَالدَّلِيلُ: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

الشَّرح

أول الآية: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]. أي: لا تتولوهم لا بمظاهرة ولا بمحبة ولا بمعاونة، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يعني: من المسلمين، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يكون من اليهود والنصارىٰ وهذا دليل علىٰ رِدَّته، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ فسَمَّاهم ظالمين.

التَّاسِعُ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسَعُهُ الخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا وَسِعَ الخَضِرُ الخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَهُوَ كَافِرٌ.

الشَّرْح

التاسع: مَنْ أجاز لأحد أن يخرج عن شريعة مُحَمَّد ﷺ؛ لأن الله بعث محمدًا ﷺ إِلَىٰ الناس كافَّة، وأوجب طاعته علىٰ العالمين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فمَنْ لَمْ يستجب للرسول ويتبع هذا الرسول فهو كافر، سواءٌ أكان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا، أو أيَّ مِلَّة كان؛ لأنه ببعثته أوجب الله طاعته واتباعه، ومَنْ كان علىٰ دين اليهودية والنصرانية فإنه قد نُسخ ببعثته ﷺ، فلا يسع أحدًا أن يخرج عن طاعته.

أما خروج الخضر عن طاعة موسىٰ، فلأن موسىٰ لَمْ يُرسَل إِلَىٰ الخضر؛ لأن رسالة موسىٰ خاصة ببني إسرائيل، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، فرسالة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل، ما هي عامَّة لجميع الناس، فلذلك الخضر كان علىٰ عبادة لله، واختلف العلماء فِي الخضر هل هو نبيٌّ أو رجل صالح؟ علىٰ قولين:

القول الأول: إنه نبيٌّ؛ لأنه عمل أشياءَ لا تكون إلا معجزات، مثل: خَرْقه للسفينة، ومِثْل: ذَبْحه الولد، ومثل: إقامته الجدار الذي يريد أن ينقضَّ، هذه أمور معجزة؛ لأنها مبنية علىٰ أشياء مُغيَّبة، والْمُعجزات لا تكون إلا لنبيٍّ، وأصل قصة موسىٰ مع الخضر، أن موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- خطب فِي بني إسرائيل، فسألوه: هل هناك أعلم منه، فقال: لا، فأوحىٰ الله إليه أن هناك عبدًا فِي أرض كذا وكذا عنده من العِلْم ما ليس عندك، فذهب موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- إِلَىٰ هذا الرجل يطلب ذلك العلم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ سافر، ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ إِلَىٰ آخره، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ

ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٠- ٦٦] إِلَىٰ آخر القصة الَّتِي ذكرها الله فِي سورة (الكهف) هذا أصل القِصَّة، فالخضر ما هو من أُمَّة موسىٰ؛ لأن موسىٰ لَمْ يُبعث إِلَىٰ الناس كافَّة، فلذلك وسعه الخروج، أما مُحَمَّد ﷺ فإنه مبعوث إِلَىٰ الناس كافة، فلا يسع أحدًا الخروج عن شريعته، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يزعمون أنَّهم يصلُّون إِلَىٰ حالة ليسوا بحاجة إِلَىٰ اتباع الرسل، وأنهم يأخذون عن الله مباشرة، ولا يأخذون عن الرسول.

ويقولون: إن الرسل إنَّمَا هم للعوامِّ، أما الخواصُّ فلا يحتاجون إِلَىٰ الرسل؛ لأنَّهم يعرفون الله ويصلون إِلَىٰ الله، ويأخذون عن الله مباشرة، هذا ما عليه غُلَاة الصوفية، إنهم يصلون إِلَىٰ حالة يستغنون عن الرسول ﷺ، ويخرجون عن شريعته، ولذلك لا يصلُّون ولا يصومون ولا يحجُّون، ولا يعملون بِمَا جاء به الرسول؛ لأنَّهم خواصٌّ يقولون: ما نحن بحاجة إِلَىٰ الرسول، نَحن وصلنا إِلَىٰ الله -نسأل الله العافية- هذا قصد الشيخ من ذِكْر هذه الْمسألة، هذا ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يزعمون أنَّهم يسعهم الخروج عن شريعة مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّهم ليسوا بحاجة إليه.

❊❊❊

العَاشِرُ: الإِعْرَاضُ عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ لا يَتَعَلَّمُـهُ وَلا يَعْمَـلُ بِهِ.

الشَّـرح

العاشر وهو الأخير: الإعراض عن دين الله، لا يهتمُّ بالدِّين، لا يتعلَّم، ولو تعلم لا يعمل، يُعرض عن العلم أولًا، ثُمَّ يعرض عن العمل -نسأل الله العافية-، وحتىٰ لو عمل وهو علىٰ غير عِلْم فعمله ضلال، فلابد أن يتعلَّم أولًا، ثُمَّ يعمل، أما مَنْ أخذ العِلْم وترك العمل فهذا من الْمغضوب عليهم، ومَنْ أخذ العمل وترك العِلْم فهذا ضالٌّ، وهذا ما نستعيذ منه فِي كلِّ ركعة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فمَنْ أعرض عن دِين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به، فإنه يكون مرتدًّا عن دين الإسلام، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، أعرض عن ذكري: لَمْ يتعلَّمه ولَم يعمل به، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۞﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۞﴾ [السجدة: ٢٢] أعرض عنها بعد ما ذُكِّر بِهَا.

وهناك إنسان لا يتعلَّم من باب الكسل، هذا لا يُكفَّر ولكنه يُلام علىٰ كسله، أما إذا كان ترك طلب العلم لعدم رغبة فِي العلم، هذا هو الإعراض -والعياذ بالله-، هذا هو الذي يكفر، ولكن إن كان المرء يرغب العِلْم ويُحب العِلْم ولكنه عنده كسل؛ لأن طلب العلم صعب يتطلب صبرًا، ويتطلب تحمُّلًا، ويتطلب جلوسًا، وهو كسلان، فهذا يُلام علىٰ كسله وعلىٰ تفريطه، ولكنه لا يصل إِلَىٰ حدِّ الكُفْر.

وَالدَّلِيلُ: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ٢٢].

الشَّـرح

الإعراض الذي يدلُّ علىٰ عدم الرغبة فِي العلم، أو كراهية العلم، هذا هو الكُفْر - والعياذ بالله.

وَلَا فَرْقَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ النَّوَاقِضِ بَيْنَ الهَازِلِ وَالجَادِّ وَالخَائِفِ إِلَّا المُكْرَهِ، وَكُلُّهَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ خَطَرًا، وَأَكْثَرِ مَا يَكُونُ وُقُوعًا، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَهَا وَيَخَافَ مِنْهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ -نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْح

لا فَرْق فِي هذه النواقض العشرة بين الجادِّ: الذي يقصد ما يقول أو يفعل، والهازل: وهو الذي لا يقصد، وإنَّما يفعل هذا من باب المَزْح واللعب، وفِي هذا ردٌّ علىٰ المُرجئة الذين يقولون: لا يكفر حَتَّىٰ يعتقد بقلبه، لا فَرْق بين الجادِّ والهازل، أو الخائف الذي يفعل هذه الأشياء دفعًا للخوف، فالواجب عليه أن يصبر.

(إلا المكره): إذا أُكره أن يقول كلمة فيها كُفْر، ولَم يمكنه التخلُّص من الظلم إلا بِهَا، فرخَّص له الله فِي ذلك ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. بِهذا الشرط، ويكون قصده دَفْع الإكراه فقط، إلا أن قلبه لا يعتقد بِمَا يتلفظ به.

ما حصل لعمار بن ياسر الذي كان سبب نزول الآية فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما أخذه الكفار وعذَّبوه حَتَّىٰ يقول فِي مُحَمَّد ﷺ، أي: يسبُّ الرسول ﷺ، فوافقهم وسبَّ الرسول، وجاء نادمًا إِلَىٰ الرسول ﷺ خائفًا مِمَّا حصل له، فقال له النَّبِي ﷺ: «**كيف تَجد قلبك؟!**» قال: مطمئنًّا بالإيمان، قال: «**فإن عادوا فعُدْ**»[1]، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

-نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه- آمين.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فِي «المُصنف» (١/ ٣٦٠)، وابن سعد (٣/ ٢٤٩)، والطبري فِي «التفسير» (١٤/ ٣٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي فِي «دلائل النبوة» (٨/ ٢٠٨)، وابن عساكر فِي «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٣٧٣)، والسيوطي فِي «الدر المنثور» (٤/ ١٣٢).

الأسئلة

❑ سؤال: ما هو الفَرْق بين الكافرين والمُشركين؟

الجواب: بينهما عموم وخصوص، الشِّرْك أعمُّ من الكُفْر، فكلُّ مشرك كافر، وليس كلُّ كافر مشركًا، فالمشرك يعبد الله ويعبد غيره، وأما الكافر فإنه يَجحد وجود الله -جلَّ وعلا- ولا يعترف بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعترف بدين من الأديان، هذا هو الكافر الجاحد، أما المشرك فهو يعترف، ويعتقد، ولكن يعبد الله ويعبد غيره، فهو مشرك كافر، فكلُّ مشرك فإنه كافر، وليس كلُّ كافر يكون مشركًا؛ لأن الكافر قد يكون ملحدًا جاحدًا.

❑ سؤال: أحسن الله إليكم، يقول: أُشكل علينا قول المُؤلف: (الإعراض عن دين الله تعالى لا يتعلَّمه ولا يعمل به) هل يدخل فيه العوامُّ اليوم الذين لا يفقهون العِلْم الشرعي، ولا يرغبون به، ولكنهم تعلموا من طفولتهم التوحيد وعملوا به؟

الجواب: لا يدخل هؤلاء؛ لأنَّهم عاجزون عن التعلُّم أو متكاسلون عن التعلُّم، هم مسلمون وهم مؤمنون ويعبدون الله، ما هم مثل المُعرض، المُعرض الذي ما له رغبة فِي العلم ولا له رغبة فِي الدِّين، هذا هو المُعرض.

❑ سؤال: فضيلة الشيخ، حاطب بن أَبِي بلتعة عاون المشركين والكفرة ولَم يُكفِّره النَّبِي ﷺ، فهل كلُّ مَنْ عاون الكُفَّار من المسلمين يكفر؟

الجواب: حاطب بن أَبِي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له من السوابق ما كفَّر الله به عنه؛ لأنه من أصحاب (بدر)، وقد قال النَّبِي ﷺ: «**إن الله اطلع علىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». وهو مؤمن صادق الإيمان، ولكنه فعل ما فعل لأنه تأوَّل لنفسه، وظنَّ أن هذا ما يضرُّ المسلمين، ولذلك الرسول ﷺ لَم يُكفِّره؛ لأنه صحابي جليل حصل منه خطأ عن تأويل، وله سابقة كفَّرت عنه ما حصل.

❑ سؤال: أثابكم الله، يقول: هل الفطرة حُجَّة على مَنْ كفر؟

الجواب: الحُجَّة بإرسال الرسل، أما الفطرة وحدها فلا تكفي حُجَّة، لو كانت الفطرة حُجَّة ما أرسل الله الرسل ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، لا تُعرف الواجبات والمُحرمات والمكروهات، هذا ما يبينه إلا الرسل، ولكن الفطرة تربة صالحة للخير، ولكنها لا تكفي، لو عاش الإنسان عليها ولَم يتعلَّم ولَم يعمل شيئًا، فإنها لا تكفي.

❑ سؤال: أثابكم الله، إذا مدَّ الكفار يدهم ليصافحوا هل أعرض؟

الجواب: إذا سلَّموا عليك ومدُّوا أيديهم إليك فصافحهم ما فيه بأس، أما أنك تبدأهم بالسلام وبالمصافحة فهذا لا يَجوز.

❑ سؤال: مَنْ قال بالذهاب إِلَى العرَّافين فِي محاولة البحث عن المفقود من الأموال مثلًا، وهو يعتقد أنه لا يَجوز الذهاب إليهم فِي شفاء من مرض؟

الجواب: لا يَجوز هذا؛ لأن «مَنْ أتىٰ عرافًا، فلن تُقبل له صلاة أربعين يومًا»[(١)]، «مَنْ أتىٰ عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقة بِمَا يقول فقد كفر بِمَا أُنزل علىٰ محمد»[(٢)]. ولما سُئل عن الكُهَّان، قال ﷺ: «لا تأتهم»[(٣)] فلا يَجوز الذهاب إليهم حتىٰ ولو لم يُصدِّقهم.

❑ سؤال: أثابكم الله، مَنْ أنكر حديثًا أو حُكمًا من الأحكام بدعوى أن هذا حديث آحاد، هل يكفر بذلك؟

الجواب: لا يكفر بذلك إذا كان متأولًا؛ لأن أكثر هؤلاء مقلدون لمَنْ قبلهم، ومتأوِّلون، فلا يكفرون، ولكن يخطِّئون ويُضللون.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨)، والبيهقي فِي «السنن» (٨/ ١٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥)، والنسائي فِي «الكبرىٰ» (٩٠١٧)، وأحمد (٩٢٩٠) و(١٠١٦٧)، وابن أبِي شيبة (٤/ ٢٥٢)، والدارمي (١١٣٦)، والبيهقي فِي «السنن» (٧/ ١٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧)، والنسائي (٣/ ١٤)، وأحمد (٢٣٧٦٢)، والطيالسي (١١٥٠)، وابن خزيمة (٨٥٩)، وابن حبان (٢٢٤٧)، والبيهقي فِي «السنن» (٢/ ٢٤٩).

❑ سؤال: أحسن الله إليكم، يقوم بعض الإخوة بفرض غرامة مالية على مَنْ قال على زميله بكلمة نابية أو غيرها، ثُمَّ تجمع هذه الغرامات بعد فترة، ويقيمون بِهَا عَشَاءً أو غداءً، وإذا كان الخطأ كبيرًا فرضوا على المخطئ ذبيحة وأصلحوا بين المُتخاصمين، فما حكم هذا؟

هذا لا يَجوز؛ لأنه لا يَحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه، أما أنه يُفرض عليه ويُلزم به، فهذا حرام.

❑ سؤال: ما حكم التعظيم للاعب كرة محترف كافر، ويُثني عليه عندما يتسبب فِي نَصْر الفريق؟

الجواب: ما أثنىٰ علىٰ كُفْره وإنَّما أثنىٰ علىٰ لعبه ومهارته فِي لعبه، فعلىٰ كلِّ حال هذا خطر ويأثم عليه، ولكن ما يصل إِلَىٰ حدِّ الكُفْر، الكُفْر لو أنه مدحه علىٰ كُفْره، وعلىٰ ضلاله، أو شِرْكه فإنه يكون كافرًا، أما علىٰ لعب الكرة أو المهارة فِي صناعة، فهذا فيه تعظيم للكافر، وفيه إثم ولكن ما يصل إِلَىٰ حدِّ الكفر.

❑ سؤال: أثابكم الله، ما القول فيمَنْ يقول: لا يكفر المعين إلا إذا استوفى الشروط وانتفت الموانع؟

الجواب: مَنْ صدر منه الكُفْر قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا أو شكًّا فإنه يُحكم بكُفْره، أما ما فِي قلبه هذا لا يعلمه إلا الله، نَحن ما وُكِّلنا بالقلوب، إنَّمَا نَحن مُوكَّلون بالظاهر، فمَن أظهر الكُفْر حكمنا عليه بالكُفْر، وعاملناه معاملة الكافر.

❑ سؤال: ما حكم مشاهدة أفعال السَّحَرة، ولو لَمْ يعتقد فيما يفعله؟

الجواب: هذا رضي بالمنكر.

❑ سؤال: أثابكم الله، شخص يلجأ إليه الناس قبل حَفْر الآبار، ويدَّعي أنه يرى المَاء، ويقوم الناس بتَصْديقه.

الجواب: هو ما يدَّعي أنه يرىٰ المَاء، ولكن يدَّعي أنه يعرف التربة وأنواع الشجر الَّتِي فِي الأرض، علامات يستدلُّون بِهَا، هذا لا بأس؛ لأنه يستدلُّ بأشياءَ ظاهرة، وهي نوع التربة، نوع الشجر الذي ينبت فِي الأرض، بحُكْم خبرتهم بهذه الأمور.

الرسالة السادسة

معنى الطاغوت ورؤوس أنواعه

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الشَّيخُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بن عَبدِ الوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-:

اعلَم -رَحِمَكَ اللّه تَعَالَىٰ- أَنَّ أَوَّلَ مَا فَرَضَ اللّه عَلَىٰ ابنِ آدَمَ: الكُفرُ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانُ بِاللّه.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله ربَّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد وعلىٰ آله وصحبه، أما بعد:

يشير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ليس معناه: أن الكفار يتركون ولا يُقاتلون ولا يدعون إِلَىٰ الإسلام.

كما يقوله الآن الْمغرضون والكفار والْجُهال من الْمُسلمين بِحُجَّةِ حرية الأديان، وحرية العقيدة، هذا كَذبٌ علىٰ الله -جل وعلا- ليس هذا هو مراد الله -جل وعلا-، الله -جل وعلا- خلق الخَلْق لعبادته لا لعبادة غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، فلو كان الناس يتركون كفارًا يعبدون ما شاءوا، فما كان لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ما كان لَها فائدة، ولما كان للجهاد فِي سبيل الله فائدة، ولما كان للدعوة لله فائدة، كيف تدعونهم وهم أحرار فيما يعتقدون وفيما يعبدون؟! اتركوهم

علىٰ مقتضىٰ هذا الكلام الباطل، فليعبدوا ما يَختارون.

فلو كان كما يقولون: إن الناس أحرار فِي عبادتهم، وفِي اعتقاداتهم ولا يُعترض علىٰ أحد، لبَطُلَت كلُّ هذه الأمور، ولما صار هناك فائدة للدعوة إِلَىٰ الله، والجهاد فِي سبيل الله، بل لمَا كان هناك فائدة لخَلْق الْجَنة والنار، فما دام الكفار أحرارًا لماذا يدخلون النار ويُعذَّبون فيها أبد الآباد وهم آخذون بالحرية كما يقول هؤلاء، فهذا كلام باطل.

إذن ما معنىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: ٢٥٦]؟ لأنَّهم يُردِّدون هذه الآية.

يقولون: الناس أحرار فِي عقائدهم؛ لأن الله يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نقول لَهم: كذبتم علىٰ الله، ليس هذا هو مُرَادِ الله -جل وعلا-، بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ بل فيها أقوال للمفسرين:

القول الأول: منهم مَنْ يقول: إن هذه كانت فِي أول الأمر، ثُمَّ نُسخت بآيات الجهاد، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

القول الثاني: أن قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ خاصٌّ بأهل الكتاب، من اليهود والنصارىٰ، فهؤلاء إذا دفعوا الجزية وخضعوا لحُكْم الإسلام، فإنهم لا يُكرهون علىٰ الدخول فِي الإسلام، بل يُتركون بشرط أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون، وبشرط أن يخضعوا لحكم الإسلام؛ لأنَّهم علىٰ عِلْم، وعندهم عِلْم بالدِّين والرسل، ما هم مثل الوثنيين، أُعطوا الفرصة ليراجعوا ما عندهم، ويتأملوا فِي القرآن، ويتأملوا فيما عندهم، فيجدوا أن القرآن يتوافق تمامًا مع التوراة والإنجيل السالمَين من التحريف، الباقيين علىٰ أصلهما، كما أنزل الله ﷻ، فلا خلاف بين الكتب السماوية، أنَّها كلُّها من عند الله -جل وعلا- فِي أمور العقائد، أما أمور الْمُعاملات والحلال والْحَرام فهي تَختلف بِحسب الشرائع، وبِحسب حكمة الله -جلَّ وعلا-، فِي كلِّ وقت بحسبه، ولكن العقائد ليس بين الكتب السماوية فيها اختلاف أبدًا، أنه لا يُعبد إلا الله -جل وعلا-، وأن عبادة غيره باطلة، أجمعت الكتب السماوية، وأجمعت الرسل، وأجمع المسلمون من قديم

الْخَليقة إِلَىٰ آخر الْخَليقة علىٰ أن العبادة لا تكون إلا لله، وأن من عبد غير الله فإنه يُدعىٰ إِلَىٰ عبادة الله، فإن أصرَّ فإنه يُقاتل دفعًا لكُفْره وشرِّه، ولئلا ينتشر الكُفْر فِي الأرض، ويَحتج به الْمخالف، فلو كان الناس أحرارًا ولا اختلاف فِي الدِّين كما يقولون ما احتاج الناس إِلَىٰ بَعْث الرسل، ولا إِلَىٰ إنزال الكتب، وإنَّما الناس أحرار ولا أحد يُدعىٰ، ولا أحد يُقاتل، ولا أحد تُفرض عليه الْجَزية والْخضوع للإسلام، فهم أحرار كما تقولون.

القول الثالث: أن قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] خاصٌّ باليهود والنصارىٰ.

قيل: إنهم أسلم منهم ناسٌ، فأرادوا أن يكرهوا أولادهم علىٰ الدخول فِي الإسلام، فالله أنزل هذه الآية، فِي أنَّهم لا يكرهون، وأما قولهم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أنه مَحمول علىٰ الاختيار والْحرية، فهذا أمر باطل لا دليل عليه من القرآن، بل أدلة الشرع كلُّها تردُّ علىٰ هذا.

وقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] سبق لنا أن قلنا: إن هذه الآية هي معنىٰ: (لا إله إلا الله)، الذي يكفر بالطاغوت: هذا معنىٰ (لا إله)، ويُؤمن بالله: هذا معنىٰ: (إلا الله) ففيها معنىٰ النفي والإثبات اللذين فِي (لا إله إلا الله).

والطاغوت: لفظ عامٌّ مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الْحدِّ، والطواغيت أنواع: فأعظم الطواغيت مَنْ يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ وهو راضٍ بذلك.

يقول ابن القيم: الطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة:

١- إبليس لعنه الله.

٢- ومَنْ عُبد وهو راضٍ.

٣- ومَنْ دعا الناس إِلَىٰ عبادة نفسه.

٤- ومَنِ ادعىٰ علم الغَيْب.

٥- ومن حكم بغير ما أنزل الله.

هذه رءوس الطواغيت:

الأول: إبليس، وهو أول الطواغيت.

الثاني: (مَنْ عُبد وهو راضٍ بذلك)، أما من عُبد وهو غير راضٍ بذلك، فهذا لا يُسمَّىٰ طاغوتًا، فالْملائكة عُبدوا من دون الله، لكن لَمْ يرضوا بذلك ولا أمروا به، والـمَسيح ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله عُبد من دون الله وهو ينهىٰ عن ذلك فِي حياته، ويتبرأ من أصحابه، فلا يُعدُّ طاغوتًا.

وإنَّما الطاغوت الذي أمرهم بعبادته وهو الشيطان، وكذلك الأولياء والصالحون الذين ماتوا علىٰ صلاحهم وعلىٰ ولايتهم لله، وعلىٰ عملهم الصالح، ولكن عُبدوا بعد ما ماتوا، هؤلاء لا يُقال لَهم طواغيت، وإنَّما الطاغوت هو الذي أمرهم بذلك وهو الشيطان.

الثالث: (مَنْ دعا الناس إِلَىٰ عبادة نفسه)؛ لأن بعض الطواغيت يأمر الناس بأن يعبدوه.

ويقول لَهم: إنه يستطيع أن ينفعهم وأن يضرَّهم، ويَحقق لَهم مطالبهم، كما عليه اليوم طواغيت الصوفية ومشايخ الصوفية، الذين يزعمون أنَّهم يُحقِّقون لـمَنْ عبدهم مطالبهم، وأنهم يتصلون بالله مباشرة، ويأخذون عن الله مباشرة، وبعضهم يُوصي يقول: إذا مِتُّ لا يمنعكم من دعائي والاستغاثة بي ذراع من التراب، هَلمُّوا إِلَىٰ قبري واطلبوا مني وأنا أغيثكم وأنا... وأنا...، هذا دعا الناس إِلَىٰ عبادة نفسه، فهو طاغوت.

الرابع: (مَنِ ادعىٰ عِلْم الغَيْب)، وهو الكاهن، الطواغيت كُهَّان كما يقول بعض السلف: كانت تنزل عليهم الشياطين، وفِي كل حيٍّ من أحياء العرب منهم واحد، فالكُهَّان طواغيت، لماذا؟ لأنَّهم يدَّعون علم الغيب الذي اختصَّ الله تعالىٰ به، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فقد يطلعه الله علىٰ بعض الْمغيبات لمصلحة الدعوة إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وتكون معجزة له، ودليلاً علىٰ صدقه لمصلحة الناس، وإلا فالغيب لا يعلمه إلا الله ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والرسول الذي عليم شيئًا من الغيب لَمْ يعلمه أصلاً، وإنَّما علمه بإطلاع الله له عليه، فلا يعلم الغيب إلا الله ﷻ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

أما الكُهَّان والشياطين، فهؤلاء كذبة، ولكن يَحصلون علىٰ شيء من الغَيْب بواسطة استراق السمع.

والْخَامس وهو الأخير: (مَنْ حكم بغير ما أنزل الله)، ومنهم الْحُكام الذين يسنُّون القوانين، ويلغون الشريعة ويَجعلون القوانين محلَّها، هؤلاء طواغيت، الذي يَحكم بغير ما أنزل الله هذا طاغوت بنصِّ القرآن ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] فمَنْ حكم بغير ما أنزل الله متعمِّدًا ذلك فإنه يكون طاغوتًا.

أما مَنْ حكم بغير ما أنزل الله مُجتهدًا، يتحرىٰ الحقِّ ولكنه أخطأ، فهذا ليس طاغوتًا، فالفقهاء إذا اجتهدوا فِي الْمسائل الفقهية وأخطئوا لا يعدُّون طواغيت؛ لأنَّهم لَمْ يتعمدوا هذا، هم يبحثون عن الحق، ولكن لَمْ يصلوا إليه، فهم معذورون، قال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**»؛ لأنه لم يتعمد مخالفة الشرع، وإنما أخطأ باجتهاده، ولا يَجوز اتباعه علىٰ الخطأ، لا يَجوز أن نأخذ الاجتهاد الذي نرىٰ أنه خالف الدليل، ولكن هو فِي نفسه معذور وليس طاغوتًا، بل له أجر إذا كان من أهل العلم، أما إذا اجتهد وهو ليس عنده مؤهلات الاجتهاد، فهذا علىٰ كلِّ حال مخطئ، فلا يَجوز له أن يَجتهد وهو لا يَحسن ذلك، ولكن هذا فِي الْمُجتهدين الذين عندهم مؤهلات الاجتهاد إذا أخطئوا كالأئمة الأربعة، وأقرانهم من أهل العلم الذين توفَّرت فيهم شروط الاجتهاد، فإنهم ليسوا معصومين.

إنما الطاغوت الذي تعمد مخالفة الشرع، وتعمد الحكم بغير ما أنزل الله، يَجلب القوانين والْمحاكم القانونية يَجعلها محلَّ الشريعة، هذا لا شكَّ أنه طاغوت، ليس طاغوتًا عاديًّا بل من رءوس الطواغيت الْخَمسة.

فما دام أن الله -جل وعلا- فرض عليك الكُفْر بالطاغوت، فلا يَجوز لك أن تبقىٰ جاهلًا وما تدري ما هو الطاغوت، لابد أن تعرف ما هو الطاغوت؟ وما هي أنواعه؟ حتىٰ تتجنبه، حتىٰ تحذر منه.

أما أن تقرأ القرآن بأوامره ونواهيه، وفيه ذِكْر التوحيد والشرك، ولا تعرف كيف

تفرق بينهما، هذا لا يَجوز للمسلم، لابد له أن يتعلَّم هذه الأشياء، ويكون علىٰ بصيرة منها فِي نفسه، ويتجنبها ويحذر منها من أجل أن يعرف الحقَّ، من أجل أن يعمل به هو، ويدعو الناس إليه، ويُبيِّنه لهم، فالأمر مهمٌّ جدًّا.

يَجب الكُفْر بكلِّ هؤلاء، فمَنْ لَم يكفر بهم أو لَم يكفر ببعضهم، وصحَّح شيئًا من الطواغيت، فصحَّح الكهانة، وصحح الحكم بغير ما أنزل الله.

وقال: الوقت تغير والزمان يَختلف، ولا يسع الناس اليوم الحُكْم بالشريعة ولابد أن نُساير الدُّول، ونُساير العالَم، هذا لَمْ يكفر بالطاغوت، وإن كان يقول: (لا إله إلا الله)، وإن كان يصلي ويصوم ويحج.

مادام أنه يقول: الحكم بِمَا أنزل الله لا يُناسب هذا الوقت، يتعارض مع الحضارة الْحَديثة، ومع سياسة الدول، فعلينا أن نسايرهم فِي هذه الأمور، والشرع إنَّمَا يكون فِي الْمَساجد، وأما الحكم بين الناس والحكم السياسي فهذا لابد فيه من مُسايرة الدول، ولا ينفرد عنها، هذا ولو كان يُصلِّي ويصوم ويحج ويقول: (لا إله إلا الله) عدد الأنفاس فهو كافر؛ لأنه لَمْ يكفر بالطاغوت، والله قدَّم الكُفْر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا يصحُّ إلا بعد الكُفْر بالطاغوت.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

الشَّرْح

هذا الدليل علىٰ أن مَنْ عُبد من دون الله وهو راضٍ، أو دعا إِلَىٰ عبادة نفسه، أو حكم بغير ما أنزل الله فهو من الطواغيت، الدليل علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، هذه الآية مثل قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهو لَمْ يقتصر علىٰ قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، بل قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ لأن عبادة الله لا تصحُّ إلا مع اجتناب الطاغوت، فمَنْ يعبد الله ليلًا ونهارًا، ولكنه لَمْ يَجتنب الطاغوت، فعبادته باطلة، كالذي يصلي ويصوم ويَحج ويتصدَّق ويتبرع وينفق، ولكنه يستغيث بالأموات، ويدعو الأموات من دون الله، هذا لَمْ يكفر بالطاغوت.

جميع الرسل علىٰ هذا، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: ٣٦] هذا عامٌّ لجميع الرسل، أنَّهم جاءوا بالأمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت، فلابد من الأمرين، وهذا هو معنىٰ: (لا إله إلا الله)، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هذا معنىٰ الإثبات، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ هو معنىٰ النفي فِي (لا إله إلا الله).

فَأَمَّا صِفَةُ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ، فَهُوَ: أَن تَعتَقِدَ بُطلَانَ عِبَادَةِ غَيرِ اللَّهِ، وَتَترُكَهَا وَتُبغِضَهَا، وَتُكَفِّرَ أَهلَهَا وَتُعَادِيَهُم.

الشَّرح

هذه معنى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ لابُدَّ من هذه الأمور: أن تعرف أولًا ما هو الطاغوت؟، ثُمَّ تَجتنبه، ولا يكفي أنك تَجتنبه، بل لابد أن تُعادي أهله وتُبغضهم؛ لأنَّهم أعداء الله، والله -جل وعلا- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المُمتحنة: ١]، فلابد من هذه الأمور.

أولًا: أن تعرف الطاغوت ما هو؟ لأنك إذا لَمْ تعرفه فلا يمكن أنك تتجنبه، كيف تتجنب شيئًا مجهولًا.

ثانيًا: إذا عرفته سَهُلَ عليك اجتنابه.

ثالثًا: إذا اجتنبته فلابد أن تُعاديه، وأن تُبغضه وتبغض أتباعه، وتعاديهم فِي الله عَزَّوَجَلَّ.

وَأَمَّا مَعنَىٰ الإِيمَانِ بِاللّه، فَهُوَ: أَن تَعتَقِدَ أَنَّ اللّه هُوَ الإِلَهُ المَعبُودُ وَحدَهُ دُونَ مَا سِوَاه.

الشَّرْح

هذا معنى الإيمان بالله: أن تعتقد بقلبك أن الله هو الْمُستحقُّ للعبادة دون ما سواه، وأن كلَّ ما عُبد من دون الله فهو باطل، سواءٌ كان من الْمَلائكة، أو من الأنبياء، أو من الصالحين، أو من الأحجار والأشجار والأوثان، لابد أن تكفر بِهذا كلِّه، هذا معنىٰ الإيمان بالله، أن تعتقد بقلبك أنه لا يستحقُّ العبادة إلا الله، وأن ما عُبد من دونه فهو باطل، هذا لازم، هذه هي العقيدة، ما يكفي أنك تقول هذا بلسانك بدون أن تعتقد بقلبك، ولا يكفي أنك تعمل هذا بَجوارحك، فأنت تصلي وتصوم وتقول: أنا لا أعبد إلا الله.

ولكن يقول: ما أدري عن عبادة هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة، ما أقدر أن أقول إنهم علىٰ باطل، وهم يصومون ويصلُّون ويقولون: (لا إله إلا الله).

نقول: أنت ما فهمت معنىٰ: (لا إله إلا الله)، ولا فهمت معنىٰ الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت، وإلا لو فهمت حقَّ الفَهْم لعرفت أن الإيمان بالله لا يصحُّ إلا بالكُفْر بالطاغوت ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا باللسان، وباطنًا بالاعتقاد.

وَتُخلِصَ جَمِيعَ أَنوَاعِ العِبَادَةِ كُلِّهَا لله، وَتَنفِيهَا عَن كُلِّ مَعبُودٍ سِوَاهُ.

الشَّـرح

هذا معنى الإيمان بالله: أن تصرف العبادات كلَّها لله، لا تصرف منها شيئًا لغير الله، كالذي يصوم ويُصلِّي ويُزكِّي، ولكن يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، يذبح لغير الله، هذا عَبَدَ الله فِي شيء، وعَبَدَ غيره فِي شيء، فهو مشرك، لابد أن تكون جميع العبادات كلِّها لله، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، لابد أن تكون العبادات كلُّها لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

أما الذي يعبد الله ببعض العبادات، ويعبد غيره بأنواع أخرىٰ من العبادات، فهذا لَمْ يؤمن بالله، كالذين يصومون ويصلُّون ويَحجُّون وينطقون بالشهادتين، ولكن يدعون غير الله، يدعون الأموات، ويذبحون للأموات، وينذرون للأموات، ويطوفون بالقبور، هؤلاء لَمْ يعبدوا الله، بل هم مشركون؛ لأنه لا يَجتمع عبادة الله وعبادة غيره أبدًا، الله -جل وعلا- يقول: (أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرْك، فمَنْ عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشِرْكه)، وفِي رواية: (فهو للذي أشْرك وأنا منه بريء)، الله لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد فِي أيِّ نوع من أنواع العبادات، بل يَجب أن تكون العبادات كلُّها لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فلا يكون الدِّين بعضه لله، وبعضه للأصنام أو للقبور، أو لفُلَان أو لعلان، الدِّين كلُّه لله.

وَتُحِبَّ أَهلَ الإِخلَاصِ وَتُوَالِيَهُم، وَتُبغِضَ أَهلَ الشِّركِ وَتُعَادِيَهُم.

الشَّـرْح

هذا من لازم التوحيد: مَنْ وحَّد الله وكفر بالطاغوت فلابد أن يُوالي -أي: يَجب-، ويناصر، أولياء الله ﷻ، وهم أهل التوحيد، ويُعادي ويُبغض أهل الشرك؛ لأن الله يبغضهم، فأنت تبغض مَنْ يبغضهم الله، أما الذي يقول: أنا ما عليَّ إلا نفسي، ولا أُعادي الناس وأبغض الناس وأُكفرِّ الناس.

نقول له: أنت ما كفرت بالطاغوت، الكُفْر بالطاغوت مَنْ لازمه معاداة أعداء الله، وبُغْض أعداء الله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [الْمُجادلة: ٢٢]، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فتربصوا: يعني: انتظروا ما يحلُّ بكم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤] سمَّاهم فاسقين خارجين عن طاعة الله ﷻ.

فلابد من الْموالاة فِي الله والْمعاداة فِي الله، فالذي عنده الناس سواء لَمْ يكفر بالطاغوت، إنَّمَا يكفر بالطاغوت مَنْ والىٰ فِي الله وعادىٰ فِي الله، وأحب فِي الله وأبغض فِي الله عَزَّوَجَلَّ.

وَهَذِهِ مِلَّةُ إِبرَاهِيمَ الَّتِي سِفِهَ نَفسَهُ مَن رَغِبَ عَنهَا.

الشَّرْح

الله -جل وعلا- بعث نبيه محمدًا ﷺ بمِلَّة إبراهيم، الَّتِي هي إفراد الله بالعبادة وتَرْك ما سواه، والبُغض فِي الله، والْحُبُّ فِي الله، مِلَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الْمُمتحنة: ٤]، هذه مِلَّة إبراهيم، معاداة أعداء الله، والبراءة منهم ومن دينهم، فمَنْ لَمْ يتبرأ منهم فإنه ليس علىٰ مِلَّة إبراهيم، بل إن إبراهيم تبرأ من أبيه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]، هذه مِلَّة إبراهيم: الْحُب فِي الله، والكُرْه فِي الله.

❊❊❊

وَهَذِهِ هِيَ الأُسوَةُ الَّتِي أَخبَرَ اللَّه بِهَا في قَولِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الْمُمتحنة: ٤].

الشَّرْح

الأسوة: معناها: القدوة، وأول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الْمُمتحنة: ١] إِلَىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الْمُمتحنة: ٤] هذا هو التوحيد، وهذه هي عبادة الله، وهذا هو الكُفْر بالطاغوت، ما يكفي أنك تقول: أنا أكفر بالطاغوت، ولكن لا تنفذ هذا فِي أفعالك ولا تعتقده بقلبك، فهذا لا يكفي.

وَالطَّاغُوتُ عَامٌّ: فَكُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللّه وَرَضِيَ بِالعِبَادَةِ مِن مَعبودٍ أَو مَتبُوعٍ أَو مُطَاعٍ في غَيرِ طَاعَةِ اللّه وَرَسُولهِ فَهُوَ طَاغُوت.

الشَّرْح

(فكلُّ ما عُبد من دون الله) ورضي بالعبادة، فإنه يُسمَّىٰ طاغوتًا من الطغيان، وهو الْخروج عن الْحَدِّ.

فالمعبود من الأصنام والأوثان والأشخاص إذا رضي بذلك، أو الْمتبوع فِي غير طاعة الله، الذين يتبعون الكفار ويتبعون أهل الضلال، هؤلاء لَمْ يكفروا بالطاغوت؛ لأن الواجب أن يتبعوا رسول الله ﷺ، فالذي يتبع أحدًا غير رسول الله ﷺ فإنه لَمْ يكفر بالطاغوت؛ لأن الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، ولا نتبع غيره -عليه الصلاة والسلام-، فالذين يُحرِّمون الْحَلال، ويُحلِّلون الْحَرام، هؤلاء يَجب أن نعصيهم ولا نطيعهم، ما نطيع إلا بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا يقول النَّبِي ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق فِي معصية الخالق**»، فلا يَجوز لنا أن نطيع مخلوقًا إلا فِي طاعة الله، إذا كان مطيعًا لله أطعناه، فإذا أمرنا بمعصية الله فإننا نعصيه ولا نوافقه.

❀❀❀

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَة، وَرُءُوسُهُم خَمسَة.

الشَّرْح

الطواغيت كثيرة: فكلُّ مَنْ خرج عن طاعة الله فهو طاغوت، وهذا لا حَصْر له، ولكن رءوس الطواغيت هم هؤلاء الْخَمسة.

❀❀❀

الأَوَّلُ: الشَّيطَانُ الدَّاعِي إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيرِ اللَّه.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠].

الشَّـرْح

(الأول: الشيطان)؛ لأن أصل الطواغيت هو الشيطان، ومثله طواغيت الإنس، شياطين الإنس الذين يحسِّنون للناس عبادة غير الله، ويُسمُّونها بأسماء خادعة، يسوغون للناس الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستغاثة بغير الله، ودعاء الْمَوتىٰ، ويسوغون هذا، ويُسمُّونه بأسماء يَخدعون الناس بها، هؤلاء طواغيت.

وعبادة الشيطان تكون بطاعته، فمَنْ أطاعه فقد عبده، علىٰ اختلاف أنواع هذه العبادة، منها ما يصل إِلَىٰ حدِّ الكُفْر والشِّرْك، ومنها ما هو دونها بحسب طاعة الشيطان، فكلُّ الْمَعاصي طاعة للشيطان وأشدُّها الشرك، ويساعده شياطين الإنس من علماء الضلال الذين يدعون الناس إِلَىٰ عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ، ويُسمُّونها بغير الشرك، يسمونها توسُّلًا، أو يُسمُّونها الْمَحبة للصالحين، أو بغير ذلك من أنواع الأسماء الخدَّاعة، فهؤلاء من أعوان الشيطان، الله أخبر أن الجنَّ لَهم شياطين، وأن الإنس لَهم شياطين، ﴿... شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. يساعدون علىٰ إضلال بني آدم، هذا هو النوع الأول من الطواغيت: الشيطان، ومَنْ سار فِي ركاب الشيطان، حَتَّىٰ ولو قال الإنسان: أنا ما أعبد الشيطان.

نقول: إذا أطعته، وانقدت له فقد عبدته، شئت أم أبيت، الذي لا يعبد الشيطان هو الذي يخالفه ويعصيه، هذا هو الذي لا يعبد الشيطان، لكن قد تكون عبادة الشيطان تصل إِلَىٰ الكُفْر الْمُخرِّج من المِلَّة، وتكون دون ذلك، ولكنها كلُّها طاعة للشيطان.

الثَّانِي: الحَاكِمُ الجَائِرُ المُغَيِّرُ لأَحكَامِ اللّه تَعَالَىٰ.

الشَّـرْح

الثاني: مَنْ حكم بغير ما أنزل الله، هذا يعمُّ كلَّ مَنْ حكم بغير ما أنزل الله بين الناس فِي الخصومات والْمنازعات، حكم بينهم بالقانون، أو بعوائد البدو والسلوم الَّتِي عليها البدو والقبائل، وأعرض عن كتاب الله، هذا هو الطاغوت، يحكمون بغير ما أنزل الله، ويدَّعون أن هذا من الإصلاح و التوفيق بين الناس، هذا كَذَبٌ، الإصلاح لا يكون إلا بكتاب الله، والتوفيق بين الناس والْمُؤمنين لا يكون إلا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء: ٦٢-٦٤]، لو أَنَّهم تابوا إِلَىٰ الله، (وجاءوك) هذا فِي حياة النَّبي ﷺ.

أما بعد موته فلا يُذهب إِلَىٰ قبره، الإنسان إذا أذنب يتوب إِلَىٰ الله ويستغفر فِي أيِّ مكان، والله غفور رحيم، ولا يَحتاج أن يذهب إِلَىٰ قبر الرسول كما يقول الْمُخرفون الآن، إن هذا يدل علىٰ أن الْمذنب يذهب عند القبر ويطلب من الرسول والْمسامحة ويستغفر عند القبر، هذا كَذَبٌ، الرسول ما أمر أنه يُستغفر عند قبره، ولا الصحابة كانوا يذهبون إِلَىٰ قبر الرسول ليستغفروا، كانوا يتوبون إِلَىٰ الله فِي أيِّ مكان، لا يَحتاج إِلَىٰ أنك تذهب إِلَىٰ قبره، ولكن هذا فِي حياة الرسول؛ لأَنَّهم أساءوا فِي حقِّ الرسول؛ حيث انصرفوا عن التحاكم إليه، فهذه إساءة فِي حقِّ الرسول ﷺ، فهم يذهبون ويعتذرون عند الرسول بعد التوبة إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فكان هذا فيه مخالفة لله، ومخالفة للرسول، فالمخالفة فِي حقِّ الله لَها الاستغفار، والْمُخالفة فِي حقِّ الرسول يذهبون إليه ويطلبون منه المسامحة والعفو عنهم؛ لأَنَّهم أخطئوا فِي حقِّه ﷺ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

الشَّرْح

هذا الدليل علىٰ أن مَنْ حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت فِي قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

فالطاغوت قيل: هو الشيطان، وقيل: هو كعب بن الأشرف اليهودي، وقيل: إنَّهم الكهان؛ لأن العرب عندهم لكلِّ قبيلة كاهن يَحكم بينهم.

❁❁❁

الثَّالِثُ: الَّذِي حَكَمَ بِغَيرِ مَا أَنْزَلَ اللّه.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

الشَّرْح

فالآية حكمت عليه بالكُفْر، وهذا إذا تعمد الحكم بغير ما أنزل الله، وجعل الْمَحاكم تَحكم بغير ما أنزل الله بقوانين وضعية، وألغىٰ الشريعة وقصرها علىٰ الأحوال الشخصية فقط، وأما الْمُنازعات بين الناس والْخُصومات فيحكَّم فيها القانون، هذا كافر.

ويُستثنى من ذلك:

أولًا: مَنْ حكم بغير ما أنزل الله بسبب اجتهاد وأخطأ فِي اجتهاده، وهو أَهْلٌ لاجتهاده، فهذا مأجور ومغفور له خَطَؤُه.

الثاني: مَن حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أنه مخالف، ولكن حكم به لهوًىٰ فِي نفسه أو لطمع فِي مال أو رشوة، وهو يعتقد أنه يَجب الْحُكم بِمَا أنزل الله، يعتقد هذا ويعتقد أنه مخالف فهو مذنب وعاصٍ، صاحب كبيرة.

الرَّابعُ: الَّذِي يَدَّعِي عِلمَ الغَيبِ مِن دُونِ اللَّه.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦].

الشَّرح

هؤلاء هم الكُهَّان فهم طواغيت، ولا يَجوز التحاكم إليهم، ولا يَجوز الذهاب إليهم وسؤالهم؛ لأن بعض الناس يذهب إليهم إذا ضاع له شيء، ويسألهم عن الذي ضاع له، ويسألهم مَنِ الذي سحره، أو يسألهم عن أهله إذا كانوا غائبين، ما حالتهم، أو عن أمواله الضائعة، فهذا يكفر إذا صدقهم؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ أتىٰ كاهنًا فصدَّقه بِمَا يقول فقد كفر بِمَا أُنْزلَ علىٰ مُحَمَّد**»، وإن كان لَم يُصدِّقهم فإن لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، فمجرد ذهابه إليهم معصية كبيرة، لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا عقوبة له علىٰ ذهابه إليهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٧].

الشَّرح

﴿**إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ**﴾ [الجن: ٢٧] سواءٌ كان رسولًا من الْملائكة أو من البشر، فإن الله قد يطلعه علىٰ شيء من الغيب لمصالح العباد، وليكون معجزة للرسول، ويكون مع الرسول رصد من الْمَلائكة.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

الشَّرح

عنده -جل وعلا- علم الغَيْب الخاصّ والعامّ؛ الخاصُّ مفاتح الغيب، هذه لا يعلمها أحدٌ لا ملَك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، هذا لا يدري عنه أحدٌ إلا الله -جل وعلا-، هذا فِي الغيب، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩] هذا العلم العامُّ.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، هذا عِلْم الله الشامل لكلِّ شيء، ومع عِلْمه بكلِّ شيء كتب هذه الأشياء فِي اللوح الْمَحفوظ، علمها أولًا، وأحاط بِهَا، ثُمَّ كتبها فِي اللوح الْمَحفوظ.

۞۞۞

الخَامِسُ: الَّذِي يُعبَدُ مِن دُونِ اللّه وَهُوَ رَاضٍ بِالعِبَادَةِ.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٩].

الشَّرح

بِهذا القيد (وهو راضٍ بالعبادة)، أما الذي يُعبد من دون الله وهو غير راضٍ فهذا لا يُسمَّىٰ طاغوتًا، يخرج بذلك الْمَلائكة والأنبياء والصالحون، أولياء الله الصالحون لا يدخلون فِي الطواغيت؛ لأنَّهم لَمْ يرضوا بِهَا، بل كانوا ينهون عنها فِي حياتهم، وإنَّما حصل هذا بعد موتهم وغَيْبتهم عن الناس.

وَاعلَم أَنَّ الإنسَانَ لا يَصِيرُ مُؤمنًا باللّه إِلّا بالكُفرِ بالطَّاغُوتِ.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة:٢٥٦].

الرُّشدُ: دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَالغَيُّ: دِينُ أَبِي جَهلٍ.

وَالعُروَةُ الوُثقَىٰ: شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ؛ وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلنَّفي وَالإِثبَاتِ.

تَنفِي جَمِيعَ أَنوَاعِ العِبَادَةِ عَن غَيرِ اللّه تَعالَىٰ، وَتُثبِتُ جَمِيعَ أَنوَاعِ العِبَادَةِ كُلِّهَا للّه وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ.

الشَّرح

والعُرْوة الوُثقى هي: لا إله إلا الله، تُسمَّىٰ العُرْوة الوُثقىٰ، وتُسمَّىٰ كلمة التقوىٰ، وتُسمَّىٰ كلمة الإخلاص.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ما هو الرُّشد؟ هو دين مُحَمَّد -عليه الصلاة والسلام-، ودِين كلِّ الأنبياء، هذا هو الرُّشد، والغيُّ: دين أَبِي جهل، ودين جميع الكفار، ولكن ذكر شهادة أن لا إله إلا الله، (هي الْمتضمنة للنفي والإثبات)، النفي فِي قوله: (لا إله)، والإثبات فِي قوله: (إلا الله).

(تنفي جميع أنواع العبادات عن غير الله تعالىٰ، وتثبت جميع أنواع العبادة فِي الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له) هذا معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، أنَّها تنفي العبادة عمَّا سوىٰ الله، وتُثبتها لله ﷻ؛ لأنها حقٌّ لله، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] فالعبادة حقٌّ لله، ليس لأحد فيها استحقاق، ليس من حقِّ أحد أن يَعبد غير الله -جل وعلا-.

وصلَّىٰ الله علىٰ نبينا مُحَمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الأسئلة

❑ سؤال: أثابكم الله، ما حكم مَنْ لديه قابلية لما يُسمَّى معاديل فِي الأمم الْمُتحدة؟

الجواب: الْحَمد لله، الله أغنىٰ المسلمين بالشرع، والْمحاكم موجودة ولله الْحَمد، ففي كلِّ مقاطعة، وفِي كلِّ محافظة، بل فِي كلِّ مدينة من الْمُدن محكمة شرعية، فالواجب التحكم إِلَىٰ شرع الله عَزَّوَجَلَّ وتَرْك التحاكُم إِلَىٰ أعراف القبائل وعادات القبائل؛ سواءٌ يُسمُّونها معاديل، أو غير معاديل ما يَجوز هذا.

والإصلاح بينهم بالعدل مع تراضيهم من غير إكراه، ومن غير إجبار إذا رضي الطرفان بالصُّلح، فالنبي ﷺ يقول: «**الصُّلح جائز بين المسلمين**»، الصلح عن تراضٍ وفيه عدل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، إذا كان الصلح عادلًا ما فيه هوًىٰ مع أحد وفيه تراضٍ بين الطرفين لا بأس بذلك، أما إنهم يلزمون بهذه الأحكام الجاهلية، يُلزمون بها ويتحاكمون إليها - هذا هو الطاغوت.

❑ سؤال: أثابكم الله، هل يَجب بُغْض أهل الكبائر وأن كانوا من الأقارب؟

الجواب: قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [الْمُجادلة: ٢٢]، هل هناك أقرب من الأب؟ ومن الأب والابن، إذا كان عدوًّا لله تبرأْ منه، ولو كان أباك.

❑ سؤال: أثابكم الله، هل قول البعض: الْحَمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه، صحيح؟

الجواب: لا أعرف لهذا أصلًا، ولكن يقول: الْحَمد لله علىٰ كل حال، أما لا يُحمد علىٰ مكروه سواه، أنا ما أعلم لهذا أصلًا، وإن كان جاريًا علىٰ ألسنة بعض الناس.

☐ سؤال: ما هم الصوفية؟ وهل هم موجودون الآن؟

الجواب: أصل الصوفية العُباد الذين اجتهدوا فِي العبادة والزهد، فأصلهم الزُّهاد الذين يَجتهدون فِي العبادة والزُّهد والتخلي عن الدنيا، هذا فِي أول الأمر، وكانوا فِي أول الأمر علىٰ استقامة، ولكن عملهم هذا وانقطاعهم الانقطاع الشديد هذا ليس بِمحمود، من البداية ليس بِمحمود من كلِّ وَجْه، ولكن ما كان عندهم شِرْك، ولا كان عندهم غلوٌّ، ولكن فيما بعد تطور التصوف إِلَىٰ أن دخله الشِّرْك، ودخله الكفر، وصاروا يعتقدون أن العارف بالله، الذي عرف الله أنه وصل إِلَىٰ الله، وليس بِحاجة إِلَىٰ اتباع الرسول ﷺ، وأنه يأخذ عن الله مباشرة، ويأمرهم وينهاهم ويطيعونه.

ويقولون: المريد مع شيخه مثل الميِّت مع غاسله، لا يعترض عليه بشيء، يَقبل منه أي شيء يأمره به، تطور التصوف إِلَىٰ هذا الْحَدِّ، وهذا بلا شَكٍّ أنه كُفْر -والعياذ بالله-، بل تطور إِلَىٰ القول بوحدة الوجود، بأن الكون كلَّه هو لله، وأنه ليس فيه انقسام وأن الذي يقول: الكون فِيه خالق ومخلوق مشركين، والتوحيد معناه: أنك تعتقد أن الكون كلَّه هو الله، وأن كلَّ مَنْ عَبَدَ شيئًا، فهو قد عبد الله، الذين يعبدون الأصنام، والذين يعبدون الأشجار والأحجار كلُّهم يعبدون الله؛ لأنَّهم يعبدون شيئًا من هذا الكون، هذا تطور إليه منهج التصوف -والعياذ بالله- عند ابن عربي والْحلَّاج والتلمساني وابن سبعين، وغيرهم من طُغَاتهم، وصل بِهم الْحدُّ إِلَىٰ هذا الكُفْر الشنيع.

والصوفية الآن أغلب عباداتهم بِدَعٌ ما فيها شيء مشروع، يتمشون علىٰ البدع، وما يأمرهم به ساداتهم، فإنهم يفعلونه، لا يقولون: الواجب أننا نتبع الرسول ﷺ، يقولون: الرسول للعوامِّ، أما نَحن نتبع الخواصَّ، ومنهم مَنْ يقول: إنه إذا وصل إِلَىٰ حدٍّ من الْمعرفة فليس عليه تكاليف، لا عليه صلاة ولا صوم ولا حجّ؛ لأنه وصل ولا يَحرم عليه شيءٌ، لا يَحرم عليه زنا، ولا لواط؛ لأنه زال عنه التكليف وقد وصل إِلَىٰ الله، فهل بعد هذا الكُفْر كُفْر -والعياذ بالله-، هذا منتهىٰ الكُفْر، وأن مشايخهم يتصرفون فِي الكون، مشايخ الطرق يتصرفون فِي الكون، يَحيون ويُميتون ويُعطون ويُمنعون، هذا التصوف

وهذا ما آل إليه، وهكذا الضلال يبدأ أول شيء بِهذا الشكل وبنِيةٍ حسنة، ثُمَّ يتطور إِلَىٰ أن يخرج إِلَىٰ النهاية القبيحة، فزُهْدهم لما كان مخالفًا لطريقة الرسول ﷺ تطور إِلَىٰ هذا الحدِّ، أما الذين تمسكوا بِمَا جاء به الرسول ﷺ فِي عباداتهم، الْحَمد لله ما تغير منهم شيء، ولا حصل منهم مخالفة؛ لأَنَّهم يسيرون علىٰ الطريق الصحيح، أما الذي يسير علىٰ البدع والْمُحدثات، هذه نهايته -والعياذ بالله.

❑ سؤال: أثابكم الله، وما هو الفرق بين من غَير حُكْم الله والذي يَحكم بغير ما أنزل الله؟

الجواب: كله سواء، ولكن هذا من باب التشنيع عليه؛ لأنه إذا حكم بغير ما أنزل الله فقد غيَّر حكم الله، وإذا حكم بغير ما أنزل الله فهو جائز؛ لأن العدل فِي حُكْم الله، والجَوْر فِي غير حكم الله ﷻ.

❑ سؤال: أثابكم الله، إذا اهتمَّ المسلم بالأركان والأذكار وابتعد عن الفواحش ووسائل الشرك، ولكن ابتلي بالتهاون بالنظر إِلَى الْمُحرمات وسماع الأغاني؟

الجواب: هذه كبائر، النظر إِلَىٰ ما حرَّم الله واستماع ما حرم الله يُعدُّ من الكبائر، فعليه التوبة إِلَىٰ الله، ولكن ما يخرجه ذلك من الدِّين ولكن يعتبر عاصيًا وصاحب كبيرة، ولكن إذا تاب إِلَىٰ الله تاب الله عليه.

❑ سؤال: سؤال مَنْ عبد الله من اليمن، يقول: «إن التمائم والتِّوَلَة شِرْك»، هذا حديث، ما هي التمائم وما هي التِّوَلة، جزاكم الله خيرًا؟

الجواب: قال ﷺ: **«إن الرُّقىٰ والتمائم والتولة شِرْك»**، والرقىٰ: المراد بها: رُقَىٰ الجاهلية التي فيها دعاء لغير الله ﷷ، واستغاثة بالجنِّ والشياطين وغير ذلك، هذه شِرْك مُحرَّمة؛ لأن فيها دعاء لغير الله، أما الرُّقىٰ التي من القرآن، أو من الأدعية الشرعية فهذه لا بأس بها.

والتمائم: ما يُعلق، التمائم كلُّ ما يُعلق علىٰ الأبدان، أو علىٰ الْمحلات أو علىٰ السيارات لاتقاء العين بزعمهم، فيعلقونها علىٰ أبدانهم، أو علىٰ ممتلكاتهم يتقون بِهَا

العين بزعمهم، فهذا منهيٌّ عنه؛ لأنه شِرْك، كما قال ﷺ: «**إن الرُّقىٰ والتمائم والتِّولة شِرْك**»؛ لأن فيه اعتمادًا علىٰ غير الله ﷻ فِي رَفْع البلاء أو دفعه، فهو شِرْك كما سمَّاه النبي ﷺ.

والتِّولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يُحبِّب المرأة إلىٰ زوجها، أو الزوج إلىٰ امرأته، وهذا من عمل السَّحَرة، كما قال ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ لا يعني من السحرة ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] هذه هي التِّوَلة.

الرسالة السابعة

ستة مواضيع من السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمد لله رب العالمين، وصلَّىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعفا عنه آمين:

تأمّل -رحمك الله- ستة مواضع من السّيرة، وافهمها فهمًا حسنًا.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تأمل -رحمك الله- ستة مواضع من السيرة، وافهمها فهمًا حسنًا): السيرة: المراد بِهَا: سيرةُ الرسول ﷺ، وهي الطريق الَّتِي كان يسير عليها الرسول ﷺ منذ بعثته إِلَىٰ أن توفاه الله عَزَّوَجَلَّ فِي العبادة، وفِي المعاملات، وفِي الدعوة إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وفِي الجهاد، والهجرة، وفِي التعليم، فكلُّ أفعاله وأقواله وتصرفاته ﷺ هي سيرته -عليه الصلاة والسلام-، وهذا أمر مهمٌّ أن المسلم يدرس سيرةَ الرسول ﷺ من أجل أن يقتدي به؛ لأن الله -جل وعلا- قد جعله قدوة لنا.

قال تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فهو قدوتنا -عليه الصلاة والسلام-، فلندرس سيرته من أجل أن نقتدي به فِي ذلك، وهذا هو المطلوب من دراسة السيرة والتفقُّه فيها، ليس المقصود أن السيرة تُقرأ فِي مناسبة مبتدَعة مثل مناسبة الْمولد، فإن هذه القراءة لا تسمن ولا تُغني من جوع؛ لأنها ليست للتفقُّه فيها.

وإِنَّما هي للتبرُّك جريًا علىٰ العادة فقط، فلا تفيد شيئًا؛ لأن تخصيصها بوقت معين،

ثُمَّ تُطوىٰ، هذا الأمر لا ينفع ولا يفيد، والسيرة مطلوبٌ دراستُها دائمًا، ولا نقصد بالدراسة مُجرد أننا نقرأها من أوَّلها إِلَىٰ آخرها، ونقول: قرأنا السيرة، لا لابد أن نتفقَّه فيها ونقتدي بالرسول ﷺ فِي أفعاله وأقواله، هذا هو المقصود.

وقد كتب الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا عظيمًا فِي فقه السيرة وهو: «زاد المعاد فِي هَدْي خير العباد» وكتب بعض المعاصرين كتابات منها ما هو صحيح، ومنها ما هو سيئ، ومنهم من انحرف وجاء بالشِّركيات، وحثَّ علىٰ التبرُّك بالآثار، وجعل هذا هو الْمَقصود من قراءة السيرة، ولكن هذا لا عِبْرة به؛ لأن كلًّا ينفق مِمَّا عنده، الذي عنده شيء جيد يُنفق شيئًا جيدًا، والذي عنده شيء رديء ينفق رديئًا.

والْحَمد لله، نسأل الله أن يهدينا وإياكم، ويهدي هؤلاء إِلَىٰ سواء السبيل، وأن يرُدَّهم إِلَىٰ الحقِّ، ونحن لا نتندر بِهم؛ لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولكن نسأل الله العافية، نسأل الله أن يهديهم وأن يرُدَّهم إِلَىٰ الصواب.

فالْمَقصود من دراسة سيرة الرسول ﷺ هو: الاعتبار والعمل، والاقتداء بالرسول ﷺ، وأَخْذ الأحكام منها، هذا هو الْمَطلوب؛ لأن حياته ﷺ كلُّها خير، وكلُّها عِلْم، وكلُّها عمل صالح، كلها جهاد وكلها دعوة وكلها تعليم.

حياته ﷺ فائضة بالخير العظيم من جميع النواحي، كلها عبادة.

فعلينا أن نعتني بسيرته ﷺ والشيخ أخذ منها ستة مواضع مهمة والبقية موجودة فِي سيرته ﷺ، لكن هذه المواضع تتعلَّق بالعقيدة.

لعلَّ الله أن يفهمك دين الأنبياء لتتبّعه، ودين المشركين لتتركه.

الشَّرْح

هذا الْمَقصود من دراسة السيرة، أنك تفهم دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، تفهم التوحيد لتتبعه، وتفهم الشِّرْك من أجل أن تجتنبه، فلا يكفي أن الإنسان يعرف الحقَّ فقط بل لابد أن يعرف الحقَّ ويعرف الباطل، يعرف الحقَّ من أجل أن يعمل به، ويعرف الباطل من أجل أن يتجنبه؛ لأنه إذا لَمْ يعرف الباطل وقع فيه وهو لا يدري.

فأنت عندما تسير فِي طريق وأنت لا تعرف هذا الطريق، وفيه حُفر وفيه مهالك، ربما تهلك وأنت لا تدري، تقع فِي الحُفَر وأنت ما دريت، لكنك إذا درست الطريق، فعرفت ما فيه من المسالك، وما فيه من الأخطار، فإنك تكون علىٰ بينة، تتجنب المهالك الَّتِي فِي الطريق.

هذا فِي الأمور الحسية، كذلك فِي الأمور العقدية من باب أولىٰ، فلابد أن تعرف الباطل، تعرف الشِّرْك، وما هو أنواعه وما هي أسبابه، وما هي الوسائل الَّتِي توصل إليه حَتَّىٰ تتجنبها. يقول الشاعر:

عرفت الشرَّ لا للشر لكن لتوقِّيه ... ومَنْ لَا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيه

حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل يقول: كان الناس يسألون النَّبِي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن أقع فيه[1].

فلابد من معرفة الخير ومعرفة الشرِّ، والبعض اليوم يقول: تعرف الحقَّ، وليس من الضروري أن تعرف ما يُضادُّه.

وهذا باطل؛ لأنَّك إذا لَمْ تعرف الباطل يظلُّ خافيًا فتضلَّ عن الحقِّ، لاسيما ودُعاة السُّوء ودعاة الضلال علىٰ استعداد لإضلال الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) و(٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧) (٥١)، وأحمد (٢٣٢٨٢)، وابن ماجه (٣٩٧٩).

فإنّ أكثر من يدّعي الدّين ويدّعي أنّه من الموحّدين لا يفهم السّنة كما ينبغي.

الشَّرح

المشركون يتقرَّبون إِلَىٰ الله بالشرك يظنون أنه خير؛ لأنَّهم لا يعرفون الشِّرْك، فصاروا يتقرَّبون به إِلَىٰ الله!!

فهم يذبحون للأولياء والصالحين، ويتبرَّكون بقبورهم ويستغيثون بِهم.

يقولون: نَحن نعلم أنَّهم ليس لَهم من الأمر شيء، وأنهم لا ينفعون ولا يضرُّون، لكن هم صالحون، نريد منهم أن يتوسطوا لنا عند الله سبحانه، كما قال الله عن أسلافهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هم يعترفون أنَّهم لا يضرُّونهم ولا ينفعونهم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. اتخذوهم شفعاء فقط، وفِي الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧]، لَمْ يتعلَّموا، فهم يَحسبون أن هذا خير.

وهذا هو واقع غالب الناس اليوم، الكثير من المنتسبين إِلَىٰ الإسلام هذا واقعهم، يتقرَّبون إِلَىٰ الله بالشرك، مثل ما تقرَّب المشركون الأوَّلون، يذبحون للقبور وينذرون لَها، ويطوفون بِهَا ويتبرَّكون بِهَا.

ويقولون: ما عَبَدْنا غير الله، لكن هؤلاء رجال صالحون، ونَحن قصدنا أنَّهم يتوسطون لنا عند الله فقط.

والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ما أرادوا الشِّرْك ولا قصدوه، وإنَّما ظنوا أنَّهم يُؤدُّون عبادة وقُرْبة إِلَىٰ الله سبحانه، يُقرِّبونهم إِلَىٰ الله زُلْفىٰ، انظر كيف يأتي الشيطان إِلَىٰ بني آدم، وكيف يأتي شياطين الإنس إِلَىٰ بني آدم وَيُزَيِّنون هذه الأمور.

نقول لَهم: أنتم ما تعبدون أصنامًا، أنتم تتوسطون بالناس الصالحين بينكم وبين الله.

والله -جلَّ وعلا- اعتبر هذا شِرْكًا، فقال: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ ﴾ جعله عبادة، ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ ﴾ [يونس: ١٨] نزَّه نفسه عن ذلك، فقال: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: ١٨] فسمَّاه شِرْكًا.

وهم لا يُسمُّونه شِرْكًا، يُسمُّونه طلب الشفاعة، فيجب التنبُّه لهذا.

أنت درستَ فِي العقيدة أن الشرك حرام، وأنه أكبر الكبائر، وأنه لا يُغفر، لكنَّ فَهْم الشِّرْك أين هو؟ لابد أن تعرف من أعمال الناس وتطبيقاتهم ما هو شِرْك وما هو توحيد.

هم يقولون: هذا من التوسُّل بالأولياء والصالحين، وهذا هو التوحيد، وهذا يحبُّه الله، وأن هؤلاء عباده، وأنهم صالحون، والله يَحب هذا. فيتقرَّبون إِلَىٰ الله بهؤلاء، يُسمُّونه الدِّين ويُسمُّونه التوحيد، يُسمُّون الشرك توحيدًا لجهلهم، وعمىٰ بصائرهم.

الموضع الأوّل: قصّة نزول الوحي، وفيها أنّ أوّل آية أرسله الله بها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢] إلىٰ قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٧].

الشَّرْح

الموضع الأول: قصة نزول الوحي أي: بدء الوحي علىٰ الرسول ﷺ. كان ﷺ قبل البعثة مخالفًا لما عليه المشركون، لَمْ يعبد الأصنام، وكان مخالفًا لما عليه قومه، فكان يذهب إِلَىٰ غار جبل حرَّاء، وهو غار فِي أعلىٰ الجبل مُواجَهٌ للكعبة، فكان يَجلس فيه الأيام والأشهر يعبد الله عَزَّوَجَلَّ ويعتزل عن الناس، يعبد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ دين إبراهيم، علىٰ الحنيفية دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، جاءه مَلَك وهو فِي الغار.

فقال له: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»؛ لأنه ما كان يقرأ -عليه الصلاة والسلام-، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، كان أمِّيًّا -عليه الصلاة والسلام- لا يقرأ ولا يكتب.

والملك يقول له: اقرأ. وهو يقول: «**لست بقارئ**» يعني: لا أُحسن القراءة. ثم يضمُّه ضمَّة شديدة، ثم يرسله ويقول له: اقرأ. فيقول: «**ما أنا بقارئ**»، ثم يضمُّه ضمَّة شديدة، ثم يرسله ويقول له: اقرأ. فيقول: «**ما أنا بقارئ**»: أي: ما أُحسن القراءة، ثُمَّ فِي النهاية قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، فحفظها النَّبِي ﷺ، وهذا أول ما نزل عليه من الوحي، وصار بذلك نبيًّا نبأه الله بـ: اقرأ.

ثُمَّ ذهب إِلَىٰ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم الْمُؤمنين، وذكر لَها ما حصل له، وكان خائفًا ترعد فرائصه مِمَّا رأىٰ من هَوْل الموقف، ومجيء الملك إليه فِي هذا المكان، وقال لَها: «**لقد خَشيتُ علىٰ نفسي**».

فقالت: كلا والله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتُقْري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب الْمُعدم -أو الْمُعدوم- استدلت بصفاته ﷺ الطيبة علىٰ أن الله لا يوقع

به ما يخشاه «لا يُخزيك الله أبدًا»[(١)]؛ لأن صفاته صفات حميدة، وهذا من فِقْهها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي أول من طمأن الرسول ﷺ وناصره وآنسه من هذه الوحشة، وهذا موقف عظيم منها، ثُمَّ قال: «دثِّروني» أي: غطّوني، وغطَّته، وبينما هو كذلك جاءه الملك، فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ فصار بذلك رسولًا؛ لأنه بهذا أُمر بالتَّبليغ، وفي الأول لَم يؤمر بالتبليغ، قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ لَم يُؤمر بالتبليغ، صار نبيًّا بذلك، ثم جاءته الرسالة وهي أنه أُمر بالتبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥].

الرجز: الأصنام، هذا محَلُّ الشاهد: وهَجْرها: تركها والابتعاد عنها ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ لابد من الصبر؛ لأن المهمة ثقيلة جدًّا وطويلة وتحتاج إلىٰ صبر، هذا أول ما بعث الله به رسوله ﷺ، بالنهي عن الشرك، أو شيء أمره بأن ينهىٰ عن الشرك ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أنذر عماذا؟ أنذر الناس عن الشرك وعبادة الأصنام أنذرهم عنها.

أول شيء أنه أُمر بالإنذار، وأُمر بهَجْر الأصنام وتَرْكها، مما يدلُّ علىٰ خطورة الشِّرْك.

(١) أخرجه البخاري (٣) و(٣٣٩٢) و(٤٩٥٣) و(٤٩٥٥) و(٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإذا فهمت أنّهم يفعلون أشياء كثيرة، يعرفون أنّها من الظلم والعدوان مثل الزّنا.

الشَّرح

هؤلاء أهل الجاهلية كانوا يمارسون القبائح؛ الزنا والرِّبا والكبائر.

وعرفت أيضًا أنّهم يفعلون شيئًا من العبادة يتقرّبون بها إلىٰ الله مثل الحجّ والعمرة، والصّدقة علىٰ المساكين والإحسان إليهم، وغير ذلك.

الشَّرح

ومع هذا عندهم بقايا من دِين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-؛ كانوا يحجُّون ويعتمرون، وكانوا يتصدَّقون علىٰ الْمُحتاجين، هذه الأفعال طيبة، لكن ليس معها توحيد.

والعمل وإن كان عملًا طيبًا، إذا لَم يكن معه توحيد، فإنه لا يفيد صاحبه.

ويعملون أعمالًا سيئة إِلَىٰ جانب هذه الأعمال الطيبة، يعملون أعمالًا سيئة أعظمها الشرك، يفعلون الزنا ويأكلون الرِّبا ويأكلون الميسر، وهذه كبائر، لكن أعظمها الشِّرْك، من عبادة الأصنام وغيرها.

ويتقرَّبون بها إِلَىٰ الله، يتقرَّبون بهذا الشرك إِلَىٰ الله من جَهْلهم، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، انظر كيف يفعل الجهل بأصحابه، يَجعل الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا، يَجعلون الشرك توحيدًا وتقرُّبًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يُعطيك وجوب الاهتمام بأمر العقيدة وأمر التوحيد، والفِقْه فِي ذلك.

وأجلّها عندهم الشّرك، فهو أجلّ ما يتقرّبون به إلىٰ الله عندهم، كما ذكر الله عنهم أنّهم قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الشَّرح

اعترفوا أنهم يعبدونهم؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ لكن يقولون: ما قصدنا بهذه العبادة إلا أنهم يُقرِّبونا إلَىٰ الله، ويظنون أن هذا عمل طيب؛ لأنه تعظيم لله وإجلال لله؛ حيث إنهم يُقرِّبوننا إليه؛ لأننا لا نصل إليه إلا بعبادتهم، فهم يُقرِّبونا إلىٰ الله؛ لأنهم صالحون، وهم يعنون الملائكة، ويعنون الأنبياء مثل: عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يتخذونهم وسائط بينهم وبين الله؛ ليقربوهم إلَىٰ الله زُلْفىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

الشَّرح

كيف اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وهم يتقربون بالصالحين، بعيسىٰ وبعزير، وبالملائكة؟ نعم اتخذوا الشياطين؛ لأن هؤلاء الصالحين لا يرضون بذلك، ولَم يأمروهم بذلك، وإنما الذي أمرهم بهذا الشياطين، هي التي أمرتهم بعبادة المسيح وعبادة الملائكة وعزير، وغيرهم من الأنبياء والصالحين، فهم يعبدون الشياطين فِي الحقيقة؛ حيث أطاعوهم فِي عبادة هؤلاء ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾، يَحسبون أن هذا هو الهدىٰ، وأنه طريق خير وطريق صلاح، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فالملائكة تبرؤوا منهم وأخبروا أنَّهم ما أمروهم بِهذا، وإنَّما الذي أمرهم بِهذا هم الشياطين من الجن والإنس، فصارت عبادتهم للشياطين الذين أمروهم.

فبرَّأ الله عباده الصالحين من أن يأمروهم بذلك. ومع هذا يَحسبون أنَّهم مهتدون، فدلَّ علىٰ أنه ليس العِبْرة أن يكون الإنسان حسن النية، أو كونه ما قصد الشَّرَّ، ليس العِبْرة بِهذا، العِبْرة بالاتباع للرسل ومَنْ سار علىٰ نَهْجهم، وحسنُ النية مع قُبْح الفِعْل لا ينفع، فلم يكن هذا عُذْرًا لَهم؛ لأن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لإنكار ذلك.

فأوّل ما أمره الله به الإنذار عنه، قبل الإنذار عن الزّنا والسّرقة، وغيرهما.

الشَّـرح

أول ما أُمر الرسول ﷺ به بالإنذار عن الشِّرك؛ حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: ٥]، وذلك قبل أن يُؤمر بالإنذار عن الزنا وشُرْب الخمر وأكل الرِّبا، إنَّمَا هذه نُهي عنها فيما بعد، ولكن أول ما أُمر به: تَرْك الشرك.

لم يقل: حذَّرهم من الكبائر ومن الزنا، ومن الرِّبا، ومن الخبائث الَّتِي كانوا يعملونها، بل أو ما أمره بالنهي عن الشرك.

وأول ما أُمروا به التوحيد قبل أن يُؤمروا بالصلاة والزكاة والصيام والحجِّ؛ لأن التوحيد هو الأساس، ولا فائدة فِي الصلاة والحجِّ والصيام والأعمال الصالحة مع عدم وجود التوحيد.

وعرفت أنّ منهم من تعلّق علىٰ الأصنام، ومنهم من تعلّق علىٰ الملائكة، وعلىٰ الأولياء من بني آدم.

الشَّـرح

كانوا فِي الجاهلية متشتتين فِي عباداتهم ومعبوداتهم، منهم يعبد الملائكة، ومنهم مَنْ يعبد الصالحين، ومنهم مَنْ يعبد الأشجار والأحجار، والنبيُّ ﷺ لَمْ يُفرِّق بينهم، بل نهاهم جميعًا وقاتلهم جميعًا، لَمْ يُفرِّق بين مَنْ عبد الملائكة والصالحين، ومَنْ عبد الأصنام؛ لأن الكُلَّ سواء؛ لأنه لا فَرْق بين مَنْ يعبد صنمًا، ومَنْ يعبد وليًّا، أو عبدًا صالحًا.

ويقولون: ما نريد منهم إلا شفاعتهم.

الشَّرْح

يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. هذا قصدهم، تقربوا إِلَىٰ الله بعبادتهم هؤلاء، ما قصدهم الشرك، وإذا كانت الأفعال شِرْكًا وكُفْرًا، فلا يُنظر إِلَىٰ المقاصد هل هي حسنة أو ليست حسنة.

ومع هذا بدأ بالإنذار عنه في أوّل آية أرسله الله بها، فإن أحكمت هذه المسألة فيا بشراك.

الشَّرْح

أي: إذا فهمت هذه الْمَسألة، أن أول ما يُؤمر به التوحيد، وأول ما يُنهىٰ عنه الشرك، فإنه لا فائدة فِي صلاح باقي الأمور مع فساد العقيدة، هذه مسألة عظيمة، ومَطْلب عظيم يَجهله كثير مِمَّن ينتسبون إِلَىٰ الإسلام اليوم.

فإذا فهمته فيا بُشْراك بالعِلْم النافع.

خصوصًا إذا عرفت أنّ ما بعدها أعظم من الصّلوات الخمس.

الشَّرْح

أي: ليس بعد هذه المسألة الَّتِي هي التوحيد أعظم من الصلوات الخمس؛ لأنها الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، ومع هذا لَمْ يأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالصلوات الخمس إلا قُبيل الهجرة، فالرسول ﷺ مكث فِي مكة ثلاث عشرة سنة لَمْ يؤمر بالصلاة.

وإنَّما أُمر بالصلاة قُبيل الهجرة فِي ليلة الْمعراج، فلماذا تأخَّر الأمر بالصلاة؟ من أجل أن يتأسس التوحيد؛ لأنَّهم لو صلَّوا ما نفعتهم صلاتهم إلا مع التوحيد.

ولم تفرض إلَّا في ليلة الإسراء سنة عشر بعد حصار الشّعب وموت أبي طالب، وبعد هجرة الحبشة بسنتين.

الشَّرح

إنَّمَا فُرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج فِي السنة العاشرة من البعثة، وقصة الحصار أن الرسول ﷺ كان يدعو إِلَىٰ التوحيد وينهىٰ عن الشرك، وكان المشركون يضايقونه ويضايقون أصحابه، وكان عمُّه أبو طالب يدافع عنه ويحميه من أذىٰ قومه، سخَّره الله له مع أنه مشرك، لكن الله -جل وعلا- سخَّره لنبيه يحميه ويدافع عنه.

فلما مات أبو طالب وماتت زوجة النَّبِي ﷺ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهما اللذان يدافعان عنه، تسلَّط الكفار عليه زيادة، وضيَّقوا عليه الخِنَاق هو وأصحابه، وكانوا من قبل قد حاصروهم فِي الشِّعْب، فِي شِعْب من شعاب مكَّةَ، وقاطعوهم، منعوا عنهم الأرزاق والبضائع، ومنعوا التزوج منهم، حاصروهم فِي هذا الشِّعْب حَتَّىٰ آلمهم الجوع.

وكتبوا بذلك صحيفة وقَّعوا عليها وعلَّقوها فِي الكعبة لمقاطعة مُحَمَّد ومَنْ معه؛ ولما مات الذي كان يدافع عنه، فسنحت لَهم الفرصة، فاشتدَّ أذاهم له ومَنْ معه، ومع هذا ما أُمر بالصلاة من بعثته إِلَىٰ هذه الفترة؛ لأن المقام مقام تصحيح عقيدة قبل كل شيء.

ولما اشتدَّ أذاهم علىٰ الرسول ﷺ وضايقوه، أمر مَنْ معه من ضَعَفَة الصحابة، مِمَّن ليس لَهم مَنْ يدافع عنهم، أمرهم بالهجرة إِلَىٰ الحبشة؛ لأن فيها مَلكًا -وهو النجاشيُّ- لا يُظلم أحد عنده، وهو نصرانيٌّ إذ ذاك، لكن لا يُظلم أحد فِي أرضه، هذه هي الهجرة الأولىٰ، وفيهم عثمان وفيهم من أكابر الصحابة، وذلك لأجل الفرار بدينهم، وكان هذا سببًا لإسلام النجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ، حين سمع القرآن وسمع من الصحابة وهداه الله للإسلام فأسلم، وأرسلت قريش إِلَىٰ النجاشي بهدايا ومغريات.

يقولون: هؤلاء مارقون شاردون منا رُدُّهم علينا. فأبىٰ أن يردَّهُم عليهم. فكذَّب الله ظنَّ المشركين وعادت رُسلُهم خائبين، واستمرَّ النجاشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حماية المسلمين عنده إِلَىٰ أن قيَّض الله الفَرَج.

فإذا عرفت أنّ تلك الأمور الكثيرة والعداوة البالغة، كلّ ذلك عند هذه المسألة قبل فرض الصّلاة، رجوت أن تعرف المسألة.

الشَّرْح

إذا عرفت هذه المسألة، وهي مسألة أنَّهم ما عادوا رسول الله ﷺ وضايقوه وحاصروه هو وأصحابه إلا من أجل الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وإلا لو سالمهم وعَبَدَ ربَّه هو ومَنْ يتبعه وتركهم، ما قالوا له شيئًا، بل كانوا سيفرحون بِهذا.

وهذه دعوة أهل الكُفْر اليوم يقولون: دعونا نتعايش ودعونا نتهاود، ولا تقولوا شيئًا فِي ديننا، ونَحن لا نقول شيئًا فِي دينكم، وهم يكذبون؛ لأنَّهم يُحاربون الإسلام.

وهم يقولون: أنتم لا تقولوا فِي ديننا شيئًا ونحن لا نقول فِي دِينكم شيئًا، وهم يحاربون الإسلام علىٰ أقصىٰ ما يمكن، ويقتلون المسلمين ويُشرِّدونهم وهم يقولون: دعونا نتحاور ونتهاود.

ولو أنه ﷺ ما دعا إِلَىٰ التوحيد ولا نهىٰ عن الشِّرْك، ما ثارت ثائرتهم.

الموضع الثّاني: أنّه ﷺ لمّا قام ينذرهم عن الشّرك ويأمرهم بضدّه وهو التّوحيد.

الشَّرْح

لو كان يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشِّرْك عمومًا ولَم يتعرَّض لما هم عليه.

وهم يقولون: الذين نَحن عليه ليس بشِرْك، الذي نحن عليه تقرُّب إِلَىٰ الله بالأولياء والصالحين، ونحن لا نشرك بالله إِنَّمَا هذا تقرُّب إِلَىٰ الله وتوسُّل إليه.

ولو أن الرسول اقتصر علىٰ النَّهْي عن الشِّرْك دون تفصيل وبيان، لما اعترضوا عليه؛ لأنَّهم يرون أنَّهم غير مشركين.

لم يكرهوا ذلك واستحسنوه وحدّثوا أنفسهم بالدّخول فيه، إلىٰ أن صرّح بسبّ دينهم وتجهيل علمائهم، فحينئذٍ شمّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة.

الشَّرْح

أي: لأنَّهم يفسرون الذي هم عليه أنه ليس بشِرْك، لكن عندما تقول لَهم: هذه الأضرحة وهذه القبور الَّتِي تعبدونها وتنذُرون لَها وتذبحون لَها، عملكم هذا هو الشِّرْك، عند ذلك تثور ثائرتهم، هذا هو الذي فعله الرسول ﷺ، نهاهم عن عبادة اللات والعُزَّىٰ ومَناة والأصنام، وقال لَهم: لستم علىٰ شيء، وهؤلاء الذين يدعونكم إليها هؤلاء علماء ضُلَّال، فحينما قال لَهم ذلك ثارت ثائرتهم حَمِّيةً لدِينهم، وهذا هو الذي عليه غالب العالَم اليوم.

وقالوا: سفّه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا.

الشَّرْح

لو أنه ما شتم آلهتهم ولا عاب دِينهم ما قالوا له شيئًا، فلو اقتصر علىٰ قوله: الشِّرْك قبيح والتوحيد طيِّب، ولا عاب آلهتهم ولا سبَّ دينهم، لما عارضوه.

ومعلوم أنّه ﷺ لم يشتم عيسىٰ وأمه، ولا الملائكة ولا الصّالحين.

الشَّرْح

الرسول ﷺ ما سبَّ الصالحين، وإنَّما سبَّ عبادةَ غير الله عَزَّوَجَلَّ، وبيَّن أن أنبياء الله وعبادَه الصالحين والملائكة لا يرضون أن يُعْبَدوا من دون الله.

لكن لمّا ذكر أنّهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرّون جعلوا ذلك شتمًا.

الشَّرْح

لما قال: إن عيسىٰ لا ينفع ولا يضر، وإن الملائكة لا تنفع ولا تضر، وإن الصالحين لا ينفعون ولا يضرُّون، عدُّوا ذلك تنقصًا للصالحين، ويقولون لأهل التوحيد: أنتم لا تبنون علىٰ أضرحتهم. وهذا من حقِّهم علينا.

يقولون: حقًّا علينا إكرامهم والبناء علىٰ قبورهم، هذا من حقِّهم علينا، وهذا من تقديرهم، وعندما نتوسَّل بِهم إِلَىٰ الله، هذا من تقديرهم وتعظيمهم.

وأنتم تقولون: هذا باطل ويعتبرون هذا شتمًا وسبًّا لَهم. هذا الذي يُفسِّرُون به أعمالهم، وهذا موجود الآن علىٰ ألسنتهم وفِي كتبهم.

فإذا عرفت هذا عرفت أنّ الإنسان لا يستقيم له إسلام -ولو وحّد الله وترك الشّرك- إلّا بعداوة المشركين، والتّصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ....﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

الشَّرح

هناك مَنْ ينتسبون للدعوة والعِلْم ولا يرضون بمعاداة الكفار، ويقولون: إنَّمَا أُمرنا بعداوة الْمُحاربين فقط.

يقولون: نُعاديهم؛ لأنَّهم حاربونا؛ لأنَّهم أخذوا أوطاننا، أما أن نعاديهم من أجل دينهم فلا نعاديهم.

والله -جلَّ وعلا- قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

فلم يقتصر علىٰ الْمُحاربين فقط، بل إن الله جعل سبب الكُرْه لَهم هو المحادة لله ولرسوله، وأيُّ محادة لله ورسوله أعظم من الكُفْر، وأعظم من الشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ؟ لا تَجوز مودَّة الكفار كُلِّهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يعني: محبوبين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾[المائدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[الممتحنة: ١].

فإذا فهمت هذا فهمًا جيدًا عرفت أنّ كثيرًا من الذين يدّعون الدّين لا يعرفونها.

الشَّرْح

هذا صحيح، فإنك لو تسأل كثيرًا من العلماء والْمُتعلِّمين عن هذه المسألة، مسألة الولاء والبراء، تَجدهم لا يعرفونها.

يقولون: لا يلزم بُغْضهم، ديننا ما هو دين عداوة، ديننا دِين مودَّة ودين مصالحة ودين كذا، يعتبرون هذا من مَدْح الدِّين، فمودَّة المشركين -عندهم- لا بأس بِهَا، ويعتبرونها من الْمصالحة معهم.

ونقول: مصالحتهم علىٰ أمور السياسة لا مانع منها، لكن مصالحتهم علىٰ تَرْك بعض أمور الدِّين لا تَجوز.

❁❁❁

وإلّا فما الّذي حمل المسلمين علىٰ الصّبر علىٰ ذلك العذاب والأسر والضّرب والهجرة إلىٰ الحبشة.

الشَّرْح

ما سبب ما نال المسلمين فِي مكَّة؟ هل لأنَّهم مسلمون يصلُّون ويصومون؟ لا ... بل لأنَّهم أبغضوا الكفار وعادوهم، ونهوا عن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هذا هو السبب، وإلا لو أنَّهم صاموا وصلُّوا واشتغلوا بالذِّكْر ولَم يتعرَّضوا لأحد، ما حصل لَهم أذىً بالضرب والحَبْس والأَسْر، ولما احتاجوا إِلَىٰ الصبر؛ لأن الصبر لا يكون إلا علىٰ شيء مكروه.

❁❁❁

مع أنّه ﷺ أرحم النّاس، لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم، كيف وقد أنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الشَّرح

مع رحمته ﷺ بأصحابه ما رخَّص لأصحابه بالتنازل عن شيء من الدِّين، ما رخَّص لَهم فِي هذا مع أنه رءوف رحيم -عليه الصلاة والسلام- فلو وجد لَهم رخصة فِي ترك إظهار الدِّين لرخَّص لَهم.

بل إن الله أنزل عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لكن إذا جاء الامتحان، إذا أُوذي فِي الله، بسبب قوله: آمنت بالله، وبسبب توحيده فإنه يتراجع عن دينه، يجعل فتنة الناس كعذاب الله، يفرُّ من أذية الناس فِي الدنيا إِلَىٰ عذاب الله فِي الآخرة، مثل الذي استجار بالنار من الرَّمضاء، وإذا لَمْ يصبر علىٰ أذىٰ الناس، كيف يصبر علىٰ النار يوم القيامة؟ يلزم العكس أنه يفتدي أذىٰ النار بتحمُّل أذىٰ الناس، والصبر علىٰ دينه، أما أنه يفتدي بدينه من أذىٰ الناس، وينسىٰ النار الَّتِي أمامه، فهذا كالمستجير من الرَّمضاء بالنار، كما قال الشاعر:

المستجير بعمرو عند كُرْبته ... كالمستجير من الرَّمْضاء بالنار

فإذا كانت هذه الآية فيمن وافقهم بلسانه فكيف بغير ذلك؟

الشَّرح

إذا كان هذا الوعيد فِي حقِّ مَنْ وافق الكفار بلسانه من غير إكراه ليعيش معهم، فكيف بمَنْ وافقهم بفِعْله من أجل مصالحه الدنيوية؟

الموضع الثّالث: قصة قراءته ﷺ سورة (النّجم) بحضرتهم، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩]، ألقىٰ الشّيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلىٰ، وإنّ شفاعتهنّ لترتجي» فظنّوا أنّ رسول الله ﷺ قالها، ففرحوا بذلك وقالوا كلامًا معناه: هذا الّذي نريد، ونحن نعرف أنّ الله هو النّافع الضّارّ، وحده لا شريك له، ولكن هؤلاء يشفعون لنا عنده.

فلمّا بلغ السّجدة سجد وسجدوا معه، فشاع الخبر أنّهم صافوه، وسمع بذلك من بالحبشة فرجعوا، فلمّا أنكر ذلك رسول الله ﷺ عادوا إلىٰ شرّ ممّا كانوا عليه.

ولمّا قالوا له: إنّك قلت ذلك، خاف من الله خوفًا عظيمًا، حتّىٰ أنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: ٥٢].

فمن فهم هذه القصّة، ثمّ شكّ بعدها في دين النّبيّ ﷺ، ولم يفرّق بينه وبين دين المشركين، فأبعده الله، خصوصًا إن عرف أنّ قولهم: «تلك الغرانيق» يراد بها الملائكة.

الشَّرح

هذه القصة الَّتِي ذكرها الشيخ من قصص السيرة النبوية تُسمَّىٰ قصة الغرانيق، وهي كما ذكر أنه ﷺ لما قرأ سورة (النجم) فِي مكة وعنده المشركون والمسلمون، فلما بلغ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. فهي أكبر أصنام العرب.

اللات: فِي الطائف -وكما سبق بيان هذا- أنه رجل صالح كان يُطعم الحجيج، فلما مات عكفوا علىٰ قبره يتبرَّكون به علىٰ طريقة التبرُّك بالصالحين، كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، ويطلبون منه الشفاعة عند الله؛ لأنه رجل صالح.

والعزى: هي صنم لأهل مكة قريبًا من عرفات، وهو عبارة عن شجرات عليها بنية يتبرَّكون بِهَا.

وأما مناة: فهي صنم بين مكة والْمَدينة قريبًا من الْمَدينة، عند المشلل قريبًا من جبل

قديد، وكانت للأوس والخزرج، وكانوا يُحرِمون من عندها بالحجِّ تعظيمًا لَها.

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. أي: أخبروني عن هذه الأصنام، هل نفعتكم وهل ضرَّتكم؟ بل إنَّها لَمْ تدفع عن نفسها؛ لأن الرسول ﷺ لما فتح مكة هدمها، ولو كانت آلهة لمنعت عن نفسها ودافعت عن نفسها. فالله يُوبِّخ المشركين الذين تعلَّقوا بهذه الأصنام الَّتِي لا تنفع ولا تضرُّ.

فلما قرأ الرسول ﷺ هذه الآية، ألقىٰ الشيطان -أي صوت الشيطان- بكلمات دَسَّها فِي تلاوة النَّبِي ﷺ وهي: «تلك الغرانيق العُلىٰ وإن شفاعتهن لتُرتجىٰ» هذا كلام من الشيطان، دسَّه فِي تلاوة الرسول ﷺ، والرسول لَمْ يعلم بذلك، ولكن المشركين سمعوه ففرحوا وقالوا: ذكر آلهتنا بخير، وهذا الذي نريده، نَحن لا نقصد منها إلا الشفاعة، وإلا نَحن نعلم أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ، ولكن نَحن نريد شفاعتها.

ومحمد قال: وإن شفاعتهن لتُرتجىٰ، فلما بلغ ﷺ آخر السورة وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٦٢]، سجد فسجد معه المسلمون، وسجد المشركون فرحًا بهذه الكلمات الشيطانية، حَتَّىٰ إن الوليد بن المغيرة لما كان كبير السنِّ لَمْ يستطع أن يسجد علىٰ الأرض، فأخذ حفنة من تراب فسجد عليها.

فشاع الخبر أن الرسول ﷺ تصالح مع المشركين، وأنه أقرَّهم علىٰ عبادة اللَّات والعزىٰ ومناة من أجل طلب الشفاعة، ووصل الخبر إِلَىٰ الْمُهاجرين فِي أرض الحبشة من المسلمين، أن الرسول تصالح هو والمشركون، أو أن المشركين أسلموا، فعادوا من الحبشة، فلما وصلوا إِلَىٰ مكة وجدوا هذا الخبر غير صحيح، وأن المشركين ما زالوا علىٰ عداوتهم للرسول ﷺ وتضييقهم علىٰ المسلمين.

فلما أخبروا النَّبِي ﷺ أنه قرأ هذه الكلمات: (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتجىٰ) حزن حُزنًا شديدًا، وأصابه همٌّ شديد، حَتَّىٰ أنزل الله قوله تعالىٰ فِي سورة (الحج): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج: ٥٢-٥٥]، فأبطل الله ما ألقاه الشيطان فِي تلاوة الرسول ﷺ ونسخه -يعني: أزاله-، وأحكم أي: ثبَّت آياته الَّتِي أنزلها فِي ذمِّ الأصنام وعبادتها.

هذا حاصل القصة، وقد وردت هذه القصة عن ابن عباس متصلة بسند، ووردت عن بعض التابعين بأسانيد مرسلة، وبعضُ العلماء أنكرها ومنهم ابن كثير.

وقال: إنها لَمْ ترد إلا من طرق مرسلة ومنقطعة تكلَّموا فيها. ولكن الحافظ ابن حجر فِي «فتح الباري» له رأيٌ غير رأي هؤلاء.

يقول: القصة جاءت من طرق مختلفة متباينة الْمخارج، فهي تتعاضد ويُقوِّي بعضها بعضًا. هذا معنىٰ كلام الحافظ ابن حجر.

مقصود الشيخ من إيرادها: أن المشركين يقولون: نَحن لا نعبد هذه الأصنام علىٰ اعتقاد أنَّها تخلق وترزق، وتنفع وتضرُّ، وإنَّما نعبدها طلبًا للشفاعة بأن تشفع لنا عند الله ﷻ. فالله أبطل هذا وأقرَّ القرآن علىٰ ما هو عليه من إبطال عبادتها، وأبطل ما ألقاه الشيطان فِي تلاوة النَّبِي ﷺ، وسلَّىٰ نبيه وأذهب عنه الحُزْن بأن هذا يجري مع مَنْ قبلك من الرسل، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢].

يعني: تلا، فالتمني هنا معناه: التلاوة، كما فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨] أي: تلاوة فقط ولا يعرفون المعاني، وكما فِي قول الشاعر فِي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تمنَّى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر

وهي الليلة الَّتِي قُتل فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان أول الليل يتهجد ويتلو القرآن، ثُمَّ هجم عليه الخوارج وقتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آخر الليل.

الشاهد من البيت: قوله: تمنىٰ كتاب الله، أي: تلاه، فالتمني يُراد به التلاوة، فيكون

المعنىٰ (إذا تمنىٰ): أي تلا الكتاب. ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: يعني فِي تلاوته، كلمات يظنُّها السامع من كلام الرسول وهي من كلام الشيطان، ولكن الله له بالمرصاد يُبطل كلام الشيطان ويُحكم آياته ﷻ؛ لأن الله حافظ دينه وحافظ كتابه.

فالشاهد منها: أن المشركين فرحوا لما ظنوا أن الرسول ﷺ وافقهم بالكلام الذي ظنوه من الرسول وهو من الشيطان، أنَّ طلب الشفاعة من الأصنام لا بأس به، ففرحوا بذلك، ثُمَّ إن الله -جل وعلا- أبطل ذلك، وبيَّن أنه لا تَجوز عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ لأيِّ قصد كان، طلب الشفاعة أو غيره، العبادة حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَجوز عبادة غير الله لأيِّ قصد كان، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. الله سمَّىٰ هذا شِرْكًا وأبطله، وما قال الرسول هذه الكلمات الَّتِي في القصة وإنَّما قالها الشيطان، وهذا من باب الابتلاء والامتحان؛ لأجل أن يتميز الخبيث من الطيب، ثُمَّ إن الله يُزيل هذه الفتنة ويُبقي الحقَّ.

هذا قد جرىٰ مع الرسل قبل مُحَمَّد ﷺ، وجرىٰ عليه مثلُ ما جرىٰ علىٰ الرسول من قبله.

فهذا فيه دليل علىٰ بُطْلان اعتقاد عَبَدة القبور وغيرهم، الذين يعبدون القبور ويقولون: نَحن نعلم أنَّهم لا يضرُّون ولا ينفعون، ولا يُخلقون ولا يرزقون، وإنَّما هم صالحون نتوسط بِهم إِلَىٰ الله ونطلب منهم الشفاعة.

وإننا لو أقررناهم علىٰ ذلك ما صار بيننا وبينهم خلاف، وإنَّما اشتدت العداوة بيننا وبينهم لما أنكرنا عليهم هذا واعتبرناه شِرْكًا، كما أنكره الرسول ﷺ، وكما أنكره القرآن فِي آيات.

هذا هو مقصود الشيخ من إيراد هذه القصة، فهو يقول: إنهم يفرحون لو وافقناهم علىٰ هذا الكلام.

وقلنا: مادام أنكم ما تقصدون منها أنَّها تخلق وترزق وتنفع وتضرُّ، وإنَّما قصدكم منها الشفاعة، فهذا أمر لا بأس به.

الموضع الرابع: قصة أبي طالب، فمن فهمها حسنًا وتأمل إقراره بالتوحيد، وحثّ النّاس عليه، وتسفيه عقول المشركين، ومحبته لمن أسلم وخلع الشّرك. ثمّ بذلك عمره وماله وأولاده وعشيرته في نصرة رسول الله ﷺ إلىٰ أن مات.

الشَّرْح

أبو طالب عمُّ الرسول ﷺ، لما تُوفي والد الرسول ﷺ عبد الله بن عبد المطلب، والرسول ﷺ حمل فِي بطن أمه، ثُمَّ لما ولد ﷺ كفَّله جَدُّه عبد المطلب؛ لأنه أصبح يتيمًا فكفَلَّه جَدُّه عبد المطلب، ثُمَّ لما حضرت عبدَ المطلب الوَفاةُ أوصىٰ به إِلَىٰ ابنه أبِي طالب، وأبو طالب قام بالواجب وحضن النَّبِيَّ ﷺ وربَّاه وأكرمه.

ثُمَّ لما بعثه الله رسولًا إِلَىٰ العالمين قام معه يحميه ويدافع عنه، ولقي الأذىٰ من قريش فِي سبيل حماية دعوة الرسول ﷺ والدفاع عنه، وعرَّض نفسه للخطر والْمجاعة، حَتَّىٰ إنهم حاصروهم فِي الشِّعب سنين وقاطعوهم، وقطعوا عنهم المُؤَن، وقطعوا عنهم الاتصال، ومعهم أبو طالب وصبر علىٰ هذا، وكان يمدح دين الرسول ﷺ ويقول:

لقد علمتُ بأن دين مُحَمَّد ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبَّة ... لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

وفِي لاميته المشهورة الطويلة الَّتِي أوردها ابن كثير فِي «البداية والنهاية» اعترف بأن محمدًا رسول الله، وأنه صادق فِي رسالته، وأنه لَمْ يمنعه من اتباع إلا خشيةُ مسبةِ دين آبائه الذين كانوا علىٰ عبادة الأصنام، فأخذته الحمية الجاهلية فِي امتناعه من اتباع مُحَمَّد ﷺ؛ لئلا يجرَّ علىٰ أشياخه المسبة، ثُمَّ لما حضرته الوفاة جاءه النَّبِيُّ ﷺ وعنده أبو جهل، وعنده آخر من بني مخزوم.

فالرسول ﷺ قال له: «**يا عمِّ قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجَّ لك بِهَا عند الله**»، فقال له أبو جهل ومَنْ معه: أتترك دين عبد المطلب؟ فأعاد عليه الرسول، فأعادوا: أتترك دين عبد المطلب؟ ثم كان آخر ما قال: هو علىٰ مِلَّة عبد المطلب. ومات علىٰ ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لَم أنه عنك**»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [١] [التوبة: ١١٣] وأنزل فِي أبِي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

فدلَّ هذا علىٰ أن مدح الإسلام ومدح الرسول، واعتقاد أن الإسلام حقٌّ وأن الرسول حقٌّ من غير اتباع للرسول، أن ذلك لا ينفع، وأنه لابد من اتباع الرسول ﷺ؛ لأن هذا لو كان ينفع لنفع أبا طالب، فإن الإقرار بأن الإسلام حقٌّ وأن الرسول صادق، مع المدافعة عن الإسلام وحماية الإسلام، كلُّ هذا لا ينفع إلا مع الاتباع، وإلا فإن النَّبي ﷺ يقول: «**إن الله يُؤيد هذا الدِّين بالرجل الفاجر**» [٢].

فلابد من الاتباع، فلا تنفع الْمعاونة والْمدح والْحماية للإسلام وغير ذلك، ولا القرابة من الرسول بدون اتباع له، فهذا عمُّ الرسول ﷺ لما مات علىٰ الكُفْر لَمْ ينفعه الرسول ﷺ بإخراجه من النار رغم الْمُحاولة، ومنعه الله من الاستغفار له.

وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [٣] [التوبة: ١١٣]. والله -جل وعلا- يقول: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] لَمْ يكتف بقوله: ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، بل قال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و(٤٦٧٥) و(٤٧٧٢) و(٥٦٥٧) و(٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢) و(٤٢٠٤) و(٦٦٠٦)، ومسلم (١١١) من حديث أبِي هريرة.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و(٤٦٧٥) و(٤٧٧٢) و(٥٦٥٧) و(٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).

فهذا يدلُّ علىٰ أن مدح الإسلام والثناء علىٰ الإسلام والمسلمين، وأنهم علىٰ حقٍّ وأن الكفار علىٰ باطل، وأن الشِّرْك باطل، كلُّ هذا لا يكفي وأنه لابد من الاتباع، فمَنْ كان يمدح الإسلام ويُثني عليه ويمجده، وهو لَمْ يترك الشرك بل يدعو غير الله، يدعو الأصنام والأضرحة والقبور، فإن هذه الأمور لا تنفعه ولا تفيده شيئًا، لو كانت تنفع وتفيد لأفادت أبا طالب عمَّ الرسولِ ﷺ. فهذه مسألة دقيقة ينبغي التنبُّه لَها.

ثمّ صبره علىٰ المشقة العظيمة والعداوة البالغة، لكن لما لم يدخل فيه ولم يتبرّأ من دينه الأول لم يصر مسلمًا، مع أنه يعتذر من ذلك بأن فيه مسبّة لأبيه عبد المطلب ولهاشم، وغيرهما من مشايخهم.

الشَّرْح

هذا الذي منعه وهو النَّخْوة والعصبية الجاهلية، منعته من الدخول فِي الإسلام ومات علىٰ الكُفْر، مع ما له من الْمَواقف العظيمة فِي نُصْرة الحقِّ والدَّفْع عنه، ومع ذلك لما لَمْ يتبع الرسول ﷺ لَمْ تنفعه هذه الأمور، إلا ما صحَّ أنه خُفف عنه من عذاب النار؛ حيث أصبح فِي ضَحْضاح من نار بسبب شفاعة النَّبِي ﷺ له[(١)]، وفِي رواية: **«فِي أخمص قَدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه، ما يَرىٰ أن أحدًا من النار أشدُّ منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»**[(٢)].

لَم ينفعه ذلك فِي إخراجه من النار، فلا يتعارض هذا مع قوله تعالىٰ عن الكُفَّار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]، إنَّمَا نفعه فِي التخفيف عنه من العذاب فقط.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٨) و(٦٥٧٢)، ومسلم (٢٠٩) (٣٥٧) من حديث العباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦١) و(٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير، وليس فيه ذِكْر لأبي طالب، وإنَّما هو فِي ذِكْر أهون أهل النار عذابًا.

ثمّ مع قرابته ونصرته استغفر له رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣] الآية.

الشَّرْح

نستفيد من هذا أنه لا يكفي الإقرار بأن الإسلام حقٌّ، ولا يكفي المدافعة عن الإسلام، ولا يكفي ذمُّ الشرك والمشركين، كلُّ هذا لا يكفي إلا باتباع الرسول ﷺ، فمَنْ لَمْ يتبع الرسول ﷺ، فإن هذه الأمور لا تنفعه.

وبناء علىٰ ذلك، فإن هؤلاء الذين يُصلون ويَصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وقد يَجاهدون الكفار، ولكنهم لا يتركون الشرك حول الأضرحة والقبور، ويستغيثون بالأموات، ويذبحون للقبور، فهؤلاء لا ينفعهم ذلك؛ لأن الشِّرْك لا ينفع معه عمل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]، ما دام إنه لَمْ يتبرأ من المشركين، ولَم يقاطعهم فِي الدِّين، فإنه لا ينفعه ذلك.

والذي يبيّن هذا أنه إذا عرف رجل من أهل البصرة، أو الأحساء بحبّ الدين وبحبّ المسلمين، مع أنه لم ينصر الدّين بيد ولا مال، ولا له من الأعذار مثل ما لأبي طالب، وفهم الواقع من أكثر من يدعي الدّين، تبين له الهدىٰ من الضلال، وعرف سوء الإفهام، والله المستعان.

الشَّرْح

يقصد بذلك العلماء الذين فِي وقته، الذين عرفوا الحقَّ وعرفوا التوحيد وعرفوا بُطْلان الشرك، لكن مع هذا لَمْ يقوموا بالدعوة إِلَىٰ الله، والأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، والإنكار علىٰ المشركين، لَمْ يقوموا بذلك، هؤلاء مثل أَبِي طالب؛ لأَنَّهم ما بذلوا الخير لهذا الدِّين، ولا دعوا إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا بيِّنوا للناس، بل كتموا العلم الذي عندهم وسكتوا عن الشرك وعاشوا مع الْمُشركين.

الموضع الخامس: قصة الهجرة، وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها.

الشَّـرح

الهجرة: فِي اللغة مأخوذة من الهجر وهو التَّرْك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥].

أي: اتركه، فالهَجْر هو التَّرْك، ومنه هَجْر أهل الْمَعاصي، وهَجْر الْمُشركين يعني: تركهم وعدم محبتهم، قال ﷺ: «**الْمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهىٰ الله عنه**»(١). أي: تَرْك ما نهىٰ الله عنه.

أما الْهجرة فِي الشرع: فهي الانتقال من بلد الشرك إِلَىٰ بلد الإسلام لأجل الدِّين، هذه هي الْهجرة الشرعية، والْهجرة فيها فَضْل عظيم، وهي عديلة الإيمان والجهاد فِي سبيل الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فهذا مِمَّا يدل علىٰ عِظَمِ الْهجرة.

والْهجرة باقيةٌ إِلَىٰ أن تقوم الساعة، فالذي لا يقدر علىٰ إظهار دينه فِي بلاد الْمُشركين يَجب عليه أن يُهاجر إِلَىٰ بلد يقدر فيه علىٰ إظهاره، فإن لَمْ يُهاجر وهو يقدر علىٰ الْهجرة، فإن الله ﷻ أنزل فيه القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧﴾ [النساء: ٩٧]. هذا وعيد شديد مع أنَّهم مسلمون، لكن لما تركوا الْهجرة بعُذْر محبة الأموال والأولاد والوطن، وقدَّموا محبَّة هذه الأشياء علىٰ الْهجرة، فالله -جلا وعلا- توعَّدهم بِهذا الوعيد.

وسبب نزول الآية: أنه لما كانت غزوة (بدر) كان مع الْمُشركين أُناس من الْمسلمين بقوا فِي مكة ولَم يهاجروا شحًّا بوطنهم وبلادهم، وأموالهم وأولادهم، وهم يقدرون علىٰ الْهجرة، فلما خرج الْمشركون إِلَىٰ (بدر) خرجوا بِهم معهم بغير اختيارهم، وألزموهم بالخروج معهم، ثُمَّ لما دارت الْمعركة قُتل أُناس منهم وهم فِي صفِّ الكُفَّار،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨١)، والنسائي فِي «الكبرى» (٨٧٠١)، وابن حبان (٢٣٠)، وأحمد (٦٥١٥).

ولَم يعلم الْمسلمون بِهم، فلما علم الْمسلمون بِهم ندموا، وقالوا: قتلنا إخواننا. فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾.

يعني: ما الوطن الذي أنتم فيه، أي وطن؟

ما قالوا: كيف حالكم فِي الإيمان؟ أو ما يقينكم؟ ما سألوهم عن هذا، وإنَّما سألوهم عن الْمَكان، (فيم كنتم؟) ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يعني: أجبرونا علىٰ الخروج بسبب ضعفنا، ولا نقدر أن نمتنع ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ كان لكم مندوحة عن هذا، لو هاجرتم مثل ما هاجر إخوانكم لسلمتم من هذه الواقعة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هذا وعيد، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨]، الذين لا يقدرون علىٰ الهجرة، وبقوا فِي بلاد الشرك؛ لأنَّهم ما يقدرون علىٰ الْهجرة، وبقوا فِي بلاد الشرك. لأنَّهم ما يقدرون علىٰ الْهجرة ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

هذا فِي شأن هؤلاء، وهذه قصة عجيبة وعظيمة: أن هؤلاء مع إسلامهم وصِدْقهم فِي الإسلام، لما تركوا الْهجرة من غير عُذْر، حصل عليهم هذا الوعيد، وهذا التوبيخ من الْمَلائكة لما جاءت تقبض أرواحهم، فدلَّ علىٰ أنه لا يَجوز للموحِّد المسلم أن يتساهل بِهذا الأمر وأن يكون مع المشركين ولو من غير محبة لَهم، لكن محبة لماله أو ولده، أو بيته، أو غير ذلك ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [التوبة: ٢٤] يعني: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذا وعيد شديد، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، فلا يَجوز تقديم محبة الأموال والأولاد علىٰ طاعة الله تعالى، وعلىٰ الْهجرة والجهاد فِي سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

والكثيرُ من الناس يقرءون هذه الآيات ولا يتدبرونها.

ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها، وهي أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر من غير شكٍّ في الدّين وتزيّين دين المشركين، ولكن محبةً للأهل والمال والوطن، فلما خرجوا إلىٰ (بدر) خرجوا مع المشركين كارهين، فقتل بعضهم بالرمي، والرامي لا يعرفه.

فلما سمع الصحابة أن من القتلىٰ فلانًا وفلانًا شقّ عليهم، وقالوا: قتلنا إخواننا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

فمن تأمّل قصّتهم وتأمّل قول الصحابة: قتلنا إخواننا، علم أنه لو بلغهم عنهم كلام في الدّين، أو كلام في تزيين دين المشركين لم يقولوا: قتلنا إخواننا.

الشَّرح

فالصحابةُ ما قالوا: (إخواننا) إلا لأنَّهم مستقيمون علىٰ الدين، ما ذُكر عنهم أنَّهم مالوا مع المشركين أو مدحوا الْمُشركين، بل يبغضون دِين الْمُشركين وكانوا علىٰ التوحيد، وكانوا مخلصين لله وليس فيهم نِفَاق، لكن تركوا شيئًا واحدًا وهو الْهجرة من غير عُذْر. فلامهم الله علىٰ ذلك.

فإن الله تعالىٰ قد بيّن لهم وهم بمكة قبل الهجرة أن ذلك كفرٌ بعد الإيمان، بقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وأبلغ من هذا ما تقدّم من كلام الله تعالىٰ فيهم، فإن الملائكة تقول: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ ولم يقولوا: كيف تصديقكم؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

الشَّرح

فالْملائكة ما سألوهم عن إيمانهم وعقيدتهم؛ لأنَّهم يعرفون أنَّهم علىٰ عقيدة صحيحة وعلىٰ إيمان صادق، لكن سألوهم عن المكان الذي هم فيه؛ حيث لا يَجوز لَهم أن يبقوا فيه وهم يقدرون علىٰ الْهجرة منه.

ولم يقولوا: كذبتم. مثل ما يقول الله والملائكة للمجاهد الذي يقول: جاهدت في سبيلك حتىٰ قتلت.

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل قاتلت ليقال: جريء، وكذلك يقولون للعالم والمتصدّق: كذبت، بل تعلمت ليقال: عالم، وتصدّقت ليقال: جوّاد[1].

الشَّرْح

الْملائكة لَمْ تقل: كذبتم لستم مسلمين ولستم مؤمنين، بل قالوا: فيم كنتم؟ سألوهم عن المكان الذي هم موجودون فيه، موجودون حيث خرجوا مع المشركين ولو كانوا مكرهين؛ لأنَّهم هم السبب فِي تسلُّط الكفار عليهم، ولا يَجوز مرافقتهم والخروج معهم حبًّا للمال وللأهل، ومداراةً لكي يبقوا علىٰ أموالهم.

❁❁❁❁

وأما هؤلاء فلم يكذبوهم بل أجابوهم بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ ويزيد ذلك إيضاحًا للعارف والجاهل الآية الّتي بعدها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨].

الشَّرْح

يعني: لا يعذر إلا مَنْ ترك الْهجرة عاجزًا عنها، فإنه معذور، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [النساء: ٩٨] للخروج، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨] إليه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩] هذا وَعْد من الله بالعفو عنهم.

❁❁❁❁

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٣)، والنسائي (٦/ ٢٣).

فهذا أوضح جدًّا أن هؤلاء خرجوا من الوعيد، فلم يبق شبهة، لكن لمن طلب العلم، بخلاف من لم يطلبه، بل قال الله فيهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨].

الشَّرْح

نعم اختلاط المسلمين مع الكُفَّار من غير عُذْر أمر لا يَجوز، بل لابد أن تتميز بلاد المسلمين عن بلاد الكفار، ولا يخالط المسلم المشرك، بل قال ﷺ: «**لا تَتَراءىٰ ناراهما**»[١]. أي: يَبعد عنه مهما أمكنه ذلك.

ومن فهم هذا الموضع والذي قبله فهم كلام الحسن البصري، قال: ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال.

الشَّرْح

فالإيمان هو ما (صدَّقته الأعمال) ومنها الْهجرة؛ لأنها من الأعمال، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الْمُرجئة الذين يقولون: إنه يكفي الإيمان بالقلب، أو بالقلب واللسان، فلا يكفي الاعتقاد والنطق بل لابد من العمل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) و(١٦٠٥).

وذلك إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

الشَّرح

قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إِلَىٰ الله ﷻ، ﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من الذِّكر وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل، وكلُّ كلام طيب فإنه يصعد إِلَىٰ الله -جل وعلا-، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، كلُّ هذا من الكَلم الطَّيب، والكلم الطيب مع الناس ومع الأقارب ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]. كلُّ هذا من الكلم الطيب، يصعد إِلَىٰ الله، لكن لا يصعد بنفسه، بل لابد من العمل ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وفِي هذا ردٌّ علىٰ الْمُرجئة أيضًا.

الموضع السادس: قصة الردّة بعد موت النّبي ﷺ، فمن سمعها لا يبقىٰ في قلبه مثقال ذرّة من شبهة الشياطين الذين يسمّون العلماء، وهي قولهم هذا هو الشّرك، لكن يقولون: لا إله إلا الله، ومن قالها لا يكفر بشيء.

الشَّرح

يقول علماء الضلال: عبادة القبور والذبح لَها والنَّذْر لَها ليس من الشِّرك، ما دام أنه يقول: لا إله إلا الله، فهذه الأمور لا تضرُّه. هذا تناقض.

كيف يقول: لا إله إلا الله ويدعو غير الله؟! إذن ما معنىٰ لا إله إلا الله؟، لا إله إلا الله ليست مُجرد قول يقال باللسان، بل لابد أن يكون قولًا ومعه عمل؛ لأن (لا إله إلا الله) كلمة عظيمة لَها معنىٰ ولها مقتضىٰ، ومقتضاها: أن يُخلص الْمَرْءُ العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن يترك عبادة غير الله، فالذي يقولها ولَم يترك عبادة غير الله، لا تنفعه كلمة (لا إله إلا الله)، كما يقولون، وربما يستدلُّون بالْمتشابه من النصوص، مثل قوله ﷺ فِي حديث البطاقة الَّتِي فيها: لا إله إلا الله، وأنها تثقل بالسيئات، وأن صاحبها يدخل الْجنة[1]، هذا حديث عن الرسول ﷺ، لكن يُردُّ إِلَىٰ الأحاديث الأخرىٰ الَّتِي تقيده، لا يُؤخذ طرف، ويُترك طرف كما قال الله فِي أهل الزَّيغ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمرن: ٧]. فالراسخون يردُّون الْمُتشابه إِلَىٰ الْمُحْكَم.

والأحاديث الَّتِي ظاهرها: أن (لا إله إلا الله) تكفي مَنْ قالها، تُردُّ إِلَىٰ الأحاديث الَّتِي فيها أن (لا إله إلا الله) لابد لَها من قيود، مثل قوله ﷺ: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله وكفر بِمَا يُعبد من دون الله**»[2]. والذي يدعو أصحاب القبور لَم يكفر بما يُعبد من دون الله، حتىٰ لو لَم يذبح للقبور ولَم ينذر لها.

بل قال: إن هذا ليس بشِرْك. هذا لا تنفعه (لا إله إلا الله)؛ لأنه صحَّح الشرك وأقرَّه،

---

(١) حديث البطاقة: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢).

فهذا ما فهم معنىٰ (لا إله إلا الله). ولهذا يقول: (الشياطين الْمُسمُّون بالعلماء) الذين يأخذون الْمُتشابه ويستدلُّون به.

ويقولون: مَنْ قال: لا إله إلا الله، لو فعل ما فعل من الشرك هو من أهل الجنة. والرسول ﷺ يقول: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله وكفر بِمَا يُعبد من دون الله**»، ويقول: «**فإن الله حرَّم علىٰ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وَجْه الله**»(١).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**يا بن آدم! لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقُرَابها مغفرة**»(٢) قيَّد ذلك بالسلامة من الشرك. وهذه الأحاديث يُردُّ بعضها إِلَىٰ بعض؛ لأنها كلُّها كلام الرسول ﷺ، والآيات تُردُّ بعضها إِلَىٰ بعض؛ لأنها كلُّها كلام الله، وبعضها يُفسر بعضًا، ويُقيِّد بعضًا ويُوضِّح بعضًا.

أما أن نأخذ طرفًا ونترك طرفًا آخر، فهذه طريقة أهل الزَّيغ. وإن قال: أنا أستدل بكلام الرسول.

فنقول له: كذبتَ، أنت لَمْ تستدل بكلام الرسول، وأنت تستدلُّ بالْمُتشابه منه، ولَم تردَّه إِلَىٰ الْمُحْكم.

وأعظم من ذلك وأكبر تصريحهم بأن البوادي ليس معهم من الإسلام شعرة، ولكن يقولون: لا إله إلا الله.

الشَّرح

البوادي: هم جمع بادية وهم الأعراب الرُّحَل يقول: هؤلاء الضلال «البوادي» ما معهم من الإسلام شعرة، لا يصلُّون ولا يصومون ولا يعرفون الإسلام، لكن ما داموا يقولون: (لا إله إلا الله) فهذا يكفيهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤)، (٦٨٦)، ومسلم (٣٣) من حديث عِتْبان بن مالك.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس.

وهم بهذه اللفظة أهل إسلام.

الشَّرح

فالضُّلّالُ يقولون: يكفي أنهم يقولون: لا إله إلا الله، فمجرد قولها يدخلهم فِي الإسلام.

يقولون هذا وهم معترفون أنهم ما معهم من الإسلام شعرة، لا يصلون ولا يصومون ولا يعملون شيئًا من الأعمال الصالحة، فقط هم يقولون: لا إله إلا الله. يا سبحان الله! لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة، لو كان هذا هو الإسلام صار كلُّ الناس مسلمين. الرسول ﷺ لما قال لهم: **«قولوا كلمةً تَدينُ لكم بها العرب، وتُؤدِّي لكم بها العجم الجزية»** قالوا: خُذ وأبيك ألف كلمة، ما هي؟ قال: **«قولوا: لا إله إلا الله»**، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾[1] [ص:٥].

عرفوا أنَّهم لو قالوا: لا إله إلا الله، تركوا عبادة الأصنام، وهم لا يريدون ذلك. هم يحسبونها كلمة فقط أيَّ كلمة، فلما قال لَهم: «قولوا: لا إله إلا الله» وهم عرب فُصحاء يعرفون معنىٰ هذه الكلمة، وإنها تلزمهم بتَرْك عبادة الأصنام، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا ....﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥،٣٦].

---

(١) أخرجه البيهقي فِي «دلائل النبوة» (٢/ ٣٤٥)، وابن كثير فِي «البداية والنهاية» (٤/ ٣٠٨) من حديث ابن عباس.

وحرّم الإسلام مالهم ودمهم. مع إقرارهم بأنهم تركوا الإسلام كلّه.

الشَّرْح

يقول علماء الضُّلَّال: حرَّم الإسلام دمهم ومالهم -يعنون: البوادي التي ليس عندها من الإسلام شعرة-؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**»(١).

لكنهم لا يجيئون بآخر الْحَديث: «**إلا بحقِّها**» أي: لابد من العمل؛ لأن حقَّها العمل.

ومع علمهم بإنكارهم البعث، واستهزائهم بمن أقرّ به.

الشَّرْح

ويقولون: إذا قال: لا إله إلا الله وهو يُنكر البعث، يصير مسلمًا! فهؤلاء مسلمون ما دام أنَّهم يقولون: لا إله إلا الله ولو أنكروا البعث.

ما هذا التناقض -والعياذ بالله-؟! والذي يقول هذا ليس من العوامِّ، إنهم علماء، علماء فِي الفِقْه والنحو والصرف، لكن فِي العقيدة ما عندهم ولا حبَّة خردل من العِلْم الصحيح. عقيدتهم عقيدة الْمتكلمين، ولا يدرسون التوحيد من كتاب الله ومن سُنة رسول الله ﷺ، وإنَّما يدرسون قواعد المنطق، وعلم الكلام، وعقائد المتكلمين الذين يقولون: يكفي أنك تقرُّ بأن الله هو الخالق الرازق، الْمُحي الْمُميت، فقط هذا هو التوحيد عندهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك فِي «الْموطأ» (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبِي هريرة.

واستهزائهم وتفضيلهم دين آبائهم المخالف لدين النّبي ﷺ. ومع هذا كلّه يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أن البدو أسلموا ولو جرىٰ منهم ذلك كلّه؛ لأنّهم يقولون: لا إله إلا الله. ولازم قولهم أن اليهود أسلموا لأنّهم يقولونها.

الشَّرْح

اليهود يقولون: لا إله إلا الله، لكن لما لَمْ يعملوا بِهَا صاروا أغلظ الأمم كُفْرًا - والعياذ بالله. ومثلهم مَنِ اعتقد هذه العقيدة.

وأيضًا كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود بأضعاف مضاعفة، أعني: البوادي المتّصفين بما ذكرنا.

والذي يبين ذلك من قصة الرّدّة أن المرتدين افترقوا في ردّتهم، فمنهم من كذّب النّبي ﷺ ورجعوا إلىٰ عبادة الأوثان، وقالوا: لو كان نبيًّا ما مات.

الشَّرْح

الْمرتدون لا شكَّ فِي كُفْرهم، ولَم يحصل عند الصحابة خلاف فِي كُفرهم، وهم صنفان:

الصنف الأول: الذين يقولون: (لو كان نبيًّا ما مات) وكونه مات هذا دليل علىٰ أنه غير نبيٍّ. فارتدوا عن الإسلام؛ لأنّهم كفروا برسالة مُحَمَّد ﷺ.

ومنهم من ثبت على الشهادتين ولكن أقرّ بنبوة مسيلمة.

الشَّرْح

الصنف الثاني: مَنْ أقرَّ بالشهادتين وأن محمدًا رسول الله، لكن أقرَّ بنبوة مسيلمة، قال: إن مسيلمة نبيٌّ. فهؤلاء لا تنفعهم شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إذا أقرُّوا بنبوة مسيلمة الكذَّاب فليسوا مسلمين، وهذا بالإجماع؛ لأنَّهم جَحدوا ختم النبوة بمحمد ﷺ؛ حيث يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وصدَّقوا الْمتنبئ الكاذب.

ظنًّا أن النّبي ﷺ أشركه في النبوة.

الشَّرْح

لأن مسيلمة الكذاب يقول: إن الرسول أشركني فِي النبوة، وصدَّقوه فِي هذه الكلمة.

لأن مسيلمة أقام شهود زورٍ شهدوا له بذلك.

الشَّرْح

وشهد له بعض الشهود أن الرسول أشركه فِي الأمر، شهادة زُورٍ -والعياذ بالله-. وكذَّبوا صريح القرآن بختم النبوة بمحمد، وقوله ﷺ: **«أنا خاتم النَّبيين، لا نبيَّ بعدي»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) و(٢٩٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وأحمد (٢٢٣٩٥) من حديث ثوبان.

فصدّقهم كثير من الناس. ومع هذا أجمع العلماء أنّهم مرتدّون ولو جهلوا ذلك.

الشَّـرْح

الذي يقول: إنه يُبعث بعد الرسول نبيٌّ يكون كافرًا بالإجماع.

❁❁❁❁

ومن شكّ في ردّتهم فهو كافر.

الشَّـرْح

لأنه لم يُكفِّر الْمُشركين، وقال: يمكن أن يكونوا صادقين، وما جزم أنهم علىٰ الباطل، بل قال: أنا لا أدري، أنا لا أُكفِّر النَّاس.

نقول: لا... لابد أن تعرف الحقَّ من الباطل، لابد أن تعرف الكُفْر من الإيمان، وتُميِّز المسلم من الكافر، لابد من هذا، وإلا ما معنىٰ الإسلام؟!

❁❁❁❁

فإذا عرفت أن العلماء أجمعوا الذين كذبوا ورجعوا إلىٰ عبادة الأوثان وشتموا رسول الله ﷺ، هو من أقرّ بنبوة مسيلمة في حال واحدة ولو ثبت علىٰ الإسلام كلّه.

الشَّـرْح

أي: مَنْ لَم يكفِّر الْمُشركين فهو مِثْل مَنْ يقرُّ بنبوة مسيلمة الكذَّاب ولو كان يُؤدِّي الإسلام كلَّه، إذا قال: إن مسيلمة صادق، صار مرتدًّا عن دين الإسلام. وهذا بالإجماع.

❁❁❁❁

ومنهم من أقرّ بالشهادتين وصدّق طليحة في دعواه النبوة.

الشَّرْح

طليحة ممَّن ادعىٰ النبوة، وصدَّقة قومه وقاتلوا الصحابة معه، ثم إن الله منَّ علىٰ طليحة وعاد إِلَىٰ الإسلام، وتاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وقُتل فِي حروب الفرس مع المسلمين.

ومنهم من صدّق العنسي صاحب صنعاء.

الشَّرْح

الأسود العنسي، فِي اليمن. قتله عبد الله بن فيروز الدَّيلمي فِي آخر حياة النبي ﷺ، وأما مسيلمة فإنه قاتله الصحابة فِي حرب (اليمامة) بقيادة خالد بن الوليد حتىٰ قتلوه.

وكلّ هؤلاء أجمع العلماء أنّهم سواء، ومنهم من كذّب النّبيّ ﷺ، ورجع إلىٰ عبادة الأوثان علىٰ حال واحدة، ومنهم أنواع أخر.

الشَّرْح

فالمرتدُّون أنواع ومَنْ صدَّق أحدًا منهم، فهو كافر وإن كان يشهد أن (لا إله إلا الله)، فلا تنفعه (لا إله إلا الله) بمجرد النُّطق، وأشدُّ كفرًا من هؤلاء مَنْ يقول: (لا إله إلا الله)، ثم يعبد الأولياء والصالحين.

آخرهم الفجاءة السّلمي، لما وفد على أبي بكر وذكر له أنه يريد قتال المرتدين، وطلب من أبي بكر أن يمدّه، فأعطاه سلاحًا ورواحل، فاستعرض السلمي المسلم والكافر يأخذ أموالهم، فجهّز أبو بكر جيشًا لقتاله، فلما أحسّ بالجيش، قال لأميرهم: أنت أمير أبي بكر وأنا أميره، فلم أكفر. فقال: إن كنت صادقًا فألق السلاح. فألقاه، فبعث به إلى أبي بكر، فأمر بتحريقه بالنار وهو حيٌّ.

فإذا كان هذا حكم الصحابة في هذا الرجل مع إقراره بأركان الإسلام الخمسة، فما ظنّك بمن لم يقرّ من الإسلام بكلمة واحدة إلا أن يقول: لا إله إلا الله، بلسانه مع تصريحه بتكذيب معناها، وتصريحه بالبراءة من دين محمّد ﷺ، ومن كتاب الله تعالى؟

ويقولون: هذا دين الحضر وديننا دين آبائنا، ثمّ يفتون هؤلاء المردة الجهّال أن هؤلاء مسلمون ولو صرّحوا بذلك كلّه، إذا قالوا: لا إله إلا الله. سبحانك هذا بهتان عظيم.

الشَّرح

الذين يقولون: إن الإسلام دِين الحَضَر، أما نَحن فعلى دين آبائنا، ما نَحن على دين الحضر. ويقول العلماء الضُّلَّال: هؤلاء مسلمون؛ لأنَّهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم يتبرءون من دين مُحَمَّد ويقولون: هذا دِين الحضر.

وما أحسن ما قاله واحد من البوادي لما قدم علينا وسمع شيئًا من الإسلام، قال: أشهد أننا كفّار -يعني: هو وجميع البوادي- وأشهد أن المطوع الذي يسمّينا أهل الإسلام أنه كافر.

الشَّرح

هذا أعرابيٌّ جاء لدَرْس الشيخ، ولما عرف الإسلام معرفة صحيحة شهد علىٰ نفسه قبل أن يعرف الإسلام وعلىٰ جماعته أنَّهم كفار، وشهد أن الْمَطوع -يعني: العالِم- الذي يقول: إنكم مسلمون، أنه كافر؛ لأنه حكم لهؤلاء الكُفَّار بالإسلام وما أكثر أشباهه.

تمّ والحمد لله ربّ العالمين، وصلّىٰ الله علىٰ محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم.

الشَّرح

غفر الله له وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، لقد بيَّن ووضَّح رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأسئلة

❑ سؤال: فضيلة الشيخ، ما هي الأمور الّتي ينبغي أن يركّز عليها طالب العلم، هل يبدأ بكتب العقيدة؟

الجواب: يبدأ بالأسهل فالأسهل، يبدأ بالْمُختصرات ويقرأها علىٰ المشايخ، ثُمَّ يترقَّىٰ إِلَىٰ الكتب الَّتِي هي أوسع منها، وهكذا. لا يذهب للكتب المطوَّلة من أول الأمر، وإنَّما يترقَّىٰ إليها شيئًا فشيئًا، يتدرَّج إليها شيئًا فشيئًا.

❑ سؤال: ما رأيكم في قول من قال: إن من أتى بالشرك والكفر لا يكفر إلا بعد معرفته بالأمر كلّه؟

الجواب: إذا كان مثله يَجهل؛ لأنه فِي بلد منقطع ما بلغه شيءٌ، فإنه يُعذر، أما إذا كان فِي بلاد المسلمين، ويسمع القرآن ويسمع الأحاديث ويسمع كلام أهل العِلْم، فهذا لا يُعذر بالجهل؛ لأنه قامت عليه الحُجَّة.

❑ سؤال: ما حكم السفر إلى بلاد إسلامية لا يؤمر فيها بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وتباع فيها الخمور والأغاني، وفيها التبرّج والاختلاط، بغرض النزهة والسياحة؟

الجواب: البلد غير الْمُلتزم، والَّتِي فيها الفواحش والشرور علانية، لا يَجوز للإنسان أن يسافر إليها؛ لأنه يتأثَّر بِمَا فيها من الشرِّ، ويصيبه ما أصاب أهلها.

❑ سؤال: هل يجوز رواية الحديث الضعيف مع عدم بيان حاله لأن الناس لا يفهمون؟

الجواب: الْحَديث الضعيف ذكر العلماء له ضوابط:

أولًا: ألَّا يُنسب إِلَىٰ الرسول ﷺ علىٰ طريق الجزم، إنَّمَا يقال: يُروىٰ عن رسول الله، ورد عن رسول الله كذا، ولا يقال: قال رسول الله ﷺ كذا.

ثانيًا: ألَّا يُبنىٰ عليه حُكْم مستقلٌّ، وإنَّما الأحكام تُبنىٰ علىٰ الأدلة الصحيحة، فلا

يُبنىٰ عليه حكم مستقلٌّ من تحليل أو تحريم.

ثالثًا: أن يكون ذكره بمجال الوَعْظ والتذكِير فقط، يُذكر علىٰ سبيل الوَعْظ والتذكير فقط؛ لأن الوعظ والتذكير مطلوبان.

وشرط رابع أيضًا: وهو ألَّا يكون ضعيفًا شديد الضعف.

❑ سؤال: هل هناك هجرة في عصرنا هذا، وإذا كان فلابدّ من مسكن ومأكل ولا يمكن أن يحصل هذا...

الجواب: الْهجرة باقية، يقول الرسول ﷺ: «**لا تنقطع الْهجرة حَتَّىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حَتَّىٰ تَخرج الشمس من مغربها**»(١). الْهجرة باقية، فإذا كان لا يقيم دينه فِي مكان، فإنه يذهب إِلَىٰ المكان الذي يتمكَّن فيه من إقامة دينه مع المسلمين، وإذا قُدر أنه ما يقدر علىٰ أنه يذهب لبلاد المسلمين، يذهب إِلَىٰ البلاد الَّتِي يتمكَّن فيها من إقامة دينه ولو كان البلد بلد كُفْر؛ لأن بعض الشرِّ أهون من بعض. والصحابة هاجروا إِلَىٰ الحبشة وهم نصارىٰ؛ لأنَّهم يقدرون علىٰ إقامة دينهم هناك، ويسلمون من أذىٰ الْمُشركين. والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. وإذا كان هناك بلاد فيها أقلية إسلامية أو مسلمون كثيرون، فإنه يذهب ويصير معهم ولو كانوا فِي بلاد كفَّار، إذا لَمْ يتمكن من بلاد المسلمين، فإنه يخفف الشرَّ مهما أمكن.

❑ سؤال: فضيلة الشيخ: بعض الناس عندما يبني بيتًا جديدًا يذبح عند عتبة الباب تبرّكًا وردًّا للعين، وهو يجهل أن هذا من الذبح لغير الله الذي هو الشرك، فهل هذا يكفر؟

الجواب: هذا يُؤمر بالتوبة، يُقال له: هذا شِرْك عليك التوبة إِلَىٰ الله؛ لأن مَنْ فَعَلَ الشِّرك فهو مشرك.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧١)، والبزار (١٠٥٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف.

❏ سؤال: فضيلة الشيخ: هذه امرأة تسأل وتقول: إن الطبيب أخبرها أن الحمل في المستقبل سوف يؤثر على وظائف الكبد، وسوف يؤثر على عظامها، وأخبرها أنّها تمتنع عن الحمل ولو في وقت...، فهل يجوز لها ذلك؟

الجواب: إذا قرر طبيبان ثقتان أن الحمل فيه خطر عليها، فإنها تعمل ما يمنع الحمل؛ لقوله ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**»[(١)]، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالمهمُّ ثبوت هذا.

❏ سؤال: هل يجوز الخروج للجهاد دون موافقة الوالدين؟

الجواب: لا يَجوز الخروج للجهاد إلا برضا أبيك وأمّك؛ لأن النَّبِي ﷺ جاءه رجل يريد أن يُجاهد، فقال له: «**أَحَيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»[(٢)]. فلابد من رضا الوالدين.

❏ سؤال: هل يعذر بعض الكفار الآن بالجهل لعدم وصول الإسلام إليهم، وخاصة إذا ولد مولود لأبوين كافرين ولم يعرف شيئًا عن الإسلام؟

الجواب: الإسلام انتشر الآن وبلغ المشارق والمغارب، خصوصًا بعد تطور وسائل الإعلام، وصار العالَم الآن كالبلد الصغير، انتشر الإسلام بوسائل الإعلام، القرآن أصبح يُتلىٰ بأعلىٰ الأصوات فِي جميع القارات، فِي الأول الإسلام بلغ بالجهاد فِي المشارق والمغارب، فلما انقطع الجهاد فِي هذا الزمان وفَّر الله وسائل الإعلام هذه؛ لتقوم الحُجَّة علىٰ الخَلْق؛ لئلا يقول أحد: والله أنا ما دريت ولا سمعت شيئًا.

❏ سؤال: يقول النّبي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٦٥)، والبيهقي (٦/ ٦٩)، وابن ماجه (٢٣٤١)، والدارقطني (٤/ ٢٢٨)، والطبراني (١١٨٠٦) من حديث ابن عباس، وله شواهد من عدد من الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤) و(٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩).

النار إلا واحدة...»[١]. الحديث، السؤال: كيف نوفّق بين هذا الحديث وبين وجود العديد من الفرق يتعدّى الثلاث والسبعين فرقة؟

الجواب: هذه أصول الفِرَق، ثُمَّ إنها تشعبت وتفرَّقت فِرَقًا كثيرة، لكن أصولها ثلاث وسبعون فرقة، كما أخبر النَّبِي ﷺ.

❏ سؤال: كيف يكون الجهل بالله سببًا للشرك بالله؟

الجواب: الجهل بالله سبب لكلِّ شرٍّ من الشرك وغيره، فلابد من معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقِّه علينا، وما أوجبه علينا وما حرَّمه علينا، لابد من معرفة هذا معرفة تامة.

❏ سؤال: هل يؤخذ من تعبد النّبي ﷺ في الغار العزلة في هذا الزمن الذي كثر فيه الشرك، وقلّ الإيمان وطلب العلم والتطفّل على العلماء، وهل توصون بهذا؟

الجواب: العلماء قسموا العُزْلة إِلَىٰ قسمين:

القسم الأول: الإنسان الذي يخالط الناس من أجل الدعوة إِلَىٰ الله ومن أجل التعلُّم، هذا لا تَجوز له العُزْلة، بل يَجب عليه أن يُعلِّم الخير وأن يدعو إِلَىٰ الله، وأن يخالط الناس من أجل التأثير عليهم ونصيحتهم، فلا يَجوز له العُزْلة.

القسم الثاني: الذي ليس له تأثير ولا له فائدة، إذا خالط الناس -بل هو- يتضرر، فهذه العزلة خير له؛ لأن اختلاطه بالناس لا يفيده، ولا يفيد الناس أيضًا.

❏ سؤال: ما رأيكم فيمن يصف مؤلّفات الإمام المجدّد محمّد بن عبد الوهاب في الفقه والعقيدة ويقول: هي فيها تكرار؟

الجواب: هذا بين أمرين:

إما إنه جاهل لَمْ يكن درسها ولا يدري عنها، والواجب عليه قبل أن يحكم علىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٠٨)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أَبِي عاصم فِي «السنة» (٦٤)، وأبو يعلى (٤١٢٧) من حديث أنس.

الشيء أن يدرسه أولًا ويعرفه، ولا يحكم عليه وهو يَجهل.

الأمر الثاني: أن يكون عنده ضلال، وهذه الكتب تُنْكر عليه ضلاله، وهذا الظاهر أنه مريض وهو يكره الدواء، لكن نسأل الله له الْهِدَاية، ونُوصيه بأنه يقرأ هذه الكتب بتمعُّنٍ، ويسأل عَمَّا أشكل عليه...

والحمد لله رب العالمين.

الرسالة الثامنة

بعض فوائد سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعض فوائد من سورة (الفاتحة)

قال شيخ الإسلام الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه آمين:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾.

الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، صلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

هذه الرسالة تختصُّ ببيان فوائد سورة الفاتحة، هذه السورة العظيمة، سُميت بالفاتحة؛ لأنها افتُتح بها المصحف الشريف، فهي أول سورة فيه، وتُسمَّىٰ بالسبع المثاني؛ لأنها سبع آيات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر:٨٧]، فهي السبع المثاني.

وقيل: سُميت بالمثاني؛ لأنها تُكرر قراءتها في كل ركعة، وتسمىٰ أم القرآن؛ لأن أم الشيء: الأصل الذي يرجع إليه الشيء، القرآن يرجع في معانيه إلىٰ ما تضمنته هذه السورة، وتُسمىٰ بالصلاة؛ لقول النَّبي ﷺ في الحديث الذي يرويه عن ربه، أن الله -جل وعلا- يقول: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**» يعني: الفاتحة؛ «**فإذا قال:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، **قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، **قال الله: أثنىٰ عليَّ عبدي، وإذا قال:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قال الله: مجدني عبدي، فإذا قال:**

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قال: هذا بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل**»(١).

وسورة الفاتحة سبع آيات؛ ثلاث آيات ونصف منها لله، ثناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وثلاث ونصف منها للعبد، من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلىٰ آخر السورة.

فهذا معنىٰ قوله -جل وعلا-: «**قسمت الصلاة**» يعني: سورة الفاتحة؛ «**بيني وبين عبدي نصفين**».

وتُسمَّىٰ بالكافية، وتُسمَّىٰ بالرقية؛ لأن النفر من الصحابة الذين نزلوا علىٰ حيٍّ من أحياء العرب استضافوهم فلم يضيفوهم، فلُدغ كبيرهم، فجاءوا يطلبون من الصحابة الرقية.

فقال أحد الصحابة: إننا نرقي ولكن أبيتم أن تضيفونا، فلا نرقي إلا بِجُعلٍ -يعني: بأجرة- فشرطوا لهم قطيعًا من الغنم، فقرأ عليه سورة (الفاتحة)، فقام كأنَّما بُعث من عِقَال.

فلما قدموا علىٰ النبي أخبروه بما حصل، فقال: «**وما أدراك أنها رقية**»(٢)، فتسمىٰ بالرقية.

وهي سورة عظيمة، يدل علىٰ عظمتها أن الله جعل قراءتها ركنًا من أركان الصلاة، وأنها تُكرر في كل ركعة، فهذا يدل علىٰ عظمة هذه السورة.

وهي تتضمن معاني جليلةً، ففيها أنواع التوحيد الثلاثة في أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه توحيد الربوبية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذا فيه توحيد الأسماء والصفات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا فيه توحيد العبودية، فتضمنت إذن أنواع التوحيد الثلاثة.

وتضمنت نوعي الدعاء؛ لأن الدعاء علىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

دعاء العبادة: هو الثناء علىٰ الله -جل وعلا- وذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

ودعاء المسألة: وهو طلب الحوائج من الله -جل وعلا- فهذا موجود فيها ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ كله طلب ودعاء، ولذلك يُستحب بعد الفراغ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٥٧٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

من قراءتها أن يقول: (آمين) أي: اللهم استجب، والتأمين إنَّمَا يكون علىٰ دعاء، وسورة الفاتحة دعاء كلها، دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وفيها: إثبات الرسالات، وذلك لأن مقتضىٰ قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والربُّ هو الذي يُصلح عباده ويربيهم، ومقتضىٰ تربيتهم أن يرسل إليهم الرسل لهدايتهم وتربيتهم، وهذا من مقتضىٰ الربوبية، ومن مقتضىٰ الهداية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لا يمكن الاهتداء إلىٰ الصراط المستقيم إلا بالرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ففيها إثبات الرسالات.

وفيها: الردُّ علىٰ جميع الطوائف المنحرفة، ففيها الردُّ علىٰ الملاحدة الذين يُعطِّلون الكون من خالقه، وفيها الردُّ عليهم بإثبات أن هذا الكون له ربٌّ خلقه وهو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والربُّ معناه: الخالق المربي لجميع الخَلْق بالنعم، والمُصلح والمالك، كل هذه تدخل في معاني الربِّ ﷻ، ففيها الردُّ علىٰ الملاحدة المُعطلة.

وفيها: الردُّ علىٰ المشركين الذين يعبدون غير الله ﷻ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حيث إن فيها إخلاص العبادة لله، ففيها الردُّ علىٰ المشركين الذين يعبدون مع الله غيره.

وفيها: الردُّ علىٰ طوائف هذه الأُمة التي اشتطَّت عن طريق الحق، كالجهمية والمُعتزلة والأشاعرة الذين ضلوا في باب القضاء والقدر، والردُّ علىٰ نُفَاة الصفات، المُعطِّلة الذين عطَّلوا الأسماء والصفات من جهمية ومعتزلة وأشاعرة وماتُريدية وغيرهم، كل مَنْ نفىٰ الصفات أو نفىٰ شيئًا منها، فهذه السورة ترد عليهم.

وفيها: إثبات البعث ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويوم الدين: هو يوم الحساب؛ لأن الدين هنا معناه: الحساب، ويوم الدِّين هو يوم القيامة، سُمِّي يوم الدين؛ لأن الله يُحاسب عباده ويُجازيهم علىٰ أعمالهم.

وفيها: الردُّ علىٰ اليهود وهم المغضوب عليهم، ومَنْ سار علىٰ نهجهم من كل عالِم، لا يعمل بعلمه.

وفيها: الردُّ علىٰ النصارىٰ الذين يعبدون الله علىٰ غير هُدًىٰ.

ففيها: الردُّ علىٰ كل مبتدع يعبد الله بغير دليل من النصارىٰ وغيرهم؛ لأن الضالَّ: هو الذي يعبد الله علىٰ غير هُدًىٰ.

فالنصارىٰ والمبتدعة والخُرافيون كلهم يدخلون تحت الضالين؛ لأنهم يعبدون الله بالبدع والمحدثات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

كما أن فيها الرد علىٰ علماء الضلال الذين يُحرفون الكلم عن مواضعه، ويعملون بأهوائهم، ويُحرفون النصوص ويؤولونها علىٰ غير مراد الله ﷻ لتتوافق علىٰ أهوائهم، وفي مقدمة هؤلاء اليهود وكل مَنْ سار علىٰ نهجهم.

كما أن في مقدمة المبتدعة النصارىٰ، ولهذا يقول بعض السلف: مَنْ ضلَّ من علمائنا ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومَنْ ضلَّ من عبادنا ففيه شَبَهٌ من النصارىٰ.

فالواقع أن هذه سورة عظيمة، وسيتكلم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن فوائدها المُهمة.

هذه الآيات الثَّلاث تضمَّنت ثلاث مسائل:

الشَّرح

الثلاث آيات التي تلاها في أول الرسالة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تضمنت ثلاث مسائل.

الآية الأولىٰ: فيها المحبَّة؛ لأنَّ الله مُنْعِم، والمُنْعِم يُحَبّ علىٰ قَدْر إنعامه.

الشَّرح

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحمد لله علىٰ ماذا؟ علىٰ نعمه، فهو يُحمد ﷻ لذاته ولأسمائه وصفاته ولأفعاله، فهو المُنعم علىٰ عباده، فكل منعم فهو يُحمد علىٰ قدر ما أنعم، وهذا يقتضي أن يُحَب؛ لأن النفوس جُبلت علىٰ حُبِّ مَنْ أحسن إليها، والله -جل وعلا- هو المحسن وهو المنعم وهو المتفضل علىٰ عباده، فتحبه القلوب علىٰ نعمه، وعلىٰ فضله وإحسانه محبة لا يعادلها محبة.

ولذلك كانت المحبة أعظم أنواع العبادة، فالحمد لله رب العالمين تتضمن المَحبة. وسيذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المحبة علىٰ أربعة أنواع:

النوع الأول: محبة شركية، وهي محَبة الأصنام والأوثان وكل ما يُعبد من دون الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]؛ لأن محبتهم مَحبة توحيد وإخلاص.

النوع الثاني: مَحبة مُحرمة، وهي مَحبة ما يبغضه الله ﷻ من الممنوعات والمَنهيات والمُحرمات، ومن ذلك مَحبة المُشركين ومَحبة الكفار.

النوع الثالث: مَحبة طبيعية، وهي مَحبة الإنسان لأولاده ولأبويه ولزوجته ولأصدقائه، هذه مَحبة طبيعية، لا يؤاخذ عليها الإنسان.

النوع الرابع: مَحبة واجبة، وهي مَحبة أولياء الله، وهي المحبة في الله والموالاة لله عَزَّوَجَلَّ كل هذا داخل في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمحبَّة تنقسم إلىٰ أربعة أنواع: محبَّة شرْكيَّة: وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٥- ١٦٧].

الشَّرح

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شُبهاء ونظراء لله عَزَّوَجَلَّ، فكل ما عُبد من دون الله فقد اتُّخذ ندًّا لله، وشبيهًا لله عَزَّوَجَلَّ، وعديلًا لله عَزَّوَجَلَّ، والمشركون يُحبون معبوداتهم مَحبة شديدة، ولذلك يموتون دونها ويقتلون دونها، ولو كانوا لا يحبونها ما قاتلوا دونها، لكن يتمسكون بها ويحبونها؛ لأنها أُشربت في قلوبهم -والعياذ بالله. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر:٤٥]. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

لأن المُشركين يُحبون الله مَحبة مشتركة بينه وبين غيره، وأما مَحبة المؤمنين لله فهي مَحبة خالصة، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[البقرة:١٦٥].

يقول -جل وعلا-: لو يعلمون ما سيئولون إليه يوم القيامة مع مَنْ عبدوهم لكان لهم حال آخر؛ لأنَّهم في يوم القيامة، يتبرأ المتبوعون من الأتباع، ويكذبونهم ويقولون: نحن ما أمرناكم بعبادتنا، ولا علمنا أنكم تعبدوننا ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة:١٦٦] والأسباب هي المحبة -كما يقول ابن عباس- التي كانت في الدنيا بينهم وبين معبوداتهم انقطعت، بعد أن كانوا يتحابون في الدنيا صاروا يتلاعنون في الآخرة ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[العنكبوت:٢٥].

أما الذين عبدوا الله وأخلصوا له العبادة؛ فإن الله -جل وعلا- يتولَّاهم في الآخرة

ويكرمهم ويدخلهم الجنة.

هذا مآل المُؤمنين في الآخرة، وذاك مآل المُشركين في الآخرة، وإن كانوا في الدنيا يتمسكون بعبادة تلك المَعبودات، ويقاتلون دونها ويستميتون ويُزهقون أنفسهم دفاعًا عنها، فإنها يوم القيامة ستنقلب هذه المودة وهذه الصلة، تنقلب عداوة وقطيعة -والعياذ بالله-، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧] ما يبقىٰ إلا المودة بين المتقين؛ لأنها مؤسسة علىٰ أساس صحيح، تبقىٰ في الدنيا والآخرة، أما المودة التي بين الكفار والمشركين؛ فإنها تنقطع وتنقلب إلىٰ عداوة.

❀❀❀

المحبَّة الثانية: حبّ الباطل وأهله، وبُغض الحقّ وأهله، وهذه صفة المنافقين.

الشَّرح

النوع الثاني: محبة الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله، هذه صفة المنافقين، فإنهم يحبون الباطل ويكرهون الحق، يحبون الكفار ويبغضون المؤمنين.

والنفاق: هو إظهار الإسلام وإبطال الكفر.

وعلامة المنافقين: أنَّهم يُحبون أهل الباطل ويبغضون أهل الحق، فإذا رأيت مَنْ يُبغض أهل الحق خصوصًا صحابة رسول الله ﷺ، ويُبغض علماء الأُمَّة وأئمة المسلمين، فاعلم أنه منافق، وإن كان يُظهر الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله في الظاهر، لكنه في الباطن ملحد كافر يتستر بالإسلام وبالشهادتين، وإلا فهو كافر في الدرك الأسفل من النار.

❀❀❀

المحبة الثالثة: طبيعيَّة، وهي محبَّة المال والولد، إذا لم تُشغل عن طاعة الله ولم تُعن على محارمِ الله فهي مباحة.

الشَّـرح

الثالثة: محبة طبيعية، أي: مطبوع عليها الإنسان ومفطور عليها، يُحب الإنسان أقاربه، يُحب أولاده، يُحب أصدقاءه، يُحب مَنْ أحسن إليه، هذه مَحبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان إلا إذا قدمها علىٰ مَحبة الله ورسوله، فإنه حينئذٍ يأثم ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]. فإذا قدَّم محبة هذه الأشياء على ما يُحبه الله ورسوله، فإنه متوعَّد بهذا الوعيد.

والمحبة الرابعة: حبُّ أهل التَّوحيد وبغض أهل الشِّرك، وهي أوثق عرىٰ الإيمان، وأعظم ما يَعْبد به العبد ربه.

الشَّـرح

المحبة الرابعة: محبة أولياء الله وبُغض أعداء الله، فهذه هي المُوالاة في الله والمعاداة في الله، فيحب أهل التوحيد ويبغض أهل الشرك، هذا أوثق عُرَىٰ الإيمان، وهذا هو الحبُّ في الله والبغض في الله، هذا هو الولاء والبراء. وهذا من أصعب الأمور علىٰ الإنسان، فإن كان يُحب أهل التوحيد ويُواليهم، ويبغض أهل الشرك ويعاديهم، فهذه علامة الإيمان الراسخ.

الآية الثانية: فيها الرَّجاء.

الشَّرح

الآية الثانية من سورة الفاتحة وهي: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيها الرجاء، رجاء رحمة الله ﷻ؛ لأنه إذا كان رحمن رحيمًا، فإنه تُرجى رحمته ﷻ.

والآية الثالثة: فيها الخَوْف.

الشَّرح

الآية الثالثة: وهي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيها التخويف من هذا اليوم، والإدانة يوم القيامة بالأعمال السيئة، ففيها الخوف.

فالآية الأولى فيها محبة الله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والثانية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيها الرجاء، رجاء رحمة الله، والثالثة فيها الخوف من عقاب الله ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة: المَحبة والرجاء والخوف فهي أساس العبادة.

أما مَنْ أخذ بواحدة منها فقط فإنه يكون ضالًّا، فمَنْ عبد الله بالمَحبة فقط ولا يَخاف ولا يرجو، فهذه طريقة الصوفية الذين يقولون: لا نعبد الله خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، وإنَّما نعبده لأننا نحبه.

وهذا ضلال -والعياذ بالله-؛ لأن الرسل والملائكة أفضل الخلق، يخافون الله ويرجونه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ الرسل يخافونه ويرجونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، هؤلاء كما جاء في التفسير: أنَّهم العزيز وعيسى وأمه الذين كان يعبدهم المشركون، هم عباد يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، فكيف يُعبدون مع الله؟!!

ومَنْ عبد الله بالرجاء فقط فهو من المرجئة الذين يعتمدون على الرجاء، ولا يَخافون من الذنوب والمعاصي.

يقولون: الإيمان تصديق في القلب، أو التصديق بالقلب مع النطق باللسان.

ويقولون: الأعمال إنَّما هي مكمِّلات، وهذا ضلال -والعياذ بالله-؛ لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد، لا يكفي واحد من هذه الأمور، لا بد منها جميعًا، ليس قولًا فقط، ولا عملًا فقط، ولا اعتقادًا فقط، بل لا بد من هذه الأمور الثلاثة حتَّى يتحقق الإيمان، ومن عَبَدَ الله بالخوف فقط، فهو على طريقة الخوارج الذين يعبدون الله بالخوف، فيأخذون

بنصوص الوعيد فقط، ويتركون نصوص الوعد والمغفرة والرحمة.

فهذه طوائف الغُلاة: الصوفية والمرجئة والخوارج.

أما طريق الحق فهو الجمع بين هذه الأمور: المحبة والخوف والرجاء.

هذا هو الإيمان، وهذه طريقة المؤمنين، وهذا هو التوحيد. وهذا ما جمعته هذه الثلاث ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه فيها المَحبة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذه فيها الرجاء ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه فيها الخوف.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: أعْبُدك يا رب بما مضىٰ، بهذه الثلاث: بمحبتك، ورجائك، وخوفك.

الشَّرح

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نعبده بهذه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء؛ لأنها لا تتحقق العبادة إلا بها؛ أي: بمجموع الثلاثة.

فهذه الثلاث أركان العبادة، وصرفها لغير الله شرك.

الشَّرح

أي: مَنْ أحب غير الله فهو مشرك، مَنْ رجا غير الله فهو مشرك، مَنْ خاف من غير الله فهو مشرك.

وفي هذه الثلاث الردُّ علىٰ من تعلَّق بواحدة منهن، كمن تعلَّق بالمحبَّة وحدها.

الشَّرح

وهم الصوفية.

أو تعلَّق بالرجاء وحده.

الشَّـرْح

وهم المرجئة.

أو تعلَّق بالخوف وحده.

الشَّـرْح

وهم الخوارج والوعيدية، يسمَّون الوعيدية؛ لأنهم أخذوا نصوص الوعيد فقط.

فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك.

وفيها من الفوائد: الرد على الطوائف الثلاث التي كل طائفة تتعلَّق بواحدة منها، كمن عبد الله تعالىٰ بالمحبَّة وحدها.

وكذلك من عَبَدَ الله بالرجاء وحده كالمرجئة.

الشَّـرْح

والمُرجئة: سُموا مرجئة؛ لأنهم أرجئوا الأعمال، أي: أَخَّروها عن مسمَّىٰ الإيمان؛ لأن الإرجاء معناه: التأخير ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف:١١١، والشعراء:٣٦] **يعني: أَخِّر** شأنه وانظر فيه، فالإرجاء معناه: التأخير، سُمُّوا مرجئة؛ لأنهم أخروا الأعمال عن حقيقة الإيمان، وأخرجوها من حقيقة الإيمان.

وكذلك من عبد الله بالخوف وحده كالخوارِج.

الشَّرح

الخوارج: هم الذين خرجوا علىٰ ولاة المسلمين وكَفَّروهم، وهم يعتمدون علىٰ نصوص الوعيد، ويكفِّرون بالكبائر التي دون الشرك، ويقولون: مَنْ مات عليها فهو مُخلَّد في النَّار.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الألوهيَّة وتوحيد الرُّبوبيَّة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها توحيد الألوهيَّة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الرُّبوبيَّة.

الشَّرح

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بأفعال العباد التي شرعها لهم؛ لأن الألوهية معناها العبادة، والعبادة من أفعال العباد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الربوبية؛ لأن الإعانة من أفعال الربِّ سبحانه، وتوحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فيها الرَّدُّ علىٰ المُبْتدعين.

وأما الآيتان الأخيرتان ففيهما من الفوائد ذِكْر أحوال النَّاس.

الشَّرْح

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾: الهداية علىٰ نوعين: هداية دلالة وإرشاد، ودلالة توفيق وتسديد.

ودلالة الهداية والإرشاد هذه حاصلة لجميع الخَلْق المؤمنين والكفار والمشركين؛ لأن الله دلَّهم وأرشدهم إلىٰ طريق الحق، لكن الكفار لم يقبلوا، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧].

هديناهم: يعني: بيَّنا لهم، فالله هدىٰ جميع الخَلْق هداية البيان والإرشاد.

النوع الثاني: هداية التوفيق وقبول الحق، وهذه خاصة بالمؤمنين، فأنت تسأل الله نوعي الهداية.

والمستقيم: يعني: المعتدل، وصراط الله المستقيم، يعني: معتدل، بخلاف طرق الضلال، فإنها ملتوية ومنحرفة ومتعرجة تُضيع مَنْ سار عليها، أما صراط الله فهو واضح معتدل، مَنْ سار عليه أفضىٰ به إلىٰ الجنة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فأنت تسأل الله أن يهديك هذا الصراط.

قَسَّم الله تعالىٰ النَّاس ثلاثة أصناف: مُنْعَم عليه، ومَغْضُوب عليه، وضالّ .

الشَّرح

الناس؛ إما منعَم عليهم، وإما مغضوب عليهم، وإما ضالون، فالمُنعَم عليهم هم الذين أخذوا العلم والعمل، والمغضوب عليهم هم الذين أخذوا العلم وتركوا العمل، والضالون هم الذين أخذوا العمل وتركوا العلم.

أنت تسأل الله أن يجعلك مع المنعم عليهم، وأن يُجنِّبك طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، وهذه سورة عظيمة؛ ولذلك فرضها الله عليك في كل ركعة لماذا؟ لأجل ما فيها من هذه الأسرار.

فالمَغْضُوب عليهم: أهل علم ليس معهم عمل.

الشَّرح

وهم اليهود ومَنْ سار معهم في هذا المضمار من هذه الأُمة، الذين تعلموا ولم يعملوا بعلمهم.

والضَّالون: أهل عبادة ليس معها علم.

الشَّرح

منهم الصوفية المبتدعة والمُخرِّفون، كلهم يدخلون في الضالين؛ لأنهم يشتغلون بالعبادة ويتركون العلم، يقولون: العلم يشغلك عن العمل.

وإذا كان سبب النُّزول في اليهود والنَّصارىٰ، فهي لكل من اتَّصف بذلك.

الشَّـرح

إن كان سبب نزول: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في اليهود، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في النصارىٰ، فالعِبْرَةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولهذا يقول بعض السلف: مَنْ فسد من علمائنا ففيه شَبَه من اليهود، ومَنْ فسد من عبادنا ففيه شَبَه من النصارىٰ.

الثالث: من اتَّصف بالعلمِ والعمل وهم المُنْعَم عليهم.

الشَّـرح

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[النساء:٦٩]. هؤلاء هم المُنعم عليهم، فإذا أردت أن تكون معهم فاجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

وفيها من الفوائد: التَّبَرُّؤ من الحَوْل والقوة؛ لأنه مُنْعَم عليه.

الشَّرْح

وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾؛ لأن هذا فضل من الله ليس بحولك ولا بقوتك، توفيقك للعلم النافع، وتوفيقك للعمل بالعلم هذا من الله، لو شاء رَبُّك لكنت مع المغضوب عليهم أو من الضالين، فالذي أنعم عليك وأخرجك من الطائفتين، وجعلك مع الأنبياء والصديقين والشهداء، هو الله -جل وعلا- هذا ليس بحولك ولا بقوتك وإنَّما بفضل الله ﷻ.

فأنت تُعلق قلبك بالله، وتتبرأ من الحول والقوة إلا بالله ﷻ. يقول ابن القيم:

لو شاء ربُّك كنت أيضًا مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمن

وكذلك فيها معرفة الله علىٰ التَّمامِ ونفْي النَّقائص عنه -تبارك وتعالىٰ-.

الشَّرْح

هذه السورة، إذا تأملت وتدبرتها عرفت الله ﷻ علىٰ التمام، بأسمائه وصفاته ونعمه عليك، فيزيدك هذا إيمانًا ويقينًا.

وفيها: معرفة الإنسان ربَّه، ومعرفة نفسه.

الشَّرح

ومعرفة نفسك أنك ضعيف، وأنك محتاج إلىٰ الله ﷻ، ولهذا تقرأ هذه السورة وتكررها في كل ركعة لأنك بحاجة إليها؛ لأن فيها هذا الدعاء العظيم الذي إذا تقبَّله الله منك سعدت في الدنيا والآخرة، وإذا غفلت عنه ولم تستعمله، فإنه لا ينفعك بشيء.

فهذا مِمَّا يؤكد علىٰ العبد أن يَتدبَّر القرآن؛ خصوصًا هذه السورة العظيمة، يقول ابن القيم:

تدبر القرآن إن رُمْتَ الهدى ... فالعلم تَحت تدبر القرآن

❊❊❊

فإنه إذا كان رَبٌّ فلا بد من مرْبوب.

الشَّرح

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل علىٰ أنه لا بد من ربٍّ خالق ومن مخلوق مربوب، مخلوق لرب العالمين.

❊❊❊

وإذا كان هنا راحِم فلا بد من مرْحوم.

الشَّرح

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذا كان هناك راحم فلا بد من مرحوم، وهو المخلوق، الراحم هو الله، والمرحوم هو المخلوق.

❊❊❊

وإذا كان هنا مَالِك فلا بد من ممْلوك.

الشَّرح

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إذا كان هنا مالك فلا بد من مملوك، وهم العباد وجميع المخلوقات.

✡✡✡

وإذا كان هنا عبد فلا بد من معْبود.

الشَّرح

إذا كان هنا عبد، لا بد أن يكون هناك معبود، وهو الله ﷻ.

✡✡✡

وإذا كان هنا هَادٍ فلا بد من مهديّ.

الشَّرح

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ إذا كان هناك هادٍ وهو الله، فهناك مهديٌّ وهو العبد.

✡✡✡

وإذا كان هنا مُنْعِم فلا بد من مُنْعِم عليه.

الشَّرح

﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذا فيه أن هناك مُنْعِمًا، فلا بد أن يكون هناك مُنْعِم عليه، وهم جميع العباد.

✡✡✡

وإذا كان هنا مغضوب عليه فلا بد من غاضب.

الشَّرْح

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، ومَنْ سار بركابهم مِمَّن تعلموا ولم يعملوا، لا بد أن يكون هناك غاضب وهو الله ﷻ، والغضب من صفاته، فهو يغضب، ويسخط ويَمقت، والمَغضوب عليه والممقوت والمَسخوط عليه هو المَخلوق العاصي المُخالف لأوامر الله ﷻ.

وإذا كان هنا ضالٌّ فلا بد من مُضِلٍّ؛ فهذه السُّورة تضمَّنت الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، ونفي النَّقائص عن الله عَزَّوَجَلَّ.

الشَّرْح

كما سبق أن فيها أنواع التوحيد الثلاثة التي هي توحيد: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، ونفي النقائص والعيوب عن الله ﷻ، وهذا هو التوحيد.

وتضمَّنت معرفة العبادة وأركانها.

الشَّرْح

وفيها المَحبة مع التذلل والرجاء والخوف، فهذه أركان العبادة.

والله أعلم.

الشَّرْح

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مُحَمَّد، وجزاه الله خيرًا علىٰ ما بَيَّن ووضح.

الأسئلة

❑ سؤال: أحسن الله إليكم فضيلة الشيخ، هذا سائل يقول: نقرأ ونسمع عن مرجئة الفقهاء، فأرجو توضيح ذلك؟

الجواب: مرجئة الفقهاء، أو مرجئة أهل السنة: هم الحنفية؛ لأن عندهم أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، وأما العمل فيقولون: إنه لا يدخل في حقيقة الإيمان، لكنه شرط أو مُكمِّل للإيمان، ولذلك سُمُّوا بالمُرجئة؛ لأنهم أخَّروا العمل عن مسمَّىٰ الإيمان، وسُمُّوا بِمرجئة الفقهاء، أو مرجئة أهل السنة، ولا شك أن هذا خطأ، المُهمُّ أنَّهم أخف أنواع المرجئة.

فالمرجئة على أربعة أنواع:

شرُّ الأنواع وأقبحها الجهمية الذين يقولون: الإيمان مجرد المعرفة في القلب ولو لم يُصدق، هذا شرُّ الإرجاء.

الثاني: مَنْ يقول: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب فقط دون النطق باللسان -وهذا قول الأشاعرة.

الثالث: الذين يقولون: الإيمان هو النطق باللسان ولو لم يعتقد القلب -وهذا قول الكَرَّاميَّة.

النوع الرابع: الذين يقولون: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان، وهؤلاء هم الحنفية.

❑ سؤال: هل من الكفر موالاة الكفار؟

الجواب: موالاة الكفار مُحرمة وباطلة، وإذا أحب ما هم عليه من الكفر صار كافرًا.

❑ سؤال: أثابكم الله، سائل يقول: قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الثلاثة أصول: إنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلُّم هذه المسائل الثلاث، هل هذه الثلاث مسائل هي الحدُّ الواجب تعلمه في العقيدة؟

الجواب: هذه من أهم مسائل العقيدة.

□ سؤال: أثابكم الله، البعض مِمَّن يشاهد المُباريات يتأخر عن صلاة الجَماعة، وذلك حَتَّى لا يفوتهم شيء من المُباراة، فهل هذا يقدح في توحيدهم ومحبتهم لله؟

الجواب: نعم، هذا ينقص توحيدهم؛ لأنَّهم قدَّموا مَحبة المباراة علىٰ طاعة الله ﷻ، قدموا مَحبة المُباراة ومشاهدتها علىٰ ما يُحبه الله. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة:٢٤].

□ سؤال: هل التداوي بالرقية وغيرها من وسائل التداوي فيه نقص في الإيمان؟

الجواب: التداوي بالأدوية المُباحة سبب من الأسباب التي يباح تعاطيها، مع الاعتماد والتوكل علىٰ الله ﷻ، فلا يترك الأسباب ويأخذ التوكل فقط، ولا يأخذ الأسباب ويترك التوكل، بل يجمع بينهما، هذا طريق أهل الإيمان الجمع بين فعل الأسباب النافعة مع التوكل علىٰ الله ﷻ، والعلاج سبب مباح.

□ سؤال: بيِّن لنا كيف يكون الجمع بين مَحبة الوالد لأولاده ومحبته لله تعالىٰ؟

الجواب: نعم، إذا تعارضت محبتهم مع محبة الله، وقدِّمت محبتهم علىٰ مَحبة الله، فهذا هو الذي فيه الوعيد، فإذا تركت صلاة الجماعة لأجل طاعة أولادك أو أحد من الخَلْق فقد قدَّمت محبتهم، أو تركت الجهاد في سبيل الله وهو متعين عليك، أو تركت الهجرة من أجل الطمع في الوطن أو في الولد أو في المسكن، فهذا من تقديم محبة هذه الأشياء علىٰ مَحبة الله.

والحمد لله رب العالمين...

محتويات الكتاب

الرسالة الأولى: تفسير كلمة التوحيد

الرسالة الثانية: الجامع لعبادة الله وحده

الرسالة الثالثة: ستة أصول

الرسالة الرابعة: القواعد الأربع

الرسالة الخامسة: نواقض الإسلام

الرسالة السادسة: معنى الطاغوت

الرسالة السابعة: ستة مواضع من السيرة

الرسالة الثامنة: بعض فوائد سورة الفاتحة